

بيجين سيرة حياته

اريك سيلفر

المحتويات

شكر وعرفان

الفصل الاول	: وليد لصهيون
الفصل الثاني	: عند اقدام المعلم
الفصل الثالث	: هروب واعتقال
الفصل الرابع	: الانتقال الى « الجولاج »
الفصل الخامس	: الاتجاه شرقا نحو المقاومة السرية
الفصل السادس	: انتهاء الهدنة
الفصل السابع	: مأساة الاخطاء
الفصل الثامن	: النفس بالنفس
الفصل التاسع	: الخروج من عش « الدباير »
الفصل العاشر	: كما حدث في دير يلسين
الفصل الحادى عشر	: تمرد على السفينة « التالينا »
الفصل الثانى عشر	: اختيار جانب المعارضة
الفصل الثالث عشر	: الخروج من التيه
الفصل الرابع عشر	: التدريب على الحكم
الفصل الخامس عشر	: وحدة أم اخفاق
الفصل السادس عشر	: زلازل جنيف
الفصل السابع عشر	: تجربة ثقة رهيبة
الفصل الثامن عشر	: السلام وفق شروطنا
الفصل التاسع عشر	: معسكر اعتقال فاخر
الفصل العشرون	: منح جائزة قبل الاوان
الفصل الحادى والعشرون	: فرق تسد
الفصل الثانى والعشرون	: خيل الحرب
الفصل الثالث والعشرون	: لا أستطيع الاستمرار
الفصل الرابع والعشرون	: المبيت الذى شيده مناحم

To: www.al-mostafa.com

شكر وعرفان

يسعدني أن أعرب عن امتناني لأسرة مناحم بيجين ، ورفاقه في السلاح ، وزملائه ، والعاملين معه ، ومستشاريه لمشاركتهم لى بذكرياتهم ومعلوماتهم عن هذه الشخصية المعقدة . وأخص بالذكر شقيقته « راشيل هالبرين » التى ساعدت كثيرا فى الكشف عن خلفيته فى السنين الأولى من حياته .

ولقد قدمت لى كل من « سوزان هلتيس رولف » و « يسرائيل ميداد » مساعدة قيمة فى البحث فى المصادر العبرية ، وقد تكرما مشكورين بمراجعة المخطوط قبل الطباعة وتصحيح أى انحراف من جانبى عن الحقيقة . كما قدم « نرومان روز » ، من الجامعة العبرية ، و « ديفيد لاندو » من صحيفة الجيروسالم بوست اقتراحات بناءة فى تعديل نصوص الكتاب .

وقد قام كل من « شارون بارنيت » و « رالف مانديل » بترجمة المقالات من الصحف والمطبوعات العبرية الأخرى . بينما قامت كل من « استرفالينشيا » و « باربرابيرنو » بتفريغ شرائط التسجيل ونسخ المخطوط على الآلة الكتابة على التوالى .

وانتهز هذه الفرصة لأشكر المديرين والعاملين بسجلات دولة اسرائيل ، ومعهد جابوتنسكى ، وإدارة الملفات بصحيفة الجيروسالم بوست ، ومجموعة كويسيل من قصاصات الصحف العبرية بمركز أوكسفورد للدراسات العبرية العليا ، والمركز الصحفى للحكومة الاسرائيلية .

وأخيرا أقدم شكرى الى رئيس تحرير صحيفة « الجارديان » لمنحه اياى اجازة حتى أستطيع انجاز هذا الكتاب ، وإلى عميد وأعضاء كلية سانت كاترين بجامعة أوكسفورد لكرم استضافتهم لى أثناء المراحل الأولى من اعداد هذا الكتاب .

« اريك سيلفر »

الفصل الاول وليد لصهيون

ان مناخم بيجين هو أكثر الرجال ثباتا على المبدأ . . سواء من حيث العقيدة أو الاهداف أو الايمان بأساطيره الخاصة . وبالرغم من أنه أمضى الجزء الأكبر من حياته في اسرائيل ، فان جذور نزعمته القومية اليهودية العنيدة الثابتة ترجع الى مسقط رأسه في « بريست - ليتوفيسك » حيث ولد في ١٦ أغسطس ١٩١٣ ، كان الطفل الثالث والآخر لكل من « زئيف دوف » ، و « هاسيا بيجين » . ولطالما قدم الرجل الذي أصبح فيما بعد رئيسا للوزراء مفروض الولاء والاحترام لفلاديمير زئيف جلوبوتينسكى بصفته « معلمه وأستاذه » ، بيد أن معظم ذكرياته عن النفس ، فضلا عن معظم اشاراته الى مشاعر الكبرياء والاعمال البطولية التي ظل يستشهد بها حتى بعد نصف قرن من الزمان ، يمكن اسنادها الى « زئيف دوف » معلم بيجين ومثله الأعلى . أما « جلوبوتينسكى » فقد أضاف الى ما سبق اطارا أيديولوجيا وتنظيميا ، وأدى فكره المستنير الى اشارة حسب الاستطلاع في بيجين وأصبح بالنسبة له نموذجا يقتدى به في أسلوبه الخطابى ، وبطلا معبودا .

وكانت مدينة « بريست - ليتوفيسك » ، التي تعرف أيضا باسم « بريست » ، واحدة من مدن الحدود الموجودة في أوروبا الشرقية والتي لم يكن من المعروف بالضبط ما هي الدولة التي تتبعها . فقد كانت في العصور الوسطى تقع في صميم دوقية « ليتوانيا » . وخضعت ابان القرن العشرين لحكم روسيا وبولندا وألمانيا . واليوم تعتبر المدينة عاصمة لاقليم « بريست » بجمهورية بيلوروسيا السوفيتية الاشتراكية . وقد نزلت اول جماعة يهودية الى المدينة واستقرت بها خلال القرن الرابع عشر وقامت بدور قيادى في تنميتها وتطويرها لتصبح مركزا للتجارة والمواصلات . وعلى الرغم من أن اليهود مروا بفترات مختلفة تخللها حصولهم على امتيازات وتعرضهم للاضطهاد ، الا أنهم برزوا كمستوردين ومصدرين وملاك للملاضى ومقاولين ورجال علم ودين .

وكانوا يتصفون بالايمان العميق ولكن ايمانهم كان ذا صبغة دنيوية وكانت « بريست » معقلا لجماعة المتناجم الذين كانوا يرفضون التطرف وعندما طرد جميع اليهود الذين رفضوا التحول عن دينهم من ليتوانيا لم يشذ عن القاعدة سوى تاجر واحد فقط اعتنق المسيحية . وقد سمح لبلقى اليهود بالعودة الى المدينة بعد ثمانى سنوات من ذلك التاريخ ،

عندما أعاد المدوق النظر في الموضوع . وأصبح اليهود ، عندما ولد « مناحم بيجين » ، يشكلون ٧٠٪ من سكان المدينة . وبلغ عددهم عام ١٩٣٩ عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، حوالى ٣٠ ألف نسمة . وقد وجد بمدينة « بريست » عندما تم تحريرها من قبضة النازية ، ما يقل عن ١٠ فقط من اليهود . وتفيد دائرة المعارف اليهودية بأن « عدد السكان اليهود (بالمدينة) بلغ عام ١٩٧٠ حوالى ألفى نسمة . ولا يوجد بها معبد حيث تم تحويل آخرها فى عام ١٩٥٩ الى دار لعرض الأفلام » .

وكانت مدينة « بريست » ، التى عاش « مناحم بيجين » شبابه فيها ، مدينة يهودية مزدهرة بالفعل — حتى لو أخذنا فى الاعتبار الملون انوردى الذى قد تضيفه اذاكرة خلال خريف العمر على الذكريات الخاصة بمرحلة الشباب — فهو يذكر أن المدينة : « كانت مليئة بالمعابد والمعاهد الدينية . وكانت هناك مدارس يهودية تستخدم فيها اللغة العبرية للتعليم . وكانت توجد بها حركات شبابية عظيمة تضم آلاف الاعضاء . وكنا نخرج فى عيد « لاج باعومر » (عيد لليهود — ١٨ آيار) الى الشوارع فى استعراضات تضم آلاف الاشخاص الذين يحملون الاعلام الزرقاء والبيضاء والذين يتفخرون بيهوديتهم . وكانت الحياة الثقافية لليهود غنية ، بما تذخر به من صحف ومسارح ، فقد كانت لنا حياتنا المستقلة » .

ويمكن القول بأن مناحم بيجين « كان منذ ولادته صهيونيا بمعنى الكلمة وكانت الحكمة التى أشرفت على ولادته هى جدة « اريل شارون » ، الذى أصبح فيما بعد جنرالا اسرائيليا ووزيرا للدفاع . وقد بعث الصهيونيون المحليون بكعكة على هيئة باقة من الورد فى مناسبة الاحتفال بختانه بعد ثمانية أيام من مولده . وكان « زئيف دوف بيجين » و « ثيودور شينرمان » جد شارون من بين الرواد الاوائل للحركة الصهيونية فى « بريست » عندما كانت تلك الحركة مازالت فى مرحلة النضال من أجل اثبات الذات ، وقد قام « زئيف دوف » و « شيزمان » بكسر باب المعبد الرئيسى فى بريست بالفأس ، بعد وفاة « ثيودور هيرتزل » مؤسس الصهيونية السياسية فى عام ١٩٠٤ ، عندما رفض الحاخام « حاييمك سولوفيشك » السماح لهما بقامة الصلاة على روحه ، وأخذ معه مفتاح المعبد . لقد كان الحاخام يعتبر « هيرتزل » مفرطا فى العلمانية أكثر مما يجب ، ولكن الصهيونيين نجحوا فى اقامة القداس حتى بالرغم من أن ثلاثة أشخاص فقط هم الذين حضروه .

ولقد كان « زئيف دوف » عصاميا ، ولم يتعد مرحلة التعليم الاساسى وهى مرحلة الدراسة الاولى فى احدى المدارس الدينية التقليدية الخاصة بأطفال اليهود ، والتى التحق بها فى سن الثالثة وتركها بعد أربعة عشر عاما وهو يحمل دبلوم الدراسات الدينية . وقد أمضى حياته ملتزما باليهودية

ولكن دون تطرف . وتذكر ابنته «راشيل هالبرين» انه كان يرتدى «التيفلين» (وهى اربطة جلدية شعائرية يرتديها اليهود المتدينون كل صباح حول سواعدهم وجباههم ، ولكنه كان يفعل ذلك عادة داخل المنزل أكثر مما كان يفعله في المعبد . ولم يكن يتلو كل صلوات الصبح والعصر والمساء . ولم يكن يرتدى قبعة داخل المنزل الا عند مباركته للطعام . وكانت لحيته مشذبة كما كان يطلب من اطفاله أن يغسلوا أسنانهم أثناء صيام « يوم كيپور » — على عكس التقليد الارثوذكسى المتشدد — ولكن على شرط أن يحترسوا من ابتلاع الماء . فكان يقول لهم « أنكم اليوم ستكلمون الرب » ، ولذلك يجب أن يكون فمكم نظيفا . وعندما اضطرت « راشيل » ، التى تكبر « مناخم » بخمسة أعوام ، الى التوقيع يوم السبت على بعض الأوراق الخاصة بجامعة وارسو ، قال لها والدها انه يمكنها أن تفعل ذلك دون أن يكون فى ذلك اعتداء على السبت « مؤكدا لها أن المعرفة تعتبر بمثابة مسألة حياة أو موت ، ولذلك فعليك أن توقعى » .

ولقد اطلع — زئيف دوف — لأول مرة على الحضارة الاوربية بعد مغادرته للمدرسة الدينية بوقت وجيز ليكمل فى تجارة الاخشاب مع والده . فقد لمس كاتب حسابات المانى الجنسية يعمل مع والده ما لديه من قدرات ، وشجعه على الهرب للدراسة فى برلين . ولكن سرعان ما ادركه والداه واعاداه اليهما وقاما بتزويجه على غير ارادته . ولم يدم زواجه أكثر من عام انتهى بطلاق « زئيف دوف » زوجته على الرغم من انه رزق منها بابنة . ومضى خمسة وعشرون عاما تقريبا قبل أن يفكر فى الزواج مرة ثانية . وكانت عروسه « هاسيا كروموفسكى » هى ابنة أسرة « ربانية » بولندية . وكان قد بلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما حينما كانت هى فى العشرين من عمرها . ولم تكن تتكلم الا باللغة البولندية ، (وهى لهجة ألمانية قديمة تتخللها كلمات عبرية وسلافية) ، ولكن ذلك لم يحد من تعاطسها للمعرفة ، وتقول ابنتها « راشيل » لقد قرأت أعمال جميع الكتاب العالمين العظام « بالييدية » ، وكانت تتمتع بفضول عميق وذكاء حاد وشخصية قوية . وكانت تواقه طوال الوقت للمعرفة ولا شئ غير المعرفة () . وكثيرا ما كانت تجلر الاخشاب تقود « زئيف دوف » للمسافر الى الخارج ، وبصفة خاصة الى برلين . وتؤكد مسز « هالبرين » : « انه كان من أكثر المحبين للآلمان » . وتقول : « أننى أذكر عندما كنت فى السادسة من عمري ، فى بداية الحرب العالمية الأولى انه كان يصطحبني فى نزهات سيرا على الأقدام ويقول لى « الا تعلمين أن الآلمان قادمون ، ان لهم حضارة مختلفة عن الحضارة الروسية » . وكان يتحدث اللغة البولندية والعبرية والروسية فضلا عن الألمانية . وعندما تعلم أبناؤه اللاتينية فى مرحلة الدراسة الثانوية التقطها منهم . وكان « زئيف دوف » ، مثل أصغر ابنائه ، يحب التشديق بعبارات لاتينية أمام البسطاء . فقد ردد مثلا فى احدى المناسبات عندما طلب منه بعض

اليهود السذج أن يتوسط في خلاف ما عبارة باللاتينية معناها « ان القانون قاس » ولكنه القانون » ، الامر الذى اصاب اليهود بالذعر .

وكان « زئيف دوف » في يهوديته ، يؤمن بمذهب الفعالية . (وهو مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الاجراءات الفعالة أو العنيفة لتحقيق الاغراض السياسية) وكان يرى أن العقيدة اليهودية والقومية اليهودية شيء واحد . وقد غرس في أبنائه الشعور بالفخر ازاء انتمائهم لليهودية . وكانوا أثناء تعليمهم الجامعى يذكرون دائما أن لغتهم الاصلية هى العبرية ، عندما يطلب منهم تحديث لغتهم . وكان أكبر أبناء « بيجين » يرفض التحدث البولندية التى كان يحتقرها بصفتها لغة معادية للسامية (ويرفض «مناحم» أيضا حتى يومنا هذا استخدام تلك اللغة ، بالرغم من أنه تلقى تعليمه في مدرسة ثانوية بولندية ثم في جامعة وارسو) .

وكان « زئيف دوف » يردد دائما على أسماعهم ، ويفرس في عقولهم « المغزى الحقيقى » من قضية « بيليس » التى دار حولها « حملة تشهير دموية » التى وقعت بمدينة « كييف » ، أبان خريف عام ١٩١٣ ، أى علم مولد « مناحم » كان « مينديل بيليس » ، وهو يهودى روسى يبلغ من العمر ٣٧ عاما ، قد قدم للمحاكمة بتهمة قتل ولد مسيحى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما . نفيذا لبعض الطقوس الدينية . وتمت تبرئة « بيليس » بعد أن أمضى عامين في السجن فضلا عن شهر استغرقتة المحاكمة ، بيد أن حملة التشهير استمرت تغذى الحملات المعادية للسامية في جميع أنحاء أوروبا .

وتقول مسز هالبرين : « ان والدنا كان يردد علينا ماقاله محامى « بيليس » لموكله اثناء المحاكمة : اذا حكم عليك بالسجن لمدة ٢٥ عاما في سيبيريا ، مع الاشغال الشاقة ، فعليك الذهاب بشجاعة . فان يهود أسبانيا ذهبوا الى حيث أعدموا حرقا وهم يثشدون « اشهدك يا اسرائيل » (وهى ترنية دينية تتضمن أركان الدين اليهودى) . وعندئذ قال المحلفون : « لقد شاهدنا الله اليهود » . وكان والدنا يروى لنا هذه القصة بتوكيد شديد » .

وثمة محاكمة اخرى كان زئيف دوف ، يشير اليها مرارا . وهى محاكمة الكابتن « الفريد درايفوس » ، اليهودى الفرنسى الذى أدين بالباطل بتهمة الخيانة في سنة ١٨٩٤ . وكان والد بيجين يحمل عصا يعلوها مقبض من الفضة في شكل رأس « أميل زولا » الذى ناصر «درايفوس» وتحتته نص من كتاب زولا : « انى أتهم » . وكان « زئيف دوف » يسير بصحبة أحد الاحبار في أحد الايام عندما حاول عسكري بولندى برتبة رقيب ، أن يطلق ذقن الحبر — الامر الذى كان يعتبر بمثابة « رياضة » محببة منتشرة بين المعلمين للسامية — ويقول « مناحم بيجين » في هذا الصدد :

« لم يتردد والدي في أن يضربه بعصاه على يده . وكانت عملية ضرب
اي رقيب بولندي في تلك الايام تعتبر ايذانا ببدء مذبحه . واعتقل الحبر
والدي ، وسيقا الى النهر حيث هددتهما بالقائهما فيه ، وضربا حتى سالت
دمائهما . وعاد والدي الى المنزل في حالة سيئة ، ولكنه كان سعيدا . وقال
انه دافع عن شرف الشعب اليهودي وعن شرف الحبر . ولذلك فقد انطبع
في ذهني منذ الطفولة شيثان هما : تعرض اليهود للاضطهاد ، وشجاعة
اليهود » (٧) . لقد قدم مناحم بيجين أقصى ما عنده من اجلال وتقدير وعرفان
لوالده عندما قال : « لم اعرف قط رجلا اكثر شجاعة منه . ولقد عملت طوال
حياتي بين اشخاص يتميزون بالشجاعة ، وربما كان هذا قدرا مكتوبا . ومع
ذلك فاني لن انسى ابدا كيف قاتل والدي دفاعا عن الشرف اليهودي » .

وكثيرا ما عانت أسرة بيجين من العوز . وقد عمل « زئيف دوف » في
فترة ما بأحد البنوك ، ولكنه فقد وظيفته عندما كشف لصحيفة تصدر باللغة
الييدية « عن فضيحة مالية » بيد ان الاسرة لم تشهد أياما عصيبة مثل تلك
التي مرت بها ابان الحرب العالمية الأولى وفي اعقابها فقد كلفت مدينة
« بريست » تعتبر مدينة عسكرية ، وكان حكامها الروس يخشون غزو المانيا
لها . ونفى « زئيف دوف » الذي كان يتباهى بميوله نحو ألمانيا ، الى سان
بطرس يورج ثم الى وارسو ، تاركا وراءه زوجته وابناءه بدون عائل . وعندما
تقدم الالمان نحو مدينة « بريست » قام الروس باجلاء جميع السكان عنها
واحرقوها عن آخرها . واصطحبت « هاسيا بيجين » ابنتها وولديها للاقامة
عند احد الاعمام في قرية « دوركيتشين » بالقرب من مينسك بروسيا البيضاء .

وكان المنزل صغيرا ، يكاد يشبه الكوخ . أقامت أسرة « بيجين » في
غرفة واحدة ، وكثيرا ما كانوا يضطرون الى توفير مكان بها لمبيت العمسان
والاعمام القادمين من المدينة . وكان « مناحم » لا يزال طفلا صغيرا آنذاك ،
ولكن شقيقته « راشيل » تذكر احداث تلك الفترة بوضوح . فقد تعرضت
القرية بعد اشهر قليلة لنفس مصير مدينة « بريست » حيث احترقت عن آخرها
عند تقدم الجيش الالمانى نحوها واجبر الفلاحون المحليون على مغادرة القرية ،
وتعرض اليهود للتهديد بالذبح على أيدي جنود الفرسان الروس .

وتقول راشيل عن تلك الفترة :

« لقد سمعنا بكاء القرويين . وقام الروس بطرد جميع المزارعين حتى
لا يعملوا في خدمة الالمان ، والا يزودوهم بالاغذية . واذكر حتى يومنا هذا
صوت نجيب الفلاحين وفجأة اقترب أحد جنود القوزاق من البناذق المغلقة
والمسدل عليها الستائر والخاصة بحجرتنا . وكان ارتفاع النافذة لا يزيد

عن ارتفاع أرجل حصانه ولذلك فلم نستطع رؤيته ، ولكنه طرق بعنف على ابواب وقال صائحا : « من يقيم هنا ؟ زيدى ؟ أم روسى » . وكانت كلمة « زيدى » هى صفة يطلقها الروس على اليهود تحقيرا لهم . وكان عمنا ينكلم باللهجة الروسية ، فاقترب من النافذة ورد عليه قائلا : « روسى » ولا أعرف كيف اسعفته البديهة ، لكن لولا ذلك لقضى القوزاقى علينا » .

لم تستطرد « راشيل » . .

« وفى احدى الليالى ، صدرت إلينا التعليمات بالاتجاه الى الحقول لان القوزاق كانوا يشعلون النار فى قريتنا . وشاهدت بعينى أحد جنود القوزاق وهو يصب البترول ويشعل فيه النار . واتجهنا جميعا الى حقل كبير ، وكان البعض قد بدأوا فعلا فى حفر الخنادق — وكان كل اليهود تقريبا موجودين هناك . وساد الصمت التام ، ولم يسمح لنا بالتفوه بكلمة واحدة . وكان الالمان قد اقتربوا بالفعل ، فقد كانت طلقات مدافعهم على مرمى سمعنا . وعدنا فى الصباح الى منزل عمنا ، فوجدناه قد احترق تماما . فماتجها الى منزل آخر . ووصل الالمان فى الصباح الباكر . كم كانت فرحة اليهود كبيرة برؤية الالمان . لقد كنا جميعا نفتش الارض ، وكنا اعدادا غفيرة . وقبل وصول الالمان كنا مضطرين الى دفع اناوات لجنود القوزاق حتى لا يقضوا علينا . ولكن الالمان عاملوا اليهود معاملة رائعة » .

وبعد فترة قصيرة من ذلك الحين ، تمكن « زئيف » من شق طريقه الى القرية التى يقيم فيها أخوه . وتم لم شمل اسرة « بيجين » فى اعقاب تقدم الالمان وعندما مرت الاسرة ، مرة اخرى ، بأوقات عصيبة ، انتقلت الى قرية أخرى ثم الى مدينة كوبرين . وكان « زئيف دوف » يكسب عيشه عن طريق نسخ الالتماسات باللغة الالمانية للامبراطور . وتستعيد مسز « هالبرين » ذكرياتها عن تلك الايام العصيبة التى مرت بها الاسرة ، فتقول :

« لقد كنا نتضور جوعا ، ونتمنى كسرة عيش » وكنا نحن الخمسة نقيم جميعا فى غرفة واحدة . وكان الالمان — الذين كانت تربطنا بهم علاقات ودية للغاية — يصطحبون أمى كل شهر و يرفقونها الصغير « مناحم » فى قرية يجرها الخيل الى القرية حيث كانت تقوم هى وعمى بقطع الاشجار ، واحضار الاخشاب لنا للتدفئة . وكان والدى يبقى مع الاطفال . وكنت قد أصبحت فتاة كبيرة ، فتوليت رعايتهم . وكنا نحتفل بعودة أمى بعد غيابها الذى كان يمتد لبضعة أيام . اذ كان كل شئ معدا لذلك : لقد كان لدينا الخشب والبطاطس للطهى ، ويرجع الفضل لأمى فى استمرارنا على قيد الحياة ابان تلك الحرب . لقد كانت ذات طبيعة رومانسية ، ولكنها كانت فى الوقت ذاته قوية وتتمتع بشخصية فى غاية القوة » .

وبقيت « بريست » تخضع للحكم الالماني بعد الحرب ، ولكن لم يسمح للسكان بالعودة حتى عام ١٩١٩ . وكان « زئيف دوف » واحدا من أول اليهود العائدين ، نازكا أسرته في « كوبرين » . ومرة أخرى عاد الى نسوخ الالتباسات بالالمانية كوسيلة لكسب العيش . وكانت « راشيل » وباتى الأطفال يرتقبون زيارته الأسبوعية لهم في عطلة السبت بفارغ الصبر .

كما تقول مسز « هالبرين » عن تلك الايام

« كان والدى يمتلك قبة سوداء عالية ، من النوع الذى يرتدى فى المناسبات الرسمية . وفى احدى المرات ، خرج مناحم الصغير من المنزل وراى احدى قريباتنا تجلس على الدرجات ، ومسحة من الحزن تعلو وجهها . فسألها : « لماذا أنت حزينة ياعمة ؟ اليس معك نقود ؟ نحن ايضا لم يكن لدينا نقود ، الا أن ابى اصبحت لديه الآن قبة عالية مليئة بالنقود » . فقد كانت أمى تحتفظ بالنقود فى القبة . لقد كانت ظروفنا قبل ذلك صعبة جدا ، وقد اعتادت أمى أن تضع الولدين بعد ظهر كل خميس فى السرير حتى تستطيع أن تغسل ملابسهما ، ثم تقوم يوم الجمعة بكيها ليرتديها بعد الظهر ويخرجا بها قائلين انهما اصبحا يمتلكان بدلا جديدة لقد كانت أمى قوية جدا ، ولكنها قالت لى انها بكت فى احدى المرات وكان ذلك عندما قام جار غنى بشراء كعكة من المخبز ، ولم يكن فى وسعنا شراء الكعك ، واتجه أخى الصغير اليه وقال : « أرجو أن تسمح لى بشمها ؟ وعندئذ لم تملك أمى منع نفسها من البكاء » .

وتحسنّت الاحوال عندما انضمت أسرة « بيجين » الى « زئيف دوف » فى « بريست » وعين الأب فى منصب سكرتير عام الرابطة اليهودية الامر الذى ضمن له دخلا ثابتا وان لم يكن كبيرا . وعندما بدأ الأطفال الثلاثة يشبون ، ساهموا فى زيادة دخل الأسرة عن طريق اعطاء دروس خصوصية . لقد كان ذلك فى وقت ملء باعادة التشييد والبناء والمؤسسات وشغل « زئيف دوف » فى وقت ما منصب رئيس مجالس ادارة سبع منظمات مختلفة فى وقت واحد . ولكن عندما عاد البولنديون ليحلوا محل الألمان فى حكم المدينة ، اتهموا جميع اليهود بانهم شيوعيون خطرون . ولقد كان بعضهم كذلك بالفعل . وساعد « زئيف دوف » سبعة عشر عضوا من الحزب الشيوعى على التخفى كطلبة فى المعاهد التلمودية وبعثهم الى بلدة « فيلنا » الأكثر أمنا نسبيا . وظل شيوعيو « بريست » لسنوات طويلة بعد ذلك يطفئون سجاثرهم كلما شاهدوه يتهشئ أثناء عطلة السبت ، كرمز على تقديرهم له .

وقد حقق « مناحم » الشاب تفوقا فى العلوم الانسانية اثناء دراسته المتوسطة فى مدرسة بولندية . وتمسك خلال تلك المرحلة أيضا بيهوديته ، فكان يرفض باصرار الكتابة فى أيام السبت . وقد رد مدرس اللغة اللاتينية على

ذلك بأن أعطاه تقديرا بمرتبة ضعيف . وقال « مناحم بيجين » في حديث أدلى به لشاب اسرائيلي ، بعد أربعة عقود من ذلك التاريخ : « لقد قلت للمدرس ان هذه هي معتقداتي ولن أغيرها ، ولن أكتب في عطلة السبت تحت أى ظرف من الظروف . وبعد فترة هدا ومنحنى الدرجات المرتفعة المتى اعتدت الحصول عليها » .

وظل « مناحم بيجين » أرثوذكسيا في معتقداته ، وان لم يبق ملتزما بمعتقداته المتزمنة . فكان يصر مثلا اثناء رحلاته كرئيس وزراء على تناول الطعام الشرعى اليهودى ، بينما اشترك في السير في جنازة أنور السادات التى جاءت يوم السبت . كما انه لم يعد يذهب الى المعبد كل يوم أو حتى كل سبت . وهو لا يخفى انه كان يستمع الى الاذاعة أيام السبت (سواء اذاعة صوت اسرائيل أو اذاعة بى . بى . سى العالية) ومن المعروف انه علم بمذبحة بيروت في سبتمبر ١٩٨٢ من خلال الاذاعة . وكان التزامه الدينى ينطوى على بعض التظاهر ، لا دراهه انه يمثل الحركة التى ينتهى اليها فضلا عن اسرائيل . فقد صام بمناسبة يوم الغفران ، اثناء اعتقال البوليس السرى السوفيتى له . كما انه عندما كان زعيما للمعارضة سنة ١٩٥٣ ، وصل الى جوهانسبرج فى وقت متأخر من يوم الجمعة ، نظرا لمعطل أصاب الطائرة التى اقلته . واصيب خمسة آلاف صهيونى من مؤيديه الذين حضروا لاستقباله بالفزع عندما امتنع عن استخدام السيارة المليموزين التى تنتظره ، وامضى الليلة فى فندق المطار .

وعانى « مناحم » اثناء دراسته بجامعة وارسو ، من هجمات المعادين للسامية له كما عانى من فقره النسبى ، وقد أرسلت الحكومة البولندية له ، بعد توليه رئاسة الوزراء ، « البوما » يحتوى على المستندات الخاصة به والتى كانت محفوظة فى سجلات الجامعة . وحيث انه لم تكن هناك علاقات دبلوماسية قائمة بين بولندا الشيوعية واسرائيل الصهيونية ، فان الهدية وصلته بلا مقدمات من خلال السفارة البولندية فى لندن ومجلس نواب اليهود البريطانيين وقدم « بيجين » جزيل شكره الى البولنديين ، ولكن بالانجليزية . وكانت هناك من بين الخطابات والصور الموضوعة داخل ثلاثة وعشرين مظروفا ، مكتبة تحتوى على التبرير الذى تقدم به طالب الحقوق لعدم استطاعته دفع المصروفات الدراسية فى موعدها ، وتفيد بأن أسرته لاتستطيع اعلته وأنه مضطر لأن يعمل اثناء دراسته ، ووافقت السلطات على طلبه بدفع المصروفات على أقساط .

ويمكن القول ان « زئيف دوف بيجين » كان يتصف دائما بالتهور فى رفضه الخضوع للسلطات الحاكمة ، ايا كانت تلك السلطات . ومن حسن حظه انه نجا سنة ١٩١٤ من السجن أو الموت على أيدي الروس نتيجة لموالاته الصريحة للامان . وتعتقد ابنته ان السبب الوحيد لصفح الروس عنه هو انه

كان يسبب الشطرنج مع الضباط (وهى هواية أخرى ورثها ابنه عنه) . فمتلا ، كان قد التمس فى سنة ١٩٢١ ، بصفته مسئولاً يهودياً ، من « جوزيف بيلسا دسكى » المدير البولندى ، أن يصرف تموين طوارىء للطائفة اليهودية . ورد عليه بيلسا دسكى قائلاً انه سيرسل الطعام الى اليهود ، فى حالة واحدة فقط وهى قيام زئيف دوف ، بافشاء أسماء وعناوين اليهود المتلاعبين بالاسعار . ورمى « بيجين » الطلب فى وجه الماريشال قائلاً له « ان اليهود ليسوا بمخبرين ، وانه يستطيع ان يطلب من بوليسه السرى اداء أعماله القذرة . وعندما وصل النازيون الى « بريست » سنة ١٩٣٩ ، أصر مرة أخرى على حقه فى النكلم نيابة عن اليهود . وسرعان ما أدرك « زئيف دوف » — الذى كان قد بلغ العقد الثامن من عمره — أن هؤلاء الالمان كانوا نمطا مختلفا عن أولئك الذين أعجب بهم ابان شبابه .

ولم ينج من الحرب ، من بين أفراد أسرة « بيجين » ، سوى مناحم وزوجته « اليزا » ، وشقيقته راشيل وزوجها المحامى ، « يهاوشوا » وهلك والمداة وشقيقه « هيرتزل » الذى كان من علماء الرياضيات النابغين . وكذلك هلك طفل « راشيل » الصغير الذى تركته فى رعاية أمها . ومن المعروف أن « هيرتزل » الذى كان يكبر بيجين بثلاث سنوات ، قد تعرض فى سبتمبر ١٩٤٩ لحيلة قاسية لعبها الالمان ضده ، اذ انه كان واحداً من مجموعة من الشباب اليهود الذين أجبروا على الوقوف صفا واحداً ووجهه الى الحائط فى ساحة البسوف . وقد وصف « هيرتزل » « لديفيد جوتان » ، أحد زملاء « مناحم » فى قيادة منظمة « بيطار » — وهى جماعة الشبيبة فى حركة جابوتينسكى — تفاصيل الواقعة وروى له كيف أحاط الجنود بهم وهم يحملون مدافعهم الرشاشة ، ولكن عندما صدرت اليهم الاوامر باطلاق النار ، اطلقوا الرصاص فى الهواء . وعندما سئل « هيرتزل » عما كان يراوده أثناء ترقبه الموت ، رد قائلاً « انه ركز تفكيره فى حل مسألة جبر . ولم يتمكن من حلها حتى انقضت فترة الانتظار .

وتتضارب الروايات عن نهاية « زئيف دوف » ويفضل مناحم الرواية الأكثر درامية :

« لقد قيل لنا أنه غرق فى نهر باج مع خمسة آلاف يهودى آخرين حيث أخذوا الى النهر وفتحت عليهم نيران المدافع الرشاشة من كلا الجانبين . وقال الناجون « ان النهر صبغ فعلاً باللون الأحمر من الدماء المرافقة . وكان والدى ، بصفته سكرتير الطائفة اليهودية ، أول الهالكين . وقيل لنا أن اليهود بدأوا — بمبادرة منه — ينشدون نشيد « هيتاكما »

(وهو النشيد القومي الصهيوني) وكذلك أنشدوا « انى مؤمن » . وهكذا مات والدى » .

وتستعيد راشيل هالبرين هذه الرواية على انها من الاساطير الشعبية :

« ان ما أعرفه ، وهو ما ذكره لى اصدقائى فى بريسك ، أن الألمان أصدروا قانونا يحرم على اليهود دفن موتاهم . وذهب والدى لدفن أحد البهود فى المدافن . واقترب منه أحد الألمان وسأله عما يفعل . فقال بالالمانية انه يدفن أحد الموتى ، فقتله الجندى على الفور . وأنا لا أعرف شيئا عن باقى أسرته . لقد هلكوا مع جميع اليهود الآخرين . ولكننى أعرف كل التفاصيل بشأن أبى . وأنا أعرف اسم اليهودى المتوفى وأنه قد دُفِن بالفعل .

ومهما كانت الحقيقة ، فإن الروايتين كليهما تنطويان على نمط من البطولة تتفق وشخصية « زئيف دوف » ، فهو لم يكن من نوع الرجال الذين يساقون فى هدوء الى غرفة الغاز . ويرى « بيجين » أن الدرس الذى خرج به اليهود من تجربة « الهلوكست » — أو الإبادة الجماعية بالحرق — يتلخص فى التحذير الذى وجهه « جابوتنسكى » الى يهود أوروبا : « اذا لم تضمحوا حدا لشتاتكم فان الشتات — أو الدياسبورا — ستضع حدا لوجودكم » . وقال « بيجين » ، بصفته رئيسا للوزراء ، ان « الهلوكست » كان المحرك الرئيسى وراء كل ما عمله هو وجيله .

« كانت المحنة الحقيقية لحياتنا كيهود هى عدم قدرتنا على الدفاع عن أنفسنا ، على مدى قرون عديدة ، وإبان جيلنا بصفة أساسية . ولا يجب أن يتكرر هذا مرة أخرى أبدا . ولذلك فقد قررنا أن نحمل السلاح وأن نقاتل من أجل التحرير ، حتى يكون لدينا دولة وجيش — أى تكون لدينا وسيلة للدفاع القومى . ان هذا هو الدافع الأول لجميع تصرفاتنا . وان نضمن أمن الدولة اليهودية وان نضمن حرمة وحصانة حدودها ، وهو المحرك الثانى لسلوكنا ، سواء كان ذلك عندما كنا فى المعارضة أو الان ونحن فى الحكم » .

ولا يوجد فرد واحد من صهاينة ما بعد الحرب ، يفكر فى مناقشة هذه النظرية . والامر الذى ينحصر فيه اعتراض البعض هو أسلوب « بيجين » فى تطبيقها ، وتشبيهه جميع اعداء اسرائيل بالنازيين ، وإعادة « الهلوكست » الى الأذهان كتبرير لحرمان عرب فلسطين من تحقيق طموحاتهم الوطنية ، وارهاب السياسة الاجانب والضغط عليهم . لقد خاطر « بيجين » فى بعض الاحيان بالتقليل من شأن المأساة اليهودية ، الامر الذى أعطى منتقدى

اسرائيل ذريعة لانتهاك المحظور والقذف بفكرة « الحل النهائي » في وجهه :
لقد ختمت مذبحه ٦ ملايين يهودى اوروبى على قلب « بيجين » بكراهية
ابدية لكل ما هو المانى . ولقد قاوم ، بصفته زعيما للمعارضة خلال الخمسينيات
والستينيات ، بمرارة وأحيانا بعنف ، فكرة اجراء أى اتصال بين اسرائيل
والمانيا الاتحادية ، حتى تحت حكم « كونراد أدينلور » ، المناهض للنزوية .
وقد حافظ ، أثناء توليه رئاسة الوزراء ، على العلاقات الطيبة مع السياسة
والدبلوماسية الالمان ، فى أضيق الحدود ، وقد حملة ثأرية ، لا داعى لها ،
ضد المستشار هلموت شميت ، كما رفض الادلاء بأحاديث للصحفيين
الالمان أو التحدث بلغتهم . وتعتبر مشاعر العداوة هذه ازاء الالمان
أمرا شائعا بين اليهود البولنديين الذين نجوا من الحرب ، ولكن لا يسع
المرء الا أن يتساءل : هل كانت مشاعر « بيجين » ستصبح بمثل هذا العنف
لو أن « زئيف دوف » لم يعلق كل تلك الامل على المانيا ؟ هل كان الابن يقوم
بتخليد الشعور المؤلم بالاحباط الذى أصيب به والده ؟

بيد أن أخته ، التى كانت فى سن تمكثها من تذكر الجنود الالمان الذين
كانوا يغيثون اللاجئين اليهود فى المريف ابلن حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، تسيطر
عليها مشاعر متضاربة . فهى تعترف انها لا تستطيع حتى يومنا هذا أن
تشعر بالكراهية ، التى « من المفروض أن تسيطر على أى يهودى ازاء
الالمان » . فأتنا أذكر الالمان الاخرين . لقد كانوا يمنحون كل الاطفال
الحلوى والبسكويت . لقد كانوا نوعا مختلفا من الالمان ، وكان الزمن
مختلفا .

الفصل الثاني

عند اقصادام المعلم

كان من المفروض أن تصبح حركة الشباب النى أسسها « جابوتنسكى » والمعروفة باسم « بيطار » والتي يسيطر عليها التيار الصهيونى الذين يدين بالقوة ، هى الحركة التى من الطبيعى أن تستهوى « مناحم بيجين » فى بريست - ليتوفسك . فبعد أن انتهى مناحم من دراسته الابتدائية فى مدرسة مزراحى اليهودية ، التحق بمدرسة ثانوية بولندية ثم بجامعة وارسو حيث حصل على ليسانس فى القانون وان لم يعمل اطلاقا فى هذا المجال . وكان « بيجين » الصغير الحجم يقود أى معركة تقع فى المدرسة أو الجامعة ضد زملائه فى الفصل الذين كانوا يمارسون العداء للسامية ، بأسلوبهم الخاص ، والذي كثيرا ما كان يتسم بالقسوة . بل بلغ بهم الحال أنهم حاولوا فى احدى المناسبات تلطيح شفتيه بدهن الخنزير .

يقول « مناحم بيجين » عن تلك الذكريات :

« عندما كنا نتعرض للهجوم ، كنا ندافع عن أنفسنا . ولم يحدث مطلقا ان خضعنا لهم ولذنا بالفرار . وكنا نعود الى البيت ملطخين بالدماء ومضروبين ، ولكن يسيطر علينا الشعور باننا حافظنا على كرامتنا . وسرعان ما أدركنا ان هؤلاء البلطجية يتصرفون بأسلوب مهذب اذا ما رددنا على ضرباتهم بالمثل » .

ومع ذلك فان مما يدعو الى الدهشة ان أبناء « بيجين » الثلاثة - مناحم وشقيقه هيرتزل وشقيقته راشيل - انضموا الى منظمة « هاشومار هاتزير » التى أصبحت فيما بعد حركة الشباب التابعة لحزب « المابام » اليسارى . وكان « زئيف دوف بيجين » أحد الكبار الذين تبنوا تلك الحركة . ولكن عندما انحرفت حركة هاشومار عن أهدافها كمنظمة كشفية ، واتجهت نحو الماركسية انسحب أبناء بيجين منها . وقال زئيف دوف لابنائيه : « يجب عليكم ان تناضلوا أولا من أجل حريتكم الشخصية ، ويمكنكم ان تدافعوا عن حرية العالم بعد أن تصبحوا أحرارا » .

وقد ظل مناحم عضوا فى منظمة هاشومار لمدة ثلاث سنوات . وذلك منذ ان كان فى سن العاشرة حتى الثالثة عشرة . ثم انضم الى « حركة بيطار » عندما بلغ الخامسة عشرة . ويقول بيجين : « لقد انبهرت بالصهيونية الشاملة لمنظمة « بيطار » ، وبهدفها الاسمى الخاص باقامة دولة يهودية معاصرة على أرض اسرائيل التاريخية . ولقد كانت حركة

« بيطار » تعبر عن كل المبادئ التي تعلمتها من قراءاتي ومن استماعي للآخرين والتي آمنت بصدقها ، ولم يراودني أدنى شك في أن هذه هي الحركة التي أريد أن أخدم الشعب اليهودي من خلالها طوال حياتي .

وبعد عامين من التحاقه بتلك المنظمة ، أى في عام ١٩٣٠ ، استمع بيجين لأول مرة الى خطاب « لجابوتنسكى » ، وقد تأثر به تماما . ويقول « بيجين » :

ان « جابوتنسكى » كان له اكبر تأثير على حياتي . ولقد أخذت بأرائه ، وتلقيت عنه تعاليم الصهيونية . لقد تأثرت حياتي كلها به . ولقد تأثر عملى أثناء انضمامى الى المنظمات السرية وكذلك عملى فى المجال السياسى : فقد أخذت عنه ارادة النضال من أجل تحرير الوطن وكذلك التحليل المنطقى للحقائق فيما يتعلق بالامور السياسية .

بل ان « بيجين » ذهب الى أبعد من هذا . لقد كان « جابوتنسكى » يحظى لديه بما يرقى الى مرتبة التقديس ، وكان زعيما دوليا ، ومع ذلك كان اقرب ما يكون الى صورة الخطيب الصهيونى الناشئ والمقدام من الاقاليم . ويذكر بيجين :

« ان زئيف جابوتنسكى » كان يتمتع بنمط الفكر الشامل الذى لا يظهر الا مرة واحدة على مدى أجيال . لقد كان بمثابة أرسطو أو ليوناردو دافينشى أو مايمونيدس معاصر (وهو فيلسوف يهودى أسبائى قديم) وبمعنى آخر أن هؤلاء كانوا يتفوقون فى عدة مجالات وليس فى مجال واحد فقط . لقد كان جابوتنسكى خطيبا وكاتبا وفيلسوبا وكان رجلا سيلا وجنديا بارزا كما كان ضليعا فى اللغات . ولقد تفوق فى كل هذه المجالات ، ولكنه لم يكن بالنسبة لنا — نحن تلاميذه — مجرد معلم بل انه كان ايضا رمزا لآمالنا .

لقد اعترف حتى الد أعداء « جابوتنسكى » المسيليين — وكانوا كثيرين — بجاذبيته الجماهيرية . وكذلك الحال فيما يتعلق باصالته الفكرية وغزارة كتاباته . بيد أن من المبالغة ان نقارن مستوى عبقريته وعبقرية ليوناردو دافينشى . كان سياسى يتمتع بالقدرة على كسب تأييد لأرائه حتى أولئك الذين ينتمون الى أحزاب صهيونية أخرى . ومع ذلك فلم يحقق أثناء حياته سوى أهداف قليلة . كان ينقصه الصبر الذى يمكنه من كسب الحلفاء ، كما كانت تنقصه أيضا القدرة على التوصل الى الحلول الوسطى . وكان « جابوتنسكى » يرى أن التدرج بمثابة الكثر . . . فكان يريد قيام دولة يهودية ، على أن يكون ذلك فى الحال ، بل انه كان يرفض التفاوض على أقل من ذلك ، حتى لو كان ذلك على سبيل التكثيف .

ان حركة التصحيح التى أسسها جابوتنسكى والتى تعتبر أصل حزب
حريوت الذى تزعمه بيجين فيما بعد ، تميل الى تصويره فى صورة الليبرالى
الطيب على النمط الاوروبى القديم وعلى النحو الشائع ابان القرن التاسع
عشر ، والذى يسمو فوق مستوى اعضاء جماعة « ارجون زفاى ليوى »
الذين يتصفون بالفظاظة ، أى فى صورة الفكر المذهب . ولقد حظيت وجهة
النظر هذه ، على عكس المتوقع ، بتأييد المستعمرين البريطانيين الذين كانوا
قد سجنوه فى بادئ الامر ثم قاموا بنفيه من (الارض الموعودة) . وقد
قابل « هارولد بيلى » مساعد « ايرنست بيفين » لشئون الشرق الاوسط
ابان احلك أيام النضال الصهيونى — قابل جابوتنسكى — فى لندن عام
١٩٤٠ وذلك قبل بضعة اشهر من وفاة زعيم حركة التصحيح . يقول بيلى :

لقد قمت بزيارته فى المكتب المتواضع للمنظمة الصهيونية الجديدة ،
واذكر انى شعرت بنفور بصفة خاصة ازاء اتباعه من البريطانيين . أما
جابوتنسكى نفسه فقد ترك فى نفسى ، على العكس من ذلك ، انطباعا بأنه قوّة
يجب أن يأخذها المرء فى الحسبان ، فوجهت له الدعوة للحضور الى
أوكسفورد ليلقى كلمة فى أعضاء منظمة « تشاثام هاوس » الموجودة هناك .
ولقد تأثروا بلا أدنى شك بطلاقته ، بصرف النظر عن رأيهم فى آرائه . وقد
بدا لى أنه من نوع الجيل الثورى الذى كان موجودا عام ١٨٤٨ — أو أنه
كان شخصية تشبه الى حد بعيد « ميتزين » لكن فى عصر متأخر .

ولو أن « جابوتنسكى » سمع تلك المقارنة لاستسافها كثيرا خاصة
وأنه كان من المعجبين المخلصين بليطاليا وبنهضتها القومية . بيد أن صفة
الليبرالى لا تنطبق عليه تماما . فقد كانت فلسفته تنطوى على جانب مظلم :
الدم والنار والحديد والتسلط ، والانضباط والتمسك بالرسميات . واستغلال
الجاهل ، والتمييز العنصرى بصفته جوهر الامة .

وقد كتب « جابوتنسكى » فى أحد مقالاته الاولى تحت عنوان : « ان
الانسان عدو للانسان » يقول :

« اننا نبني أحيانا آمالا براقة حول الاكذوبة التى تقول بأن شعبا معيناً
قد عانى الكثير ولذا فإنه سيتعاطف مع آلام شعب آخر ويشعر بها . وأن
ضميره لن يسمح له بأن يبتلى الشعب الاضعف بما ابتلى به من قبل . . . ولكن
الواقع يؤكد أن هذه مجرد كلمات منمقة جوفاء . . . والكتاب المقدس فقط هو
الذى يقول لنا « أن الحاق الظلم بالغريب يعتبر اثماً فانكم تعرفون شعور الغربة
حيث أنكم كنتم غرباء فى أرض مصر . . . ان مثل هذه المثل الانسانية انطوفلية
لا محل لها فى الاخلاقيات المعاصرة » .

وبالمثل ، يمكن القول أن الليبرالية المعاصرة لا تتسع لمثل هذه الواقعية الصارخة ، حتى وإن كان « جابوتنسكى » يصدر حكمه بناء على العالم الذى يراه حوله . وما قولنا فى تأكيده « ليست هناك قيمة فى العالم أعلى من الامة والوطن » ، أو قوله « ان أسمى ما يمكن أن يحققه جمهور من البشر الأحرار هو ان يستطيعوا العمل معا فى دقة وتلسق مطلق مثل الآلة » ، وأنه « بدون الطقوس والشكليات لا توجد حرية » ، ما قولنا فى هذه الافكار ؟ ربما كانت نظرة « جابوتنسكى » المتشائمة ازاء الجنس البشرى لها ما يبررها (وقد استطاع أن يتكهن من خلالها بوقوع الهلوكوست) ولكنها على أى الحال تعتبر أبعد ما يكون عن الليبرالية . وهذا ينطبق بالمثل على موقفه من العرب الفلسطينيين ، حتى على الرغم من أنه لم يسع الى طردهم .

لقد كتب سنة ١٩٢٣ يقول :

« من المستحيل أن نتصور امكانية التوصل الى اتفاق تلقائى بيننا وبين عرب أرض اسرائيل .. سواء كان ذلك الآن أو فى المستقبل المنظور .. ان كل أمة سواء كانت متحضرة أو بدائية تؤمن بأن أرضها هى وطنها القومى ، الذى تريد أن تبقى مهيمنة عليه الى الابد . ولا يمكن أن تفكر مثل هذه الامة أو تقبل بوجود سيد جديد أو حتى بوجود شريك لها .. وكل قوم يقاتلون المستوطنين طالما كان هناك بارقة أمل فى التخلص من خطر الاستيطان الاجنبى . وهكذا يفعلون ، وهكذا سيفعل العرب المقيمون فى « أرض اسرائيل » ، طالما كانت لديهم بارقة أمل فى أن يتمكنوا من منع تحويل فلسطين الى « دولة اسرائيل » لقد كان « جابوتنسكى » أكثر صراحة من معظم الصهاينة المعاصرين له . لقد أعلن صراحة عن مضمون أفعالهم وسياساتهم ولكنه رد على المقاومة العربية بواسطة اقامة « جدار حديدى من الحراب اليهودية » لاجبار الفلسطينيين على الاعتراف بالاحتوم . وكان يرى أن « الاسلوب الوحيد للتوصل الى اتفاق فى المستقبل هو التخلّى تماما عن أى محاولة حالية للاتفاق » . وقد قام مناحم « بيجين » فى حديث أدلى به بعد أن أصبح رئيسا للوزراء ، بصقل هذا المفهوم ، فقال « ان المقصود بالجدار الحديدى أنه لا يمكن تحقيق الصهيونية ما لم يقيم بيننا وبين العرب حاجز من القوة . وسيحاول العرب منع هذا حتى لو أدى الامر الى اراقة الدماء . ولابد من وجود قوة دفاعية لمنع اراقة الدماء . لقد أعلن « جابوتنسكى » ايمانه بمنهج العدالة ، ولكننا اكتشفنا أنه لابد من الدفاع عن العدالة ، بيد أنها كانت عدالة فى أدنى مستوياتها فى دولة يهودية متطرفة لا تترك بارقة أمل فى أن يتمتع العرب بالسيادة على أى من ضفتى نهر الاردن .

وعندما اشترك بيجين فى معسكر صيف اقامته منظمة « بيطار » بالقرب من نيويورك ، بعد انقضاء أكثر من أربعة عقود على وفاة جابوتنسكى ، كان

من الواضح انه ظل على اخلاصه لاستاذة ، وتكريسه لمذاهبه ، وتخليده لاسلوبه الخطابى ، ابتداء من استخدام نبرات صوته لاثارة الشفقة وانتهاء بخفضها كختام كلامه . وكان يتمسك بها وصفه كتب سيرة حياة « جابوتنسكى » — والذي كان يقيم معه فى منزله — « بتقديسه للاتيكية » ممثلا فى الانحناء وتقبيل يد السيدات وارتداء البذلة وربطة العنق والحذاء اللامع ، وذلك فى وسط بلد الرواد الذين يرتدون القمصان المفتوحة عند الرقبة وينتعلون الصنادل . بل انه استحضر روح غاريبالدى ، البطل الذى كان « جابوتنسكى » يبجله ، بالقاء محاضرة على جماعة من أعضاء البرلمان الايطالى الزائرين لاسرائيل ، عن زعيم حركة تحرير وطنهم . وقام « بيجين » ، عندما تخلى عن المعارضة لأول مرة لينضم الى حكومة الوحدة الوطنية على ابواب حرب سنة ١٩٦٧ ، بزيارة مقبرة « جابوتنسكى » على جبل هيرتزل بالقدس . وكان مثل جابوتنسكى مستعدا لقبول عرب فلسطين ، على شرط الا يتجاوزوا حدود مكائنتهم ، وان كان قد اعترف بأن الضفة الشرقية للاردن لم تعد هدفا عمليا بالنسبة للدولة الصهيونية (لم ترفع جماعة « البيطار » خريطة جابوتنسكى التى تضم « كلتا الضفتين » من شعارها الا فى عام ١٩٨٠) . وربما لم يكن بيجين يتمتع ببريق جابوتنسكى وقدرته الاصيلية على اشعال الحماس ، بيد انه كان أكثر مهارة منه فى فن الممارسات السياسية العملية . وقد استطاع التلميذ أن يغير مسار الصهيونية ويعدله لحدمة اسرائيل الحديثة ، وتحويلها الى مجتمع كان « الاستاذ » سيتعرف عليه بلاشك كمجتمع أحلامه .

ولم يكن « جابوتنسكى » بانشرىك السهل على الاطلاق . وكثيرا ما كانت الشخصيات الصهيونية الاخرى البارزة يجدونه متعطرسا . ولم يكن يرحمهم سواء فى كلماتهم المنطوقة أو المطبوعة . وكان متسلطا وقادرا على اثارة السخط ، ولكن بحلول عام ١٩٢٠ لم يكن هناك من يستطيع النيل من مكانته فى قيادة الحركة . وقد اكد الدور الذى لعبه كمؤسس للفيلق اليهودى فى الحرب العالمية الاولى وكأحد قادته ، انه رجل أفعال تماما كما انه رجل أفكار ، وكرائه للدفاع اليهودى عن النفس فضلا عن كونه واعظا بارزا ، ان الامر الذى قاد « جابوتنسكى » لدخول متاهة الصهيونية هو مطلبه باقامة دولة يهودية الامر الذى كرس من أجله كل جهوده ، فقد كان ذا فلسفة (وحدانية) مما كان يستحوذ على اعجاب الشاب « بيجين » . وقد كان الآخرون مستعدين لتقديم تنازلات ، على الاقل بالنسبة لمواقفهم الدبلوماسية ومناهجهم قصيرة الاجل ، وان لم يكن بالنسبة لاهدافهم بعيدة المدى . وكان « جابوتنسكى » يرى أن مثل هذه التنازلات لا تنطوى على الخيانة فحسب بل على سوء التقدير أيضا . فقد كان يؤمن بأن قوة اليهود تكمن فى قوة قضيتهم المعنوية ، ومن ثم فلا يجب عليهم تمييعها ابدا ، خاصة وأن أحدا لن ينخدع بذلك على أى الحالات .

وجاءت الخطوة الاولى في يناير ١٩٢٣ عندما استقال « جابوتنسكى » من اللجنة التنفيذية العليا للحركة الصهيونية احتجاجا على ما اعتبره عدم مقاومة « حايم وايزمان » لعملية « انكماش » التعهد البريطانى المتمثل فى وعد بلفور لعام ١٩١٧ . ولقد أسر لبعضهم بعد حديث دار والمزعيم الصهيونى ان (وايزمان يعتقد ان منهجى هو منهج الخيالى العنيد ، بينما انا أشعر ان اسلوبه هو بمثابة التخلّى عن الحق أو التخلّى غير المتعمد عن المبادئ) .

وأسفرت تلك الخطوة عن تأسيس « حركة التصحيح » الملزمة صراحة باقامة دولة يهودية تتمتع بأغلبية يهودية على ضفتى نهر الاردن كليهما ، تلك جيشا يهوديا للدفاع عنها . وظلت « حركة التصحيح » جزء لا يتجزأ من الحركة الصهيونية الى ان انعقد المؤتمر الصهيونى السابع عشر فى يوليو ١٩٣١ ببازل ، حيث جاوز « وايزمان » كل الحدود — ليس فقط من وجهة نظر « جابوتنسكى » وحده — بقوله ان فكرة الدولة لم تكن مطلقا هدفا فى حد ذاته بل مجرد وسيلة الى غاية . وقد كلف هذا « وايزمان » زعامته للحركة الصهيونية ، غير ان « جابوتنسكى » لم ينجح فى ان يستصدر بيانا واضحا يتضمن برنامجا سياسيا محددا . وعندما لم يعتن المؤتمر حتى بطرح القرار الذى تقدمت به حركة « التصحيح » للاقتراع ، اعطى « جابوتنسكى » مقعدا وصاح قائلا « ان هذا لم يعد يشكل مؤتمرا صهيونيا » ومزق بطاقة عضويته .

وخرج « التصحيحيون » ، ولكنهم لم يكونوا قد أصبحوا بعد مندوبين . ولكن بعد ثلاث سنوات من خروجهم وقعت الصدمة التى ظل « مناحم بيجين » يحاول ، حتى بعد مرور نصف قرن من الزمان ، تطهير الحركة من آثارها ، ففى ١٦ يونيه ١٩٣٣ ، تناول حايم آرلوسوروف رئيس الادارة السياسية بالوكالة اليهودية ، والنجم الصاعد فى الحركة العمالية الصهيونية طعمام العشاء وزوجته « سيما » بأحد فنادق تل أبيب . وقاما بعد ذلك بالسير على شاطئ البحر . ولاحظت مسز « آرلوسوروف » أن رجلين يتعقبانها . وقد شهدت فيما بعد أن أحدهما كان اشقر طويل القامة يميل للضخامة ويتميل فى مشيته مثل البطة . أما الآخر فكان قصيرا ونحيفا وله ملامح شرقية . وقالت ان الرجلين تصديا لهما . وقام الرجل الضخم بانارة مصباح فى وجه « آرلوسوروف » وسأله عن الساعة . فطلب منه « آرلوسوروف » بالكف عن مضايقتهم . فسحب الرجل الضئيل مسدسا وأطلق عليه النار فأصابه فى بطنه وتوفى « آرلوسوروف » فى المستشفى بعد خمس ساعات . وذكرت « سيما » ان الرجل الذى هاجمها كان يتكلم العبرية بدون أى لهجة اجنبية .

وقام البوليس البريطانى بنشر اوصاف الرجلين فى جميع أنحاء فلسطين الخاضعة للانتداب البريطانى . وأدت التحريات الى اتهام « امراهام ستانفسكى »

عضو منظمة « بریت هابیریونیم » الدموية المتطرفة التي تعمل على هدى حركة « جابوتنسکی » الدموية بفلسطين . وكانت منظمة « بریت هابیریونیم » قد أدانت « آرلوسوروف » كمتواطىء مع الاعداء لحاولته ايجاد منفذ لليهود الألمان - الذين بدأوا يتعرضون لتهديد النازية الصاعدة - يستطيعون من خلال هذا المنفذ تصفية ممتلكاتهم والهجرة الى فلسطين دون التضحية بكل شيء . وكانت الفكرة التي تفتق عنها ذهنه هي أن يقوموا بشراء سلع المانية ويصدرونها ، ثم يحصلون ثمنها من البلد الآخر . وقد عاد « آرلوسوروف » الى تل أبيب في ١٤ يونيو ، بعد قيامه بعدة رحلات ذهباً وإياباً بين برلين ولندن . وفي الوقت ذاته ، كان « جابوتنسکی » و « التصحيحيون » يشنون حملة على نطاق عالمي تدعو اليهود لمقاطعة السلع الألمانية . وقد نشرت مجلة « بریت هابیریونیم » ، يوم الجريمة ، مقالا تتهم فيه « آرلوسوروف » بالتحالف مع « هتلر » و « ستالين » . وقال المقاتل انه باع شرف شعبه .

واعتقل « ستافسکی » بعد ثلاثة أيام من وقوع الجريمة . وتعرفت « سيما آرلوسوروف » على صورته ، بصفته الرجل الذي كان يتمايل في مشيته والذي أضاع الصباح في وجه « آرلوسوروف » ، واتهمت عضواً متطرفاً آخر في « حركة التصحيح » وهو « زفي روزنبلات » ، بجذب الزناد . كما اتهم « ابا اهيماير » ، فيلسوف جماعة « بریت هابیریونیم » ، بالتواطؤ ، ولم يكن تعرف مسز « آرلوسوروف » على « روزنبلات » قاطعاً بنفس درجة تعرفها على « ستافسکی » . وبعد انتهاء اجراءات الاتهام أمام قاضي المحكمة الجزئية ، أحيلت القضية الى محكمة الجنايات العليا ، أمام أربعة قضاة : اثنان بريطانيان ، وواحد يهودي ، والرابع عربي . وقد تمت تبرئة « اهيماير » في منتصف المحكمة . وصدر حكم بتبرئة « روزنبلات » على أساس عدم وجود شهود آخرين يؤيدون أدلة « سيما » . وأدين « ستافسکی » وحكم عليه بالإعدام ، فاستأنف الحكم أمام محكمة أعلى ، قضت بنقض الحكم وأطلقت سراحه . فبموجب القانون التركي الذي كان معمولاً به في فلسطين حتى عام ١٩٣٧ ، لم تكن شهادة شاهد واحد كافية لصدور حكم بالإدانة . وقد جادل الصهاينة من أعضاء « حركة العمل » ، بأن « ستافسکی » أدين بحكم الحقائق وتمت تبرئته بموجب نقطة قانونية . أما « التصحيحيون » فقد عبروا عن اغتباطهم لسيادة القانون . فالحكم بالبراءة أمر لا يمكن الرجوع فيه . وظل الطرفان على مدى عقود عديدة تالية يقدمون الأدلة والأدلة المضادة في معركة حامية تصم الأذان . . واعترف اثنان من العرب اختفياً بعد ذلك ، وترددت وجهات نظر ووجهات نظر مضادة ، من فوق منابر بارزة ، وعلى لسان شخصيات عامة وهي على فراش الموت . واعتبرت حركة « العمل » أن « التصحيحيين » هم الذين قتلوا « آرلوسوروف » ، أما « التصحيحيون » فقد اعتبروا أن الطرف الآخر قد أثار اليهودي ضد اليهودي في حملة تشهير دموية .

وقد فتحت قضية « آرلوسوروف » جرحا داميا ظل ينزف في أوروبا وفلسطين ، حتى بعد أن طوى النسيان أحداثها الأصلية بمدة طويلة . ولقد أصيب « مناحم بيجين » بذعر حقيقي أزاء نشر كتّاب جديد ، بقلم الصحفي الإسرائيلي « شابتاى تفيث » ، يعرض فيه وجهة نظر غير متعاطفة ، لدرجة أنه قام في مارس ١٩٨٢ بتشكيل لجنة تحقيق لتقصي الحقائق . وقال رئيس الوزراء لزملائه في المجلس :

« ان القول بأن تسعة وأربعين عاما قد مرت على تلك الاحداث . وأصبح من الصعب إعادة التحقيق فيها الآن ، يعتبر من سبيل عدم الإدراك وتضليلا للجمهور ، وتشويهها للحقيقة ، واستمرارا لترويع حملة التشهير الديموية ضد حركة صهيونية عظيمة وضد أفراد أبرياء ، واستمرارا لظلم لم يسبق له مثيل في التاريخ اليهودي فيها عدا ظلم غير اليهود لهم » .

وأمر « بيجين » ، الذي أكد شعوره بمسئوليته التاريخية ، بنشر المحاضر الكاملة للمناقشة التي دارت داخل مجلس الوزراء . وتناول بيجين المسألة وهو « يرتجف من الرهبة » . وتاجلت جلسات لجنة الاستماع لمدة عام آخر نتيجة لحرب لبنان . وجدير بالذكر أنه لم يتبق على قيد الحياة من الشخصيات التي لها صلة مباشرة بقضية القتل سوى « زفي روزنبلات » . فقد قتل « ستافسكى » على ظهر السفينة « التالينا » ، التي كانت جماعة « أرجون زغاي ليومي » تنقل الأسلحة عليها ، وذلك عندما قصفها الجيش الإسرائيلي من فوق نفس شاطئ تل أبيب الذي شهد الحادث .

وكان « بيجين » البالغ من العمر عشرين عاما ، قد دافع بذاته ، وبصفته من العناصر النشطة في جماعة « بيطار » ، عن « جابوتنسكى » عندما تعرض لهجوم من بعض اليهود الذين قاموا بالقاء الحجارة عليه . وقد سئلت أمه في « بريست - ليتوفسك » ، أثناء وجودها في أحد محال البقالة : « لماذا يختلط ابنك ، وهو الولد الطيب ، بأولئك القتلة ؟ » وكان « ستافسكى » صديق طفولة وجار « لبيجين » ، الذي أخذ مسألة براءته كقضية مسلمة . وقد قام « بيجين » بمواساة والدته « هاسيا بيجين » ، بقوله « لا تتأسى ، فأنت تعلمين أن « ابراشا » لم يقتل أحدا . ولابد للحقيقة أن تظهر » واصطحب « بيجين » والدة « ستافسكى » لمقابلة « جابوتنسكى » .

وقد كتب في عام ١٩٨٢ يقول : « مازالت صرخاتها ورجواتها من « جابوتنسكى » لانقاذ ولدها ، ترن في أذني حتى اليوم . وقد قبل « جابوتنسكى » يدها ، وانهمرت الدموع من عيني الأم . ولن تنمحي أبدا تلك الدموع من ذاكرتي » .

وقد تعرضت الأقلية من حركة التصحيح في فلسطين لنفس عملية الرفض الحادة التي تعرضت لها في أوروبا - وإن كانت قد أسفرت عن عواقب

أكثر تأثرا على الحياة اليومية . فقد خسر مثلا « يطقوب مريدور » وظيفته ومنزله نتيجة لذلك وكان (مريدور) الذى أصبح فيما بعد يشغل منصب نائب « بيجين » فى القيادة العليا لجناحة « أوبجون » يعمل آنذاك عاملا فى فى منطقة تل أبيب . وقد وصف تلك التجربة أمام مجلس الوزراء عام ١٩٨٢ ، عندما كان يشغل منصب وزير التنسيق الاقتصادى بقوله :

جاءنى صاحب الدار الذى كان عضوا عاما فى نقابة عمال الطباعة فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى للجريمة وقال لى مؤكدا بلا أدنى شك ، انها جريمة سياسية . ولم يكن قد مر سوى ساعات قليلة على وقوعها . ومع ذلك بدا الجو العام يسوده شعور بثرب وقوع مذبة سياسية . . وأمرنى صاحب البيت بعد انقضاء يوم بترك غرفتى وبدأت بعد ذلك أواجه متاعب فى العثور على عمل » .

وقد واجهت أسرة « ارييل شارون » المقيمة فى « كفار ملال » - وهى مزرعة تعاونية لصغار الملاك تتبع حركة العمل - وقتا عصيبا مائلا بعد أن احتج والديه على وسم « التصحيحيين » بالقتلة . فقال أمام مجلس الوزراء .

« أسفر الحادث عن وقوع صراع استمر عشرين عاما . وقد أخرجونى وأنا صلبى من المدرسة المحلية . فلم أستطع تلقى تعليمى ههناك ، وظللت طوال عشرين عاما ، حتى بعد مغرب الاستقلال ، محرومين من الحصول على الرعاية الطبية عن طريق الصندوق المحلى للمرض . . ولم نستطع تسويق منتجاتنا من خلال منفذ المزرعة التعاونية . . ولا زلت أذكر والدى وهما يتناوهران الحراسة بجوار الطريق لحماية إنتاجنا من محاولة أعضاء المزرعة التعاونية الآخرين إفساده . لقد زرعنا وانتجا : وشب الأطفال وسارت الأمور على ما يرام فى النهاية . . ولكن تم كل ذلك فى خضم من الصراخ المستمر يسوده كراهية لا تنتهى » .

وقد ضاعف « ديفيد بن جوريون » ، وغيره من زعماء حركة العمل الصهيونية من اتساع الجراح عندما عمقوا مقارنات بين « بجابوتنسكى » وهتلر « ووصفوا أعضاء » حركة التصحيح باليهود النازيين . وكان « بيجين » واثقا من أن هذا الشقاق ساهم كثيرا فى اتساع نطاق « أرلوسورف » . وكان يؤكد أنه لولا موجة الكراهية التى أثارها قضية « أرلوسورف » ، لتمكن جناح الحركة الصهيونية من تجميع جهودهما فى سبيل العمل من أجل تهريب المهاجرين من أوروبا الى فلسطين بالطرق غير المشروعة ، ولربما أمكن انقاذ عشرات الآلاف من اليهود .

وقد القى الفتى « بيجين » أول خطاب عام له عندما كان فى الثالثة عشرة من عمره ، من فوق منصة بالحديقة العامة فى « بريصت - ليتوفسك

وكانت المناسبة هي احدى الاحتفالات الصهيونية التي ينظمها والده كل عام احتفالا بعيد « لاج باعومار » (عيد ١٨ آيار) . ولم يكن الخطاب واحدا من خطب « بيجين » الناجحة ، ولكنه سرعان ما أصبح واحدا من الخطباء المعتادين في الاجتماعات السنوية التي تقام احياء لذكرى « هيرتزل » . وقد استمع « أهرون زني برومبيز » ، الذي كان يرأس الفرع البولندي لجماعة « بيطار » الى « بيجين » - الذي كان في الثامنة عشرة آنذاك - وهو يلقي احدى خطبه في عام ١٩٣١ . ويقول « برومبيز » : « لقد كان رائعا وادركت لحظتها أن شابا يتمتع بمواهب نادرة يقف أمامنا » . ان شهادة « برومبيز » هذه تتسم بشهامة خاصة ، فبعد ثمانى سنوات من ذلك التاريخ ، نحي برومبيز جانبا ليفسح المجال لربييه . وقد وصل « بيجين » الى قيادة منظمة « بيطار » في حي « بريست » بينما كان لا يزال في مرحلة الدراسة الثانوية . وعندما التحق بجامعة وارسو ، لدراسة القانون ، اختاره برومبيز « لعضوية اللجنة العليا « للبيطار » . وقال عنه « برومبيز » حينذاك ، انه : منضبط ، ومحبوب من زملائه ، ويتمتع بالطموح » .

وقد سيطرت على جماعة « البيطار » ، مثلها في ذلك مثل « حركة التصحيح » التي انبثقت الجماعة عنها . آراء « جابوتنسكى » وأسلوبه وشخصيته . وقد تبعه « بيجين » في أنحاء أوروبا مستمعا الى خطبه ، دارسا أسلوبه ، مستوعبا لمبادئه . وكانت الحركة الشبابية لا تخفى ميولها العسكرية . فكان أعضاؤه يتدربون ويرتدون زيا عسكريا . ويقول « ديفيد جونان » ، وهو أحد معاصري « بيجين » : « لقد غرس « جابوتنسكى » فينا ضرورة أن نتعلم كيف نطلق النار » . وكان « بيجين » ، بصفته المسئول الأعلى عن تنظيم « بيطار » في بولندا ، يجوب أنحاء البلاد ، ويلقى الخطب ، مدهنا وساعيا لاجتذاب أعضاء جدد . وبلغ عدد أعضاء الحركة ، بحلول عام ١٩٣٩ الى ٧٠ ألف عضو موزعين على ٧٠٠ فرع .

ويؤكد يسرائيل ايلداد وهو أحد المعاصرين « لبيجين » في جماعة « بيطار » ، والذي أصبح فيما بعد فيلسوف « عضابة شتيرن » والنقاد اليميني العريق لبيجين :

« أن كلماته مهما بدت في اليوم ، فانها لم تكن مجرد كلمات خطابية جوفاء بالنسبة ليهود بولندا . لقد كانت تعبيرا دقيقا عن مشاعر الشعب اليهودي . ولم يكن أحد يتساءل آنذاك عن تكاليف اقامة دولة يهودية . انها كانت من وجهة نظرهم مسألة عادية خاصة بجمهورية تملك الملايين . وعندما كان المرء يتكلم عن الجندي اليهودي ، فانما كان يعبر عن مثل عليا . فاليهودي كان يلتحق كجندي في الجيش البولندي ، في الوقت الذي كان يكره فيه بولندا ولكن عندما كان « بيجين » ينطق بتعبير « جندي يهودي » كان الناس

يشعرون بالفخر ، فقد كانوا يرغبون فى ذلك من أعماق قلوبهم . وكانت جماعة « الارجون » قد بدأت تمارس نشاطها فى فلسطين . وفى بولندا عندما كان المرء يتحدث عن الانتقام وعن انتهاء المذابح ، كان الشعور بالفخر يسيطر على الأولاد اليهود . وكان الشباب مستعدا للمعاناة والتضحية من أجل المثل العليا ، فالشباب لا يتمتع بالصبر وقد أتاحت لهم منظمة «بيطار» و «الارجون» فرصة انتهاج الطريق الثورى . لقد فتحتا الطريق أمام مئات الألوف الذين لم يكن أمامهم سبيل آخر .

وأدى نجاح « بيجين » فى تنظيم الشباب البولندى داخل « البيطار » الى قيام « جابوتنسكى » بإيفاده الى تشيكوسلوفاكيا ، حيث كانت الحركة صغيرة وضعيفة . وبدأ « بيجين » يعمل من أسفل الى أعلا ووفقا لاقوال « بروبيز » كان يكتفى بتناول وجبة واحدة فى اليوم ، وكان ينام أحيانا فوق المقاعد الخشبية بالحديقة العامة . لقد كان يعمل فى اخلاص ، دون أن بكل أو يشكو . ويقول « بروبيز » متذكرا : « لقد أصيب فى احدى المرات اثناء وجوده فى وارسو بالتهاب رئوى . ونقلته زوجتى التى كانت تمرضه الى احدى دور النقاهة فى « أوتوك » حتى يسترد صحته . وعندما اتجهت لزيارته بعد يومين ، وجدته قد خرج وعاد الى العمل على الرغم من ضعفه الشديد . فالعمل كان يعنيه أكثر من أى اهتمامات شخصية أخرى .

وأثناء أحد جولات « بيجين » ، دعا الدكتور « ليون ارنولد » المحامى والعضو البارز فى « حركة التصحيح » فى بلدة « دروبيز » البولندية الصغيرة، الى العشاء فى منزل حماء « زفى ارنولد » وهناك التقى بيجين بانتهى « زفى ارنولد » ، التوأمتين ، « اليزا » و « ليا » والبالغتين من العمر آنذاك سبعة عشر عاما . وقد عمل « بيجين » لبضعة أشهر وقبل عودته الى وارسو لتولى رئاسة حركة « بيطار » البولندية ، ككاتب لدى محام فى تلك البلدة . وتقابل « بيجين » و « اليزا » فى المعبد اليهودى الكبير « بدروبيز » حيث ارتدى كل من العريس والعروس الزى العسكرى لحركة « بيطار » ذا اللون البنى ، وان كان قد ارتدى بعد ذلك الملابس المدنية فى الحفل الذى اقيم لوداعهما فى رحلة شهر العسل ، حيث ارتدت « اليزا » معطفا انيقا يصل الى الركبة وقبعة ملفتة للانظار ، بينما ظهر « مناحم » المائل الى النحافة والذى كان يلبس نظارة طبية على عينيه ، فى بالطو واق من المطر لونه شاحب يخفى تحته تفاصيل جسمه . وكانت العروس فى التاسعة عشرة من عمرها بينما كان العريس فى الخامسة والعشرين . وجاء « جابوتنسكى » من باريس بالقطار لحضور حفل الزواج . ولقد استطاع « مناحم » اتمام هذا الزواج الذى دام حتى وفاة « اليزا » ، بعد ثلاث واربعين سنة من ذلك التاريخ ، تخطى كل الازمات الناجمة عن الفراق ، والفنوع ،

والمخاطر ، والمشاكل السياسية الاسرائيلية . وقد شاركت « اليزا » زوجها في تمسكه بمعتقداته وعناده ، ولكنها كانت راضية بالبقاء فى الظل الى جواره ولم تكن ، الا فى النادر ، لتغفر لاجد يثير غضبه أو يخونه . وقد رزقا بثلاثة أبناء ، ولد وابنتين ، جميعهم من مواليد اسرائيل . وقد هلكت الاخت المتوأم لاليزا فى الهلوكوست ، تماما مثل معظم افراد أسرة « مناحم » .

وعلى الرغم من أن « بيجين » كان سعيها بالجلوس هنيئاً أمام « جابوتنسكى » ، فإنه لم يكن مجرد واحد من متلقيه . بل ان التلميذ اصطدم و « المعلم » فى مناسبتين مشهورتين . فقد اجتج « بيجين » أثناء انعقاد المؤتمر العالمى السادس « لحركة التصحيح » فى يناير ١٩٣٥ بمدينة كراكاو ، على محاولات « جابوتنسكى » ذاته .

وقال « بيجين » : « ربما يكون قد نسييت أن « بن جوريون » نعتك فى احدى المناسبات بـ « فلاديمير هتلر » ، ولكننا لم ننس » .

ورد عليه جابوتنسكى بحدة قائلاً : « انا لن أنسى أبدا رجلا من أمثال « بن جوريون » و « بن زفى » و « الياهو جلومب » لقد ارتدوا فى يوم من الايام الزى العسكرى للفيلق (اليهودى) ، وأنا واثق من أنهم لن يترددوا لو دعت القضية اليهودية الى ذلك ، فى ارتدائه مرة أخرى وأن يقتلوا تحت لوائه . ولو حدث ائتلاف ، فاننا سنترفع عن اثاره الخلافات التافهة . فنحن جميعا قد أظهرنا تمسكنا القوى بوطينتنا الصهيونية » .

وقد جاء التحدى الثانى ، والإكثير خطورة ، أثناء المؤتمر العالمى الثالث « البيطار » ، الذى انعقد بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين فى وارسو . فقد تعرضت الحركة آنذاك لشتى هجمات بين أعضاء جماعة « أرجون زغاي ليومى » ذات الميول العسكرية والموجودين فى فلسطين ، والذين كانوا يضغطون من أجل انتهاج سياسة انتقام ايجابية ضد الهجمات العربية على اليهود ، وبين « جابوتنسكى » الذى كان يعترض بشدة على مثل هذا الارهاب المضاد . وكانت جماعة « أرجون » تواقبة الى شين جرب ضد البريطانيين ، أما « جابوتنسكى » فكان لايزال يؤمن بوجود قوى بريطانية من نوع آخر يمكن اقناعها باعتبار القضية اليهودية جزء من المصلحة الحقيقية للإمبراطورية . وكان جماعة « أرجون » قد قامت بتنظيم خلايا خاصة بها داخل حركة الشباب اليهودى البولندية (البيطار البولندى) ، وفتحت مكتبا سياسيا فى سويسرا . واتاهت الجماعة معسكرات للتدريب العسكرى فى بولندا بالتعاون مع الجيش البولندى ، الذى أغرته فكرة ترحيل مئات الآلاف من اليهود بالسفن للقتال فى فلسطين ، وبذلك يتم حل المشكلة اليهودية فى بولندا (حيث كانت الطائفة اليهودية التى تضم ٣٥٠.٠٠٠ يهودى ، تشكل فى أواخر الثلاثينيات ١١٪ من السكان وربما

كانت هذه إحدى المرات النادرة التي اهتم فيها « جابوتنسكى » بالتكتيك بقدر اهتمامه بالبدأ . فقد كان يريد الاحتفاظ بالنشاط المشروع لكل من حركة « البيطار » و « التصحيح » بعيدا عن العمليات السرية لجماعة « الارجون » ، وذلك على الرغم من أنه كان الرعيم المعين لكل من الجناحين السياسى والعسكرى للحركة . وحول « بيجين » ، الذى كان ينحاز الى العناصر الثورية النشطة وان كان يريد تجنب الدخول في معركة يانه يجب الجمع بينهما معا تحت سقف واحد . فلا بد لجماعة « الارجون » من أن تعمل من خيال « منظمة بيطار » .

وعندما طرحت المسألة للمناقشة بمؤتمر وارسو الذى انعقد خلال شهر سبتمبر ١٩٣٩ ، انتظر « بيجين » حتى حضر « جابوتنسكى » قبل أن يلقي كلمته . وقال ان الحركة الوطنية الاسرائيلية بدأت من خلال الصهيونية العملية ثم الصهيونية السياسية . وانهم يقفون الان على مشارف الصهيونية العسكرية التى ستندمج فى نهاية الامر والصهيونية السياسية . وذكر أن المسألة يمكن مقارنتها بما حدث بين « كافور » و « غاريلدى » . فما كان « كافور » لينجح فى تحرير ايطاليا بدون « غاريلدى » . ولقد قاطع « جابوتنسكى » « بيجين » مرارا ، مذكرا اياه بأن اليهود يفتقرون فى وطنهم الى القوة العسكرية البشرية . ورد عليه « بيجين » بقوله انه يجب عليهم الوقوف فورا في وجه الخطط البريطانية الرامية الى ايجاد دولة فلسطينية تتمتع بأغلبية عربية وذلك بصرف النظر عن الاعداد والنتائج . وأعلن : « حتى لو سقطنا فانه يكفينا اننا قاتلنا » . وأكد أنه لابد لمنظمة « بيطار » ، وذلك ليصبح « رمزا لعملنا » ومهمتنا « (ولقد كانت مثل هذه الإيماءات هامة جدا بالنسبة له) . وطالب بيجين بتغيير عبارة « سائخذ سلاحى من أجل الدفاع عن بلدى » ، ولن أحمله الا فى سبيل الدفاع » ، بعبارة « سائخذ سلاحى من أجل الدفاع عن بلدى » ، ومن أجل الاستيلاء على وطنى » . وجادل بأنهم كانوا يتوقعون دائما الى القوة ، هذه القوة أصبحت موجودة الآن . وأضاف : هناك ملايين الاشخاص ليس لديهم شيء يخسرونه . ومهمتنا تنحصر فى استخدام القوة الكامنة فيهم » . وتمت الموافقة على التعديل بعد تردد من جانب جابوتنسكى « ولكن ليس قبل أن يوجه الرعيم هجوما مضادا ساحقا ضد السياسى الشباب المبتدئ » ، حيث قال :

« ان ثمة انواعا كثيرة من الاصوات . . ونحن نتحمل ضجيج المكينات والعربات وما الى ذلك . ولكن لا يمكن أن نتحمل صرير الابواب لأنه لا يعود علينا بأى فائدة . والخطيب الرنانة والتصفيق تشبهان صرير الابواب ليس لها فائدة أو منطق . ولا يوجد فى « البيطار » مكان لمثل هذه المثرثرة . وأحيانا تكون هذه الاصوات موبلية ، ولكن يجب علينا أن نحذرها . وتعتبر الكلمات التى قالها مستر « بيجين » من هذا النمط الأخير ، ويجب علينا أن نكبت مثل هذه الاصوات بكل قسوة » .

لقد وضع « جابوتنسكى » كل ثقته فى الضمير الحى للعالم ، نظرا لعدم ثقته الكافية فى استعداداته العسكرية . وأراد أن تقوم الدول الغربية بفونير جنة فى فلسطين لآلاف اليهود المهددين فى أوروبا . وسخر « بيجين » من هذا التفكير لاستاذة القديم . وقد رد عليه « بيجين » بكل حدة ، خلال نفس الشهر الذى كان « نفيل تشامبرلين » يتفاوض فيه مع « هتلر » فى ميونيخ من أجل التوصل الى « سلام (وهمى) يسود عصرنا » . حيث أعلن العضو البارز فى منظمة « بيطار » والمبالغ من العمر خمسة وعشرين عاما : « لقد مات ضمير العالم ، ولم تعد لعصبة الأمم أى قيمة . وشريكنا البريطانى يفودنا الى المشنقة ويلقى فى السجن بأفضل أفراد امتنا » . ورد عليه « جابوتنسكى » بقوله انه اذا كان هذا هو ما يشعر به « بيجين » ، فمن الأفضل له أن يفرق نفسه فى نهر الفستولا .

ويؤكد « يوحنا بادر » — وهو محام بحركة « التصحيح » ، عاش فى الجيل الوسط بين جيلى « جابوتنسكى » و « بيجين » — انه بالرغم من شعور الغضب الذى انتاب الزعيم ، فاته « سعد واغتبط » لمواجهة « الصبيان » له . وثمة روايات متناقضة حول رأى « جابوتنسكى » فى « بيجين » . فقد قيل مثلا ، أنه اختاره خليفة له . ولكن من جهة أخرى ، تردد انه كان يحتقر تزمت « بيجين » والذى يشبهه تزمت أبناء الاتاليم ، وكذلك تقواه المفرطة (لقد كان « جابوتنسكى » بعيدا تماما عن هذا الجانب من التقاليد اليهودية حتى انه كتب فى وصيته يقول : « أريد أن يدفن جثمانى أو يحرق — فالامر سيان بالنسبة لى — حيثما يلحق بى الموت ») . ولم يزعم « بيجين » فى أى وقت وجود علاقة وثيقة بينهما . فقد كان يدرك تماما مدى الاختلاف بينهما فى السن والمكانة . وكان من الواضح ان « جابوتنسكى » كان يقدر « بيجين » كشخص قادر على التنظيم وكرمءوس موهوب ، ولكن لم يكن هناك أى دليل على انه يحاول صقله ليصبح خليفة له .

وانتهى مؤتمر وارسو بانتصار الشباب . وتم تجنب الشقاق بين جماعتى « البيطار » و « الارجون » وفى ابريل سنة ١٩٣٩ ، تم تنصيب « منلحم بيجين » رئيسا « لمنظمة بيطار » البولندية ، التى كانت بمثابة محطة توليد الطاقة بالنسبة للحركة الدولية ، وذلك بدلا من « بروبيز » ، الذى ترك منصبه فى هدوء تام . وقد أعلن الاتراك المشبان بلا رحمة أن « بروبيز » ممتاز بالنسبة للشئون الثقافية والمؤتمرات ، ولكن ليس بالنسبة لخوض المعارك وتولى الشئون السياسية (وقد أسس فيما بعد « مهرجان اسرائيل » ، الذى ظل يشرف عليه حتى وفاته عام ١٩٧٨) . واحتفل « بيجين » بترقيته بأن تزعم مظاهرة ضد فرض قيود على الهجرة اليهودية . وأتاح البوليس البولندى له أول فرصة لتجربة حياة السجن . وأطلق سراحه بعد ثلاثة أسابيع ، وهو حليق الرأس . ولكن كائن وارسو والعالم بأسره مشغفولا حينذاك بأمور أخرى أكثر أهمية .

الفصل الثالث

هروب واعتقال

لم تكن المسألة التي تواجه يهود أوروبا ابلن صيف عام ١٩٣٩ ، هي هل سلتق الحرب بقدر ماكانت متى ستقع . وكان الاهتمام الاول للحركة الصهيونية بجناحيها هو عملية انتقاذ اكبر عدد ممكن من يهود المانيا في اعقاب قرارات نورمبيرج ، وان لم يكن قرار الحل النهائي قد صدر بعد . ولم تعد تنبؤات « جلوبوتنسكى » بقرب وقوع الهلاك تبدو ومحاوله لاثارة الذعر . ولم يعد النداء الذى وجهه الى كل يهودى لان ينجو بنفسه طالما كانت هناك فرصة ، يقع على آذان صماء . ولكن كانت الحواجز قد بدأت تقبـسـام والحدود تغلق .

وقبل يومين اثنين من غزو « هتلر » لبولندا ، عاد « مناحم بيجين » الى وارسو بعد ان رافق قافلة تضم الفسا من المهاجرين « غير المشروعين » تابعين لمنظمة « بيطار » ، حتى حدود رومانيا . وكان يسيطر عليه شعور بالاحباط ، حيث ان رومانيا كانت تسمح ، حتى تلك اللحظة ، بمرور اليهود المتجهين الى فلسطين عبر اراضيها ، ولكن بعد التوقيع فى موسكو على اتفاقية مولوتوف — ريبنتروب فى ٢٣ اغسطس لم يعد فى وسع الرومانيين تخمل المخاطر نيابة عن الغير . وتشقت جماعة المهاجرين من أعضاء « البيطار » ، وعادوا الى ديارهم . ولقى معظمهم حتفه فى معسكرات الموت او بين ضغوف رجال المقاومة البولندية .

وعندما دخل الجيش الالماني بولندا فى اول سبتمبر من ذلك العام ، كان رد الفعل التلقائى « لبيجين » منبعا من مشاعره كمواطن بولندى وكيهودى فى الوقت ذاته . ويسترجع يسرائيل ايلداد أحداث تلك الفترة قائلا « ذعا بيجين » قيادة منظمة « بيطار » للاجتماع ، وطلب منا تحصين وارسو وحفر الخنادق . وقال لنا ان علينا اداء واجبنا كمواطنين بولنديين ، وأن نلتزم بالقوانين . وجاء الى مكتب البيطار فى اليوم التالى ، الشاعر يور زفى جرينبرج من « حركة التصحيح » . واندھش للمشهد الذى رآه أمامه ، فصاح قائلا « ماذا تفعلون ؟ ان الروس قادمون . ويوجد لدى جماعة ارجون جوازات سفر فخذوها واذهبوا » . وذهب « بيجين » و « ديفيد جوتان » لمقابلة جنرال بولندى وعرضا عليهم تشكيل كتيبة يهودية لتقاتل مع الجيش البولندى ضد الالمان ، غير ان رده لم يكن مشجعا . وعندئذ فقط بدأ « بيجين » وغيزه من قادة « بيطار » يغادرون « وارسو » . فى جماعات صغيرة . وكانت قتابل الالمان قد بدأت تتساقط على العاصمة .

ورحل « بيجين » وزوجته « أليزا » بصحبة « ناتان يلين — مور » وزوجته « فريدا » ، اللذين كان قد تم زواجهما في ٥ سبتمبر بواسطة الحلخام الأكبر شلومو دافيد كاهانا ، آخر حاخامات وارسو ، وقد شهد « بيجين » وزوجته على عقد الزواج حيث كان « يلين — مور » واحدا من زملاء « بيجين » في اللجنة العليا لمنظمة بيطار . وقد أصبح « ناتان يلين — مور » فيما بعد واحدا من الثالوث الذي قاد الحملة الارهابية التي هنتها « عصابة شطيرن » ضد الانتداب البريطاني . وعندما أحكم إغلاق المصيدة ، أخذوا يروحون بجمعة وذهابا سواها بواسطة القطار أو العربات التي يجرها الخيل ، أو على الاقدام ، ويختبئون لدى الموالين لحركة « البيطار » ، وهم يتحاشون القاذفات المساندة ويعجنون الدبابات الصوفية القادمة . وسادت الفسوخ والفتنات ، واحتشدت الأسر اللاجئة على جانبي الطرق واكثفت بهم القطارات ، وبدأ الفصيف يسجل أول اصابات بين المدنيين ، الذين أصبحوا يبدون في حالة من الانكسار يزني لها . وكتب « بيجين » يقول فيما بعد : « كنا ننام ونحن نسبح . كنا ننام أثناء سيرنا على أقدامنا » . واحتجز الروس « بيجين » لفترة وجيزة عندما اتهمته امرأة يهودية بأنه مدين لها بمبلغ من المال كانت قد دفعته له ليساعدها على الهرب عن طريق رومانيا ، وسدد الدين . واشترى حريته .

ورفض الرفاق الأربعة الذين أصبحوا يعانون من الاعياء الشديد اللجوء عليهم بالبقاء في مكان واحد ، حتى يمكن لأعضاء منظمة « البيطار » رعايتهم ، وإن كانوا قد شعروا بامتنان لتمكنهم من الاحتفال بعيد رأس السنة اليهودية مع بعض الاصدقاء . واستغاثوا أن يصلوا في النهاية ، وبمعه أن أمضوا سبعة أسابيع على الطريق ، الى مدينة « فيلنا » التي كانت مركزا هامسا للتعليم والمشروعات اليهودية . وكان الروس قد استولوا على الجزء الشرقي من الأراضي البولندية وأعلنوا « فيلنا » عاصمة لاقليم « ليتوانيا الحرة » واحتضنت قيادة منظمة « البيطار » البولندية بكامل هيئتها في « فيلنا » . وسرعان ما انضم اليهم الآلاف من اعضائها . وأخبرهم « بيجين » أن « ليتوانيا » ستوفر لهم سبيل الخروج الى فلسطين . واستأجرت المنظمة منزلا ، وبعثت بأفرادها للبحث عن مراكب لنقلهم عبر بحر البلطيق . ويعترف بعضهم عند استرجاعهم للماضي ، بأنهم كانوا سخطا ، فقد كان من المستحيل أن تدوم حرية « ليتوانيا » ولكن كانت « فيلنا » تعتبر آنذاك رمزا للأمل .

ولقد تعرضت مصداقية قادة منظمة « البيطار » للاختبار عندما وصلتهم رسالة من « شيمشون جوليتزمان » ، رئيس حركة الشباب في فلسطين ، يطلبهم فيها أولا بأن « انزلهم شتيرن » ، فخذ أكثر أجنحة جماعة « أرجون زفاي ليومي » عنفا قد قرر « العمل بمفرده » . ومن ثم ، وعند تلك اللحظة ،

أصبحت هناك قوتان سريتان تعملان من أجل تحقيق « الحق اليهودي » جماعة « أرجون زفاي ليومي » أو « المنظمة العسكرية الوطنية » ، التي أصبحت تعرف باسمها المختصر « ايتزيل » المكون من الحروف الأولى لاسم المنظمة العبرية) ، وعصابة شتيرن « المحاربون من أجل تحرير إسرائيل » ، — « لوهامي هيروت يسرائيل » (بالعبرية ، واختصارا « ليهي ») . والأمر الثاني الذي أبلغهم به في رسالته ، وهو الأمر الأهم بالنسبة « لبيجين » ورفاقه في فيلنا هو أن « كثيرين هنا (في فلسطين) يعتقدون أنه لا يجب على القبطان أن يغادر السفينة طالما ظلت طافية » . وفهم « بيجين » — بحساسيته المفرطة إزاء مسألة الكرامة ، تهماً مثل حساسية « جابوتنسكي » — أن المقصود بهذه العبارة هو اتهامه ورفاقه بالتخلي عن عشرات الآلاف من أعضاء منظمة « بيطار » الذين كانوا لا يزالون موجودين في بولندا .

ويسترجع يسرائيل الداد هذه الواقعة فيقول : « لقد استدعانا « بيجين » وقال لنا انه ربما كان (جونيترمان) على حق ، والله يريد أن يعود الى وارسو . ولكننا قررنا في النهاية عدم العودة . وكانت حجة عدم العودة هي أن جبهتنا أصبحت موجودة الآن في فلسطين ، التي هي وطننا الأم . ولم يعد هناك ما نفعله في بولندا . وقد أصبح من المستحيل العمل هنا من أجل ترحيل مزيد من أعضاء « البيطار » الى فلسطين . ولذلك فقد استدعيناهم الى « فيلنا » لأخراجهم عن طريقها .

وكان « دينيد جوتان » واثقا من أن بقاءهم في « فيلنا » كان أفضل ، كما كان يرى أن تفكير « جونيترمان » خاطيء ويقول :

« أولا ، كنا نعتقد أن الانتقال اليها انما كان مؤقتا . وكنا على ثقة من أن الجيش البولندي بمساندة البريطانيين والفرنسيين سينتصر . وكانت حجتنا هي أن « ليتوانيا » ليست سوى دولة يمكن تدبير الخروج منها . وكنا هناك على صلة بالعالم الحر . وأرسلنا برقيات الى الولايات المتحدة — الى منظمة بروبيز وغيرها من المنظمات — المضطحة من أجل منحنا تأشيرات وتصاريح هجرة لأكثر عدد ممكن من أعضاء « البيطار » . وكنا في حاجة الى تواجدنا في مكان يمكن للبريطانيين أن يرسلوا اليه تصريحات للهجرة المشروعة .

وكنا قد قمنا بانفسنا ، كذلك ، بتزوير عدة تصريحات . فان الحصول على تأشيرة خروج من « ليتوانيا » كان يستدعي ، على الأقل ، تقديم خطب يفيد بأن لديك تصريح بالاتجاه الى مكان آخر . ولذلك فقد قمنا بتزوير مثل هذه الخطابات . كما أن القنصلية الهولندية في « فيلنا » كانت تمنح تأشيرات للذهاب الى « كوراكاو » . وعندما أغلقت القنصلية ، قمنا بتزوير التأشيرات . وكان الهابانيون أيضا يمنحون تأشيرات خروج .

وقد سكت الروس عن كل هذه الأنشطة لانهم كانوا يحتاجون الى العملة الأجنبية ، وكانت اللجنة المشتركة (لجنة التوزيع الأمريكية اليهودية المشتركة) تزودنا بالمال اللازم . وكنا فى حاجة الى قاعدة ، وكانت « فيلنا » قاعدة مناسبة يمكننا العمل من داخلها . وكذلك كنا نجرى اتصالات مع الصيادين « الليتوانيين » فى ميناء « بالانجا » ، وقد منحناهم النقود لاننا كنا نعتقد أنهم يستطيعون نقل الأشخاص بزوارقهم الى السويد .

والذى حدث ، أن الحرب لم تنته بسرعة ، كما ثبت أن قرار البقاء فى « فيلنا » ، كان غاية فى الأهمية . فان منظمة « البيطار » كانت تمثل الحركة الصهيونية البولندية الجماعية الوحيدة التى بقيت لتواجه « الحل النهائى » بدون قيادة . ويذكر المؤرخ الاسرائيلى « يهودا بوار » ، الذى كان من أوائل مؤرخي « الهلوكوست » ، أن هذه الحقيقة هى السبب الأساسى وراء ما يصفه « بعقدة الهلوكوست » التى يعانى منها « بيجين » ، أو شعوره بالذنب لانه بقى على قيد الحياة . وقد كتب « بوار » يقول : « ان غدا كبيرا من الناجين ممن يمرون بتجارب مماثلة ، يعانون من شعور عميق بالذنب . بيد أن مثل هذا الاحساس بالذنب ليس له أى مبرر من وجهة النظر المنطقية . وتقدم لنا نظرية البروفيسور « بوار » تفسيراً مقبولا لتسلط « الهلوكوست » على تفكير « بيجين » ، والذى أدى به الى ارسال خطاب اثناء حصار الجيش الاسرائيلى لبيروت فى أغسطس عام ١٩٨٢ ، الى الرئيس « رونالد ريغان » ، جاء فيه « انى أشعر بهذه الأيام وكأننى رئيس وزراء يملك سلطة توجيه جيش باسل يقف فى مواجهة « برلين » حيث يختبئ « هتلر » وحاشيته فى مجبأ عميق تحت سطح الأرض وسط المدنيين الأبرياء .

وقد ذكر باحث آخر فى دراسة له عن « الهلوكوست » ، وهو زئيف مانكوفيتز . ان هذه المقارنة التشبيهية تعتبر مضللة وخطيرة . فكتب يقول :

« ان حوب النازى ضد اليهود لم يكن لها اساس واقعى » . وقد نبعت من كراهية بلا سبب وخوف من « اليهود » ، بصفتهم قوة شيطانية تعمل من أجل فرض سيطرتها على العالم . والحقيقة الرهيبة هى أن الشعب اليهودى كان ضحية للهولوسية . بيد أن الشعب الفلسطينى ، هو الشعب الحقيقى ، وتطلعاتهم القومية حقيقية واقعة ، كما أن لهم أهمية رمزية حقيقية فى العالم العربى ، وبالمثل فان التعاطف والاعتراف السياسى الذى كسبه هذا الشعب فى أنحاء العالم يعتبر حقيقة ملموسة .

وكما عرفنا فان « بيجين » دافع فى عام ١٩٣٩ عن فكرة الرجوع الى وارسو . ومع ذلك « اسرائيل الدااد » يعتبر واحدا من الذين يشكون فى

انه كان يعنى ما يقول فعلا . فان « بيجين » كان يملك آنذاك ، نفس القوة والمكانة اللتين كانتا تمكنانه فى مناسبات أخرى من فرض رأيه على زملائه هذا ، اذا كان هو يرغب فى ذلك .

ويقول الداد : « أنا لا أعرف حتى الآن ما اذا كان جادا فيما بقوله أو انه كلن مجرد ايهاءة ، مجرد مشهد تمثيلى . فطلالما شاهدناه يفعل ذلك حتى يومنا هذا . وأنا لا أعرف ما اذا كان يريد فعلا العودة الى وارسو » .

هذا وقد وجد قادة حركة « بيطار » البولندية وقتا كافيا فى ربيع سنة ١٩٤٠ ، بالرغم من مشاغلهم العملية ، لمناقشة مسألة اوسع نطاقا كانت تمزق حركة « التصحيح » : هل يوقفون مؤقتا النضال ضد الحكم البريطانى فى فلسطين طالما ظلت بريطانيا تشن حربا ضد القازى ؟ أم هل يؤيدون سياسة « بن جوريون » التى تدعو الى الاشتراك فى الحرب وكان « الكتاب الابيض » الذى يفرض قيودا على الهجرة اليهودية ، لم يصدر ، مع محاربة « الكتاب الابيض » وكان ان حرب غير قائمة ؟ وقد أصدر « جابوتنسكى » اوامره الى « الارجون » بوقف النضال . ورضخ « دافيد رازئيل » ، قائد قوات « الارجون » فى فلسطين للامر . ووفقا لاقوال « الداد » ، فان « بيجين » اذان عملية وقف القتال باعتبار انها بمثابة خيانة للقضية اليهودية . وكان يعارض وقف القتال .

وقاد « الداد » حملة فى مجلة « بيطار » التى كان يرأس تحريرها فى « فيلنا » ، من اجل « الحياد المعدائى » ، ما لم يمنح البريطانيين اليهود جيشا خاصا بهم تحت راية نجمة داوود . ويتفق موقف بيجين هذا والموقف الذى اتخذه فى المؤتمر العالم لمنظمة « بيطار » ، ولكنه عندما أعلن الحرب ضد الانتداب البريطانى بعد أربعة أعوام من ذلك التاريخ ترك انطبعا بأن دواعى اتخاذه لهذا القرار كانت أكثر من مجرد استجابة لمساة يهود أوروبا عام ١٩٤٤

وقامت جماعة البيطار فى أحد أيام صيف عام ١٩٤٠ بتنظيم اجتماع فى الجامعة البولندية « بفيلنا » - التى كانت تشتهر بأنها مستوقد للعداء ضد السامية - للاحتفال بثلاث مناسبات : احياء ذكرى وفاة « تيودور هيرتزل » أبو الصهيونية السياسية ، ووفاة « حليم ناخمان بياليك » شاعر الاحياء العبرى ، والذكرى الخامسة عشرة لانشاء الجامعة العبرية فى القدس . وكان من المقرر أن يلقي بيجين كلمة فى تكريم هيرتزل . ولكن حدث فى منتصف الاجتماع ، الذى حضره آلاف الطلبة اليهود ، أن مررت ورقة الى المنصة . وجاء فى المذكرة : « لقد دخلت الدبابت الروسية المدينة » . وشحب وجه الاستاذ الذى كان يتكلم عن الجامعة العبرية واقترح أن يرحلوا جميعا بأسرع ما يمكن . ووقف « بيجين » معلنا : « سنواصل عقد

الاجتماع حتى نهايته وسنختمه بالنشيد القومي « هاتيكفا » . وهب الحاضرون وانطلقوا يرددون النشيد القومي الصهيوني . ويقول « اسرائيل الداد » : « لن أنسى أبدا تلك المرة التي رددنا فيها « الهاتيكفا » . لقد ظننا جميعا أن هذه هي آخر مرة سننشد فيها « الهاتيكفا » بأوروبا .

وادر كادة « البيطار » آنذاك ان الوقت بدأ ينفد . فان الكرملين لم يكن بصديق للصهيونية ، التي كان يحتقرها بصفتها « انحراف قومي » عن الطريق الثوري . كما أن « ستالين » كان لا زال الحليف المقلق لهتلر . ولكن لم يكن لدى « بيجين » ورغلكه ما يردون به سوى أن يواصلوا ما كانوا يقومون به ، ويستمرروا في البحث عن منافذ لتهديب اتباعهم عبرها . وكانت « منظمة بيطار » تحتفظ بسجل لبطاقات عضوية أفرادها الموجودين « بفيلنا » . وعندما وصل الروس قام أحد الشبان — ممن تولوا فيما بعد مناصبا رفيعة بدولة اسرائيل بسحب بطاقته حتى لا ينكشف أمره . ففصله بيجين من البيطار على الفور .

وتلقى أعضاء حركة التصحيح في ذلك الصيف لكمة مزدوجة فلم يكدر أسبوع على دخول الدبابات السوفيتية الى ليتوانيا ، مما أنهى استقلالها الهش ، حتى توفي « فلاديمير زئيف جابوتنسكى » في الولايات المتحدة . وخاطر « بيجين » بحريته حيث اتجه الى « كوفنو » لالتقاء مريثة بالمعبد اليهودي الرئيسي هناك ثم توفي بعد شهر من رحيل « جابوتنسكى » ، أحد الاحبار البارزين في « فيلنا » واشترك خمسة عشر من أعضاء البيطار في جنازة الحبر التي اشترك فيها الآلاف من أعضاء الطائفة « الحسيدية المتطرفة » . وانسلخوا من الجنازة واتجهوا الى قبر شاب من المنظمة مات نتيجة للبرد القارس واصابته بالغرغرينا اثناء محاولته الوصول الى فلسطين . وأقام « بيجين » صلاة الجناز عليه وألقى كلمة قصيرة ثم رددوا جميعا نشيد « البيطار » ، بما يتضمنه من اعلان الايمان بأن اسرائيل سوف تقوم من بين الفساد والرماد . غير أن « بيجين » تأثر بوفاة معلمه بدرجة أكبر مما حاول أن يبديه .

وقد لفتت تصرفاته التي تنطوى على التحدى انظار البوليس السرى السوفيتى اليه . وتم استدعاء عضو بالبيطار الى مقر القيادة وسئل عما اذا كان يعرف « بيجين » وعندما رد بالاجاب قل له المضابط : « لقد ألقى كلمة رائعة بالمقابر أليس كذلك ؟ » وكان « ديفيد جوتان » من أهالى « فيلنا » وقد درس بجامعة . وفي أحد الايام ، أبلغه أحد معارفه القدامى بأنه وزملاءه ضمن القائمة التي وضعتها الروس بأسماء المطلوب القبض عليهم . وقام البوليس السرى السوفيتى بزيارة منزل والديه ، بيد أن « جوتان » كان قد ذهب على سبيل الاحتياط ، الى مكان آخر لينام فيه . وبذلك أخذ زعماء

« البيطار » حذرهم ، وانتقلوا من « فيلنا » الى قرية « بافيلنيوس » القريبة ، حيث قاموا بتأجير غرف متفرقة في بيوت الفلاحين .

وتلقى « بيجين » قبل مغادرتهم المدينة مباشرة استدعاء للحضور الى الغرفة رقم ٢٣ في مبنى مجلس مدينة « فيلنا » بشأن موضوع « الطلب الذى تقدمتم به » وأدى هذا الى تحذيره بدلا من ايقاعه في الفخ . فلم يستجب لهذه « الدعوة المهدبة » ، ولم يكن ذلك فقط الا لانه لم يتقدم بأى طلبات . وقد اختار « بيجين » الا يختبئ او يحاول الهرب . وفى كتاب « الليالى البيضاء » ، الذى يعتبر من اول الكتابات الادبية عن الحياة فى معسكرات الاشغال الشاقة « الجولاج » والذى نشر فى عام ١٩٥٧ ، قل « بيجين » : « كان هناك سبب بسيط وراء الجزء الاول من قرارى . فقد قلت لنفسى ، اذا كانت الحكومة السوفيتية ترغب فى اعتقالى ، فليتعب عملاؤها انفسهم ويحضروا الى منزلى ، فهذه هى مهمتهم ، ولماذا اختفى وكان الارض ابتلعتنى ؟ »

واضاف يقول بخبث : « أما السبب وراء الجزء الثانى من قرارى فلم يكن بمثل هذه البساطة ، ولا أريد أن أخوض فيه » . ولم يكشف « بيجين » عن هذا السبب الاخير الا بعد مرور عشرين عاما أخرى .

« لقد اظلمت الدنيا فى نظرى بعد وفاة جابوتنسكى . لم يكن « جابوتنسكى » بالنسبة لنا مجرد رئيس أو زعيم ، بل كان أكثر من ذلك ، فقد كان محل آمالنا ، وكلنا نتطلع اليه ليخرجنا من العبودية . . لقد ضاع الامل ذاته ، لقد رحل عنا ولم يعد هناك أمل . ولذلك فقد كنت ممهدا نفسيا لان اعتقل بواسطة السوفييت لاننا اذا لم نستطع ، كما قلت اثناء تجمعتنا حول قبر احد اعضاء « البيطار » ، ان نقاتل من أجل بلدنا فليس اقل من أن نعاني من أجله . وبصراحة تامة ، لقد كانت لحظة يأس متطاهى . لم يكن أمامنا بصيص من الضوء . ولذلك فقد كنت فى حالة نفسية تجعلنى أفضل الذهاب الى السجن . ولم اتكلم فى هذا حتى مع زوجتى . لقد قدم لى رفائى النعيم . . ولكننى رفضته » .

وعلى اى الحالات فقد انتقل زملاء منظمة « بيطار » الى « بافيلنيوس » ، حيث استأجر « بيجين » و « اليزا » بعض الغرف فى منزل احدى الارامل . وقاسمهم مسكنهم كل من « الداد » (الذى كان يعرف آنذاك باسم « يسرائيل شيب ») وزوجته « باتيا » ، وشخصان آخران ، أحدهما زوج شقيقة مسز « بيجين » . وكان عملاء البوليس السرى السوفيتى يتتبعونهم كظلمهم . بل ان « بيجين » كان يلهو بهم . فدعا « اليزا » للذهاب معه بالقطار الى « فيلنا » وقام بتعيين فريق من اعضاء البيطار لتتبع العملاء وكان العملاء يقتفون أثر « بيجين » وزوجته أينما ذهبا — وكان جواسيس بيجين يقومون بدورهم باقتفاء أثر العملاء . لقد كان الجميع يعلمون أنها لعبة

لم تستمر طويلا . وسخر بيجين في كتابه « الليالى البيضاء » من رجال البوليس السرى السوفيتى لافتقارهم الى المهارة التى يتميز بها المحترفون . فلقد كانوا مكشوفين تماما . ولكن ربما كان الامر ببساطة لا يسبب لهم أى شعور بالقلق . فلو أن قيادة « بيطار » غادرت « ليتوانيا » فالى غير رجعة ، أما اذا ظلوا بها فان رجال البوليس السرى سيستطيعون عندها يريدون ، أن يلقوا القبض عليهم .

وتحرك البوليس السرى فى ٢٠ سبتمبر ، أى بعد عشرة أيام من لعبة القط والفار . وشعر « بيجين » بالارتياح عندما سمع الطرق على الباب ، فقد عرف أخيرا أين يقف . ودخل ثلاثة رجال ، وقطعوا على « بيجين » و « الداد » ، مباراة الشطرنج التى كانا يلعبانها . وسأل قائد القوة عن السبب فى تجاهل « بيجين » للاستدعاء الذى أرسل اليه بالحضور الى مبنى مجلس المدينة . ورد عليه « بيجين » قائلًا : أنه لم يكن لديه شأن والبلدية . وانهم اذا كانوا يريدون الاتصال به فانهم يعرفون أين يجدونه . وطلب منهم « بيجين » بلهجة الرسمية الشبيهة بلهجة المحامين ، أن يكتبوا عن شخصياتهم . وأبرز قائدهم بطاقة شخصية تفيد بأنه من رجال المخابرات « اللتوانية » . وسألهم « بيجين » عما اذا كان معهم أمر كتابى بالقبض عليه ، ونفوا ذلك ولكنهم قالوا أنهم جاءوا على أى الحالات لاعتقاله . وصمم « بيجين » ، متشبها « بجابوتنسكى » ، على ألا يجبره أحد على التعجل ، وعلى أن يحتفظ بوثاقه . وطلب من « أليزا » تقديم الشاى « لضيوفهم » وبدأ يستعد للرحيل .

يذكر « الداد » هذه المناسبة فيقول :

لقد أدى « بيجين » ، ما أضفه بمثابة مقطوعة موسيقية . فقام بتلميع حذائه وارتداء حلة وربطة عنق ، وكان فى منتهى التهذيب . وفى النهاية طلبوا منه الذهاب فقال لهم : « أنا هنا فى بيتى ، فتفضلوا أنتم أولا . والتفت الى قائلا : « اننا سنواصل مباراة الشطرنج » . وتلقيت فيما بعد رسالة يخطرني فيها بأننى فى وضع الفوز ولذلك فانه ينسحب . ولم يكن هذا صحيحا ، فأننا لم نكن قد قمنا بتحريك القطع سوى خمس أو ست مرات . وقد سمحوا له بأن يأخذ معه التوراة وكتاب آخر فقط . وبكت زوجته . أما زوجته فلم تبك . . لقد كانت فى غاية القوة والتماسك » .

وبينما كان « بيجين » خارجا تحت الحراسة ، شاهد « ديفيد جوتان » وتبدلا نظرات ترم عن وقوع المحتوم وكأنهما يقولان : « حسنا ، لقد حدث المتوقع » وكان زملاء قائد منظمة « بيطار » واثقين من انه يواجه فترة سجن طويلة غير محدودة ، بالرغم من تأكيدات أنه سيعود سريعا . ومع ذلك فقد وجدوا صعوبة كبيرة فى اقناع « أليزا بيجين » بالذهاب معهم الى فلسطين

بواسطة أوراق هجرة مزورة . ويقول « جوتان » أنها كادت تصاب
بالهستيريا .

« أوضحت لها أن السوفييت لن يحفظوا « بمناحم » في « فيلنا » وإنهم
سيرسلوه الى سيبيريا أو أى مكان آخر مشابه . وأن الحدود ستغلق في القريب
العاجل . وأكدت أن السبيل الوحيد للضغط من أجل الافراج عنه هو عن طريق
اجراء اتصالات بالعالم الحر ، وبصفة خاصة بالولايات المتحدة . ولا يسعنا عمل
ذلك الا من فلسطين أو استنبول » .

وفي النهاية أمكن اقناع « اليزا » بالرحيل . فسافرت برفقة « إسرائيل »
و « باتيا » ، الى حيفا عن طريق « أوديسا » وتركيا . وكانت جماعتهم ضمن
٤٠٠٠ يهودى سمح لهم الروس بمغادرة « ليتوانيا » عبر « أوديسا » و
فلاديفوسك ، ودفعت اللجنة المشتركة ، ألفى دولار عن كل فرد سافر عبر
« أوديسا » وأربعة الاف دولار عن المجموعة التى سافرت عبر « فلاديفوسك » .
واتجهت المجموعة الاولى الى فلسطين بينما سافرت المجموعة الثانية الى الولايات
المتحدة .

وأمكن ابلاغ « بيجين » ، فى زنزانته الكريهة الرائحة بسجن « لاكيشكى »
نبا فرار زوجته وذلك من خلال احدى اللغز التى تقوم على التلاعب بالكلمات
والتي يحتاج حلها الى جهد ذهنى مضمّن ولكن بمجرد ان تعرف الحل قانه يبدو
لك فى غاية السهولة . فقد أرسل له بعض الاصدقاء لفافة تحتوى على بعض
الملابس الشتوية الثقيلة . وعندما حل بيجين اللفافة وجد بداخلها منديلا
مطرزا عليه بطريقة بدائية « أولى » . ولاول وهلة ، لم يفهم لماذا كتب اسم
التدليل الذى يطلقه على زوجته بتلك الطريقة بدلا من هكذا : « آلا » . ولكن
فى النهاية استطاع أحد زملائه اليهود بالسجن أن يحل له اللغز . فان كلمة
« آولا » هى تأنيث للكلمة العبرية « أوليه » التى تعنى حرفيا « من يذهب الى
اعلى » ولكنها ترمز أيضا الى « المهاجر الى فلسطين » . وقد تأكدت صحة
هذا الحل للغز فى مايو عام ١٩٤١ عندما سمح لاقارب المسجونين بزيارتهم .
وطلب « بيجين » السماح لزوجته بزيارته ، على احتمال ألا تكون قد رحلت
بعد . وحضرت بدلا منها فتاة من جماعة « بيطار » بفيلنا ، تدعى « بولا دايتشيز »
وقالت له ان العمة « آلا » موجودة مع العم « شيمشون » . وفهم « بيجين »
المغزى المقصود فورا . فان العم « شيمشون » هو « شيمشون جونيكرمان » ، زعيم
« بيطار » فلسطين . ثم استطردت « بولا » تقول : ان والديه فى صحة طيبة
وكذلك اخوته الموجودون مع العمة « آلا » . وحيث أن « بيجين » لم يكن لديه
سوى أخ واحد فقد أدرك انها تعنى ان رفاقه قد نجحوا أيضا فى الفرار . وطلب
« بيجين » من « بولا » ان تكتب خطابا الى العمة « آلا » وتبلغها فيه أنه فخور
بهم جميعا ، « وقولى لها انى فى صحة طيبة واننى سأعود اليهم » .

وقد أعاد « بيجين » الى الازهان اللغز المبني على التلاعب بلفظي «آلا»
و « أولا » بعد أن طواه النسيان بمدة طويلة وذلك عندما أهدى نسخة من كتابه
الليالى البيضاء الى « دافيد جوتان » بعبارة تقول : الى « ديفيد الذى لولا
ما أصبحت «آلا» هى أولا — أى ما أصبحت زوجته « آلا » مهاجرة
الى فلسطين .

ولكن شامت الالدار ان يمر عليه عامان عصيبان قبل ان يتمكن من الرفا.
بوعده ويعود اليهم مرة أخرى .

الفصل الرابع

الانتقال الى « الجولاج »

سأل « مناحم بيجين » نفسه بعد أن أمضى تسعة أشهر مسجوناً في مقر رئاسة البوليس السرى السوفييتى بفيلنا ويسجن « لوكيشكى » البارد ، لماذا ينتهى أمر الكثيرين ممن يحتجزهم البوليس السرى السوفييتى بالاعتراف ؟ وقد بحث « آرثر كوستلر » هذا اللغز ذاته فى روايته عن عمليات التصفية الجسدية التى مارسها الكرملين ، والتى نشرت تحت عنوان « الظلام وقت الظهيرة » . وكلن جواب « كوستلر » على ذلك التساؤل هو أن قدامى البلاشفة ظلوا على ولائهم للثورة مهما ساورتهم المخاوف من تطرف ستالين وإسرافه . وقد أدركوا أن المرء الذى تنابيه الشكوك والريبة فى سلامة الطريق الذى يسلكه الحزب إنما يعرض الثورة للخطر وذلك فانه « يستحق » أصابته برصاصة فى مؤخرة رأسه . ولم يكن « روباشوف » بطل كوستلر ، ضحية للبوليس السرى فحسب بل كان ضحية أيضاً لمنطقه الشيوعى .

وخطأ « بيجين » بسؤاله خطوة أخرى : لماذا يسلك المسجونون السياسيون الآخرون الذين يخلصون لمثل عليا أخرى غير الشيوعية ، نفس الطريق الى العدم ؟ وتوصل تفكيره الى أن السبب فى هذا يكمن فى « حائط الشك » الذى يقيمه البوليس السرى السوفييتى حول فريسته ، وهو الحائط الذى لا يحرمه فقط من حريته بل أيضاً من جمهوره ، فيقول :

إذا ما أدرك المناضل أن خدماته لم تعد ذات قيمة ، وإن أحداً لن يستمع لكلماته أو يعرف بالموقف الذى اتخذته ، كما أن أحداً لن يتلقف توضيحته من بين يده ويتعلم منه كيف يضحى ، فإن الخيط الذى يربط بينه وبين مثله العليا سينقطع فى الغالب . وعندئذ سوف ينمحي تماماً ادراكه الداخلى برسائله وسوف تتسائل نفسه المعذبة : من الذى سيعرف ؟ من الذى سيتبعنى ؟ من الذى سيحل مكانى ؟ .

ما أهمية معاناتى وما الهدف من العذاب الذى أقاسيه ؟ .

وأضاف « بيجين » الى ما سبق عاملاً إضافياً توصل اليه من تجربته الذاتية ، وهو الحيلة المعتادة التى يمارسها المحققون : حرمان المسجون من النوم ، وهو جزء لا يتجزأ من أى عملية استجواب يجرىها السوفييت . لقد كان البوليس السرى يعمل أساساً خلال الليل ، ويتم إعادة السجناء الى

زنزاناتهم قبل موعد الاستيقاظ مباشرة . وبمجرد ان يغلبهم النعاس ، يحين وقت الاستيقاظ . وكان النوم محظورا اثناء النهار . وكانت الاوامر الصادرة الى الحراس تنص على مراقبة السجناء بدقة وتهديد كل من يغفو اثناء النهار بالسجن الانفرادى اذا تكرر منه ذلك ويقول « بيجين » عن هذه التجربة :

« يأتي الليل حاملا فى طياته ظلام الاستجواب الجديد . . المرة تلو المرة . . والليلة تلو الليلة ، طوال الاسابيع والاشهر ، طوال الزمن اللانهائى . يبدأ الضباب يتكاثف داخل رأس المسجون الذى يجرى استجوابه . . ويكاد الاجهاد يزهدق روحه ، وتهتز ساقاه تحته ، ولا تصبح لديه سوى أمنية وحيدة مطلقة وهى : أن ينام ، كم يتمنى أن ينام ولو لفترة وجيزة ، أن يستلقى ولا يقوم أن يستريح وينسى . وأن ينام ، أن يموت ، أن ينام العدم » . ان كل من جرب هذه الرغبة الجامحة يعلم أن الجوع والعطش لا يمكن مقارنتهما بها . لقد التقيت بسجناء وقعوا على الوثائق التى أمروا بالتوقيع عليها ، بهدف واحد فقط وهو أن ينالوا ما وعدهم المحققون به - النوم بلا ازعاج » .

وقد عانى « بيجين » ، وفقا لاقواله ، من هذين النوعين من غسيل المخ « فقد وضع فى عزلة تامة الا من جيرانه المباشرين ، والبرقيات التى كانت ترسل بأسلوب النقط والشرط عبر جدران ومواسير السجن . ونادرا ما كانت تتاح له فرصة للنوم . وبدون محاكمة صدر ضده حكم بالسجن لمدة ثمانى سنوات بصفته « عنصرا خطيرا على المجتمع » . لقد ثار ضابط البوليس السرى انسوفيتى وأعلن غاضبا : « محاكمة . أمنحوه منصة يمارس من فوقها مهارته الخطابية » ومع ذلك فان « بيجين » لم ينهاه . وعندما اعترف فى نهاية الامر ، فانه فعل ذلك وفقا لشروطه الخاصة . فقد رفض التوقيع على مستند يقول : « اعترف بانى مذنب بتولى رئاسة منظمة « بيطار البولندية » واستطاع بعد ليلة متواصلة من المناقشات اللانهائية ان يقنع المحقق بالغناء الفقرة التى تشير الى الاعتراف بالذنب . واقتصر اقرار الاعتراف على تسجيل حقيقة بسيطة ومحددة بوضوح : « انى اعترف باننى كنت رئيسا لمنظمة بيطار البولندية » . لقد استطاع « بيجين » ان ينهك المحقق من خلال المناقشات المضنية ، تماما كما فعل مع كل من تباحث معهم فيما بعد . وصرخ المحقق صائحا وهم يقودون « مصدر عذابه » الى زنزانتة : « اغرب عن وجهى ، فأنا لا أريد ان تقع عيناي عليك مرة اخرى ابدا » .

كيف استطاع بيجين ان يصمد ؟ ان كتاب « الليالى البيضاء » لا يجيب مباشرة على السؤال ، ولكن يمكن للمرء ان يستشف الاجابة من بين طياته لو انه قرأه بامعان . لقد تعامل « بيجين » مع تجربة الاستجواب ، بل ومع تجربة السجن بأسرها وكأنها مباراة ذهنية أو مباراة شطرنج قاتلة . لقد كان يفكر : كيف يعمل النظام ؟ ما الذى يحاول المحقق الوصول اليه ؟ لقد

ساعدته هذه التساؤلات التي كان يوجهها الى نفسه مثلما يحاول غيره أن يحل المسائل الرياضية ، على الاحتفاظ بعقله ، وبمعاييره ، واحترامه لذاته . . . لقد حافظ على نفسه من ان ينقلب الى حيوان .

وحاول المحقق بما لديه من خبرة اعوام طويلة في السياسة الصهيونية . ولكن كان « بيجين » عنيدا ومتزمتا ومتكبرا . وعلى الرغم من انه كان يعلم ان الانتصار على المحقق لا قيمة له فقد رفض أن ييسر له بلوغ الهدف . ورفض تلميذ « جابوتنسكى » الموافقة على أن الصهيونية ليست الا انحرافا قومييا برجوازيا ، وان زعيمه ، الذي كان قد توفى مؤخرا ، كان أداة للامبريالية البريطانية . وكان صمود « بيجين » وروح المقاومة التي يتمتع بهما أمرا غريزيا فكان يناقش ويوجه المحقق ، بالرغم من ان هذا الاخير كان تلميذا بليدا ، وربما جعله يدفع ثمن جرأته ووقاحته غاليا . لقد كان يتصرف تصرفا بطوليا غير علني ومجرد من أى غرض سوى البطولة ذاتها ، تماما كما فعل « زئيف دوف بيجين » عندما لكم الرقيب البولندى الذي حاول اجتذاذ ذقن الحبر . لقد كان ينفذ مفهوم العزة والكرامة التي غرسها « جابوتنسكى » فى نفوس تلاميذه من فتيان وفتيات البيطار . لقد كان الطرفان يتجادلان ، وهما يشعران بأن ثمة شيء يجبرهما على ذلك . وكتب « بيجين » يقول : « كنت اشعر أحيانا انه قد نسى دوره كمحقق تماما كما نسيت انا دورى كشخص يجرى التحقيق معه » .

ولكن كان التمرين الليلي على المجادلة يساعده أيضا على أن يسنمر طاميا فوق السطح . وقال : « لقد كانت التحقيقات بالنسبة لى عبارة عن مناظرة بين عقيدتى ضد عقيدته ، فكان لدى ما أقاتل من أجل الدفاع عنه حتى داخل حجرة التحقيق كما كتب يقول عن عملية تحدى لاحقة : « أنا أناضل ، ونذا مانا موجود » . ولم يتخل « بيجين » أبدا ، فى الوقت ذاته ، عن الامل فى اطلاق سراحه ، حتى فى اكثر اللحظات يأسا ، حينما فكر فى ارسال ورقة طلاق مشروطة الى زوجته « اليزا » . وكان السبب فى ذلك يرجع جزئيا الى أن « بيجين » رضخ رغما عنه فى النهاية لمحاولات المحقق فى أن يجعله يتأقلم . فقد وعده بمنحه فترة لاعادة تعليمه . وتساءل بيجين « هل سأعيش حتى نهاية فترة اعادة التعليم ؟ هل سأكملها وأعود ؟ » يقول « ميرون شيسكين » ، رفيقه فى السجن والزعيم السابق لحركة التصحيح ، فى بولندا ، أن « بيجين » لم يفقد الامل اطلاقا فى أنه سيخرج كان كلانا يعرف أنه أينما ذهبنا فانا سنذهب فى النهاية الى اسرائيل . لم تكن المسألة عقيدة دينية ، انما كانت شعورا راسخا فى نفوسنا . وكان « بيجين » يدرك أن نتائج الحرب الدائرة خارج جدران السجن ، مشكوك فيها ، وأن اصدقائه فى الغرب يبذلون الجهود من أجله . لقد كانت المثررة المعلة بين رفاق « بيجين » فى الزنزانة تؤكد أن « هتزر » سيوجه مدافعهم فى القريب العاجل نحو حليف « المصلحة »

شابا أصبح فيما بعد جنديا برتبة مساعد عريف ، كما أصبح اثناء وجوده بالسجن تلميذا « بيجين » . وقد اثار هذا الشاب دهشة الرخلين الاكبر منه سنا عندما عاد الى الكنيسة . وكان زميله البولنديان بالزنزانة لا يكادان يخفيان شعورهما بالعداء للسامية والمتأصل في نفسيهما ، ومع ذلك فقد حزن « بيجين » على مراقبه لهما . وفي هذا الصدد يقول بيجين :

« كانت توجد حواجز تفصل بيننا ، بل اننا كنا نتعارك ، ولكننا تمكنا من التعرف على بعضنا البعض ، وتعلمنا كيف نتفاهم وننتساح . وكنا قد أصبحنا بالفعل بمثابة مجتمع صغير ، له عرفه وتقاليد . ولم امارس هنا التدريس الا قليلا ، ولكنني تعلمت كثيرا . ولقد مررت هنا بتجربة الاستجواب كما اتخذت هنا قرارا مؤلما .

وقد تم وضع « بيجين » خلال فترة انتظار انتهاء المحاكمة وصدور الحكم في زنزانة جماعية تضم ستة عشر سريرا لينام عليها حوالى ستين سجينا . وكانوا ينامون على الأرض . وكان رفاقه في هذه المرة يتكونون من لص يهودى ، وضابط بولندى برتبة كولونيل يبلغ من العمر ٧٨ عاما ، ويعاتب باثر رجعى لأنه كان قد حارب في صفوف جيش القيصر . وكان معظم المسجونين الذين انهاروا تحت ضغوط الازدحام والجوع ، هم من أولئك الأشخاص الأتوياء البنية ، الذين اعتادوا على الحياة في الأماكن المفتوحة . أما المفكرون « الضعفاء والضعفاء البنية » ، كما وصفهم « بيجين » في كتابته وهو يشعر ببعض الرضا عن النفس ، فانهم لم يمرضوا أو يشتكوا ، لقد بدا كأن ارواحهم كانت بمثابة الدطامة التى تسندهم ، وتقوم بهمة الدرع الذى يحى أجسادهم ، ولقد اشتركت المجموعتان في اعلان الاضراب عن الطعام احتجاجا على عدم احداث أى تغيير في نوعية طعامهم الذى كان يتألف باستمرار من نوع من الحساء الخفيف غير الشهى المصنوع من الحبوب ويعرف باسم « كاشا » ، ويصف « بيجين » هذا الحساء في اكتئبه فيقول : « ان رائحته كانت تزكم أنوفنا فعلا لقد كان حساء « الكاشا » كريها بالنسبة لنا ولم نعد نتحمل تناوله مرة أخرى » . وانتصر المهربون بعد بضعة أيام . ولأول مرة منذ شهرين متواصلين قدم لهم حساء مصنوع من أوراق الكرنب المفيدة بدلا من « الكاشا » الكريهة . وكانت تلك هى الفترة التى علم فيها « بيجين » ، من خلال « تليغراف » السجن ، بوجود « ميرون شيسكين » في الزنزانة المجاورة وأبرق اليه زعيم « حركة النصح » ببولندا ، والذي يكبره باثنى عشر عاما ، برسالة — عن طريق النقر على الحائط — يستفسر فيها عن صحة « جلوبوتنسكى » . وشعر « بيجين » بجرح وأسى لعدم معرفة « شيسكين » بنبا وفاة « جلوبوتنسكى » ، ولكنه أبلغه به بعد فترة وجيزة . وذهل « شيسكين » ووضع قبعته على رأسه وهلا صلاة البنائة . ولقد ردد زملاؤه في الزنزانة كلمة « آمين » فى نهاية الصلاة بالرغم من أن أحدا منهم لم يكن يهوديا .

وأثناء فترة عيد الفصح اليهودى ، اشترك « بيجين » و « شيسكين »
فى زنزانة واحدة . ويقول « شيسكين » متذكرا :

« كنا نأخذ جرايتنا اليومية من الخبز ونغمسه فى القهوة ثم نضعه
على النافذة ليجف ، وبذلك كنا نحصل على خبز « الماتزا » (أو الخبز
اليهودى غير المختمر) وكنا نتلو صلاتنا : « ان هذا هو خبز بلاثنا ، نحن
اليوم عبيد ولكننا سنكون فى العالم القادم رجال أحرار ، ونحن اليوم موجودين
هنا ، ولعلنا نكون فى العام القادم بالقدس » . وكنا نغنى بعد ذلك نشيد
الحركة الصهيونية : وكنا نسمع أصوات ترد علينا من أماكن مختلفة
بالسجن . ان المسجونين اليهود يرددون النشيد ، حتى بالرغم من حظر
المظاهرات » .

وقد نجا الزعيمان الصهيونيان من العقاب بصورة أو بأخرى . ولكن
الحظ تولى عن « بيجين » عندما سمعه أحد الحراس اليهود يروى « نكتة » ،
وظن انه هو المقصود بها ، فاشتكى الى مدير السجن ، الذى سارع
بالحكم على « بيجين » بقضاء سبعة أيام فى الحبس الانفرادى . وقد قبل
الحكم من وجهة نظر فلسفية ، فاعتبره دورة دراسية جديدة فى الاساليب
التي يتبعها البوليس السرى السوفيتى وفى فن ولغة الحبس .

« لقد انقضت الايام السبعة ولياليها . لقد أدى الحبس الانفرادى
الى اصابته بضعف شديد ، ولكنه تعلم منه الكثير . لقد تعلم من الحر
الخانق أثناء النهار ومن البرد القارس فى الليل ، ومن القذارة والرائحة
الخائقة الخاصة بالقفص الخالى من النوافذ ، ومن عدم وجود أى غطاء ، ومن
الرطوبة والارض القذرة المصنوعة من الاسمنت التى كنت افترشها للنوم
والتي كانت مرتعا للفئران — لقد تعلم من كل هذه الاشياء أن ثمة أماكن
أسوأ حالا من زنزانة السجن ، تماما كما تعلم فيما بعد أن ثمة أماكن أسوأ
من زنزانة الحبس الانفرادى » .

وقد استطاع « بيجين » أن يتحمل أسبوع الحبس الانفرادى الذى
لم يتناول خلاله سوى الخبز والماء ، ولكنه لم ينس أبدا خيانة الحارس
اليهودى الذى كان يعمل فى خدمة البوليس السرى . وقد ضم « بيجين » هذا
الموظف المجهول الى قائمة « الابالسة » التى يحتفظ بها فى ذاكرته وتضم
أيضا المحقق اليهودى ذا الكلام المعسول الذى حثه باللغة اليديشية على أن
يعترف « بالحقيقة » ، وكذلك المترجم الصهيونى الركيك الذى كان يتعبد
عند ضريح لينين ، وساوم « بيجين » على النصوص التوراتية الخاصة
بهيرتزل ، ثم الحلاق اليهودى الذى كان يعمل بالسجن والذى كان يؤدى
الاعمال القذرة نيابة عن « سيده » بتهيته « للزبائن » برواياته الساذجة عن
الحياة فى معسكرات الاشغال الشاقة ، وكان هناك آخرون فى حياة « بيجين »
من أمثال أولئك المرتدين . ولم يتساهل « بيجين » معهم أبدا حتى عندما أصبح

رئيسا للوزراء فكان يستخدم تعبير « ذلك اليهودى المتكبر » ، بلهجة استنكارية في وصف أى يهودى يحاول خطب ود العدو الفلسطينى أو يحاول تلقينه درسا فى واجبه القومى . وكان هذا الاسلوب أسهل أحيانا فى الرد عليهم من مناقشة المسائل التى كانوا يثيرونها .

وعلى الرغم من أن فترة التسعة أشهر التى أمضاها « بيجين » فى سجن « فيلنا » كانت فترة عصيبة ، إلا أن الايام اثبتت انها لم تكن سوى نهيد لنزوله فى « المكان الأسوأ من زنزانة الحبس الانفرادى » أو « ارخبيل جولاج » الذى وصفه « الكسندر زولشنتسن — فى رواية بهذا الاسم — بالجحيم السوفيتى » الذى يتلقف لرجل والنساء الموصومين لسبب أو آخر ، بانهم أعداء الثورة ، فيطويهم النسيان ويتحولون الى ما يشبه المحفريات المتحجرة » . وبالرغم من أن اقامة « بيجين » هناك لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر فانها تركت فى نفسه عداا أبديا للروس والشيوعية ، وحماسا للحرب الباردة ظل راسخا فى نفسه حتى ما بعد « الوفاق » بكافسة اشكاله .

وبدأت رحلة المعذاب بحركة تمرد كان يمكن اعتبارها فى ظروف أخرى مجرد محاولة بسيطة للترويح عن النفس ، حيث رفض المسجونون الذين كانوا ينتظرون نقلهم أن يتناولوا طعامهم من المبصقات . وكان سجن «لوكشكى» مكتظا بدرجة انه لم يكن يحتوى عددا كافيا من الاطباق لكل المسجونين . ولكن المسجونين كانوا يرون أن المبصقات صنعت خصيصا لعملية البصق ، حتى لو لم تستعمل فى ذلك الفوضى وصمد المسجونين لمدة يومين . وكما حدث من قبل بالنسبة للاضراب عن الطعام ، انتصر المسجونون ولكن بثمن باهظ : فقد حصاوا على عدد قليل من الاطباق والفناجين كانوا يضطرون الى تداولها من يد الى أخرى ، ومن ثم الى آخر ، ومازالت بقايا الحساء أو القهوة عالقة بها . وكتب بيجين يقول فى ابتهاج ولكننا تناولنا طعامنا ، ولم نتناوله من المبصقات .

وكان « بيجين » واحدا من الفئ سجين تم ترحيلهم فى اوائل شهر يونيو سنة ١٩٤١ من « فيلنا » الى الشمال . وكانت وجهتهم التى لم يكونوا قد عرفوها بعد ، هى معسكر « بيتشور » للاشغال الشاقة على نهر « بيتشورا » ، الذى يتدفق عبر منطقة التندرا الشمالية ليصب فى بحر « بارنتس » المتجمد الذى يقع جنوب الدائرة القطبية الشمالية مباشرة . وكانت الرحلة التى بلغ طولها ١٥٠٠ ميل أشبه ما يكون بالكابوس حيث تم حشرهم فى القطارات والبواخر النهرية التى استقلوها فى أعداد أكبر مما لو كانوا ماشية . فقد كانت كل عربة من عربات قطار السجن مصممة بحيث تسع أربعين شخصا أو ثمانية خيول ، وجندى حراسة . بيد ان الروس تمكنوا بشكل ما من حشر ما يقرب

من سبعين سجيناً في كل منها . وكانت كل عربة مزودة بفتحة ماسورة متجهة نحو القضبان تستخدم كمرحاض ، وطابقين من الاسرة الخشبية المثبتة في الجدران . فإذا اختار المرء النوم في الطابق الاعلى فإنه يعاني من الجشع اما اذا اختار الطابق الاسفل فإنه قد يتعرض للاختناق . وكان الهواء يدخل من نافذتين صغيرتين في اعلا العربة . ولم يكن يتم فتح الباب الا ثلاث مرات في اليوم : مرتان لاحصاء عدد المسجونين ومرة لاطعامهم وجبة واحدة لا تتنوع عبارة عن خبز وسمك مهلج . وكان السائل الوحيد الذي يدخل جوهمهم هو ماء لم يسبق غليه ، يشربونه من جردل . وقد شاهد « بيجين » الحراس في احدى المرات وهم يملأون الجردل من بركة راكدة يغطيها وحل لزج اخضر اللون . ومع ذلك فقد شربه .

واستغرقت رحلة القطار ستة اسابيع تقريبا تخللتها وقفات كانت تستمر عدة ايام لاسباب غير معروفة . وعلم المسجونون وهم في الطريق ان المانيا قد اعلنت الحرب على الاتحاد السوفيتي . وابتهج البولنديون واللتوانيون فان عدويهما سيشتبكان مع بعضهما البعض . ولم يكن « بيجين » يدري ان الحرب الجديدة نحو الشرق والمنذرة بالشر ستؤدي قريباً الى منحه حريته . وكان الخط الحديدي محطاً بعد مدينة كوتلاس : « لقد اهتزت بنا العربات وكأننا في سفينة تهتز في وسط عاصفة هوجاء واصيب كثير منا بدوار « قطار » وقىء مستمر وانهكت قوانا واستغرقنا في النعاس . ولم يعد أحد منا يتفوه بكلمة واحدة » .

وغادر السجناء القطار عند محطة صغيرة اسمها « كوشفا » ثم سلخوا على الاقدام لمدة خمس ساعات عبر جقول موحلة حتى وصلوا الى معسكر الترحيلات . وقام جنود مدججون بالسلاح وكلاب متوحشة بحراستهم . وصاح أحد الضباط ان أى شخص يخرج من الصف سيتعرض لاطلاق النار عليه . وتجاذب « بيجين » ، أثناء المسيرة أطراف الحديث مع أحد الجنود الذى أكد له في قسوة : « لا أحد يخرج من هنا حياً » . وثشق المسجونون طريقهم من معسكر الترحيلات عبر اراضى المستنقعات حتى ضفاف نهر « بيشورا » ، حيث تم شحنهم على قاطرة سفينة نارية مع شحنة من القضبان الحديدية . وتعرف « بيجين » من حديث أجراه مع حارس آخر ، على بعض ما ينتظره من برؤس . وقال له الحارس وهو يشير بابهامه الى اللقطة التي يحملها « بيجين » ، وتتضمن حلقاته المتواضعة « سترى ، انهم سيأخذونها منك » . ولم يفصح عن يقصد بكلمة « هم » .

وقد تم نقل « ميرون شيسكين » و « ديفيد كروك » وهو صديق آخر لبيجين من التصحيحين : على نفس القطار المتجه نحو الشمال ، وسكن في

عربات مختلفة . وعند وصولهم الى معسكر « بيتشور » ، قام « كرول » ، الذى يتصف بسعة الحيلة ، برشوة احد الضباط لوضع ثلاثتهم معا فى مستشفى المعسكر . وقد كلفهم ذلك ثلاثة قمصان من لفافاتهم الثمينة . لقد أصبحوا فى منطقة « الليالى البيضاء » حيث تكاد الشمس القطبية لا تغيب أبدا ، ويستمر الشتاء تسعة أشهر فى السنة ، وكان على المرضى أن يركضوا مسافة ميل تقريبا وهم نصف عرايا فى درجة حرارة تقل عن الصفر حتى يصلوا الى مبنى الحمام . وقيل لبيجين : « ستعتاد على هذا ، والا فانك ستموت » . وقد خشي « بيجين » فى أول ليلة له بمبنى المستشفى ، من أن يهلك ، وذلك عندما كاد يلتهمه جيش من البق الاحمر وعن ذلك يقول :

« لقد ظلت اعداد هذا العدو الرهيب المصمم على امتصاص دمي ، تتزايد باطراد . وحاولت اللجوء الى استخدام تكتيكات مختلفة لتضليله ، فغيرت وضعى فى السرير ، ولكن لم تفلح هذه المنورة . فان العدو أمسك بى ورفض التخلّى عني . ولم تغض لى عين فى تلك الليلة . وقد حدث نفس الشيء لجميع المستجدين الآخرين ، أما المخضرمون فقد ناموا مثل الملائكة . لقد استطاعوا أن يعتادوا عليه » .

وبعد أن أمضى « بيجين » أسبوعا فى المستشفى ، بدأ تكليفه بالعمل فى بناء الخط الحديدى الممتد من « كوتلاس — فاركوتا » ، « بأمر من الحزب والحكومة » . وكان زملاؤه فى العمل خليطا متباينا من الافراد ، فكثفوا يتكونون من روس وبولنديين ، ولتوانيين ، ولتفانيين واستوانيين ، ورومانيين ، ويهود . وكان من بين الفئة الأخيرة مساعد رئيس تحرير مفضوب عليه بصحيفة براندا ، يشكو من مرض فى القلب وحرارة مرتفعة ترفض النزول عن ٣٨ درجة ولكن سرعان ما أدرك « بيجين » ان التمييز الهام الوحيد هو ذلك القائم بين المسجونين السياسيين والمجرمين . وكان للمجرمين اليد العليا حيث كثفوا يتباهون بقوتهم الجسمانية ويرهبون المفكرين الحقراء . وعندما قام أحد المجرمين بسرقة معظم حاجياته أثناء نومه ، أدرك بيجين قصد الحارس . انهم فعلا « أخذوها كلها » ، ولكن بالتقسيط !

وكان السجناء يقومون بنقل قضبان حديدية الى مسافة ربع ميل من مركب ترسو عند نهر مانشورا ، عبر جسر خشبى ضيق ثم عبر الحقول حتى حربة سكة حديد منتظرة . وكثفوا يعملون بمصاحبة فرقة موسيقى نحاسية تعزف الاناشيد التى تشدو بعظمة الانجاز السوفيتى . وكانت القضبان التى يحملها المسجونون — واحد على كل كتف — تسلخ الجلد ، وتسبب آلاما مبرحة . ومما ساعد على مضاعفة الألم ، طول الناموس التى كانت تحوم طوال ساعات النهار الممتدة وعلى مدى أربع عشرة ساعة يوميا . ويشكو « بيجين » فى مذكراته قائلا : « ان الناموس يزن ويلدغ ، ثم يشرب

ويزن .. ليس هناك أى مهرب منه » . وكانت الظروف التى يعمل المسجونون فى ظلها أسوأ من الظروف فى السجن ، بالرغم من أنهم كانوا يعملون فى الهواء الطلق . لقد كان البرد قارسا بدرجة لا تحتمل . وكان الرجال يتقاتلون من أجل كسب مكان بالقرب من المواقد . وقد لقي اثنان من الفتيان اليهود كلنا يشاركان « شيسكين » فى كوخه ، حتفهما نتيجة للتجمد من الهرد . وكان العمل مضمنا بينما كانت الجراية اليومية أقل من أن تقيم الاود . وقال بيجين فى مذكراته « لقد شاهدت على ضفاف » البيتشورا « حيوانات تسير على قدمين » . وكسرا لللال ، كان يتم تبديل ورديات مجموعات العمل كل عشرة أيام من فترة النهار الى الليل . ونتيجة لهذا النظام لم تتح لهم أية فرصة ليوم من الراحة الاسبوعية » .

وفى صباح أحد الايام ، بينما كان « بيجين » فى طريقه الى العمل ، سأل أحد الحراس : « هل أنت بولندى ؟ فأخذ « بيجين » بدقته المعهودة يشرح له انه يهودى وان كان مواطنا بولنديا ، ولم يكن الحارس مهتما بمثل هذه الفروق الدقيقة ، فان لديه أخبارا يريد نقلها اليه . فقد سمع فى الاذاعة أن السلطات أصدرت عفوا عن جميع المسجونين البولنديين ، واتفقت الحكومتان البولندية والسوفيتية على اطلاق سراحهم حتى ينضموا الى القتال الدائر ضد الالمان . وتأكدت المشاعة ، عندما قرأ قائد المعسكر نص القرار فى « البرافدا » ولكن ذلك لم يكن سببا كافيا ، من وجهة نظر « العالم » البيروقراطى الموجود فى « الجولاج » ، للافراج عن البولنديين ولم يكن قائد المعسكر قد تلقى بعد تعليمات بذلك . وعلى هذا فيجب عليهم أن يعملوا ، حتى حصوله على تلك التعليمات ، من أجل تحقيق ما أصبح بمثابة « هدف مشترك » لقهر العدو الالمانى . وواصل « بيجين » وزملاؤه ، لعدة أيام أخرى ، أداء أعمال السخرة فى معسكر « بيتشورا » للاشغال الشاقة ، وهم يحملون القضبان ويتضورون جوعا ويحكون جلودهم .

وبدلا من وصول الأمر بالافراج عن البولنديين ، تلقى قائد المعسكر أمرا بإرسال مجموعة من الرجال الى معسكر آخر على النهر نحو الشمال ، حيث يمكن استغلالهم فى أعمال أكثر فائدة . واختار المسجونون البولنديون « بيجين » للاعتراض نيابة عنهم . فما فائدة إرسالهم الى معسكر الشمال لو كان سيفرج عنهم قريبا ؟ ولكن لم يكن القائد يملك من الأمر شيئا . وكان أقصى ما يستطيع أن يقدمه لهم هو أن يمدهم « اذا وصل الامر بالافراج عنكم فاننا سنأخذكم حتى من على السفينة لنرسلكم الى الجهة التى من المفروض أن تذهبوا اليها » .

وكان « بيجين » واحدا من ثلثمائة رجل حشروا على ظهر ناقلة بضائع ، أبحرت لمدة ثلاثة أسابيع على نهر « بيتشورا » ولم يكن فوقها مكان للوقوف أو التحرك أو حتى للجلوس ، بل كان على الشحنة الآدمية أن تنام ليلا

ونهارا فوق سراير خشبية ترتفع الى ثلاثة طوابق على جانبي جدران العنبر الذى تفوح منه رائحة كريهة خائفة . وكانوا يشربون من مياه النهر الباردة الامر الذى أدى الى اصابة معظمهم بالاسهال . ولم يكف المرحاضان البدائيان لاستيعاب هذا الضغط عليهما . وتعرض المسجونون كذلك لهجوم جيوش القمل . واخذ المجرمون يتهمون على المسجونين السيليسيين ويجمعون الحشرات ويلقونها على وجوههم . ورجا مساعد رئيس تحرير البرافدا المفضوب عليه والذي كان واثقا من أن المجرمين يهدفون قتله - رجسا « بيجين » أن يساعده على ترديد نشيد « الهاتيكفا » الذى يتذكر أجزاء منه منذ أيام شبابه فى « اوديسا » .

وكانت محنة « بيجين » والبولنديين قد اقتربت من نهايتها ، وان لم يكن الامر كذلك بالنسبة لليهودى الروسى من « البرافدا » فقد وفى قائد المعسكر بوعدده فعندما وصل أمر الافراج أخيرا بلغه الى ناقلة البضائع ، واصبح من المقرر اطلاق سراحهم قبل حلول أسوأ فترة فى شتاء الشمال القارس . وتردد صوت أحد الحراس داخل العنبر هاتفا : « بيجين » ثم بدا يردد الاسماء ، الاسم تلو الآخر ، وفقا للترتيب الابجدي . ورد كل واحد منهم على النداء بترديد اسمه واسم أبيه ، وعلى راسهم « مناحم وولفوفيتش » . واعلن الحارس : على الذين ناديت اسماءهم ان يجمعوا حاجياتهم ، فقد صدرت الأوامر بالافراج عن البولنديين . ستصبحون أحرارا . وسيطرت الغيرة على أحد المجرمين من غير البولنديين ، فأشار الى « بيجين » وقال محتجا : « انه من « الزيد » (أى يهودى حقير) وليس بولنديا . وتجاهله « مناحم وولفوفيتش » ، فهذا لم يكن الوقت المناسب للحساسيات .

الفصل الخامس

الاتجاه شرقا نحو المقاومة السرية

أخلى سبيل المسجونين البولنديين حتى يقتلوا الألمان ولكن دون أن يواجههم أحد الى مكان مكتب التجنيد الذى يشرف عليه الجنرال « فلاديسلاف أنديرز » ، وتركوا ليتوصلوا الى المكتب بمفردهم . فقد أقلهم الروس فى سفينة الى معسكر ترحيلات ، ومن هناك منحوا أوراق الافراج عنهم من « الجولاج » بلا أى تعقيدات . ومنح كل واحد من البولنديين مبلغا من المال وأطلق سراحه . وقد حصل « ميرون شيسكين » على مبلغ يكفيه للقيام برحلة تستغرق ثلاثة أيام بالقطار الى « كويبيشيف » ، حيث حاول اقناع البولنديين بتشكيل كتيبة يهودية على نمط فيلق « جلوبوتنسكى » الذى اشترك فى الحرب العالمية الاولى ، ولكنهم قاموا بدلا من ذلك بتعيينه ضابط اتصال يهودى برتبة ميajor بمكتب « أنديرز » .

ولسبب غير مفهوم ، لم يتم الافراج عن « ديفيد كرول » صديق « بيجين » الاخر من « حركة التصحيح » ، والذى كان قد اسندت اليه مسئولية الاشراف على مجموعة العمل ، وذلك على الرغم من انه جاء معهم الى معسكر الترحيلات . وظل « بيجين » يعتقد لسنوات طويلة بعد ذلك انه استشهد فى الشمال النائى . ولكن فى أوائل الثمانينيات جاء يهودى روسى الى اسرائيل قادما من منطقة جبال الاورال ، ليقول : ان « كرول » « حى يرزق » ، ويبلغ تحياته الى بيجين و « شيكسين » وأبلغهم انه يطلب منهما ارسال شال من النوع الذى يستخدمه اليهود فى الصلاة . غير أن الزائر أبلغهما بعد ذلك وقبل أن يتمكن من تلبية طلبه ، أن « كرول » توفى فى حادث طريق .

ولم تكف النقود التى حصل عليها « بيجين » ، لسد احتياجاته مدة طويلة . فشق طريقا عبر برارى آسيا الوسطى السوفيتية بواسطة القطار ، الذى كان يركبه بدون تذكرة ، وينام على الارض الوعرة ، ويأكل كلها كانت تسنح له الفرصة وسط هذا « القطيع المشرذم » من المسجونين السابقين الذين كانوا يتجهون على غير هدى نحو الجنوب أبان الأشهر الأخيرة من عام ١٩٤١ . لقد تعلم سر البقاء أثناء حياته فى المعسكرات : « انك تستطيع التعود على كل شئ » . وكان واضحا ان الجيش البولندى لا يهتم باليهود الذين كانوا قد أصبحوا مثل خيال المآتة ، مهما كان ما أثبتوه من قدرة على التحمل . ورفض طلب « بيجين » ، فواصل طريقه يحدوه الأمل فى العثور على اخته

« راشيل » وزوجها الذي كان قد تم ترحيله قبل اعتقال « بيجين » في « نيلنا » .

وسمع « بيجين » في احدى الليالي ، وهو ينعس عند محطة سكة حديدية ، واحدة من « المتشردات » وهى تحكى عن مناجم النحاس في « الاورال » ، وذكرت المرأة ، التى كانت تنتظر مثل « بيجين » أن تسنح لها الفرصة لركوب القطار بلا مقابل ، اسم « هالبرين » . وسألها « بيجين » دون أن يسمح لآماله بالتحليق عاليا ، عما اذا كان « هالبرين » هذا الذى ذكرته هو محام من وارسو ، وعما اذا كان اسم زوجته — بالصدفة هو « راشيل » . وشاء الحظ أن ترد على تساؤلاته بالإيجاب . واستطاع « بيجين » بمساعدة تلك المرأة ، أن يصل الى أخته وزوجها واجتمع شملهم مرة أخرى فيما وصفه بكوخ « حقر مبنى من النطين في بلدة أوزبيكية صغيرة ، هى بلدة « دزيراك » الواقعة فيما بين « طشقند » و « سمرقند » ولم يدم وجودهم معا مدة طويلة . فقد سمع « بيجين » أن الروس قد بدأوا مرة أخرى يلقون القبض على الزعماء السياسيين اليهود ولما كان ماضيه معروفا حتى في أوزبكستان ، فقد انتقل الى مدينة « مارجيلان » حيث كانت ترابط الفرقة التاسعة البولندية ثم علم من أخته بعد أسابيع قليلة أن « أشخاصا لا تعرفهم » قد جاءوا الى كوخها واستفسروا عن مكانه .

كل « بيجين » قد قابل في « مارجيلان » الميجور « شيسكين » واثنين آخرين من أعضاء حركة « البيطار » ، الذين قدموا له الطعام والمأوى . وبموجب اقتراح من « شيسكين » ، قاموا باستدعاء « يوهاتان بادر » محامى حركة « المتصحيح » الذى كان يعيش في المنفى بروسيا . لقد كانت شبكة اتصالات « البيطار » ما زالت تعمل بكفاءة واستطاع « بادر » قطع مسافة ١٢٠٠ ميل سيرا على الأقدام ، والوصول الى مكان الاجتماع بالرغم من نفشى وباء التيفود الذى قتل عشرات الآلاف من الناس وقد وجد « بادر » أن « بيجين » ، بفضل مضيفيه من أعضاء البيطار ، كان بحالة أفضل مما كان يتوقع . واستفسر « بيجين » ، الذى كان يرتدى « جاكته » من الجلد وحذاء برقبة عالية ، عن كيفية الوصول الى فلسطين والقيام بثورة ضد البريطانيين . ويعود « بادر » بذاكرته الى الورا فيقول « كان كلانا يوافق على أن المهمة الأساسية في « ارتزاسرائيل » أى أرض اسرائيل التاريخية) هى محاربة الحكومة البريطانية . ومرة أخرى بدأ واضحا أن « بيجين » لم يحد عن هدفه نتيجة لوجود بريطانيا في حالة حرب مع النازى . بيد أن بادر أوضح أنه ليس هناك سبيل للحصول من السوفييت على تصريح خروج وانه من الأفضل أن ينضم الى الجيش البولندى . وقال « بيجين » ، متأملا بعد مرور عقد من الزمان ، قام خلاله بالثورة : « لا اظن أنه قدم لاحد ، على مدى حياته كمحام ، نصيحة أفضل من هذه » .

غير أن « بيجين » كان محجبا عن تعريض نفسه للكشف الطبى على الرغم من أنه كان يدرك حكمة هذا الأمر . فقد تعرض من قبل للرفض لأسباب صحية ، وشعر أنه جرح في كبريائه . بيد أن صديقيه الأكبر سنا « بادر » و « شيسكين » أقنعا بأن يحاول مرة أخرى . وأعلن الطبيب في هذه المرة أيضا عدم لياقته . وقال ان قلبه مريض ونظره ضعيف ، فكيف يكون جنديا لائقا ببولندا الام ؟ ولم يرض شيسكين بترك الأمور عند ذلك . فتفاوض سرا والميجور « لنيك » رئيس أركان قائد الفرقة . وأجرى الضابط البولندي اختبارا شخصيا لبيجين ، ثم أرسل مذكرة الى طبيب الجيش تتضمن تعليمات اليه باجازة لياقة الجندي المستجد للخدمة ولم يكن الطبيب قد نسى حـالـه . « بيجين » القلبية أو نظارته ولكنه تغاضى عن شكوكه . فأعلن صائحا « القلب والرئة في حالة ممتازة » . وحتى لو كنت قصير النظر ، فإني ستتعلم في الجيش كيف تصيب الهدف جيدا . وكان التحاق « بيجين » بالجيش البولندي ، بمثابة نقطة تحول في حياته . فقد أدت به الى فلسطين والى قيادة منظمة « أرجون زفاى ليوى » . ولكن المسألة أبان عام ١٩٤٢ ، لم تزد عن كونها مقامرة . فلم يكن لدى زعماء « حركة التصحيح » الموجودين آنذاك في « مارجيلان » أى تأكيد بأن جيش الجنرال « اندروز » سوف يرسل الى « الأرض الموعودة » . ويقول « بادر » : « لم تكن المسألة تزيد عن مجرد اعتقاد شائع ، ولم تكن أية قرارات قد صدرت بعد » . ولكن المخاطرة أتت أكلها .

وكانت تجربة « بيجين » البولندية في هذه المرة ، كسابقتها ، غير مشجعة اطلاقا . فقد تلقى تدريبه البدنى في جو يسوده العداء للسامية والاهانات والاذلال . وكان عزاؤه أن هذا الوضع لن يستمر طويلا . فأرسلت وحدته جنوبا عن طريق ميناء « كرازلوفودسك » الى ايران والعراق ثم شرق الاردن . وكانت الضفة الغربية للاردن قد أصبحت فعلا فى نظر « بيجين » هى « أرض اسرائيل » . . . أرض الاجداد .

وكتب في مذكراته فيما بعد يقول : « توقفت القائمة العسكرية لنستريح . وغادرت العربى وسرت الى مسافة قريبة عبر الحشائش واستنشقت ملء رئتى من هواء وطنى القومى » .

عين « بيجين » فى مايو ١٩٤٢ كاتبا فى القدس ، حيث عمل فى مكتب الميجور المسئول عن المدينة . وقد ظل بيجين جنديا عاديا الى أن أصبح رئيسا لوزراء اسرائيل عندما قامت الحكومة البولندية فى المنفى بمنحه رتبة بريجنير جنرال باثر رجمى . والتقى « بيجين » وزوجته « اليزا » مرة أخرى فى القدس حيث انتقل للاقامة بالحجرة التى تستأجرها بالدور الارضى

فى المنزل رقم ٢٥ شارع الفاسى بضاحية « زحافيا » الظليلة والمنفصلة لى اساتذة الجامعة والمحامين والاطباء اليهود من الطبقة المتوسطة ، وحيث تسدد الاحاديث باللغات الالمانية والعبرية والانجليزية على السواء . وقد ولد اول ابناهما « بنيامين » فى شهر مارس ١٩٤٣ .

وانغمس « بيجين » لفوره فى الشئون السياسية « لحركة التصحيح » ، ولكنه ، على خلاف الجذور اليهود الآخرين ، رفض ترك الجيش البولندى ، وقال بيجين لمشريكه القديم فى لعبة الشطرنج ، « اسرائيل الداد » ، الذى اصبح عضوا نشطا فى « عصابة شتيرن » : « لقد وعدت وعد شرف ، واقسمت يميننا . . ولن اترك الخدمة » . بيد انه عين رئيسا لحركة « البيطار » فى فلسطين ، « وهو ما زال فى زيه العسكرى . ولكنه سرعان ما استقال من هذا المنصب عندما علمت المباحث الجنائية البريطانية والمخابرات ، وبدأوا يتحررون الامر . ومع ذلك ، كانت تجرى استشارته فيما يتعلق بمشاكل « منظمة أرجون زغاي ليوى » ، وكان يزور معسكرات التدريب التابعة للمنظمة سرا . وبدأ الحديث يتردد فعلا عن توليه قيادة المقاومة السرية على الرغم من اغتقاره الى الخبرة العسكرية .

كانت « الارجون » قد وصلت الى درجة متقدمة من القدهور عندما وصل « بيجين » الى فلسطين . فقد ضاع منها المهدف بوفاة « جابوتنسكى » ، وما تلا ذلك من انشغاق « افراهام » شتيرن عن الجماعة ، وفقدان قائدها الشاب الملهم « دافيد رازيئيل » ، الذى قتل فى مايو ١٩٤١ ، اثناء قيامه بمهمة سرية فى العراق بتكليف من البريطانيين .

وقد شهد « ايثن ليفنى » ، الذى أصبح عام ١٩٤٣ ، رئيسا لعمليات منظمة أرجون ، بأن « المنظمة كانت فى غاية القوة عندما وقع الخلاف » .

« كان الجيش البولندى يزودنا رسميا بالاسلحة التى يبعثها لنا افراد شعبنا فى بولندا . وكان فى استطاعة الارجون استدعاء اربعة الوية ، أى حوالى اربعة آلاف عضو للقتال . وكنا نملك عدة آلاف من البنادق ، وعدة مئات من المسدسات ، وعشرات من المدافع شبه الآلية التى قمنا بتجهيزها من فنلندا ، وبضعة عشرات من المدافع الآلية البولندية الثقيلة ، كما كنا نملك قنابل نقوم بتصنيعها بأنفسنا . وكانت تلك الاسلحة تعتبر حديثة آنذاك .

« وعندما وقع الخلاف ، اختفت معظم هذه الاسلحة ، وانضم حوالى ثمانمائة رجل من بين اربعة آلاف رجل الى « شتيرن » . وبقي فى صفوف « منظمة أرجون » اقل من ألف رجل . أما الباقون فقد تحلوا عن مواقعهم متذرعين بأنه لم يعد فى وسعهم الاختيار بين الجماعتين الموجودتين — وربما

كانوا صديقين في زعمهم هذا . وكلفت المأساة الكبرى هي أن أحدا لم يكشف عن مكان مخبأ الاسلحة . ولم يعد لدى « الارجون » بعد وقوع الشقاق سوى عدد ضئيل من الأفراد النظاميين المتفرغين لا يؤيدون عن الدسنة تقريبا . أما الباقون فقد واصلوا العمل في وظائفهم . وكان يتم استدعاؤهم للتدريب ولاداء مهام خلصة . وانضم ما يقرب من نصف عدد رجالنا — أى خمسمائة رجل — الى الجيش البريطاني في الفترة بين عامي ٤٢ — ١٩٤٣ تماما كما فعل كثير من المنشحبين » .

هذا وقد خلف « يعقوب مريدور » « يسرائيل » ، حيث رثى من الصف الثاني من قيادة « الارجون » بعد الشقاق الذي وقع مع « شتيرن » . ويؤكد « ليفنى » أنه كان محبوبا : « وكان يترك انطبعا طيبا لدى المحيطين به ، وكان يبدو في صورة « الصابرا » الحقيقي (من ولد في اسرائيل) ، الذي تمتد جذوره عميقا في الارض ، ويعيدا تماما من صورة القادمين من الشتات . وكنا نعتبر « مريدور » ، آنذاك ، افضل الخيارات املنا . ولكنه أصاب كل مواليد (فلسطين) والقادمين الجدد من أوروبا بخيبة الامل . فقد وجدده « ليفنى » مغرطا في الخيال :

« لقد اثبتت الايام أن مريدور ، لم يكن رجلا عمليا وكان يختار الذين يعملون معه من بين رفاقه ، ولكنه لم يكن موفقا دائما في اختياره . وقامت المؤامرات ، في منتصف عام ١٩٤٣ ، داخل القيادة العليا . . ولم يستطع « مريدور » أن يجمعهم حوله . لقد كان دائما ودودا ، وكان من بين القلة المتزوجة بيننا . وقد حاول أن يتصرف كانه يرأس جماعة من الزملاء الذين يتساوون في الكفاءة . وربما كلن قد توصل الى استنتاج ذاتي بأنه لا يتمتع بالقوة والجاذبية الشخصية اللائقة بثائد أعلى » .

وسدق « دافيد جوتان » ، رفيق « بيجين » من « فيلنا » على هذا بقوله :

« لم يكن مريدور ، يتمتع بشخصية قوية لائقة بالموقف . لقد كان صادقا ، ويتمتع بخبرة عسكرية واسعة ، كما كان محبوبا . ولكن الظروف كانت تستدعى في ذلك الحين وجود شخص يتمتع بزعامة شعبية . ولم يكن « مريدور » طموحا ، لقد كان شجاعا اثناء العمليات ولكنه في الواقع مغرطا في التواضع .

وتحولت الانتظار ، بصورة متزايدة ، نحو « بيجين » ، ولكن كان لابد أولا من اخراجه من الجيش البولندي . ولما كان من الصعب اقناعه

بترك الجيش تلقائيا ، كما كان من الصعب تسريحه من الجيش بأسلوب شريف ، فان المسبيل الوحيد الباقي كان العمل على أن يمنحه البولنديون أجازة طويلة الاجل ، مع احتمال مدها . واستندت هذه المهمة الى «مايك كاهان» المحامي البالغ من العمر ٤٠ عاما ، الذى قدم من وارسو . وقد وصل «كاهان» الذى كان من التصحيحيين فى وارسو ، الى فلسطين قبل بضعة أشهر من وصول «بيجين» . وكان مسئولا خلال الثلاثينيات عن الاتصال بالنظام البولندى الحاكم والذى كان يعرف كثيرين من أعضائه منذ أن كان فى المدرسة والجامعة ، كما كان وسيطا فى الحصول على جوازات السفر وتأثيرات الخروج لأعضاء « منظمة بيطار » ، فضلا عن أنه كان قد تلقى تدريباً عسكرياً ، وكان من حقه ارتداء زى « الوحدة الخاصة » فى سلاح طلبة الكلية العسكرية . وقد تعرض هو أيضا الى الترحيل للعمل فى معتقلات الشمال الروسية ، قبل أن يفرج عنه لينضم الى الجيش البولندى . وتمكن « كاهان » عندما كان يخدم فى العراق ، ومن خلال معارفه السابقين ، قبل الحرب من أن يحصل على تسريح من الجيش لأسباب صحية . واتجه الى فلسطين مستخدماً تصريح أجازة . أما بالنسبة لحقبة الاتصال التى كانت ستؤدى الى خروج « بيجين » من الجيش وانضمامه للمقاومة السرية ، فقد كانت مزورة .

فقد كان « كاهان » يزور بالنظام الادارة الاعلامية البولندية بالقدس ، حيث قابل « تريزا ليكوكوسكى » ، التى كانت من الارستقراطية البولندية واحدى قريبات رئيس بولندا ، الجنرال « فلاديسلاف سيكورسكى » . وكانت « تريزا » مهتمة بالمسألة اليهودية ، فتولى « كاهان » تعريفها بالصهيونية . وتبنى « كاهان » فكرة استغلالها فى القيام بحملة دعائية بولندية - يهودية مشتركة فى الولايات المتحدة ، يروج فيها لجهود « هيليل كوك » وغيره من « التصحيحيين » هناك . واقترح كاهان ان يقوم البولنديون ، كجزء من هذه الخطة بتسريح بعض الجنود اليهود ويرسلونهم للقيام بجولة فى أمريكا . وفى ذلك الوقت ، عاد « ارياه بن - اليعازر » ، الذى كان احد مندوبى الارجون فى الولايات المتحدة ، الى فلسطين ، حاملا معه « البوما » يتضمن صورا تبين كيف قام « التصحيحيون » بتجنيد نجوم المسرح والسينما فى حملتهم من أجل انتقاذ اليهود من أوروبا التى تخضع للهيمنة النازية . وربما كانت الصور تتبالغ بعض الشيء فى تقدير تأثير هؤلاء المندوبين ، بيد أنهم حازوا ، أعجاب البولنديين ، فطلبوا تزويدهم بقائمة بأسماء الجنود اليهود الذين يمكن ارسالهم الى الولايات المتحدة . وكان اسم « بيجين » من بينها ، ولكن بدا أن المؤامرة قد دفنت فى الرمال عندما رفضها البريطانيون .

الا أن الخطة أمكن انقاذها عندما نقلت قيادة الاركلن العامة البولندية من العراق الى «ريجو عوت»، الواقعة بين المقدس وتل أبيب . وأجرى «كاهان» بعض الاتصالات مع كبار الضباط ممن كان يعرفهم في وارسو . ولم يحصل على رد فوري ، ولكنه تلقى في يوم خائف الحرارة من أيام خريف عام ١٩٤٣ ، دعوة لتناول الغداء مع أحد الجنرالات (وهو الجنرال نفسه الذي دبر له مسألة تسريحه من الجيش) . وقال له الجنرال : « لقد صدقت اليوم على منح كل رجالك اجازة طويلة الأجل » . وكان « بيجين » من بينهم ، حيث حصل على اجازة لمدة عام ، على شرط أن تبدأ المجموعة مباشرة في أداء مهمتها بالولايات المتحدة ولقد اعترف كاهان فيما بعد قائلا : اننا لم تكن ننوي اطلاقا ، ارسال « بيجين » الى هناك . وعلى أى الحالات فان البريطانيين لم يسمحوا لهم بالسفر ، ولم يكثر البولنديون باستدعائهم مرة أخرى . ويقول « مريك كاهان » « لقد كان الضباط البولنديون متعاطفين مع منظمة « الارجون » .

ولم يكن طريق الوصول الى قيادة الارجون ممهدا تماما . فعلى الرغم من أن مريدور لم يكن يمانع في أن يعمل تحت قيادة بيجين كمنقلب له ، فان غيره من كبار الضباط كانوا يرون ضرورة اسناد هذا المنصب الى رجل عسكري واعترضوا على « بيجين » لانه وافد حديثا على البلاد وليس لديه خبرة في تخطيط العملية أو كقائد ميداني . بل أن بعض القادة الاقليميين الذين شعروا بالاحباط نتيجة لعدم تحقيق طموحاتهم ، « تركوا » بعد أن استولى « الببطار » البولندي التي كانت أكبر مصدر لتزويد الارجون « بالقوة البشرية » وخاصة بالنسبة للمسنويات العليا . ولو كان « ارباه بن اليعازر » لم يغادر فلسطين ويسافر الى أمريكا عام ١٩٣٩ ، لاصبح منافسا قويا لبيجين حيث انه كان رجلا يجمع بين القدرة على الخيال والقدرة على العمل . بيد ان « بن - اليعازر » كان يشعر بأنه ابتعد عن المسرح اكسر من المطلوب وان عمله في الخارج جعله ملفتا للانظار اكثر مما ينبغي . ولذلك فقد التقى بكل ثقله وراء ترشيح « بيجين » . وكان « بن - اليعازر » قد عاد أساسا للبحث عن العلة في عدم فعالية « الارجون » ، وكان تشخيصه هو افتقار المنظمة للزعامة . يقول « ايتان ليفني » في هذا المصدد : لقد كان هو الذي اقنع مريدور بضرورة الانسحاب ولقد استطاع ان يفعل ذلك بأسلوب ناعم مثل التحرير . كان « بن - اليعازر » الشخصية السياسية الوحيدة الاخرى التي كان « بيجين » يتعامل معها على أساس الندية كما كان يشاوره بشأن استراتيجيته الخاصة بالثورة .

واتفقت الاغلبية العظمى من قادة الارجون مع « بن - اليعازر » على حاجتهم الى قائد يستطيع اشعال جذوة النار القديمة للمنظمة واحياء ثقنها بنفسها . ووفقا لاقوال « ديفيد نيف » العضو المخضرم في « الارجون » ، والمؤرخ الرسمي

لها فان « المسألة لم تعد ، بحلول نهاية عام ١٩٤٣ ، مجرد مسألة تحطيط عمليات عسكرية ، لكنها كانت مسألة اتخاذ موقف . لقد حان الوقت لان يتولى الحركة رجل سياسة بدلا من قائد عسكري محترف ، فان كل القرارات اصبحت تحتاج الى حساسية سياسية » . وكانت هذه المواصفات تنطبق تماما على « بيجين » ، فهو يحظى بالاعجاب ، وكانت سمعته الثورية تسبقه في كل مكان ، كما انه كان يملك الادراك السياسى اللازم . أما المعرفة العسكرية ، فهو يستطيع الحصول عليها من غيره .

الفصل السادس

انتهاء الهدنة

قال « ايتان ليفنى » ، رئيس عمليات منظمة « ارجون زفاى ليهوى » ، « مناحم بيجين » فى نهاية عام ١٩٤٣ : « ان القرار الذى ستتوصل اليه سيتم تنفيذه . فانى ورجالى على أهبة الاستعداد » وبذلك أصبح « بيجين » هو القائد الاعلى الجديد « لمنظمة الارجون » الذى أعلن من أول فبراير عام ١٩٤٤ ، التمرد على الحكم البريطانى ، دون أن يعوقه عن ذلك ادراكه أن « ليفنى » ما كان يستطيع أن يدفع الى الميدان بأكثر من ستمائة مقاتل مدرب وكان « بيجين » قد كتب مسودة النداء المدوى الذى وجهه الى يهود فلسطين . بينما كان لا يزال نفرا فى الجيش البولندى ، أى قبل عدة اشهر من ذلك التاريخ . والان حان الوقت لطبعه فى منشورات ورفعته على اللافتات . ولم يكن الحلفاء قد أنزلوا بعد قواتهم على ساحل نورماندى ، وكانت بريطانيا لا تزال مشتبكة فى المعركة مع العدو المشترك ، ألمانيا النازية ، ولكن كانت الهدنة بين اليهود البريطانيين قد انتهت فى نظر « بيجين » الذى أعلن : « ان كل فرد يهودى بوطننا القومى سيقاقل » . وكما رأينا من قبل ، فان « بيجين » لم يكن لديه ، على أية حال ، فائض من الصبر ليضيفه على تلك الهدنة . وقد أدى ما علمه عن المذابح التى تعرض لها يهود أوروبا ، وما شاهده فى فلسطين من تطبيق عنيد للقيود فرضها « الكتاب الابيض » ، الذى صدر عام ١٩٣٩ ، على الهجرة اليهودية ، ومن تصدقاس للمراكب المحملة باللاجئين - أدى كل هذا الى تقوية حدة مشاعره الفطرية التى كانت قد دفعته الى معارضة « جابوتنسكى » منذ ستة أعوام . لقد آن الأوان للنضال و « لتحطيم الأبواب من الداخل » .

وأعلن :

« لقد مرت أربعة أعوام على بداية الحرب ، وتبخرت كل الآمال التى ذخرت بها صدورنا وكأئها لم تكن . ان أحدا لم يمنحنا مكانة دولية ، ولم يتم انشاء جيش يهودى ، ولم تفتح الأبواب المغلقة بهذا البلد . لقد أحكم النظام البريطانى خيائته المخزية للشعب اليهودى ، ولذلك لم يعد هناك أى أساس معنوى لبقائه فى أرض اسرائيل التاريخية .

« اننا نعلن بلا أدنى خوف انتهاء الهدنة بين الشعب اليهودى والادارة البريطانية فى أرض اسرائيل ، والتى تسلم اخواننا لهتلر ، ان شعبنا يعلن

الحرب على هذا النظام - الحرب حتى النهاية . وتنحصر مطالبنا فيما يلي : نقل السلطة فوراً داخل أرض إسرائيل التاريخية الى حكومة انتقالية عبرانية .

لقد وصم « بيجين » البريطانيين بالتواطؤ مع هتلر . فان ما يعرفه كان كافياً لاقتناعه بأنهم كانوا يشاركون ، على الأقل ، المعادين للسامية في سلبيتهم وعدم اكتراثهم بمصير اليهود . وقد أدرك « بيجين » هذا على الرغم من عدم تمتعه بموهبة النظر الى الماضي من خلال منظور تحليلي والتي يملكها المؤرخون . ولم يكن يرى أمامه حلاً بديلاً للقتال . ومع ذلك أعلن « بيجين » ان قتال « الارجون » سيكون نضالاً سياسياً بالأساليب العسكرية . فان « بيجين » رجل السياسة ، كان يفرض قيوده الخاصة : فمنظمة « الارجون » ، على خلاف « عصابة شتيرن » ، لم تكن تقاتل الامبراطورية البريطانية ، بل كانت حربها موجهة ضد الادارة في فلسطين ، وليست ضد الحكومة والأمة البريطانية . وكان « بيجين » يصر ابان مفاوضات علم ١٩٤٤ التي دارت من أجل توحيد الجماعتين المنشقتين ، على ضرورة كف أعضاء « عصابة شتيرن » عن استخدام تعبيرات مثل « المحكم الاجنبى » و « الاستعمار البريطانى » في دعايتهم . وعندما تسأل زعيما « عصابة شتيرن » ، « ناتان يليين - مور » و « اسحاق شامير » عم يستخدمان من عبارات بدلا من ذلك ، اقترح « بيجين » استخدام تعبير « المحكم الظالم » .

ولم يكن اصرار « بيجين » المعتاد على ضرورة الدقة اللفظية ، والذي كثيراً ما كان يثير الغيظ ، يهدف الى مجرد الالتزام بعلم معانى الكلمات . فكان يرى أن مسئولية تنفيذ السياسة البريطانية المناهضة للصهيونية تقع أساساً على عاتق الادارة الفلسطينية . ولذلك فان الواجب يحتم توحيد القتال ضد الادارة في القدس بدلا من الحكومة في لندن التي يجب اقناعها بأن سياسة تلك الادارة تتسم بالافلاس ، وبالتالي فانها ستجبرها على تغيير سياستها الجارية بأخرى أكثر تعاطفا تجاه قضية اليهود . وعند ذاك ستعترف لندن بأن اليهود هم القوة الفاصلة وستضع ثقتها فيهم وتعتمد عليهم بدلا من العرب . وغنى عن القول ، أن أعضاء « عصابة شتيرن » لم يتأثروا بمنطق « بيجين » .

وقد كتب « بلين - مور » يقول :

« حاولت ان اشرح له ان التصور بإمكانية الفصل بين الادارة المحلية وحكومة لندن ، ليس الا وهما . وانه غير قائم على أساس من الواقع . ويجب علينا أثناء حرب التحرير ، ضرب الجهاز العصبى للمحكم البريطانى فى لندن . ان « أرض إسرائيل » ليست لها أهمية بالنسبة للامبراطورية البريطانية سوى انها قاعدة عسكرية لفرض المحكم البريطانى على دول المنطقة ، وكمحطة على الطريق الى المستعمرات والممتلكات التي تقع نحو الشرق .

وتمسك « بيجين » بموقفه مؤكدا أهمية التفريق بين التعبيرين ، وذلك في الاجتماع السرى الذى استغرق خمس ساعات مع « موشيه سنيه » ، الذى كان آنذاك نائبا لقائد قوات « الهاجاناه » الدفاعية ، والذى كان يعرفه منذ أن كان طالبا فى وارسو . وقال « سنيه » ، أثناء نقاشهما الذى امتد طوال احدى ليالى شهر أكتوبر ١٩٤٤ ، « لقد قمت باعلان الحرب على انجلترا » فصيح له « بيجين » معلوماته قائلا : « ليس على انجلترا ، انما على الحكم الظالم ، فان انجلترا ليست عدوا لنا ، ان هذا هو ما يقوله أعضاء « شتيرن » انهم يشنون حربا ضد العدو الانجليزى » .

ولما كانت بريطانيا ، على هذا الاساس ، ليست العدو وكنت قواتها تحارب النازيين ، فقد فرض « بيجين » على رجاله الالتزام بضبط النفس : فعليهم ان يمتنعوا تماما عن مهاجمة أى أهداف عسكرية حتى تضع الحرب فى أوروبا اوزارها ، وبالمثل ، لم يكن للارجون اية مصلحة فى اغتيال افراد الجنود أو الضباط أو رجال الشرطة البريطانيين . وبدلا من ذلك فقد جعل « بيجين » هدفه هو النيل من مكانة بريطانيا ، وكان يقول ان كل هجوم يعتبر من وجهة النظر السياسية انجرا ، حتى لو لم يكن ناجحا عسكريا :

« لقد تعلمنا من التاريخ ومن المشاهدة ان نجاحنا فى تدمير مكانة الحكومة فى « أرض اسرائيل » ، سيؤدى تلقائيا الى انهاء حكمها . وبمذ تلك اللحظة فصاعدا لم نكف عن مهاجمة نقطة الضعف هذه . وظللنا طسوال سنوات نمردنا نوجه الضربة الى مكانة الحكومة البريطانية ، عمدا ، ومن غير هواة وباستمرار » .

« فان مجرد وجود مقاومة سرية لا تتأثر بالاضطهاد أو بالشنق أو التعذيب أو الترحيل ، وان هذه المسائل لا تؤدى الى قهرها أو اضعافها ، لابد وأن يؤدى فى نهاية الامر الى تقويض مكانة أى نظام حاكم استعمارى يبنى وجوده على تصور غير واقعى لقدراته الشاملة . ويعتبر كل هجوم توجهه المقاومة ويفشل النظام فى منع وقوعه ، بمثابة ضربة موجة الى مكانته . وحتى لو لم ينجح الهجوم فانه يترك ندبة فى تلك المكانة ، وتبدأ تلك الندبة تتسع لتصبح شرخا يمتد مع كل هجوم لاحق » .

واكد « بيجين » فى حديثه مع « سنيه » أن الهدف هو اجبار بريطانيا على اعادة تقويم سياستها ، واضطرارها الى الجلوس الى مائدة المفاوضات حيث لم يكن فى وسعها المخاطرة بتعريض نفسها للاذلال فى نظر الدول العربية .

« ان هذا الشيء لن يستطيع البريطانيون ابتلاعه ، ولن يستطيعوا تجاهله . انهم يسكتون اليوم على هذا ولكن عندما تتصاعد موجة نشاطنا ،

فلن يستطيعوا ابتلاعه . وسوف تأتي اللحظة التي سيضطرون عندها الى التفاوض معنا : ان ما نقوم به سيؤثر على القرارات السياسية » .

وكان « بيجين » يؤدي « معزوفته » أيضا أمام متفرجين امريكيين . وقال ان الولايات المتحدة تريد مد نفوذها الى الشرق الاوسط وأكد ان اى انهك لقوة بريطانيا في المنطقة سيكون اضافة لصالح الامريكيين . وفي الوقت ذاته ، فان استمرار الاضطراب في الشرق الاوسط من شأنه ازعاج الامريكيين بينما هم يحاربون اليابانيين . ولذلك فقد كانت لديهم مصلحة في التسوية . وأعرب « بيجين » لـ « سنيه » عن توقعه ان يستيقظ الرأي العام الامريكي ، ويجبر بريطانيا على تغيير اتجاهها .

وبدا « بيجين » يمارس نشاطه في فلسطين باندفاع كبير نحو تحقيق امانيه بالتأثير في كل من العرب وزملائه اليهود على السواء . لقد كن يؤمن بان الصهيونية ظلت طوال ٢٥ عاما في خطأ جسيم ، حيث كانت تتعامل مع العرب على أنهم أعداء ، تاركة للبريطانيين فرصة التحكم من وراء الستار . وحاولت « جماعة ارجون » ان تبين في عملياتها وفي المنشورات ، التي قامت بتوزيعها في المدن والقرى العربية ، ان المعركة الدائرة انما هي معركة بين اليهود والبريطانيين . وعرضوا على العرب ، تمشيا مع مفاهيم « جابوتنسكي » المتمتع بالمساواة والحكم الذاتي ، طالبا منهم يقبلون ان يعيشوا كأقلية في دولة يهودية . أما اذا لم يرضوا بذلك ، فان اليهود سيثبتون لهم أنهم يعرفون كيف يمارسون فن القتال . ولقد كلن هذا أسلوبا تكتيكيا أكثر من كونه تفكيرا فلسفيا . ففي عام ١٩٣٨ لم يتردد « ارجون » ، تحت قيادة « رزائيل » في الانتقام بوحشية من المدنيين العرب كرد على الهجمات العربية ضد اليهود ، ولم تتردد ، وهي تخضع لقيادة « بيجين » اعتبارا من عام ١٩٤٧ ، في مواصلة العمليات الانتقامية ضدهم .

ولقد صدم « بيجين » ، عندما كان وافدا حديثا نسبيا من أوروبا ، ازاء استكانة واستسلام « اليشوف » - اى طائفة يهود فلسطين . وتساءل في مناقشاته مع « سنيه » : بماذا ضحى « اليشوف » ؟ أنهم لم يساهموا الا بالقليل في حملة جمع الأموال ، والتعبئة وأعمال الاغاثة ، وكانوا يكتفون باغلاق حوانيتهم لبضعة ساعات قليلة في مناسبات الحداد ، ولكن كانت المقاهى مفتوحة وكان اليهود منشغلين بتحقيق الارباح . وأوضح ان « منظمة ارجون » تحاول ان تثبت لهم ان واجبههم يحتم عليهم القتال ، وأن هناك شبابا في سن صغيرة مستعدون لان يضحوا بأرواحهم . وادعى « بيجين » بأن اليهود يساندونه ، على الرغم من كراهيتهم لحظر التجول وما الى ذلك

من اساليب العقوبات الجماعية « اننا نزكى مشاعرهم ونعدهم للحرب .
وينزون الاعداد المسبق ، فان « اليشوف » لن يهبوا للكفاح في اليوم المحدد .
اننا نعددهم لهذا اليوم » .

وذكر « بيجين » « لسنيه » ، الذي جاء بصفته الممثل الشخصي « لديفيد
بن جوريون » ، ان المتنافس بين الجماعات العسكرية المختلفة يخدم هدفا
مفيدا من حيث توزيع الادوار : « فالشيرنيون » يقومون بتنفيذ استراتيجيات
مبنية على الارهاب الفسردى ، بينما يقوم « الأرجونيون » بتنفيذ عمليات
عسكرية متفرقة في حين تستعد قوات « الهاجاناه » للدخول بثقلها في المعركة
النهائية . الا أن هذه كانت نظرية افتراضية ربما كلفت لها جاذبيتها في وقت
من الاوقات ، غير ان عام ١٩٤٤ لم يكن من تلك الاوقات . ورد عليه
« سنيه » بحدّة : « لو أن تقسيم الادوار هذا ينبع من مفهوم سياسى موحد ،
فربما اثر ، اما وهو ينبع من ثلاث وجهات نظر مختلفة ، فانه لن يسمر
عن ثمر طيبة » .

وبدأت « الأرجون » عملياتها الهادفة الى تقويض المكانة البريطانية ،
بقيامها في مساء ١٢ فبراير بالقاء القنابل على مكاتب الهجرة في القدس وتل
أبيب وحيفا . لقد كان عملا رهزيا ولم يسفر عن أضرار تذكر أو الى ضحايا
(بلستثناء خفير عربى أصيب بصدمة بعد أن استدرج بعيدا عن موقع حراسته
بواسطة اثنين من المحبين النازيين ، وقفا يتطارحان المغرام داخل بوابة مبنى
مجاور) . وكانت الرسالة التى نقلها « بيجين » عن طريق هذا العمل هى أن
منظمة « الأرجون » لن تسكت على ما تمارسه الادارة الحاكمة من صد لليهود
عن « الأرض الموعودة » بينما هم يساقون الى حتفهم في أوروبا . وبعد اسبوعين
من هذه الغارات تبعها رجال « الأرجون » بالقاء القنابل على مكاتب
« الضرائب على الدخل » في ثلاث مدن رئيسية ، وبهجوم شنوه في ٢٣ مارس
على مقر قيادة المباحث البريطانية . ومهما كانت نوايا « بيجين » فانه أراق
في هذه العملية الأخيرة الدماء لأول مرة منذ أن تولى القيادة ، حيث قتل ستة
من رجال المباحث ، بينهم أحد المُنْتَشِينَ ، واثنين من رجاله . وأثار هذا الحادث
اهتمام البريطانيين والمجتمع اليهودي الفلسطينيين « اليشوف » . وتكلم
ضابط مخابرات بريطانى عن مخاطر « الهجمات المفاجئة » التى يشنها القتلة
المتعصبون ، الذين يستطيعون الانسحاب والاختباء داخل المدن المزدحمة :
« وقال آخر انه بالرغم من ايمان « الأرجون » بأن عليهم القيام بمهمة مقدسة
وهى اخراج البريطانيين من فلسطين فان « هذا لا يعنى انهم غير مهتمين
بالوسائل الكفيلة بتحقيقها ، فهم يجمعون بين المهارة والخبث بالإضافة الى
الجرأة والشجاعة . وفرض حظر التجول والقبض على المشبوهين ،
وأعيدت مرة أخرى عقوبة الاعدام ضد كل من يوجد في حوزته أسلحة أو . ن
يقوم بوضع المتفجرات . وتعلمت جماعة « الأرجون » درسا لم تعره اهتماما

وهو أن عمليات التخريب تعرض حياة الأفراد للخطر مهما بلغت كفاءة المخربين أو تلقوا تحذيرات بالتزام الحرس ، وتساعدت حدة الجراة والعطش في الهجمات .. فاصابت في هجماتها التالية محطة أذاعة .وسكك حديدية وحصون الشرطة .

وكانت جماعة الارجون ، في ذلك الوقت ، بمقاتليها البالغ عددهم ستمائة مقاتل ، أقرب الى كونها جماعة ثورية منها الى جيش هجومي . ونلدرا ما كان أعضاؤها العاملون يزيدون عن ألفى شخص . وكانت متماسكة ومرة ، ويربط بين أعضائها مشاعر الولاء الشخصي والانضباط الايديولوجي . وكقائد عسكري مستجد ، فلن « بيجين » تعلم بسرعة . وكان منذ البداية يحسن تخديد الهدف . ولم يشترك خلال العام الأول في وضع التفاصيل التكتيكية ، ولكنه استطاع تدريجيا أن يصبح القائد العسكري الأعلى داخل مقر القيادة ، وأن لم يكن كذلك في الميدان . وكانت لديه ثقة متناهية في رؤساء عملياته المتعقبين ، سواء كان ذلك « ليفنى » أو « أميهاسى (أوجيدى) باجلين » وكان يوجه دائما الاسئلة المناسبة . ويقول « ليفنى » الذى كان يجتمع يوميا و « بيجين » .

« كان تواقا دائما الى معرفة التفاصيل ، ويهرقنى بوابل من الاسئلة . لقد كان « بيجين » يريد معرفة كل ما يجرى . فمثلا كان على أن أقوم بترشيح قائد كل عملية ، وأسماء الذين يجب توقيتهم ، وكنا نمزح ، مع انى ذو طبيعة منطقية . وكنت أقول له أسهل على أن أكرر نفس العمل من أن أقوم بشرحه له . أما هو فكان يؤمن دائما بالتفكير بصوت مرتفع والمشاركة في عملية التوصل الى القرار . ونتيجة لثمرسة على الانتقال من عملية الى عملية أخرى تزايد مهمه للمسائل العسكرية .

ثم يستطرد « ليفنى

« وكنت أقدم الاقتراحات ، ولكن كان « بيجين » وأعضاء القيادة العليا الخمسية هم الذين يختارون الاهداف وكان « بيجين » يهتم بما أقوله بالنسبة للمسائل الفنية ، ولكنى ما كنت لارى ، مثلا ، أن من الملائم أن يكون هدف العملية الثالثة هو الهجوم على مقر المباحث الجنائية البريطانية . لقد بدأنا تدريجيا من الصفر حتى كبرنا . وكان علينا أن نكتسب الخبرة ، فلم نكن قد قمنا بعمليات منذ أربع سنوات ولكن « بيجين » كان يطلب في اجتماعات القيادة العليا ، التى كانت تنعقد كل أسبوع ، بتحديد أهداف تترك انطبعا ضخما في انحاء العالم . وأحيانا كان يطلبنا بوقف العمليات ، أن الامر الذى كان يثير أعجابى ببيجين ، هو منطقته التحليلي وقدرته على التحليل

السياسى ، لقد ساعدنى ذلك على الاقتناع بإمكانية نجاح حربنا ، وبالفرض
المباحة أمامنا فى المستقبل » .

وكانت « منظمة الأرجون » ، مثل كل المنظمات الثورية السرية ، تواجه
مشاكل داخلية متعلقة بالامن والموارد ، ومشاكل خاصة بالخيانة والتمويل
والمؤن . ووفقا لشهادة « بيجين » نفسه وزملائه ، فإنه كان يتردد كثيرا
فى اصدار حكم اعدام ضد الخونة الوشاة : وكانت هذه شخصية « بيجين » ،
الحامى مع وقف التنفيذ ، والرجل الرحيم الذى يؤمن بقدسية حياة اليهود .
ووفقا لاعتوال « ليفنى » فلم يعد رميا بالرصاص أثناء قيادة « بيجين »
لأرجون ، سوى اثنين فقط من الخونة ، فى حين صدر العفو عن عشرة
آخرين : « لقد كنت أؤيد صدور انحكم بالاعدام فى احدى القضايا ، ولكن
« بيجين » قال لى : « لقد درست المحاكمة ولن يقبل أى قاض مدنى الادلة
اللى نقدمها للحكم بالادانة » ، ولقد أخذنا برأيه .

وقد أدى تردد « بيجين » الى أفلات واحد من أكثر وشاة الأرجون
حياته بدون عقاب . وكان هذا الشخص هو « يعقوب شيليفتس » ، عضو
« حركة التصحيح » القادم من « فيلنا » والذى كان يشترك فى حملة جمع
البرعات . وكانت له اتصالات قوية داخل « الأرجون » . وقام « شيليفتس »
فى مارس ١٩٤٤ عندما كان « بيجين » لازال يعيش فى القدس وأسرته ، بشراء
هنية بمناسبة عيد الميلاد الاول « لبنيامين بيجين » . وحضرت الشرطة فى
اليوم التالى لاعتقال قائد الأرجون ، الذى تصادف أن كان خارج المنزل .
وكانت زيارة الشرطة بمثابة انذار فاختفى « بيجين » فى « تل أبيب » . وكان
وانقا من أن « شيليفتس » أحضر الهدية خصيصا من أجل معرفة مكان
سكن « بيجين » وقد قام فيما بعد بتقديم قائمة بأسماء قادة الأرجون — ومن
بينهم « بيجين » و « مريدور » و « بن — اليغاز » — الى المباحث البريطانية .
وتم اعتقال « بن — اليغاز » بناء على ذلك البلاغ . ووقعت القائمة فى يد
أرجون . فلم تكن « منظمة الأرجون » هى الوحيدة التى تعانى من مشاكل
أمنية .

وعندما أوصى ضباط الأرجون بتنفيذ العدالة الثورية فى « شيليفتس » أصر
« بيجين » منحه فرصة للدفاع عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة له . واستدعى
سبعين أهم محكمة من ثلاثة أعضاء . وعندما رفض الحضور استدعى مرة
أخرى . ممر الى مصر . ورأى زملاء « بيجين » أن هذا الفرار يعتبر دليلا كافيا
على ادانته ، بيد أن القائد لم يكن قد اقتنع بعد .

ويقول « بيجين عن هذه الواقعة » :

« لقد قلت انه ربما يكون قد خاف من توجيه هذا الاتهام الفظيع اليه ، وربما كان هذا هو السبب في فراره الى مصر . وقلت ان من الضروري أن نرسل له أمرا بالعودة لمواجهة المحاكمة . وكان يوجد آنذاك جنود في الجيش البريطاني من أعضاء الأرجون . واتجه اثنان منهما لمقابلة « شيليفتس » في احد فنادق القاهرة ليطلباه نيابة عنى بالعودة . فقام بتسليمهما الى الشرطة العسكرية .

وعندئذ فقط وافقت على أن يكون هذا دليلا كافيا على ادانته . وقام البريطانيون بإبعاده عبر المحيط الى الولايات المتحدة . وقد كنا نعرف هذا . ويقال انه مازال موجودا في أمريكا ، ولكننا لا نكثرث بأمره » .

ولما كانت القيادة الرسمية للحركة الصهيونية قد حرمت « الأرجون » من الحصول على الاموال والمعدات ، فقد كان عليها أن تحاول الحصول عليهما من أى مكان . لقد كان لدى « ايتان ليفنى » في مستهل عام ١٩٤٤ ، ستون مسدسا صالحة للاستخدام ، وثلاثة مدافع شبه آلية مسروقة من معسكر بريطاني ، وعدد من البنادق وبضعة مئات من القنابل اليدوية ، وطلان من المتفجرات . ولم تكن هذه الاسلحة تكفى للقيام بثورة . ومارس أعضاء « الأرجون » من أجل الحصول على المزيد من الاسلحة عمليات السرقة والنهب والاعتصاب من اليهود الذين كانت المنظمة تتطلع الى قيادتهم في يوم ما . وأمكن في عام ١٩٤٥ الاستيلاء على ما قيمته ٣٨ ألف جنيه من الماس أثناء غارة على بعض الرسائل من الطرود البريدية، كما استولوا على مبلغ مماثل تقريبا نتيجة لغارة على قطار يحمل أجور عمال السكة الحديدية . وقد قتل في تل أبيب اثنان من المارة حاولا التدخل لمنع عملية سطو قام بها رجال مسلحون من الأرجون على خزانة شبك تذاكر سينما « عدن » بالمدينة ويزعم « ليفنى » انهم كانوا يسرقون من البريطانيين كلما أمكنهم ذلك . ويقول « لقد صادرتنا في احدى المرات اموال بنك يهودى . وكنت قد اقترحت هذه العملية على « بيجين » الذى طلب منى أن استكشف الشركة التى يؤمن لديها البنك . وعندما اكتشفت أن شركة التأمين هى « لويذر » اللندنية ، وافق « بيجين » على العملية . ومهما يكن من أمر ، فإن مخابرات « الهجاناه » حصلت على قائمة بأسماء « المساهمين » الذين يمولون « الأرجون » ، وكانت تتضمن ٦٤ فردا وشركة ومؤسسة يهودية في تل أبيب وحدها ، بها في ذلك عدد من أعضاء الهجاناه ذاتها الذين تعرضوا للارهاب حتى يدفعوا .

وكان السبب الاساسى الذى أدى الى فشل اتصالات « بيجين » المبكرة مع « عصابة شتيرن » و « الهجاناه » ، بصرف النظر عن الواجهة الايديولوجية هو : رفض قائد الأرجون المشاركة في السلطة أو الاستسلام لرأى أحد آخر

لا ينتمى الى صفوفه . لقد كان « صاحب فكر احدى » ، عنيدا ، يتمتع بثقة متناهية في النفس . فليس هناك شيء او مخلوق من حقه أن يتصور أنه يستطيع الوقوف في سبيله ، حتى لو كان القيادة المحلية «لحركة التصحيح» التي حرص « بيجين » طوال فترة التمرد الذي قاده ، على الفصل في ازدراء بينها وبين الارجون . فان « التصحيحيين » كانوا مهذبين اكثر من اللازم ، ومازالوا يتمسكون بسياساتهم القائمة على التعاون مع بريطانيا في زمن الحرب .

ووفقا لاقوال « يلين — مور » ، فان « بيجين » قدم انذارا نهائيا الى عصابة « شتيرن » ، معلنا أن عليهم ، كشرط لعودة الوحدة بينهما ، أن يعترفوا « جابوتنسكى » كموجه للجيل . وكان « يلين مور » مثل « بيجين » قد تربى في ظل « جابوتنسكى » ، ولكنه ، على خلاف « بيجين » ، تطور وبعد عنه ، ولم يعد « جابوتنسكى » هو مرجعه الاولى ، ولقد أبدى « يلين — مور » بعد عدة عقود من ذلك الحين ، نفس الروح الاستقلالية المبدعة عندما نادى بالتعاون السلمى مع الفلسطينيين العرب ، بينما كان « بيجين » لا يزال يردد الاقوال التي أدلى بها « جابوتنسكى » امام « لجنة بيل » في علم ١٩٣٧ . وكان « يلين — مور » و « شامير » يشعران في عام ١٩٤٤ أنها لا يمكنهما السجود لروح « جابوتنسكى » دون أن يخونا ذكرى زعيمهما ، ابراهيم (او ، يائير) شتيرن . الذى قتل في فبراير ١٩٣٢ عندما اطلق بريطاني الرصاص عليه . وكان « شتيرن » قد تمرد على دعوة « جابوتنسكى » ، عندما اشتعلت الحرب في أوروبا ، بوقف اطلاق النار على البريطانيين . ولكن كما يقول « يلين — مور » ، ، كان وراء رفض « عصابة شتيرن » لشروط « بيجين » ، سبب عملى اهم من الاسباب المبدئية :

« اننا كنا سنضطر عند أى اختلاف في الراى يقوم بيننا — ولا بد لمثل هذه الخلافات أن تقوم — أن نلجأ دائما الى تعاليم « جابوتنسكى » للبحث عن حلول لمشاكل لم يكن لها وجود في عهده . واذا وقع أى اختلاف في الراى في تفسير آرائه المدونة ، فمن الذى يحق له حسم المسألة ؟ وسألت « بيجين » مستوضحا : « كيف يكون الامر اذا ظهرت خلافات في الراى بين المنظمتين ؟ من الذى سيحكم بينهما ؟ ولم يتردد بيجين في القول بأسلوب أشبه بالاستفراط : في هذه الحال فان حق اتخاذ القرار يكون له . وعند ذلك وعلى الرغم من معرفتنا القديمة ببعضنا وتعاوننا معا على مر السنين ، فقد أصببت بالذهول . فقد كان « بيجين » واثقا كل الثقة من نفوذه المعنوى ، حتى أنه لم يشك للحظة في أنه وحده هو صاحب الحق ، بلا منازع في اصدار الاحكام » .

وقد اعترف « بيجين » في حوارهِ و « موشيه سنيه » نائب قائد قوات « المهلجاناه » ، بأن « بن — جوريون » هو الزعيم السيلسى « لليشيوف » (يهود فلسطين) . وأعلن أن الارجون لم تكن لديها الرغبة في الحكم ، وانها

مستسير وراء راية بن جوريون بمجرد ان يعلن الحرب على المحكم البريطاني . ولكن حتى يحدث هذا ، فإن أي تفكير في أن الهاجاناه حق الاعتراض على نشاط « الارجون » ، مرفوض ولا يمكن التوقف حتى يتم بحث احتمالات التعلل بينهما . وأردف بيجين يقول لـ « سنيه » (أي سنيه) انما يتكلم معه لمجرد ان « الارجون » يتقاتل ، ولو لم تكن المنظمة تتقاتل لما أصبح لها ذكر . وأكد ان الرضوخ « لبن — جوريون » قبل الاوان المناسب انما سيعنى القبول بالتصفية التلقائية للمنظمة . ولم يتأثر « بيجين » بلحجج القائلين بأن القيادة الرسمية وحدها هي المنتدبة من قبل « الپيشوف » ، كما لم يتأثر بقول « سنيه » في مجادلته ان « بن جوريون » أكثر علما بما يجري في المحيط الدبلوماسي الاوسع نطاقا ، ومن ثم فانه أقدر على اتخاذ القرارات الاصبوب بالنسبة للمصلحة اليهودية .

وقد تم لقاء الصديقين القديمين في جو يسوده الشعور بأن ثمة أزمة وشيكة الوقوع . فقد لاحظت القيادة الرسمية ، سواء كانت مخططة أو على صواب في ذلك ، دلائل تشير الى تحسن في الموقف البريطاني من التطلمات الصهيونية . واطلع « سنيه بيجين » على التلميحات التي أدلى بها « ونستون تشرشل » « لحاييم وايزمان باجراء تقسيم جيد » بمجرد انتهاء الحرب . كما تمت اخيرا الموافقة على انشاء كتيبة يهودية ملحقة بالجيش البريطاني ، وهو الامر الذي طالما أجرى الصهاينة اتصالات ومارسوا الضغوط من أجل تحقيقه . وكان القلق يسيطر على « بن — جوريون » وزملائه ازاء احتمال ان تتعرض هذه الامل للاحباط نتيجة للحملة الارهابية . كما كانوا يخشون في الوقت ذاته من الا يتوقف تمرد المنشقين عند الاضرار بالبريطانيين ، على الرغم من عدم وجود ما يشير في تصريحات « بيجين » حتى تلك اللحظة ، الى ما يؤكد مخاوفهم من حدوث ثورة كاسحة . بيد أن ردود « بيجين » لم تعمل على تبديد مثل هذه المخاوف . فقد أعرب قائد « الارجون » عن عدم ثقته في انصاف الوعود التي يقدمها « تشرشل » وأعلن « بيجين » انه لا يمكن وصف أي تقسيم خاصة اذا كان قاصرا على « أرض اسرائيل الغربية » بأنه « جيد » . وكان « سنيه » يشعر ، ربما أكثر من « بيجين » ، بتزايد جدة المطالبة بقيام « الهاجاناه » بوقف المنشقين عند حدهم . وقد انتهى الاجتماع بينهما ، كما جاء في تقريره بنظمة يائسة : قلت له : « لا أعرف اذا كان هناك يهودي آخر يريد تجنب وقوع قتال بين اليهود وبعضهم البعض ، أكثر مما أريد . . وعلى هذا ، فانا أقول لك اننى أخرج من هذا الجوار وأنا أشعر باكتئاب تام . . فالخلاصة كانت واضحة تماما : « انهم يريدون فرض طريقته على الجميع » .

وكان « بن جوريون » قد أبلغ اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية، منذ وقت مبكر في ابريل عام ١٩٤٤ بعدم وجود أي حل بديل « وعلينا ان

نقابل القوة بالقوة . ولا شك أن هذا القرار يعتبر كارثة ، ولكن وقوع كارثة محدودة كان أفضل من نجاح مجموعة صغيرة في فرض سيطرتها على « الياشوف » . وأصبح كابوس القتال بين الأخوة حقيقة واقعة بحلول نهاية العام . فقد عقد اجتماع آخر بين « بيجين » و « الياهو جولوم » ، رئيس « موشيه سنيه » الذى كان قد عاد لتوه من مهمة رسمية إلى لندن . وخرج « جولوم » من الاجتماع وقد ازداد اقتناعا بمدى فداحة الضرر الذى يلحقه المنشقون بالمسعى الدبلوماسى الصهيونى . وأعلن فى مؤتمر صحفى : « إذا اضطررنا لاستخدام القوة ضد أولئك الذين يرتكبون هذه التصرفات الضارة المعتوهة ، فائنا لن نتردد فى ذلك » . وأكد « جولوم » بعد اجتماعه العقيم مع « بيجين » أن على « الياشوف » أن يتخذوا كافة الاجراءات الكفيلة بوقف نشاط الارجون .

ولقد سبق السيف العذل فى ظرف أسبوع واحد ، إذ حدث فى ٦ نوفمبر ١٩٤٤ ، أن قام رجلان مسلحان من عصابة « شتيرن » فى القاهرة باغتيال اللورد « موين » ، الوزير فى حكومة تشرشل لشئون الشرق الاوسط . ولم يكن « بيجين » وجماعته قد تلقوا أى ائذار مسبق بالعملية ، على الرغم من أن الجماعتين كانتا تمران بمرحلة اتصالات ايجابية بينهما . ودفعت منظمة « أرجون » ، بدلا من « عصابة شتيرن » ثمن مقتل « لورد موين » . فقد اجتمعت اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية فور انتشار النبا وقررت دعوة « الياشوف » الى نبذ جميع أعضاء هذه العصابة المخربة والمدمرة ، وحرمانهم من المأوى والملجأ وعدم الاستسلام لارهابهم وتقديم كافة المساعدات اللازمة للسلطات من أجل وقف اعمال الارهاب وتصفية المنظمة المسؤولة ، فان بقائنا فى حيز الوجود يتوقف على هذا . وكتب « الياهو جولوم » يقول : « لم يعد هناك مجال لمنقشة أساليب القضاء على وباء الجرائم الارهابية . وأصبحت الحاجة الى منع هذه الجرائم فورا تتصدر كل الاعتبارات الاخرى ، وتستدعى اتخاذ كافة الاجراءات الكفيلة بمساعدة السلطات على وقف هذه الجرائم .

لقد تركت تلك الفترة التى أصبحت تعرف باسم « السيزون » (موسم الصيد) ندبة جديدة فى نفسية « مناحم بيجين » . لقد كان الامر يبدو وكأن قبيل وهابيل قد بعثا من جديد فى العصر الحديث . وإذا لم يقتل الاخ أخاه ، فانه يترك وظيفته ويفصل أبناءه من مدارسهم . ووفقا لما جاء فى سجل التاريخ الرسمى للهاجاناه قام « المتطوعون » اليهود باجتياز عشرين رجلا لاستجوابهم كما تم التحرى عن واحد وتسعين آخرين بدون القبض عليهم . وسلمت أسماء ما يقرب من سبعمائة شخص ومؤسسة كانت لها علاقة بالاعمال الارهابية والابتزاز الارهابى ، فضلا عن أسماء بعض المساهمين المتطوعين أو المرغمين على تمويل « الارجون » الى المباحث الجنائية البريطانية ويقال أن ثلاثمائة منهم قد اعتقلوا بموجب هذه القوائم . وتقيمت

تقديرات أخرى بأن عدد المقاتلين من « الأرجون » والمؤيدين لها الذين سلموا إلى أنبوليس بلغ ألف شخص . وقد أمكن خلال « موسم الصيد » (أو السيزون) الذي استمر على مدى ٧ أشهر القبض على كل القيادات العليا تقريباً واحتجز رجال « الهاجاناه » أحد هذه القيادات وهو « إيلي تامين » رئيس مخابرات « الأرجون » ووضعوه في الحجز الانفرادي من شهر فبراير حتى أغسطس عام ١٩٤٥ بمستوطنة « عين حيروت » . وكان محتجزوه يريدون انتزاع المعلومات منه . وكانوا مستعدين في سبيل ذلك لأن يضربوه ويعلقوه على الحائط وأن يلكموه في أسنانه حتى تنخلع ثم تركه مسلسللاً في قذارته ويوهموه بأنهم سوف يعدمونه . وعندما انتهى « الموسم » في شهر يونيو ، شعروا في بداية الأمر حرجاً شديداً منهم من إطلاق سراحه فوراً .

وقد تمكن «بيجين» نفسه من مراوغة جماعة المطاردة . وقال « شيمون افيدان » ، الذي قاد « موسم الصيد » : أجريت عدة محاولات للإيقاع ببيجين ، ولكنها فشلت جميعاً . وكنا كلما نبليغ المكان الذي تصلنا الأخبار بوجوده فيه نجده قد تركه . وكان من بين المكلفين بالبحث عنه ، «ماتير باعيل» القائد الشاب لحدى وحدات الهاجاناه والذي أصبح فيما بعد العضو اليساري بالبرلمان . ووصلت أنباء إلى « باعيل » ورجاله تفيد بأن « بيجين » سيتناول غداءه وهو متخفى بأحد المطاعم في شارع الأنبياء بالقدس يقول باعيل « صدرت إلى الأوامر بالقبض عليه واحضاره إلى «عين حيروت» ، حيث أقلم «الهاجاناه» سجناء صغيراً . وانتظرنا عند المطعم أربعة أيام ولكنه لم يحضر . وكنا نتناول الطعام في المطعم بالتناوب . فكان أربعة منا يدخلون بينما كان الخامس ينتظر في الخارج مع سائق التاكسي » .

وقد سأل بيجين ، عندما أصبح رئيساً للوزراء ١٩٧٧ زميله عضو البرلمان ، عما إذا كانت هذه الرواية صحيحة ، فرد عليه « باعيل » بالإيجاب وأكد له أنه لو كان قد أمسك به ، لما أمكنه الإفلات منه .

« وماذا كان سيحدث لو حاولت المقاومة ؟

« كنا سنضربك .

« وإذا كان هناك أشخاص مستعدون لحمايتي

« كنا سنضربهم أيضاً . أما إذا استسلمت ، كنا سنضعك في سيارة التاكسي ومعك ثلاثة أشخاص يمسون بذراعيك . وكنا سنضع نوعاً من الكمامة في فمك ونلقى بك في حقيبة السيارة ونغلقها عليك لو أننا شككنا في أنك ستسبب لنا متاعب » .

وأضاف « عيل » كنوع من المواساة أن مهمته كانت تقتضي على أي حال تسليمه حياً — ولكن ليس للبريطانيين . وقام رئيس الوزراء عندئذ واحتضنه .

ولم يكن الغموض في المسألة ينصب على السبب في فشل « باعيل » في القبض على « بيجين » ، بقدر ما كان في السبب الذي دعا الهاجئاته الى الاعتقاد بأنه سيحضر الى القدس . فان قائد « الارجون » ظل ، في الواقع ، مختبئاً تحت أسماء مختلفة من ربيع عام ١٩٤٤ حتى نهاية التمرد ، بملطقة تل أبيب وكان اول ملجأ له هو فندق السلفوي المتواضع الذي يقع بين شارع « النبي » وشاطئ البحر ، وحيث نزل تحت اسم « مناحم بن — زئيف » . وقد قامت جماعة ارهابية فلسطينية جاءت عن طريق البحر بعد ثلاثين عاماً من نزول بيجين بالفندق ، بالاستيلاء عليه . وكانت حالة الفندق قد تدهورت كثيراً ودمر نصف المبنى المستوع من الاسمنت عندما اقتحمته فرقة هجومية اسرائيلية وقتلت جميع الارهابيين باستثناء واحد منهم فقط . وكان « بيجين » قد اختار ذلك الفندق لعدم حصوله على فرصة كافية من الوقت للبحث عن مكان أفضل ، وأيضاً عملاً بالبدء المقاتل بأن « أكثر الاماكن ظلاماً هو ذلك الواقع مباشرة تحت المصباح » . وقد ترك « السافوي » بعد أن نجحاً باعجوبة . فقد قاد مدير الفندق فرقة تفشيس بريطانية متخطية بحذر الفراغة رقم ١٧ التي لم يكن يعرف شخصية « بيجين » الحقيقية ، ولكنه شعر أنه غادر الفندق بغرض قضاء اجازة : « هذه هي كل الغرف عندي » .

وانتقل « بيجين » من الفندق بعد ذلك ، وبصحبه زوجته وابنيه الى منزل منعزل في القطاع اليماني في « بتاح تيكناه » ، وكتب يقول عن تلك الفترة : ان الظروف هناك كانت صعبة ، وكان المنزل مهملًا . وكانت الرياح تغصف ليلاً ونهاراً من خلال نوافذه المحطمة . وفي المساء كلن الطقس بارداً والظلام حالكا . فلم يكن هناك كهرباء أو تدفئة مركزية . ولكن من دواعي سروره أنه كان ينام على ملاءات تم شراؤها خصيصاً للمندوب المسلمى البريطانى ، سير « هارولد ماك — ميتشل » الذي كان « الارجون » قد وضعوا خطة في يوم ما لاختطافه . كلن البيت الصغير غير مريح ، وبالإضافة الى ذلك كان معرضاً للمخاطر وكانت العائلات البولندية تبدو واضحة وضوح النهار في وسط اليمانيين من ذوى البشرة السمراء ، ولم يمض وقت طويل قبل أن تبدأ التساؤلات تتردد حول الغريب الذي لا يخرج أبداً الى العمل .

وتولى « الارجون » نقل « بيجين » واسرته الى منطقة « حاسيدوف » ، وهي منطقة عمالية على اطراف « بتاح تيكناه » حيث انتحل مناحم لنفسه اسم « اسرائيل هالبرين » . وكثيراً ما كان المسكن يتعرض لانقطاع المياه ولم تكن الكهرباء قد أدخلت اليه بعد ، بيد أن « بيجين » ، الذي كان ما زال في مرحلة « الاختفاء المفتوح » كلن يجد عزاء في الحقول وحدائق البرتقال وخضرة الحدائق والاشجار الكثيفة . وقدمت عائلة « هالبرين » نفسها على أنها عائلة بولندية لاجئة . وعسرته « اليزا » سبباً مندم

خروج زوجها الى العمل بأنه عاكف على الدراسة ليتقدم الى الامتحان في القانون الفلسطينى . وذكرت ان اللجنة المشتركة وهى جمعية خيرية يهودية هى التى تتولى مساعدتهم حتى يتخرج . وكانت القيادة العليا للارجون تجتمع فى المطبخ على ضوء مصباح الجاز أو الشموع . وكانت العائلة تنزه سيرا على الاقدام فى أيام السبت فى حدائق البرتقال . وتعرضت عائلة « بيجين » اثناء اقامتها فى منطقة « حاسيدوف » لأول تجربة لها مع عمليات التفتيش الشامل التى يقوم بها الجيش البريطانى . فى فجر يوم ٥ سبتمبر ١٩٤٤ تم تطويق بلدة « بتاح تيكفا » ، التى كانت مشهورة بايواء الارهابيين ، وفرض فيها حظر التجول . وقرر « بيجين » وواحد من ضباط قيادته الذى أمضى الليلة معه أن ليس هناك أى مغزى من فرارهما للاختباء فى الغابة لان ذلك من شأنه أن يلفت نظر الجيران اليهما ، ان لم يكن نظر القوات ، ومن ثم يصبح القبض عليهما أمرا محتوما . وقررا أن يتصرفا بأعصاب هادئة ويتمسكا بمظهر البراءة فجلس القائدان على سلم المنزل وهما يتفرجان على الدبابات والمدافع البريطانية اثناء مرورها عند آخر الشارع . وأسرت جارتهم مسز « سيجل » فى انزعاج لمسز « بيجين » قائلة : « ليس هناك ما يزعجك يا مسز « هالبرين » . أما أنا ففى حوزتى احدى بطاطين الجيش بالمنزل » . وزال الخطر بحلول الظهر . ورفع حظر التجول ، وقد تجاهل الجيش لسبب غير معروف حى « حاسيدوف » . ولكن عندما امتد التوتر الذى سبق « موسم الصيد » ، الى المنطقة بدا الحى أقل أمنا وبدأ الناس يتطفلون فى فضول ، وحين وقت الانتقال الى تل أبيب .

واختفى « إسرائيل هالبرين » من الوجود ، وجاء « إسرائيل ساسوفز » اليهودى الارثوذكسى الملتقى الذى يرتدى طائفة سوداء ، للإقامة فى شارع « ياهوشا بن نان » الواقع بين مذبح البلدية وماوى كلاب البلدية . واضافت الذقن عشر سنوات الى عمر « بيجين » . وكان قد عُسر للجيران عدم حلاقتة لذقنه خلال الشهر الاخير من اقامته فى « بتاح تيكفا » بأنه فى حالة حداد . وكان اثناء وجوده فى « تل أبيب » يذهب للصلاة بانتظام فى المعبد المحلى ، مثل اليهود المتدينين وكان الجيران يرتابون فى أنه واحد من الطلبة « المستديمون » فى المعاهد الدينية ، والذين لا يزالون أبدا أى عمل ويعيشون من ريع مهور زوجاتهم . ورزق بيجين اثناء اقامته وعائلته فى شارع « يهوشا بن نان » ، بثانى أطفاله . وكانت فى هذه المرة طفلة اسمها « هاسيا » ، تيمنا باسم أمه . وسجل المولودة باسم « هاسيا ابشتاين » ، نسبة الى إسرائيل ابشتاين ، أحد أصدقاء « بيجين » المقربين ، والذى اضطر الى القيام بدور الاب السعيد بوزار « اليزا » وابنتها فى المستشفى .

وكاد البريطانيون يكتشفون مكان اختباء « بيجين » فيما بين المذبح ومأوى الكلاب ، مرتين : المرة الاولى عندما مسحوا شارع «يهوشا بن - نلن» بالانوار الكاشفة ، وجابوا الشارع جيئة وذهابا بحثا عن مخبئ الاسلحة . ورابط « بيجين » مترقبا في منزله ، ولكن احدا لم يطرق بابه . وانتهت عملية التفتيش بحلول الفجر . كان هذا في أواخر عام ١٩٤٥ ، أما المرة الثانية فجاءت بعد ذلك بعام تقريبا عندما نسف غندق « الملك داوود » في القدس .

وفي هذه المرة الاخيرة كان من الواضح أن الجيش يعرف جيدا ما الذى يبحث عنه . واختبأ « بيجين » في غرفة صغيرة سرية تحت سقف المنزل أعدها « يعقوب مريدور » خصيصا لمواجهة مثل هذه الطوارئ . وشعر « بيجين » أن التفتيش عنه أخذ يقترب . وعلم من الراديو الذى تركته « اليزا » مفتوحا عليا عن عمد حتى يسمعه ، أن حظر التجول سيستمر عدة أيام ، وأن التفتيش سيمتد الى كل منزل وكل ركن . وعسكرت جماعة من الجنود في حديقة منزل « بيجين » واصطحبوا « اليزا » مع طفلها لاستجوابها . وادعت انها لا تعرف الانجليزية . وقالت من خلال مترجم ان زوجها ذهب الى القدس . واعادها رجال الشرطة البريطانية الى منزلها . ولكن عاد رجال الجيش مرة أخرى لتفتيش المنزل ، حيث قاموا بفتح الدواليب والبحث تحت الاسرة ، والنظر على الجدران (بل انهم نقروا على المكان الذى يختبئ فيه « بيجين ») . وظل بيجين محشورا في ملجئه الضيق لمدة ثلاثة أيام مضية بلياليها خلال حرارة شهر أغسطس . وقد أعادت هذه الفترة الى ذهنه تجربة الحبس الانفرادى التى مر بها فى « فيلنا » ويقول بيجين :

« كان هناك بعض نواحى التشابه بين التجريبتين ، ففى سجن « لوكيشكى » كان الطقس حارا نهارا ، باردا ليلا . أما هنا فلن الحرارة كانت لطيفة ، وخانقة نهارا . وكانت الارض هناك من الحجارة أما هنا فكانت من الخشب . وكانت عظام المرء هناك تصرخ من الألم — ولم يكن الألم هنا أقل حدة . وكان المرء لا يجرؤ على التحرك اطلاقا . وهناك كانت الحاجة ماسة الى الطعام ، وهنا الى الماء . وفى هذا الصدد يقول :

لقد كانت هذه هى أسوأ محنة أمر بها : لقد عانيت من عدم وجود الماء . ومن عدم تناول الطعام فى « لوكيشكى » وفى غيره من الأماكن وقد تعلمت هنا لأول مرة معنى الحرمان من الماء وعانيت من الجوع والمعطش — انها تجربتان قاسيتان من الأفضل ألا يتعرض المرء لهما . ولكن اذا كان لى خيار فى الامر لاخترت الجوع بلا تردد . فالعطش الممتد رهيب ..

وبدأت أشعر بالدوار . وبدأ الجفاف يشمل جسمي . ومما زاد من عذابه أن الجنود المرابطين في الحديقة أخذوا يدلفون الى المنزل ، طالبين الحصول على شراب . ولكنهم انصرفوا في اليوم الرابع ، فدقت « اليزا » على المخيا بيد الكنسة . واحتفل بيجين بخروجه من سجنه الاختياري بأن اغرق رأسه في أناء ملىء بالماء البارد ، المرة تلو الأخرى ، وهو يشرب . « لم أستطع أن أصبر ، فقد كنت أشعر بجفاف تام . كان كل ما احتاج اليه هو الماء . »

اعترف فيما بعد الجنرال سير « افلين باركر » ، القائد العام البريطاني أن أسلوب التطويق والتفتيش لم يسفر الا عن نتائج ضئيلة جدا ، وقال :

« عندما أنظر الى الوراء ، لم أجد أى أسلوب آخر كان يمكن استخدامه في معالجة المشكلة . وعندما ذهبنا الى تل أبيب كان « بيجين » موجودا هناك مختبئا داخل دولا ب . وكان يوجد مساعد عريف وثلاثة جنود يرباطون في حديقة بيته ، ولكنهم لم يفتشوا المكان بدقة . ان هذه هي واحدة من مشكل حملات التفتيش ، اذ يجب عليك أن تعتمد على أفراد من المرتب الدنيا ، فإذا أخطأوا يمكن أن تنهار العملية بأكملها » .

وانضمت عائلة « بيجين » في المنزل الكائن بشارع « بهوشوا بن — نان » لمدة عامين تقريبا ، ولكنه بدأ هو الآخر يفقد عزلته . وظهر البريطانيون اهتماما متزايدا بالحى ، وكانت منظمة « الهاجاناه » قد علمت بمسألة لحية « بيجين » . وأوصى رجال أمن « الارجون » بضرورة انتقاله مرة أخرى . وحلق « إسرائيل ساسوفر » ذقنه وجاء الدكتور « جونا كونيغشوفر » ليقوم في المسكن الذى يقع عند ملتقى شارعى « روزنبوم » و « يوسف الياهو » ، بالقرب من مسرح « حابيبا » في قلب تل أبيب . وقد استوحى « بيجين » هذا الاسم الذى يعطى انطبعا بأن صاحبه من اليهود الالمان المحترمين ، من بطاقة تحقيق شخصية عثر عليها في مكتبة عامة . ووضعت صورة « بيجين » على البطاقة ، وقد علا وجهه في هذه المرة شارب . وكان من المقرر أن يصبح هذا الانتقال الذى تم في أوائل عام ١٩٣٧ ، آخر تنقلات « بيجين » ، إبان فترة ممارسته للعمل السرى . وولد « لبيجين » أثناء وجود العائلة في المنزل الكائن بشارع « روزنبوم » ، ابنة ثانية هي « ليا » . وتم تسجيلها هي أيضا تحت اسم « ابشتاين » . ولم يتوان البريطانيون أبدا عن بحثهم عن « الارهابى الاكبر » . وعرضت جائزة قيمتها ألفان من الجنيهات الاسترلينية لمن يساعد في القبض عليه (كائنت الجائزة على رأس « ناتان يلين — مور » من عصابة شتيرين لا تتعدى ألف جنيه استرليني فقط) ولكن لم يخف أحد .

لقد سبب « موسم الصيد » (١٩٤٤ — ١٩٤٥) لبيجين توترا شديدا مما أثر على قدرته على التقدير السليم وعلى التحكم فى مقاتليه من الشباب . لقد سببت لهم مسألة اختطاف اليهود وخيانتهم ألما وشعورا بالخزى . وكانت مشاعرهم تدفعهم الى الرد على العدوان بمثله . وقد عكس منشور لاذع كتبه « بيجين » فى فبراير عام ١٩٤٥ ، تحت عنوان « سنعاملك بالمثل يا قابيل » مدى ما شعر به من مرارة :

« لقد استخدمت كل قوتك يا قابيل ، ولكنك لم تستغلها عندما كان الملايين من اخواتك يموتون وعيونهم متجهة نحو « صهيون » — ارض « صهيون » المغلقة الابواب ، ارض « صهيون » التى تستعبد لها حكومة شريرة ، انك لم تبد قوتك هذه عندما تم ترحيل الناجين من المصلحة ، ولم تكشف عنها لتحطم الابواب التى اوصدها « الكتاب الابيض » فى وجههم .

« لقد عمدت يا « قابيل » الى تعبئة ثروة الامة ولكنك لم تنفقها من اجل الاغاثة ، ولمساعدة أسر الجنود ، ولا من اجل تنظيم الهجرة المجانية من دول الابداء . انك تختلس اموال الشعب عشرات الآلاف من الجنيهات ، وتنفقها على المخبرين والمختطفين وعصابات الواشين . لقد اخترت لنفسك حليفا ، يا قابيل . ان حلفاءك هم نظام الحكم الظالم القائم فى الوطن والمباحث الجنائية البريطانية — النازية . انك تسلم اخوانك الى هؤلاء الحلفاء . . انك تسلمهم الى الايدى الملتطخة بدماء ملايين المبعدين عن ابواب الوطن ليدخلوا أفران « ميدانيك » . .

« انك تمارس يفتابيل الخطف حيث تقتحم فى ظلام الليل بيوت العبرانيين بواقع عشرة ضد واحد — وتوجه الضربات حتى تسيل الدماء . . انك تقتلع من تعتبرهم « مشكوك فيهم » مستخدما الحيلة والخداع باسم الشرطة وبكل قسوة ، وتنقلهم الى جهات مجهولة ، لتعذبهم بالسلايب لجستابو فى القلب المظلم لحدائق البرتقال ، ثم تقوم فى النهاية بتسليمهم الى حليفك ، المباحث الجنائية البريطانية — النازية ، ليمارس المزيد من التعذيب ضدهم وليقوم بنفيهم الى « اريتريا » . .

ومع هذا فان « بيجين » اختار لنفسه الالتزام بضبط النفس . اذ انه كان واثقا من أن الوقت سيحين عندما تضطر « الارجون » و « الهاجاناه » الى القتال جنبا الى جنب . وكان يرى أن اشتعال حرب أهلية واسعة النطاق من شأنه تبديد كل احتمالات قيام مثل هذا التعاون ، بل ان من شأنه تبديد حتى احتمالات قيام دولة يهودية . ولم يكن من الملائم ان ينتهج المرء فى ذروة « موسم الصيد » سياسة « فرض الراى » . ويقدر يعقوب (يول) أمراى ، الذى خلف « ايلى تافين » فى منصب مدير الاستخبارات ، عدد معارضى وجهة

نظر بيجين تلك ، بنصف عدد أعضاء القيادة العليا . ولكن استطاع منطوق « بيجين » أن يسود في النهاية . بل أنه أصدر منذ وقت مبكر يرجع الى شهر نوفمبر من عام ١٩٤٤ تعليمات مشددة وواضحة الى اتباعه تتضمن :

« محظور عليكم رفع ايديكم أو استخدام السلاح في وجه الشعب العبراني ، لانهم اخواننا وغير مسئولين عما يحدث ، كما انهم يخضعون لتوجيه خاطيء للتحريض . ولكن سيأتى اليوم الذى سيدركون فيه خطأهم فيقفوا الى جانبنا في وجه المغاصب الاجنبى . ان سلوككم هو سلوك الوطنيين الذين لا يحددون عن هدفهم ، وهذا سيساعد على زيادة سرعة انفصانهم عن الذين يستغلونهم ويثرونهم ضدنا ، وعندئذ سيحظى المحرضون تماما بعكس ما كانوا يسمعون اليه . ولن تكون هناك حرب بين الاشقاء ، وسيأتى اليوم الذى سيهب فيه الشعب . . رغما عن اولئك الذين يضعون العراقيل . . ليقف صفا واحدا ، وهذا هو المهم . . ان هذا هو المسبيل الوحيد لانتقاذ يهود فلسطين من الحرب بين الاشقاء ، ولانتقاذ البلاد من الخراب ، وللحفاظ على نقاء رايتنا ونزاهة سلاحنا ، ولرفع اسرائيل عاليا في نظر الغرباء . وهذا أيضا — صدقونى — هو الطريق الى النصر » .

ووافقت قيادة الارجون على مضمض . وربما تكون معرفة زملاء «بيجين» أن قيلم حرب سافرة بين « الارجون » و « الهاجاناه » الاكثر عددا وعتادا سينتهى بلا أدنى شك بدمار منظمة الارجون — ربما تكون هذه المعرفة قد أثرت أيضا على استمالتهم الى الموافقة . بيد أن العامل الاساسى الذى حسم الموقف تمثل فى النقوذ المفريد الذى يتمتع به القائد . وكاثت النتيجة أن سجاد الانضباط ولم يرد أعضاء « الارجون » على أى محاولات استفزازية . ويعترف « يعقوب أمرامى » الذى كان قد اعترض على سياسة ضبط النفس ، « بأن الايام أثبتت فى النهاية أن « بيجين » كان على حق . فبعد مضي ثمانية أشهر من ذلك الحين ، انضمت قوات « الهاجاناه » الينا فى القتال ضد البريطانيين » .

واسفرت حملة المطاردة عن توجيه ضربة خطيرة للارجون ولكنها لم تكن قاضية . فقد عاد « الياهو جولوم » — المؤرخ الرسمى للهاجاناه — ونقض فيها بعد قوله السابق بأن « موسم الصيد » قد كسر شوكتهم نهائيا . وفى الواقع فإن « الارجون » و « عصابة شتيرن » ظلتا مشلولتى الحركة طوال السبعة أشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية . وقد تجنب الشتيرنيون قسوة «موسم الصيد» بأن اوقفوا تلقائيا عملياتهم بعد اغتيال اللورد «موين» . واعتزف «يعقوب مريدور » ، الذى تم اعتقاله فى خريف عام ١٩٤٥ وترحيله الى شرق افريقيا قائلا باستثناء توزيع المنشورات فاننا لم نقوم بأية عمليات خطيرة » . ولكن

« بيجين » استطاع أن يراوغ « الصيادين » وسرعان ما وجدت « الارجون » قادة جدد من الشباب ليحلوا محل أولئك الذين كادوا يقعون في الأسر .

وكسبت « الارجون » في الوقت ذاته ، تعاطف الرأي العام اليهودي في فلسطين نحو تجنب الانتقام . ولم يستسغ أعضاء « الهاجاناه » كثيرا عملية المطاردة لدرجة أن التقارير الرسمية تعلن ان الذين شاركوا في « موسم الصيد » كانوا من المتطوعين الذين لبوا نداء القيادة الوطنية . وأكد « موشيه سنيه » فيما بعد أنها لم تكن بأى حال من الاحوال حملة نفذتها «قوات الهاجاناه» ويقول « سنيه » عن ذلك :

« لم تتخذ مطلقا أى مؤسسة تابعة للهاجاناه أى قرار بشأن حملة المطاردة ، كما لم يصدر أى قرار الى أى مؤسسة للهاجاناه » بتنفيذ المطاردة لقد طرحت اللجنة التنفيذية العليا الموضوع على لجنة العمل الصهيونية حيث تم اتخاذ القرار ، ثم عرض الموضوع بعد ذلك على مجلس الهستدروت الذى أصدر قرارا فى هذا الشأن . ولم تأخذ « الهاجاناه » المسألة على عاتقها . بل كان هناك أفراد تم تجنيدهم على أساس شخصى لتنفيذ « المطاردة » . ولم يحدث مطلقا ان ناقش مجلس الهاجاناه ، هذه المسألة أو تلقى أمرا فى هذا الصدد أو اصدر أمرا بشأنه .

وقد أعرب « سنيه » عن أسفه ازاء التعاون مع البريطانيين ووصفه بأنه كان بمثابة « خطأ فادح » . ومع ذلك فقد قبله فى جيبينه . ويؤزم نائبه . « يسرائيل جاليلى » ، انه هو نفسه عارض تسليم المنشقين الى المباحث البريطانية . وكانت المشكلة التى تواجهها « الهاجاناه » هي انها لم تكن تملك الجهاز القضائى أو التحكىمى اللازم للتعامل معهم بنفسها . ووفقا لأقوال « جاليلى » فان السبب الرئيسى الذى منع تعبئة « الهاجاناه » ، ككيان مستقل فى هذه العملية هو ان مبادئها الاساسية تنص على انها كيان عالمى فالهاجاناه لم تكن « الجيش الاحمر » لحركة العمل ، بل كانت قوات الدفاع عن يهود فلسطين . وكانت المؤسسة المتحركة فى « الهاجاناه » تتيج ولو من حيث المبدأ على الأقل ، فرصا متكافئة لكل من حركة العمل والحزب الصهيونية اليمينية وحزب الوسط . وكان موقف شركاء « حركة العمل » من « الارجون » و « عصابة شتيرن » متكافئا على احسن تقدير . ولم يكن « بن — جوريون » راغبا فى أن يخسر ولاء هؤلاء الشركاء .

ولكن ، من الناحية العملية فان الهاجاناه وقوتها الضاربة التى تعرف باسم « البالماخ » هما اللذان نفذتا حملة المطاردة . وقد اعترف أحد الاعضاء العاديين ممن تكلموا فى الندوة التى عقدت عام ١٩٦٦ حول هذه المسألة والتى تكلم أمامها أيضا « سنيه » أن الاوامر صدرت اليه ووحدته فى «ريحون صهيون»

من قائده المباشر بتنفيذ عملية المطاردة ضد أحد أفراد الحركات السرية ثم ضربه . ولا بد أن هذا هو نفس ما حدث في أماكن أخرى ، على الرغم من الفروق الدقيقة على السياسات الائتلافية الصهيونية .

وانتهى « موسم المطاردة » أو « الصيد » ، بانتهاء الحرب في أوروبا . واقترب موعد الانتخابات البريطانية ، وأصبحت القيادة الرسمية بخيبة الأمل إزاء عدم إبداء تشرشل أى ميل إلى مكافأة اليهود على مساعداتهم . وتقول السجلات التاريخية للهاجلاء بمنتهى الوضوح والصراحة : « الإجراء الذى اتخذ ضد المنشقين كان من وجهة نظر أعضاء المهاجرات ضرورة مبررة ومؤسفة . وظلت الكراهية التى سادت بين الأشقاء خلال تلك الأيام البائسة ، راسخة لفترة طويلة بعد ذلك فى صميم « اليشوف » . أما « مناحم بيجين » فهو لم يغفر ولن ينسى أبدا .

الفصل السابع

مأساة الأخطاء

لقد كان عام ١٩٤٥ بالنسبة « لمناحم بيجين » هو العام الذى أثبت صحة توقعاته . فقد أحبط البريطانيون - فى ظل الحكومات المحافظة والعمالية على السواء - آمال رجال من أمثال « وايزمان » و « بن جوريون » ، ممن كانوا لا يزالون ياملون فى امكانية التوصل الى حل سياسى ويسدون آذانهم عن سماع ضجيج المطالبة باقامة دولة يهودية فى فلسطين . وثبت ان شكوك « بيجين » كان لها أساس من الصحة تماما . ونتيجة لهذا ، تحققت نبوءة أخرى من نبوءاته ، تتعلق « بالهاجاناه » . وهذه النبوءة كانت قد أثارت أزمة الثقة الوحيدة التى تعرض لها أثناء توليه قيادة منظمة « ارجون زفاى ليومي » . فقد اقترحت « الهاجاناه » اقامة جبهة مشتركة مع منظمة « ارجون » و « عصابة شتيرن » أى شن حملة متحدة للمقاومة الايجابية ضد الحكم البريطانى .

وبدأت بريطانيا تتكيف بانتهاء الحرب فى أوروبا ، مع حقيقة انها لم تعد قوة عالمية مهيمنة . فاقتصادها مجهد نتيجة للحرب التى استمرت ستة أعوام . وبمجرد ان فترت نشوة النصر ، بدا عالم ١٩٤٥ مختلفا عن العالم فى سنة ١٩٣٩ ، وان لم يكن اقل خطورة منه . ومهما يكن القرار الذى تتخذه بريطانيا بشأن ادعاءات اليهود والعرب المتناقضة بشأن فلسطين ، فان القادة البريطانيين لا يمكن ان يتجاهلوا تأثير هذا القرار الذى يتخذونه على علاقات بريطانيا مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفىيتى والدول العربية والاسلامية ، أو مع مصادرها التقليدية للبتروى فى الخليج والعراق . وكانت الرياح المعاكسة قد بدأت تهب ضد اتخاذ قرار بحل بسيط للمشكلة موال للصهيونية ، حتى قبل الانتخابات العامة فى يوليو . فان تعاطف « وينستون تشرشل » تجاه القضية اليهودية لم يكن راسخا فى احسن الاحوال . وادى اغتيال اللورد « موين » الى تحييد هذا التعاطف . ولذلك فلم يعترض عندما قدم وزير خارجيته « أنتونى ايدن » ، النصح لمجلس الوزراء قائلا : « اذا خسرنا الصداقة العربية ، فان الامريكيين والروس سيسارعون للاستفادة من اخطائنا » .

الا أن معظم الزعماء الصهيونيين ظلوا واثقين من أن الاحتمالات ستكون أفضل لو تولى العمال السلطة . فقد تعهد الحزب فى المؤتمر الذى عقده فى ديسمبر عام ١٩٤٤ «ببلاكبول» ، بأنه سوف يلغى القيود التى فرضها الكتاب

الابيض لعام ١٩٣٩ على الهجرة اليهودية الى فلسطين كما أنه سوف يؤيد انشاء وطن قومي لليهود هناك . ولكن الحزب بدأ يتراجع عن تعهده خلال أسابيع قليلة من وصوله الى الحكم . حيث قامت وزارة المستعمرات بإبلاغ « هاييم وايزمان » في ٢٥ أغسطس بأنه لن تحدث أية زيادة في حصة الهجرة التي تصل الى ألف وخمسمائة مهاجر يهودي شهريا . ولقد كان هذا القرار ضربة فادحة أصابت النفوذ الشخصي « لوايزمان » بصفته نصير اجراء حوار مع البريطانيين ، كما أصابت حركة العمل الصهيونية في فلسطين ، التي راهنت بالكثير على العلاقة الخاصة التي تربطها بحزب العمال البريطاني . وجاءت نقطة التحول المباشرة في تلك العلاقات عندما وقع اختيار « كليمنت آتلي » على « ايزنست بيفن » ، الزعيم النقابي العمالي ووزير العمل إبان الحرب ، ليكون وزير خارجيته بدلا من « هيو دالتون » ، ذو الميول الصهيونية . ولكن ربما ما كانت السياسة البريطانية قد تغيرت لو كان الاختيار قد وقع على « دالتون » فيها عيدا أن وزارة الخارجية كانت ستجد صعوبة أكبر في اقناعه بالتخلي عن برنامج الحزب المعلن قبل الانتخابات .

وكان « دالتون » ، الذي أصبح وزيرا للخزانة ، مدافعا متحمسا عن القضية الصهيونية . ولم يكن « بيفن » حديث العهد بشئون السياسة الخارجية ، كما كان يسود الاعتقاد العام ، كما لم يكن رجلا يتصرف بدافع من عواطفه بدلا من عقله . فقد كان ضليعا في الاوضاع العالمية وكان قد درس جيدا وضع بريطانيا في العالم . وكان الصهيونيون يعتبرونه خلال الثلاثينات حليفا لهم . حشد جهوده أثناء اشتراكه في حكومة « تشرشل » الائتلافية من أجل تعبئة القوة العاملة لصالح الجهود الحربية . ويشك « هارولد بيلي » الذي كان مستشاره الاول في وزارة الخارجية لشئون الشرق الاوسط ، أن يكون لدى « بيفن » علم بقرار « بلاكبول » ويقول : لقد تم التخلي عن سياسة الحزب منذ البداية . وكنت أحيانا أتساءل عما اذا كان « بيفن » ، يدرى شيئا عنها . أما عن وجهات نظر أولئك الزملاء الذين كانوا مهتمين بمثل هذا القرار ، من أمثال « دالتون » ، و « كريبس » ، فإن « بيفن » كان يرفضها بشدة لأنه كان يعرف أنهما يخضعان لمحاولات قوية من جانب الصهاينة للتأثير عليهما .

ومر « بيفن » بمرحلة « امتصاص » من جانب وزارة الخارجية التي قامت بمنحه فكرة موجزة عن الموضوع وأقنعتة بأن الصهيونية مجحفة بالعرب وضارة بالنسبة لبريطانيا ، وأن إقامة دولة يهودية عند « نقطة التقاء » مواصلات بريطانيا مع الهند وأستراليا والشرق الأقصى ، فضلا عن مواصلاتها مع مصدر البترول الرئيسي الذي يغذي الامبراطورية من شأنه أن يعرضها جميعا للخطر وحاول وزير الخارجية أن يسلك طريقا وسطا يجمع بين ترضية العرب وعدم اغضاب الأمريكيين . ولم يندهش « مناحم بيجين » لعدم تعاطف « بيفن »

ازاء مأساة اليهود الأوروبيين الناجين من الحرب أو لعدم استجابته لحجج الصهاينة الذين يحاولون التأثير عليه من وراء الستار . فلقد كان يتوقع كل هذا منذ البداية ويؤمن بأن على اليهود ، اذا كانوا يريدون الحصول على دولة الاستيلاء عليها بأنفسهم .

ومع هذا ، اذا اراد المرء أن يصدق شهادة « بيلي » وغيره ، وأن يعتقد أن « بيفن » لم يكن يحمل مشاعر معادية للسامية ، فانه يصعب عليه أن يفهم مدى عدم احساس البريطانيين بالمعاناة اليهودية . وقد شعر « بيفن » ، و « واتلى » ، بالضيق ازاء الضغوط الامريكية التي اعتبروها نتيجة لاثارة المشاعر في الداخل بدون وجه حق ضد الرئيس « هارى ترومان » . وقد ضاعف من هذا الضيق أحجام « ترومان » عن المشاركة في الابعاء المالية والعسكرية الناجمة من فرض أى حل للمشكلة الفلسطينية . ولكن البريطانيون ايضا يشعرون بقلق ازاء تأثير اتخاذ قرار موال للصهيونية ، على تسعين مليون مسلم في الهند ، ولم يكن قد تحدد مصيرهم بعد ، وعلى الاطباع السوفيتية في تركيا واليونان وايران . فضلا عن هذا فان العسكريين البريطانيين في فلسطين ذاتها ، كانوا يحذرون رؤساءهم من صحوة عربية جديدة . ويقول المدافعون عن سياسة « بيفن » انها كانت تهدف مصلحة بريطانيا أكثر من مصلحة العرب . بيد أن هذا كله لا يفسر لنا السبب في اغماض زعماء حزب العمل اعينهم عن ادعاء الصهيونيين بأن يهود أوروبا جديرون بصفة خاصة بتعاطفهم معهم ، ان لم يكن وقوفهم بضمائرهم معهم وان فلسطين هي الملاذ الطبيعي للاجئين .

ويؤكد « بيلي » أن « بيفن » كان يشعر بأنه يتعرض للضغوط الامريكية من جهة ، كما يتعرض زملاءه في مجلس الوزراء لمحاولات التأثير عليهم من جانب المنظمة الصهيونية في بريطانيا العظمى من جهة أخرى . وكان يرفض كل هذا بشدة .

ومهما كان من حسن النوايا التي انطوت عليها سياسته ، فان هذا الشعور بالاستياء الذى سيطر على وزير الخارجية دفعه للدلاء بتصريحات لم يكن لها تأثير طيب سواء بالنسبة للمصلحة البريطانية أو سمعته الشخصية . فقد كان ينظر الى العالم من منظور بريطاني ديمقراطى اشتراكى . فهو يرى أن بريطانيا دخلت الحرب من أجل تأمين أوروبا لمصلحة الديمقراطية . وأصبح اليهود يستطيعون العودة ، كغيرهم ، لاستئناف حياتهم العادية ، بعد أن تم القضاء على « هتلر » . ولم يكن يدرك مدى عمق الشعور بالصدمة الذى يسيطر على اليهود . فلكل كانوا ضحايا برنامج اباداة شاملة كاد أن ينجح حيث هلك ستة ملايين يهودى لا لى ذنب اقترفوه سوى انهم يهود .

وقال « بيفن » : صحيح أنهم تعرضوا لافظع المذابح وعمليات الاضطهاد ولكن التجربة انقته ونجا عدد منهم . ويجب الآن اغاثتهم ومساعدتهم

ومعاونتهم على العودة للاستقرار في المانيا ، والتغلب على المخاوف والتوترات الناجمة عن مثل هذه التجربة .

ثم قام وزير الخارجية ، بعد ذلك ، باقتباس عبارة قالها « اتلى » دون ان تلفت نظر أحد . فقال ان اللاجئين اليهود في أوروبا ، يجب الا يحاولوا « الضغط من أجل الوصول الى مقدمة الطابور » . وأعلن ان بريطانيا لم تعدهم بدولة يهودية في فلسطين وانما وعدتهم بوطن قومي . وأكد : « ان الفرصة لازالت سائحة لتحقيق هذا طالما كان هناك اعتراف بأن عبء انقاذ الشعب اليهودي لا يجب أن يقع على فلسطين وحدها . وكانت الاساءة الاخيرة التي ارتكبها وزير الخارجية هي مهاجمته أمريكا أثناء انعقاد مؤتمر حزب العمال في « بورنماوث » خلال شهر يونيو التالي ، بسبب مطالباتها فتح فلسطين أمام هجرة ١٠٠ ألف يهودي : « أرجو ألا يساء فهمي في أمريكا لو قلت انها تقدمت بهذا المطلب بنية صافية تماما . فأننا أعرف انهم لا يريدون في نيويورك وجود أعداد كبيرة من اليهود عندهم » . ولم يكن هناك أي لبس في فهم المغزى من كلامه .

لقد كانت بريطانيا تواجه مهمة مستحيلة . فقد اقنعت وزارة الخارجية « اتلى » و « بيفن » بانتهاج سياسة تقوم على تعليق مسألة فلسطين . بيد ان ديناميكيات الواقع جعلت ذلك أمرا مستحيلا . فان اليهود الذين صدوا عندما انكشفت لهم مظالم « بيلسين » و « أوشفيتز » ، سيطرت عليهم حالة من اليأس القاتل . وأمام عدم الاكتراث البريطاني بمأساتهم ، تضائل الأمل في أن يختار يهود فلسطين ويهود العالم ، انتهاج سياسة معتدلة . وفي الوقت ذاته بدأ صوت العرب في فلسطين يرتفع بعد أن ظلوا في سبات لمدة خمسة أعوام . وبدأ مديرو وزارة الخارجية يشعرون أن الأمور تزداد تعقيدا بصورة نفوق امكانياتهم على معالجتها .

كان « بن جوريون » ، الزعيم المنتخب « للييشوف » (يهود فلسطين) يشعر دائما بقدر أكبر من عدم الثقة في الذوايا البريطانية من « حاييم وايزمان » الرئيس المتقدم في العمر للحركة الصهيونية العالمية . وقد كتب « بن جوريون » سطرًا واحدًا في مذكراته بعد أن تجول في شوارع لندن المدمرة نتيجة للغارات ، ولكن كان يسودها في ذات الوقت الشعور بالابتهاج المعارم حيث أن ذلك كان هو يوم ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، أي يوم النصر . سجل « بن جوريون » بمذكراته في ذلك اليوم سطرًا واحدًا يقول : « يوم النصر — يوم حزين ، حزين » . فاليهود لم يكونوا قد كسبوا الحرب . لقد قتل منهم ستة ملايين ، وما زال أمامهم أن يدخلوا معركة للحصول على دولة — وبنهاية شهر سبتمبر أصبح « بن جوريون » واثقا من أن الوسائل الدبلوماسية قد وصلت الى طريق مسدود . فانه تقل الطائفة من لندن واتجه الى باريس . وفي أول أكتوبر بعث من هناك

بيزنطية مكتوبة بالرموز ، الى « مؤشيه سنيه » قائد الهاجاناه ، تأمره بتنظيم تمرد مسلح ضد بريطانيا . وقد أصدر « بن جوريون » الامر على مسئوليته الشخصية ، دون اخطار « وايزمان » وكلفت معارضة « بن جوريون » لاستخدام العنف بمثابة سياسة مرحلية منها مبدئية . ويقول كاتب سيرة « بن جوريون » أن هذه البرقية تجاوزت كل ما كان قد أعلنه من قبل أمام زملائه في لندن :

« لم يحاول « بن جوريون » ايها نفسه بأن النضال المسلح يمكن أن يؤدي الى اخراج بريطانيا من فلسطين ، وانما كان يأمل فقط في أن يؤدي الى اثاره موجة من التعاطف العميق بين الرأي العام العالمى تدفع بريطانيا الى تغيير سياستها . ولذلك فقد أعلن في مؤتمر صحفى عقده بباريس ، وهو يضع هذا الهدف نصب عينيه أن « تصرفات الحكومة البريطانية تعتبر مواصلة لسياسة هتلر العدائية » .

وكانت أول مشكلة واجهها « سنيه » في فلسطين هي كيفية الاتصال « ببيجين » . فان حملة المطاردة (أو السيزون) لم تكن قد انتهت تماما إلا بالكاد . كما أن الاتصال بينهما كان قد انقطع منذ حوالى عام . وقرر « سنيه » أن يبدأ اتصالاته من خلال « عصابة شتيرن » . وتولى « ناثان يلين - مور » الذى كان قد نجح في حماية « الشنتيرنيين » من اخطار حملة المطاردة بالتهاج سياسة تنطوى على مزيج من الرضوخ والتهديد — تولى مهمة تسليم الدعوة لبيجين ، الذى أسعده كثيرا أن « بن جوريون » قد بدأ أخيرا يتكلم ويتصرف مثله وأعرب قائد الأرجون عن استعداده للتعاون — ولكن كالمفتاد ، بناء على شروطه هو . فقد رفض « بيجين » على الفور ، أثناء اجتماع سرى ضم كلا من « سنيه » و « يسرائيل جاليلى » من الهاجاناه ، و « يالين - مور » من « عصابة شتيرن » ، اقتراحا بخل الجماعتيين المنشقين وانضمامهما الى « الهاجاناه » .

وقال « بيجين » : اننا نحتاج الى قيام جبهة مشتركة في مواجهته البريطانيين . وطالما التزمت « الهاجاناه » بالقتال ، فان الجبهة المشتركة ستكون قلقة . ولكن اذا تخلت « الهاجاناه » عن الحملة العسكرية ضد البريطانيين ، فاننا سنواصلها .

وكان « بيجين » مدركا مدى تعقيد موقف « الهاجاناه » . فانها كانت بمثابة قوات الدفاع التابعة للوكالة اليهودية ، التى تعتبر تلقونا الممثل المنتخب « للييشوف » . فاذا مارست « الهاجاناه » افعالا غير مشروعة ، فانهما تعرض بذلك المكانة القانونية للمنظمة الام للخطر وستضطر « الوكالة اليهودية » الى أن تختار ، في وقت ما ، بين الانحراف الى العمل السرى أو اعادة تأكيد شرعيتها عن طريق اجبار « الهاجاناه » على الالتزام بالقانون . أما بالنسبة « لبيجين » فانه كلن يرى أن قوة موقف الأرجون تكمن في انها تعتبر أصلا

منظمة عمل سرى ولم يسبق لها ان ادعت غير هذا مطلقا . ولقد اوضح منذ البداية ان « الارجون » ستواصل القتال حتى خروج البريطانيين من ارض اسرائيل ، مهما بلغ امد الحرب .

واقر « سنيه » و « جاليلى » منطق « بيجين » ، ولكنهما اصرا على ضرورة ان تصبح « الهاجاناه » الشريك الاكبر فيها اصبح يعرف باسم « حركة المقاومة العبرانية » . ووفقا « لجاليلى » ، تم التوصل الى تفاهم دون المساس بكرامة الشريكين الاصغر :

« لم تكن القضية هي ان يعلننا صراحة » اننا نعترف بسلطة الهاجاناه « ولكن ان يكون من الواضح للجميع باننا نتمتع بحق الاعتراف (او الفيتو) . وبمعنى آخر الا يقوم اى احد باى عملية الا فى حدود الموافقة الضمنية عليها . وكان الهدف هو منعهم من القيام بأعمال نعتبرها ضارة ، سواء كان ذلك من وجهة نظر التوقيت السياسى او من حيث الخطة العملية . ولقد كان من المهم بصفة خاصة منع تنفيذ العمليات الخطيرة التى قد تؤدي الى ان تتسبب منظمة ما فى تعثر منظمة اخرى » .

واعترف كل من « بيجين » و « شمول كاتز » المسئول الاول عن اللطافة فى « الارجون » ، بتمتع « الهاجاناه » بسلطة الاعتراض ، غير ان اللطفتين تمسكوا بحقهم فى حرية سرقة الاسلحة من البريطانيين و « مصادرة » الاموال من اماكن اخرى . وقد اظهر الهجوم الذى وقع على فندق « الملك داوود » فى يوليو ١٩٤٦ مدى ضعف قبضة الشريك الاكبر . فكان « بيجين » ، اذا لم يقتنع بالمنطق وراء قرار اتخذه « الهاجاناه » يشعر بان له مطلق حصرية التصرف وفقا لتقديره الشخصى . وكانت المشكلة هي عدم وجود قدر كبير من الثقة المتبادلة بين الجماعات التى تشكل الجبهة المشتركة ، بالرغم مما كان لهذه الجبهة من تأثير بالغ فقد استمرت الشكوك القديمة قائمة ، ولم يكن هناك احساس بدوام التعايش السلمى بين هذه الجماعات ، ناهيك عن التزاوج بينها . فلم ينس ، مثلا أعضاء « الهاجاناه » و « عصاة شتيرن » ، السنوات الاولى من فترة الاربعينيات عندما كانت منظمة « الارجون » ، وقبل عهد « بيجين » ، تتعاون مع البريطانيين ، فتشئ بالشتيرنيين . اما « الارجون » و « الشتيرنيون » فلم ينسوا موسم « المطردة » .

ويقول « جاليلى » :

« لم يكن هناك ما يدعو للاعتماد على الارجون . . ولا نقصد « بيجين » ، شخصيا ، لاسمح الله ، لمانه شخص نستطيع الاعتماد عليه . ولكنه كان رجلا يتاثر كثيرا بمن يعملون معه ، خاصة اذا حاولوا ان يشرحوا له الامور بمنطق غنى او عملى . ولكننا لم نكن نعلم من هم بطالته كما ان احدا لم يكن يعرف من

هم بطانتي . فما كان في وسع المرء أن يعرف المحرضين مسبقا ، ولكن هـقط
يعد أن يقوموا بالتحريض ، ومن المستحيل أن تعرف قبل ذلك . قد تظن أن
هؤلاء اليهود لا يثقون في بعض ويخافون بعضهم البعض . نعم ، ان هذا
حقيقي » .

واستمرت الخلافات الايديولوجية والتكتيكية ، وان كان العائق الخاص
بعدم محاربة البريطانيين اثناء مقاتلتهم « لهتلر » ، قد أصبح غير ذي موزع
فالهاجاناه ، كانت أكثر تدقيقا من الارجون فيما يتعلق بمسألة الاعتداء على
الارواح في حين كانت « الارجون » بدورها تعترض على أسلوب « عصاة
شترن » في استغلال الاغتيالات كسلاح مشروع . وكانت « الهاجاناه » تتطلع
دائما نحو القيادة السياسية المنظورة . وكانت تحرص على تبرير عملياتها
سواء على أساس كونها ردا يتناسب وحجم الاستفزاز البريطاني أو أنها جزء
من الهدف الاخر لمقاومتها السرية ، الا وهو الهجرة غير المشروعة . فمثلا ،
قامت قوة من « الهاجاناه » بقيادة « اسحاق رابين » باطلاق سراح ٢٠٨ يهود
من أحد معسكرات الاعتقال البريطانية في « اتليت » ، جنوب حيفا ، وذلك في
١٠ أكتوبر من عام ١٩٤٥ ، أي قبل ابرام اتفاق « المقاومة العبرانية » . وكانت
أهدافها المفضلة هي الهجوم على نقاط المواصلات ، خاصة السكك الحديدية
ومراكز خفر السواحل .

ومع هذا فقد عملت « حركة المقاومة العبرانية » ، منذ أكتوبر عام ١٩٤٥
حتى شهر يوليو عام ١٩٤٦ ، بقدر معقول من التنسيق . وقد تدمرت الجبهة
بسبب كارثة الهجوم على فندق « الملك داود » ضمن أمور أخرى . ووفق
لأقوال « بيجين » فان أسعد أيام حياته كانت هي أيام وحيدة العمل بين
المنظمات الثلاث . اذ أن أحلامه باقامة جبهة مشتركة لم تتحقق خلالها فحسب ،
بل انه ورجاله لم يعودوا يعتبرون خارجين على القانون . لقد ظل طـوال
أربعين عاما يفرق في التعريف بين « الارهابيين » و«المقاتلين من أجل الحرية» .
ولم يكن ليرضى أن يضحى بالمبادئ في سبيل الاحتفاظ بمظهر الاحترام ، ولكنه
كان يشعر براحة أكبر عندما كان يستطيع التوفيق بين الأمرين :

« لم يكن هناك اعتراف رسمي بنا في عهد « حركة المقاومة » ، ولكننا مع
ذلك كنا نتمتع بالاعتراف . ورفع من على كاهلنا جزء من المسؤولية — حتى ،
لو كان ذلك جزءا ضئيلا فقط . والشعب كله كان يقف وراءنا » .

هذا ، وقد وجهت « حركة المقاومة العبرانية » ضربتها الاولى ابلن ليلة
٣١ أكتوبر والاول من نوفمبر سنة ١٩٤٥ . وأسفرت الهجمات عن نجاح
« البالمخ » في اغراق ٣ زوارق دورية شرطة في حيفا ، ويافسا ، ونجحت
الهاجاناه في نسف الخطوط الحديدية عند ١٥٣ نقطة في جميع أنحاء فلسطين
واصابة منشآت السكك الحديدية في القدس وتل أبيب بالاضرار . بينما نجحت

« الارجون » في تدمير قاطرة واصابة ست قاطرات أخرى باضرار وذلك في غارة جريئة على رصيف البضائع ومحطة « اللد » . وكانت عصابة « شتيرن » هي الوحيدة التي فشلت في تحقيق أهدافها الطموحة للغاية ، فقد انفجرت شحنة ناسفة قبل الاوان وقيل النجاح في غرسها بخزان للبتروول في معمل التكرير بحيفا ، وشنت « الارجون » و « شتيرن » طوال فترة الشتاء ، وفي اطار بنود الاتفاقية ، غارات على الشرطة البريطانية وعلى منشآت الجيش والطيران بحثا عن الاسلحة . وقد خسر البريطانيون في احدى الليالى وبالتحديد في ٢٧ ديسمبر عشرة قتلى واثنى عشر جريحا . واستؤنف الهجوم المشترك مرة أخرى في ٢٥ فبراير عندما نجحت « منظمة الارجون » في تدمير حوالي عشرين طائرة من السلاح الجوى الملكى البريطانى وهى مرابطة في مطارات اللد و « قصطينا و « كفر سركين » ، مما اسفر عن خسائر يتراوح تقديرها ما بين ٧٥٠ ألف جنيه استرليني ومليونين من الجنيهات الاسبرلينية . واستمرت الغارات على السكك الحديدية والشرطة طوال شهر مارس . ونجحت « عصابة شتيرن » في ليلة ٢٦ ابريل في اثاره غضب البريطانيين وحنقهم الى اقصى حد ، عندما قلمت باغتيال ستة جنود مظليون وهم نائمون على أسرتههم بمعسكر في تل أبيب . كما اصيب أربعة آخرون بجراح . وأعلن الليفتنانت جنرال « جون دارسى » القائد العام للقوات ، فى تقريره الذى رفعه الى رئيس الاركان فى لندن ، انه لن يتمكن من السيطرة على رجاله اذا وقعت هجمات مماثلة أخرى عليهم ، وبخاصة ان بعضهم قد اتجهوا فى حالة هياج شديد الى شوارع « نيتانيا » . وشنت « المقاومة العبرانية » آخر عملياتها خلال شهر يونيو ، حيث تسببت « الارجون » فى الحاق خسائر قيمتها مائة ألف جنيه استرليني فى مخزن عربات السكك الحديدية ، ونسفت فرق المتفجرات التابعة للبالماخ « عشرة طرق ومعابر جديدة من بين الاحدى عشر طريقا ومعبرا التى تربط فلسطين بجيرانها . بيد ان « عصابة شتيرن » أصيبت بخسارة فادحة أخرى عندما قتل احدى عشر من رجالها وأسر عشرون منهم فى طريق عودتهم من غارتهم على ورش السكك الحديدية فى حيفا .

وكان لدى البريطانيين عام ١٩٤٦ ، ثمانين ألف جندي وعشرين ألف شرطى مرابطين فى فلسطين التى لم يزد عدد اليهود فيها عن ستمائة ألف نسمة . تقريبا . ومع ذلك فلم يستطع البريطانيون ان يردوا على حملة التخريب والارهاب التى قادها خمسة آلاف أو نحوها من مقاتلى « حركة المقاومة العبرانية » ولقد كتب « جيه . بوبريل » يقول فى الدراسة التى اجراها حول « الارجون » و « عصابة شتيرن » : « : لقد أصبح الانتداب بمثابة دولة عسكرية تخضع لحالة حصار مستديم وعلى الرغم من حجم الحماية ، ومعداتنا ، وعزيمتها فانها عديمة الفعالية ، تهزم نفسها بنفسها » . وكانت الفرقة السادسة المحمولة جوا تشكل القوة البريطانية الرئيسية ، ولكن لم يكن لافرادها من

المجاريين القدامى في (« نورماندى » و « آرنهيم » من ذوى « البريهسات الحمراء » ، أى خبرة بكيفية التعامل مع العصابات الذين يختفون داخل المدن المزدحمة التي تزودهم بملاذ ملائم تملا . وكان الجيش عاجزا عن الحركة ، فلم يكن من المتصور شن حرب شاملة ضد يهود فلسطين . فى أعقاب تعرضهم للإبادة الجماعية أو (الهلوكوست) . وعلى أى الحالات فإن الأمريكيين ما كانوا سيسكتون على ذلك . واستمر الجدل يدور فى حلقة مفرغة : فالإدارة فى القدس كانت ترى أن الجبل الوحيد هو التسوية السياسية . وأيد الجيش هذا الرأى ، ولكنه لم يكن مستعدا لأن يتعرض لتمريغ أنفه فى التراب ، حتى يتم التوصل الى مثل تلك التسوية واستطاع مارشال « بيرناردى مونتجمرى » ، رئيس الأركان العامة للقوات الإمبريالية ، أن يقنع مجلس الوزراء بالتحرك وذلك بعد « ليلة الجسور » ، وقيام الأرجون باختطاف خمسة ضباط بريطانيين من أحد أندية تل أبيب كرهائن حتى يتم إطلاق سراح اثنين من رجالها محكوم عليهما بالإعدام . وقال بعد أن زار فلسطين إن الجيش مستعد تماما للشروع « حرب ضد هذا العدو المتطرف الماكر » . وأكد مجلس الوزراء أنه لم يعد يستطيع السكوت على وضع انخفضت فيه سلطة الحكومة الى الحضيض . وقد أدرك البريطانيون بذلك الوقت ، أن العدو لم يعد هو مجرد شرزمة القاتلين التابعين « للأرجون » عصابة شتيرن . وصدرت التعليمات الى السبير « آثر كاننجهام » ، المندوب السامى البريطانى ، تفوضه بسحق « العناصر الأكثر تطرفا » داخل الوكالة اليهودية ، الذين كان من المعتقد أنهم يدبرون الحملة الإرهابية من خلال « المهاجلاء » .

وبدا البريطانيون يوم ٢٩ يونيو ١٩٤٦ فى تنفيذ العملية التى أطلق البريطانيون عليها اسم « عملية أجاشا » بينما وصفها اليهود « بالسبب » « الاسود » وتم تعبئة كل الجنود ورجال الشرطة الموجودين من أجل اقتحام مقر رئاسة الوكالة اليهودية ومكاتبها الأخرى فى القدس وخمس وعشرين مستعمرة فى أماكن متفرقة من البلاد ، وتم اعتقال ٢٧١٨ يهوديا من بينهم شخصيات بارزة « موشيه شاروت » ، « والخابام » يهودا لوب ششمان » ، وعثر على ترسانة أسلحة تابعة للهاجاناه فى كيوثر يا جور ، وبنى جنوب شرق حيفا . وفرض حظر التجول فى المناطق اليهودية بفلسطين . ومع هذا فإن العملية لم تحقق النجاح السالح الذى كان — مونتجمرى — يسعى اليه . فإن أهم شخصية ، وهى بن جوريون ، كانت موجودة فى باريس بعيدا عن مناله . واحتتمى « موشيه سنيه » ، قائد « الهاجاناه » بعد أن وصله تحذير فى اللحظة الأخيرة . ونجح نائباه « إسرائيل جاليلى » و « اسحاق سبه » : مؤسسى « البالماخ » ، فى أن يتواريا عن الأنظار ، بينما ظلت منظمة « الأرجون » و « عصابة شتيرن » دون مساس وقد كانت هذه واحدة من المرات الوحيدة التى لم يأسف فيها « بيجين » على افتقار المنشقين الى قواعد ريفية فى

« الكيويوات » و « الموشيفات » - أي المكري الجماعية والتعاونية التابعة لحركة العمل . فلم يستطع البريطانيون الحثور على مخبريهم . وكان الفشل الاساسي « ليوم السبت الاسود » هو انه لم ينجح في ذاته في دفع « وايزمان » وغيره من المعتدلين الى تشكيل قيادة بديلة ، كما انه لم ينجح في تقويض وحدة « حركة المقاومة » . وساد معظم يهود فلسطين شعور بضرورة الرد بشكل ما . وكانت المشكلة هي كيف يكون هذا الرد . واقتُرحت « جولدا مائير » التي كانت واحدة من الزعماء السياسيين القليلين الذين احتفظوا بحريتهم - اعلان العصيان المدني . ولكن كان « موشيه سنيه » و « مناحم بيجين » يتطلعان الى القيام بأعمال أكثر ابهارا من ذلك .

كان « بيجين » معنيا بالتأثير النفسى الذى تركه يوم « السبت الاسود » على يهود فلسطين ، أكثر من اهتمامه بالاثار الاستراتيجية . ولم يكن ذلك اليوم قد نجح في تحييد « الهاجاناه » و « البالماخ » ، على الرغم من خسائرها فى الأزواح والعتاد . وكانت هناك دواع أكبر من أى وقت سابق لقيام جبهة مشتركة نشطة ، تضم كلا من « الأرجون » و « عصابة شتيرن » . ولكن كان « السبت الاسود » استعراضا مذهلا للقوة البريطانية . وخشى « بيجين » أن يؤدي ذلك الى غرس بذور الانهزامية بين اليهود ، حيث أن الانهزامية تعتبر امرا قاتلا بالنسبة لاي حرب تحرير . « كنا ندرك أن الطريق الوحيد لاستعادة الثقة اليهودية بالذات هو عن طريق شن هجوم مضاد ناجح » .

وكلن قائد « الأرجون » يحتفظ في جعبته بالخطبة المناسبة فكان قد سبق في أوائل العام أن اقترح عليه مدير عملياته ، الواسع الحيلة ، « جيدى باجلين » ، قيام المنظمة بتخريب فندق « الملك داود » الذى يأوى جناحه الجنوبي ، مقر رئاسة الادارة البريطانية ، مع وجود مقر للشرطة العسكرية وفرع التحقيقات الخاصة فى جناح ملحق به . أما باقى الفندق ذوى الادوار الستة ، الذى كان المستثمرون المصريون اليهود قد اغتتحوه عام ١٩٣٢ ، بصفته أول فندق حديث . فحُم يقام بالقدس ، فقد كان ملقيا للشخصيات البارزة فى حكومة الانتداب حيث تتناول الكوكتيل وتدبر المؤامرات . وكان من بين تلك الشخصيات البارزة « تهييبسى تشانون » الذى نزل فى الفندق عام ١٩٤١ ، بصفته عضوا فى البرلمان ، ووصف الفندق بأنه « يعتبر بلا جدال أفضل فندق فى العالم » بعد الريف ، فى باريس . وكانت « الهاجاناه » قد استخدمت حق الفيتو فى ربيع عام ١٩٤٦ ضد خطة « باجلين » على أساس انها استفزازية أكثر من اللازم . ولكن عندما عاد « بيجين » يعرض الخطة بعد يومين من السبت الاسود ، باركها « سنيه » . وتم تبني « عملية مالونتشيك » (كلمة « مالون » تعنى « فندق » بالعبرية ، ثم أضيف اليها صيغة التصغير باللغة « اليدوية » - وتم بعد

ذلك اختصارها ، كاحتياط أمن اضافى الى « عمليات » تشيك « كجزء من «الليشوف» الانتقامى الثلاثى الشعب : فأسند الى « عصابة شتيرن » تدمير مبنى « اخوان دينيد » المجاور والذي يستخدم كمقر لمكتب الاعلام الحكومى ، بينما يقوم « الهاجلناه » بالاغارة على ترسانة الاسلحة فى « بت جاليم » بحيفا ، واستعادة الاسلحة التى استولى عليها البريطانيون فى « ياجور » . وكان الاسم الحركى « الكودى » للعملية التى ستنفذها « عصابة شتيرن » هو « عبدك وفداك » ، اما بالنسبة لخارة الهاجلناه فكان « استعادة الممتلكات المفقودة » ويرر « سنيه » موافقته على هذه العملية على أساس انها تتفق ومبدأ « المعين بالعين » — فهى تشن هجوما على الحكومة البريطانية فى مقابل هجوم شنته على الحكومة اليهودية . وقد صدقت لجنة « اكس » السرية العليا ، التى كانت تشرف على « المقاومة العبرانية » ، نيابة عن الوكالة اليهودية ، على الخطط الثلاث دون اطلاع اعضائها الخمسة على التفاصيل حيث اخطروا فقط بأن « مبنى حكوميا هاما »

سيتم ضربه ، ولكن لم يشرىوا الى اسم المبنى بالتحديد . ويتفق كل من « بيجين » و « جاليلى » على أن الهدف من تدمير الفندق « الملك داود » كان اذلال البريطانيين وليس قتلهم . ويقول جاليلى الذى كان نائباً « لسنيه » وشريكه فى السكن آنذاك ، « كان الهدف هو تخريب مبنى يستخدم مقرا للسكرتارية ولقيادة الجيش وكان ذلك ردا على « السبت الاسود » ولقد كلن عملا جريئا ، جسورا وينطوى على مخاطرة بالغة ويوجه ضربة الى المركز العصبى . ولم يكن الهدف منه هو تدمير الفندق ذاته . كما لم يكن الهدف منه . بكل تأكيد ، هو أن يسفر عن وقوع ضحايا » وقد صدرت الاوامر الى « باجلين » منذ البداية بمنح افراد السكرتارية والنلس الموجودين بالفندق ، فرصة كافية لمغادرته .

غير أن هناك ثغرة يصعب سدها بين كل من تقارير « الارجون » و « الهاجلناه » ، حول المشاورات الفنية التى دارت بين « باجلين » واسحاق سده ، فوفقا لاقوال « بيجين » ، اقترح « بيجين » منح البريطانيين فرصة زمنية لمدة ٥ دقائق ، بينما اقترح « سده » خمس عشرة دقيقة فقط . ولكنهما اتفقا بعد ذلك كحل وسط منح البريطانيين مهلة لمدة ثلاثين دقيقة . ويؤكد أعضاء « الارجون » ان « سده » ضغط على « باجلين » لزيادة قوة الشحنة الناسفة التى ينوى غرسها فى « بدروم » الفندق . ويقولون أن « الهاجلناه » كانوا يريدون ضمان عدم اتاحة فرصة كافية للبريطانيين لنقل مئات من الوثائق المدنية التى استولوا عليها من مكاتب « الوكالة اليهودية » .

وقد نفى « جاليلى » هذا التقرير كلية (كان هو و « بيجين » الوحيدين المتحيزين على قيد الحياة ابان الثمانينيات ، وبطبيعة الحال وكما هو معتاد

بالنسبة لمثل هذه المؤامرات ، لم يتم تسجيل أى تفاصيل كتلية) . ويصر على أن « الهاجاناه » لم يكن لديها أى مصلحة فى وقوع انفجار ممدوى . بل انها كلفت تنظر الى العملية أساسا كرمز فقط . وكان « سده » مهتما الى أقصى حد بتقليل احتمالات حدوث اصابات بين الاشخاص لدرجة انه اقترح توقيت القنابل لتنفجر بعد الظهر عندما يكون معظم العاملين قد انصرفوا الى بيوتهم (وهذه نقطة لا يدور حولها جدال) اما عن الوثائق فان « جاليلى » يرفض فكرة انها كانت عاملا دخل فى حسابات « الهاجاناه » . وليس هناك شك فى أن كلا من « الارجون » و « الهاجاناه » كان لديهما بعد وقوع الحادث ، دوافع قوية تجعلهما يحاولان تخفيف قدر المسئولية التى يتحملها كل منهما . بل ليس من المستغرب أن يكونا قد مارسا اساليب الدعاية السوداء ضد بعضهما البعض ، أو على الاقل أن يكون كل منهما قد حاول اضعاف أكبر قدر من البريق على الدور الذى أداه . وربما كان مما يؤكد صحة ادعاءات « الهاجاناه » الى حد ما ، التصريحات التى أدلى بها البريطانيون بانهم لم يحصلوا تقريبا على شئ من وثائق الوكالة اليهودية يزيد عما كانوا يعرفونه من قبل ، وربما كان أبسط سبب وراء ذلك هو عدم توفير مترجمين للعبرية يثقون بهم (أى من غير اليهود) . ولقد جاء فى صحيفة « باليستين ترانيجيل » ، (المثلث الفلسطينى) ، نقلا عن رجل شرطة يهودى انهم : « لم يكن لديهم أحد يستعينون به فى العمل ضد « الهاجاناه » سوى أشخاص من أمثالى — ممن كانوا يدينون بالولاء للهاجاناه . وكنا نفرز جميع الاوراق ، ولكننا ، اذا عثرنا على ورقة تدين « الوكالة اليهودية » ، أو تضربها : كنا نلقى بها فى المرحاض ونفريقها بالماء . وبعد يومين أصبحت جميع مواسير الصرف فى مقر رئاسة المباحث الجنائية البريطانية مسدودة تماما .

وفى أول يوليو ، تلقى بيجين الاوامر بتنفيذ « عملية تشيك » ، وواصل باجلين عمله فى تنقيح خطته التفصيلية للتسلل الى قاعة « ريجانس » للطعام بالفندق ، عن طريق مدخل الخدم وطريقة « بالبدروم » تمر بطول الفندق . ولكن طلبت الهاجاناه فى ١٧ يوليو من بيجين تأجيل التنفيذ ، وذلك لاسباب لم يطلع عليها أبدا . وكان « سنيه » قد حظى بزيارة من « ماير وايزجال » ، المساعد الشخصى النشط والمخلص جدا « لياهو وايزمل » . ويبدو أن وايزمان كان يعلم أن ثمة شيئا ما يدبر ، وأن كان لم يطلع بالتحديد على ما هو هذا الشئ . وحاول وايزمان ان يستغل آخر قطرة من النفوذ لديه ، فى محاولة بطولية أخيرة لفرض سيطرته على اتجاه الاستراتيجية الصهيونية . وأعلن وايزجال هو يقرأ من بيان مكتوب :

« اننا نقف على حافة هاوية . . . واذا ما واصلتم تنفيذ عملياتكم فان

هذا سيكون بمثابة إعلان الحرب على بريطانيا العظمى . وأنا واثق من أن بريطانيا لن تسكت وبذلك سنخسر كل ما كنا نحن من أجله . ومازلت أشغل منصب رئيس الحركة الصهيونية ، ومن المعترف به عامة في الانظمة الديمقراطية أن الرئيس يكون القائد الاعلى للقوات المسلحة . . . وأنا استخدم الان سلطتي هذه . وأنا آمرك أن توقفوا فوراً جميع العمليات التي تقوم بها الجمعيات السرية الثلاث » .

وهدد وايزمان بالاستقالة فوراً وبأن تكون استقالته مسببة اذا لم يخضع « سنيه » لهذا الانذار النهائي . وأصر على أن أقل ما يرضى به هو تأجيل كل العمليات الى حين اجتماع اللجنة التنفيذية العليا « للوكالة اليهودية » في اغسطس التالي بباريس ، لبحث افضل اسلوب لمواصلة النضال . وعلى الرغم من أن « سنيه » لم يشارك « وايزمان » في مخاوفه ، بل على العكس كان تواقاً للعمل ، فإنه لم يجد امامه مفرًا من الرضوخ . فهذه أول مرة يتدخل فيها الزعيم المسن بطريقة مباشرة في شأن من شئون « الهاجاناه » . ونصح « جاليلي » « سنيه » بالاتجاه فوراً الى « لجنة اكس » ، ويقول « سنيه » : « ان هذا كان خروجاً على الاساليب المشروعة . وكنا نستطيع مجازاته ونقول لوايزمان انه يستطيع الاتصال بين جوربون . ولكن كانت المسألة أخطر من ان تماطل فيها على أساس التمسك بالاجراءات الشكلية . فكان لابد من عرضها على « لجنة اكس » ، وكان لابد للجنة أن تتخذ قراراً بشأنها . وشرح « سنيه » للجنة بدقة اعتراضات وايزمان ، وان لم يحدد لها المبنى الذي سسيتم ضربه . وعدل أحد أعضاء اللجنة — وهو « ليفي اشكول » الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء — عن موقفه ، وبذلك سحبت الموافقة على تنفيذ العمليات الثلاث .

ولم يكن « بيجين » يعلم شيئاً عن هذه الاتصالات المتبادلة . واكتفى « سنيه » بأن طلب التأجيل . ولم تجد « عصابة شتيرن » بأساً من الانتظار . أما « بيجين » فكلن قلقاً . فكلما زادت الفجوة الزمنية ، قلت احتمالات الاحتفاظ بسرية عملية « الملك داود » . ووافق مرتين على منح « سنيه » مهلة أخرى ، ولكن بدأ صبره ينفذ . وكان قائد « الهاجاناه » يسلك طريقاً ملتوياً ووعراً في محاولته التنسيق بين قادته السياسيين والارجون . ومن الواضح ان « سنيه » كان يأمل في تغيير السياسة الرسمية بمجرد أن يتحدث مع « بن جوربون » قبل انعقاد اللجنة التنفيذية العليا في باريس ، ولكنه لم يكن يثق ببيجين بدرجة تكفى لان يطلعه على الحقيقة ووفقاً « لجاليلي » ، فإنه لم يكن يرغب في ازعاج قائد « الارجون » :

« لم يذكر الحقيقة كلها . فاولاً وقبل كل شيء ، فهو لم يكن مضطراً لذلك . ولم يكن مضطراً لان يطلع بيجين على أسرار الحركة الصهيونية : أى اسرار تنظيم « اليشوف » . ولكن كان هناك سبب أكثر خطورة . فهو لم يكن يرغب

في تشييط منه « بيجين » - ولو ان بيجين شعر بالاحباط نتيجة لاطلاعه على حقيقة ان الحركة الصهيونية قد بدأت تنسحب من النضال للتوصل الى نتائج بعيدة المدى .

واسفرت مراوغات « سنيه » من تحقيق النتيجة التي كان يحاول تجنبها بالذات . فقد قام قائد « الهاجاناه » في ٢٠ يونيو بإبلاغ « بيجين » بأن « الوكالة اليهودية » تستعد لإعلان سياسة عدم التعاون مع البريطانيين وذلك في ٢٥ يوليو . وكان هذا سببا آخر « في عدم تنفيذ أي عمليات قبل ذلك التاريخ » ولم يستجب « بيجين » . وبعد « سنيه » في صباح ٢٢ يوليو بأخر نداء وجهه اليه في جملة واحدة : « يجب ان تمتنع مؤقتا عن تنفيذ عملية القدس » . ولكن كانت « الارجون » قد كفت بالفعل عن تلقى أي أوامر .

وكانت القنابل المخبأة في أربعة أوعية لبن ، قد وصلت الى القدس فعلا . وكان هناك كثيرون - في الارجون و الهاجاناه « وعصابة شتيرون - يعرفون بخطة الملك داود حتى انه لم يعد ممكنا تجميدها لفترة أطول . وكان بيجين يرى أنه قد حصل فعلا على موافقة « الهاجاناه » على عملية « تشيك » . ولم يكن أحد قد أبلغه بلغائها ويقول يعقوب أرامي ، الذي خلف « إيلي تافين » كرئيس لمخابرات الارجون ، ان المنظمة ضاقت ذرعا بتأجيلات « سنيه » .

« لم تكن نعلم شيئا عن انذار وايزمان ، ولكننا كنا ندرك ان وايزمان يعارض فكرة النضال ضد البريطانيين وانسه يحاول التقليل من شأن هذا النضال . وكنا نظن انهم انما يريدون مجرد التأجيل . وكنا نعتد بدرجة اكبر على حقيقة انهم كانوا طلبوا منا أصلا تنفيذ العملية ، ولم نر أن هناك سببا يدعو للتأجيل . ولم يقدم « سنيه » أي تفسير .

هذا وقد امتنع بيجين من جليبه عن الخوض في المسألة أكثر مما ذكر في كتابه « التمرد » الذي لم يحاول فيه تبرير أسباب رفض مطلب قائد « الهاجاناه » .

وفي الساعة الثانية عشرة و٣٧ دقيقة من بعد ظهر الاثنين ٢٢ يوليو من عام ١٩٤٦ ، انفجرت شحنة ناسفة من مادة « تي . ان . تي » وزنها ٣٥٠ كيلو جراما ، داخل مطعم « الريجانس » ، الذي كان خاليا في ذلك الوقت ، وذلك قبل موعد المحدث بست دقائق . ودمرت الدعائم الوسطي الموجودة تحت الجناح الجنوبي بفندق الملك داود ، وانهارت خمسون غرفة من غرف مكاتب الإدارة المدنية والعسكرية البريطانية ، محدثة صوتا مدويا وسط سحابة من الدخان وتراب الاسمنت . وتطايرت قطع الحجارة في الطريق الرئيسي الذي يطل عليه الجناح ، لتقتل المارة وتصيبهم بالعاهات . وقذفت الانتفاض المتطايرة بأحد المسؤولين البريطانيين وقذفت به ليرتطم بحائط مبنى « جمعية الشسبان المسيحيين » المقابل للفندق ، ويخترقه بجسمه تاركا وراءه رأسه

المنزوعة من أثر قوة الانفجار ودماء المتناثرة على الحائط . وظل عمال الاقتاذ يستخرجون جثث الضحايا من تحت الانقاض حتى بعد أسبوع من وقوع الحادث وأعلن في ٣١ يوليو الحصر النهائي لعدد ضحايا العملية التي أسفرت عن ٩١ قتيلا من بينهم : ٢٨ بريطانيا ، و ٤١ عربيا ، و ١٧ يهوديا ، واثنان من الارمن ، وروسي واحد ، ويوناني ومصري . وبلغ عدد المصابين ٤٦ شخصا . وكان أكثر من نصف القتلى من الكتائبين ومن موظفات الالة الكاتبة والسعاة وغيرهم من صفار الموظفين في السكرتارية وفي الفندق . وصدى « مناحم بيجين » ازاء فداحة الاصابات ، ولكنه سارع بالدفاع عن رجاله ، وظل حتى بعد . ٤ علما من وقوع الحادث ، يلقي بمسئولية حجم الخسائر على البريطانيين . فهم لم يكتفوا بالتحذير الذى ابلغ تليفونيا الى تحويلة تليفونات الفندق . وأعلنت اذاعة « الارجون » السرية الحداد على الضحايا من اليهود — الذين اختصتهم بالذكر تمثسيا مع اسلوب بيجين في التمييز . وامتنعت الاذاعة عن اعلان الحداد على القتلى البريطانيين ، حيث ان بريطانيا لم تعرب عن حزنها على الستة ملايين يهوديا الذين هلكوا في محرقة النازى . وأعلنت « اننا سنواصل المسير في طريقنا — طريق المعاناة ، وطريق النضال — ونحن نطوى صدورنا على هذا الحزن وهذا الغضب ازاء مأساة اليهود المؤلمة » وبدا ان « الارجون » لم يلاحظوا ان معظم القتلى لم يكونوا يهودا أو بريطانيين بل كانوا عربا . وكما يقول « ثريستون كلارك » : بالنسبة للارجون ، فان العرب لم يكن لهم أى وجود ، بل كانوا كالأشباح غير المرئيين .

وأصبح من المعروف الآن بصورة مؤكدة ان الارجون قد قاموا فعلا بتوجيه الانذار ، ولكنه لم يبلغ للسلطات البريطانية بأسلوب يوحى بالجدية ولا قبل فترة كافية تسمح للعاملين باخلاء الفندق قبل انفجار الشحنة النافسة . أن ما وقع في ذلك اليوم الحزين اثناء فترة تناول طعام الغداء كان بمثابة مأساة جاءت نتيجة لسلسلة من الاخطاء . ولكن لا يمكن اعفاء « منظمة الارجون » وقائدها من المسئولية الكاملة . فمهما كانت قلة تجاربهم السابقة ، لا يمكن تصور تنفيذ أى عملية تخريب على هذا النطاق المضخم دون أن يوضع فى الاعتبار احتمال وقوع خطأ . فمن شأن القنابل مثلا أن تفتجر قبل موعدها ، كما أن الرسائل قد تضل الطريق فلا تصل الى وجهتها المحددة . وكانت القدس قد تعرضت آنذاك لانتشار موجة من الانذارات الكاذبة وكأنها وباء . ولم يكن هناك ما يضمن عدم التعامل مع الانذار الذى وجهه « الارجون » على انه واحد من تلك الانذارات الكاذبة . كما كان من المعروف جيداً أن يوم الاثنين يعتبر أكثر أيام الاسبوع ازدحاما بالعمل بالنسبة للسكرتارية حيث انه يأتى فى اعقاب أيام الاجازة الاسبوعية للمسلمين واليهود والمسيحيين ولذلك فان معظم العاملين لم ينصرفوا لتناول الغداء قبل الساعة الواحدة بعد الظهر . وكان هذا هو السبب وراء اقتراح « الهاجاناه » تنفيذ العملية فى الوقت

متأخر من النهار حتى ولو أدى ذلك الى زيادة المخاطر التى يتعرض لها فريق « جيدى باجلين » .

لقد أبلغ التحذير الى الفندق تليفونيا بواسطة « أدينا هاى » البالغة من العمر ستة عشر عاما والتلميذة باحدى مدارس القدس التى كانت تتولى نقل رسائل الارجون . وبدأت « أدينا » فى اجراء اتصالاتها بمجرد أن انسحبت فرقة التخريب من « بدروم » الفندق . وتقول ان قائد العملية اعطى الاشارة التى سبق الاتفاق عليها تقول « ادينا » :

« دخلت حانوتا قريبا من فندق الملك داود - وكان محلا للطور أو لبيع النظارات - او ربما كان يجمع بين الامرين ، واتصلت بالفندق . وقلت بالعبرية والانجليزية : « هنا المقاومة اليهودية . . لقد غرسنا القنابل بالفندق ، فالرجاء اخلاء الفندق فوراً . لقد أنذرناكم ، ثم هرولت عبر شارع الملك جورج . وكان يوجد آنذاك كشك للتليفون حيث توجد حالياً حديقة عامة . واتصلت بالقنصلية الفرنسية وابلغتهم ان ثمة قنبلة ستنفجر فى فندق الملك داود وطلبت منهم منح الفوافذ حتى لا تحدث أضراراً . ثم اتجهت الى شارع يافا بالقرب من محطة الاتوبيس القديمة ، واستخدمت التليفون الموجود بمحل لبيع البويات واتصلت بصحيفة « بالستين بوست » وابلغتهم بالعبرية اننا قمنا بزرع قنابل فى فندق الملك داود ، واننا حذرناهم هناك . وطلبت من الصحيفة تحذيرهم مرة اخرى واتجهت بعد ذلك الى معسكر اليهود ، وعندما وصلت الى محطة البوليس هناك ، تردد صوت انفجار هائل ، لقد كان هذا هو صوت انفجار فندق الملك داود .

ويمكن القول ان من المستحيل اتمام مثل هذه الرحلة ، حتى لو قامت بها نقاة مراهقة فى عجلة من أمرها ، فى مدة تقل كثيراً عن نصف ساعة ، اذا أخذنا فى الاعتبار المكالمات التليفونية الثلاث التى اجريت خلالها . وثمة دلائل مستقلة تؤكد ان المكالمات الثلاث قد تمت بالفعل . ويقول « نعيم نيسان » ، رئيس المخدم فى فندق الملك داود ، انه استدعى الى تحويلة التليفونات بالفندق :

« كان عامل التليفونات صاحب الوجه تماما . وقال ان امرأة اتصلت به وابلغته ان ثمة قنبلة فى الفندق . وطلبت منه أن يهدأ والا يثير الرعب . وهرعت الى المدير ، مستر (ماكس) هامبيرجر » ، الذى قال لى أن من السهل جداً على أى شخص ان يعلن أن قنبلة توجد بالفندق . فقلت له : لماذا المجازفة ولماذا لا يبلغ السلطات . والتقط سماعة التليفون وأدار على الفور رقم مقر القيادة البريطانية . ثم قال لى : « لا تقل لأحد . فان أحداً لن يغادر الفندق » . وكان قد سأل البريطانيين : « هل اخلى الفندق ؟ » . ولم اسمع الرد ولكنى اعتقد انهم ردوا بالنفى ، وان هذا هو السبب فى طلبه منى عدم ابلاغ احد ،

وان أخذ لن يغادر الفندق . واتجهت بعد ذلك لاستئناف اعمالى بعيدا عن قاعة
« الريبجانس » ركنت فى موقعى هناك عندما وقع الانفجار .

ولم يوجه « نيسان » ، فيما بعد ، أى أسئلة الى « هامبورجر » حول
هذا الموضوع : « انه لم يتحدث أبدا بعد ذلك من المسألة » ولم يحدث أبدا
ان اثرتها معه مرة أخرى . فهو فى غاية المتشدد . وكان « نيسان » يهوديا
عراقيا ، عمل من قبل لدى الاسرة المالكة فى بغداد . وقد تزوج ، بعد الحادث
بأربع سنوات ، من « ادينا هاى » ، ولكن لم تكن له أى صلة « بالارجون » .
وهو كان على صلة بعم « ادينا » ولكنه لم يحدث ان قابلها الا بعد فترة طويلة
من الحادث . ويؤكد « اميل سوتير » المدير المساعد بالفندق ، صحة رواية
« نيسان » فى مضمونها . وكان « اميل » قد استبعد صدق التحذير فى البداية
على اساس انه خدعة . ويعترف « سوتير » وهو مسيحي سويسرى متزوج من
بريطانية ، بأن عمال التليفون أخطروه ثلاث مرات بالتحذير .

وقد تأكدت أيضا صحة الانذارات الاخرى ، حيث أقرتها كل من
« اليالستين بوست » (أو الجيروسالم بوست حاليا) ، والمقنصلية الفرنسية
بل ان غافل تهوية الصحيفة قام باخطار الشرطة . وقد عثر على تلك الرسالة
مسجلة فى سجلات المباحث الجنائية . وقد بعث جندى فرنسى كان يخدم فى
قوات حفظ السلام للأمم المتحدة بجنوب لبنان ، عندما أعيد فى عام ١٩٨١ نشر
رواية « ثارستون كلارك » عن أحداث ذلك اليوم — بعث برسالة الى « ادينا
نيسان » يبلغها فيها أن والده كان قنصل فرنسا بالقدس عام ١٩٤٦ ، وأنه
يذكر كل تفاصيل الحادث منذ أيام طفولته .

وبالقائه نظرة تحليلية على الماضى ، نجد انه من الواضح ان البريطانيين
كانوا سيتصرفون بسرعة أكبر ازاء التحذير لو أن « ادينا هاى » اتصلت
تليفونيا بالسكرتارية مباشرة ولم تكثف بالاتصال بتحويلة تليفونات الفندق .
ولم يكن رقم السكرتارية سرا . ولكن كانت « منظمة الارجون » تعتقد أن
اجراء مكالمة واحدة هو أفضل طريق لتحذير كل من الفندق والسكرتارية فى آن
واحد . وكان « اسحاق افينوم » ، قائد الارجون المحلى بالقدس الذى تلقت
بنه « أدنيا » الاوامر ، يعتقد أنه مجرد ابلاغ التحويلة يكون بمثابة إطلاق
جرس الانذار ، وأنه بمجرد الضغط عليه يتم نقل التحذير الى كل من ادارة
الفندق والبريطانيين فى آن واحد . ولكن ، على خلاف ظن « الارجون » ، من
البواضح أن عمال التحويلة لم تكن لديهم سلطة إطلاق الانذار على مسئوليتهم
الشخصية .

ويظل التساؤل معلقا : لماذا لم يقم البريطانيون باخلاء السكرتارية عندهما
علموا بالانذار من « هامبورجر » ومن الشرطة ؟ ان أبسط رد على هذا هو أن
الوان كان قد فات . ولكن المسألة تنطوى على ما هو أكثر من ذلك . فـ

« مناحم بيجين » ظل يروى في الاحاديث التي أدلى بها حتى وقت قريب - وكان آخرها في عام ١٩٧٦ - أن السير « جون شو » ، سكرتير عام الادارة البريطانية ، تلقى التحذير ورد قائلاً في غطرسته المعتادة : « اننى موجود هنا لاصدار الاوامر الى اليهود ، وليس لتلقى الاوامر منهم » . وكانت هذه الرواية قد نقلها إسرائيل جاليلى ، عضو الهاجاناه ، الى « بيجين » في ظرف ايام قليلة من وقوع الكارثة . ويقول « جاليلى » بدوره عن صحفى امريكى (توى بعد ذلك) وقد رفع « شو » دعوى تشهير ضد صحيفة لندنية يهودية صغيرة منذ فترة طويلة ترجع الى عام ١٩٤٨ ، عندما قامت بنشر الخبر . وقد أقسم « شو » وسكرتيرته انهما لم يتلقيا أى اذنارات . وقد سحبت الصحيفة زعمها بدلا من الدفاع عنه ، حيث انها لم تستطع العثور على أى شهود اثبات . وتقول « جوزفين » ، زوجة « شو » ان الخبر مختلق تماما بهدف الاساءة الى سمعة السير « جون » ولتخفيف جزء من المسؤولية عن كاهل الارجون ، ولكن ليس هناك أى دليل أيضا يثبت هذا الادعاء . ويسلم « شمویل كاتز » ، مدير دعاية « بيجين » ، فى تسجيله لتاريخ كفاح « الارجون » ، « بإمكانية استبعاد » الرواية الخاصة برد « شو » على الانذار .

ومع كل هذا ، فان شخصا ما بالإدارة البريطانية تلقى الانذار ، وهناك الكثير من المعلومات التى تؤكد أن شيئا ما قد وقع خطأ . وربما كان هذا هو سبب المشكلة . فان « باجلين » ورجاله كانوا قد دخلوا الى « بدروم » الفندق متخفين كعمال عرب . واثناء اعداد قتائل المتفجرات فى قاعة « الريجنس » للطعام شاهدتهم ضابط بريطانى برتبة « ميجور » فأطلق الإنذار . واثباء الارتباك الذى وقع ، اطلق أحد رجال « الارجون » النار عليه . وأبلغ الحادث الى رجال الامن البريطانيين ، ولكن ساد اعتقاد خاطئ بأنه اشتبك مع بعض اللصوص العرب . وقام رجال « الارجون » بعد ذلك بتفجير شحنتين صغيرتين فى « طريق جوليان » ، وهو الشارع الرئيسى الذى يقع عنده فندق الملك داود ، لاجبار البوليس على اغلاق الشارع مما يضمن عدم زيادة عدد الاصابات المحتملة . وانفجرت القنابل قبل موعدها ، مما زاد من الارتباك العام . وسمع سير « جون شو » هذه الانفجارات من حجرة مكتبه بالدور الرابع ، فعبر الممر المواتع خارجها لتقصى الامر ، وتوصل الى ان المسألة لا تزيد عن كونها واحدة من الحوادث « العادية » المألوفة فى عام ١٩٤٦ . ورأى أن البوليس بوسعه معالجتها حيث أن لديه أشياء أهم من ذلك يؤديسها . ومن الواضح ، بذلك ، ان التحذير الذى وجهته « أدينا هاى » ، من خلال شبكات اتصال الفندق والامن ، لم يتم تقيييمه على اعتبار أنه حدث منفرد ، بل على أساس أنه جزء من الفوضى التى كانت تسود القدس حيث كانت أصوات الانفجارات والطلقات والمهرج والمرج من الامور المعتادة . واذا كان قد وقع اهمال من جانب البريطانيين فيما يتعلق بالامن ، فانه لم يتجاوز نطاق الاخطاء البشرية

المسموح بها . ولقد دفع البريطانيون ، والعاملون لديهم ، وزوارهم ثمنًا فادحا للغاية مقابل هذا الخطأ .

بيد انهم قضوا على الجزء الاكبر من مشاعر التعاطف التي حظوا بها في بداية الامر ، وذلك عندما وصل الى الصحف والصهاينة خطاب دورى أصدره القائد المعلم الجديد للقوات البريطانية ، الجنرال سير « افلين باركر » ، الى قواته . وكان سير « باركر » قد كتب الخطاب الذى ندم فيها بعدد على اصداره ، في ثورة من الغضب ، ولكنه استغل كترينة تؤكد أسوأ المشكوك السائدة ازاء النوايا البريطانية ، فقد أعلن :

« يجب على جميع الجنود البريطانيين الامتناع عن اقامة أى علاقات اجتماعية مع اليهود ، ويجب الا تجرى أى اتصالات معهم خارج نطاق الالتزامات الرسمية فقط ، وأن يكون ذلك في أضيق الحدود الممكنة . وأنا أدرك ان هذه الاجراءات من شأنها اثارة بعض المتاعب بالنسبة للقوات ، ولكنى واثق من أنهم لو فهموا تماما الاسباب التى دفعتنى الى اتخاذها فانهم سيدركون انها لائقة ، وأنها كفيلة بمعاينة اليهود بأسلوب يكرهه هذا الجنس اكثر من شىء آخر ، ألا وهو تغريمهم ماليا واطهار احتقارنا لهم » .

وقد ضاعفت عملية « الملك داود » من كراهية الجمهور البريطانى « للارهاب اليهودى » . ولكنها ساعدت في الوقت نفسه على زيادة ايمان الحكومة بحتمية التوصل الى حل سيلمى . فان الكرامة البريطانية تأثرت فعلا كما تأثرت معها ارادة الاستمرار في حكم فلسطين . أما داخل المعسكر اليهودى فان هذه العملية كانت بمثابة توقيع حكم باعدام المقاومة المشتركة . فأجبر « موشيه سنبه » ، أكثر قادة « الهاجاناه » ثورية ، على الاستقالة . ووافق « بن جوريون » في باريس على العودة الى الوسائل الدبلوماسية التى شملت الموافقة رسميا على قبول مبدأ التقسيم . وتوقفت الهاجاناه تقريبا عن كل عملياتها التخريبية لمدة سبعة عشر شهرا . وكما توقع « بيجين » فان « الارجون » و « عصابة شتيرن » ، وجدوا انفسهم مضطرين الى مواصلة الطريق بمفردهم ، دون الحصول على معونة من أحد . وكانت هذه هى احدى التوقعات التى أثبتت الايام صحتها ، دون أن تترك لديه أى شعور بالاغتباط ازاء انتصار رايه .

الفصل الثامن

((النفس بالنفس))

كان لعبارة « فلننتقم الله لدمائهم ! » ، التي جاءت في البيان الذي أصدره مجلس الوزراء الاسرائيلي في ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢ ، في نهاية اجتماعه الاسبوعي ، صدى مدويا . وأحدث هذا الدعاء باستنزال اللعنة ، هزة عنيفة في أعضاء السلك الصحفي بالقدس الذين كانوا يشعرون بالتعب المعتاد الذي يسيطر عليهم في عطلة نهاية الاسبوع ، وأيقظهم من اغفائهم بعد ظهر يوم الاحد المذكور . لا يمكن ان يكون هناك سوى رجل واحد يستطيع ان يكتب مثل هذه العبارة : « مناحم بيجين » الذي يتولى رئاسة وزراء اسرائيل طوال الخمس سنوات السابقة . وعلى الرغم من أن البيان بدأ بالموافقة على اجازة لسفير مخضرم ، ثم اشارة غامضة الى استعراض المسائل الدبلوماسية والامنية ، فإن هذا الاجتماع لمجلس الوزراء لم يكن اجتماعا عاديا . فقد جاء في الفقرة الثالثة من البيان اعلان عن اصدار مجموعة جديدة من الطوابيع البريدية ، الامر الذي كان من الممكن اعتباره ، في ظروف أخرى ، بمثابة مسألة غير مثيرة للاهتمام تهما كما كان الحال بالنسبة للبثود التي سبقتها . ولكنها كانت طوابيع تثير الشعور بالورع بنفس درجة اثارها لاهتمام هواة جمع طوابيع البريد . اذ ان هذه الطوابيع العشرين صدرت « تخليدا لذكرى شهداء الجبل الذي أسس دولة اسرائيل » . وقد تضمنت المجموعة ، من أجل المحافظة على المظاهر ، شخصيات وطنية بارزة من أمثال « حنا سنيش » ، شاعر « الكيبوتز » الذي أعدمه النازي بعد أن قفز بالمظلة الى داخل أوروبا المحتلة ، و « ايلي كوهين » الجاسوس من دمشق . ولكن أحدا لم يندهش عندما ظهرت على عشرة طوابيع من ضمن العشرين طابعا ، صور المناضلين من « الارجون » و « عصابة شتيرن » الذين أعدمهم البريطانيون شنقا ، ورجلين فجرا نفسيهما اثناء وجودهما داخل زنزانة المحكوم عليهم بالاعدام .

لقد كان قائدهم القديم يدفع الدين الذي في عنقه لهم . فهؤلاء الاشخاص كانوا بالنسبة « لمناحم بيجين » آخر الشهداء ، وأبطال ملحمة الشخصية ، وكان « بيجين » يضعهم على منصة تسمو فوق كل منصة أخرى لغيرهم من القتالين في صفوف « الارجون » الذين سقطوا في ميدان المعركة ، والذين يحمل لهم في نفسه كل تقدير . ان أولئك هم الرجال الذين قال عنهم ، وهو يفيض في التبرير عن اعجابه بهم في كتابه « التمرد » ، انهم اجتازوا الاختبار :

« ليست هناك معركة مجيدة ، ولا هجوم عاصف . ولكن هناك فقط التفكير والتأمل - التفكير في الوقت الذي أخذ يفقد مع كل دقة من دقائق

الساعة . والتفكير فيها وراء الزمن . أن الايام تمر بطيئة وطويلة ولكن الليالى أطول . والوقت يمتد ويتيح فريسة أطول من اللازم للتأمل . ويطوف بالذهن ذكرى شئ ما أو شخص ما . ذكرى صوت أم مسنة ، أو زوجة شابة ، وهو يأتى من بعيد ولكن بوضوح كامل . أن الملابس الحمراء التى يدثره بها الجلالد ، تذكره على الدوام بأن أيامه أصبحت معدودة ، وأن الشمس التى تسطع خارج زنزانته المظلمة لا تعمل على محو الليل وانما تعمل على زيادة اقتراب الظلام الازلى . ان المرء لا يستطيع هنا كبث غريزة حب البقاء . فان الصراع المؤلم يستمر معها ، فهو يبدأ صباح كل يوم من جديد وكل ساعة وكل دقيقة ، ويستمر يدور فى ذهنه عندما يخلد الى النوم وعندما يقوم من نومه وفى غدوه ورواحه وفى وحدته عبر زنزائنه المغلقة » .

لم يكن الامتحان مجرد اختبار فى الشجاعة ، وانما فى الانضباط والالتزام ويشرح « يعقوب امرامى » ، مدير مخابرات « الارجون » ، هذا الامر قائلا : « لقد ذهبوا الى المشنقة لانهم لايعترفون بالحكم البريطانى ، وكان بعضهم على الاقل يستطيع أن ينجو بجلده لو أنهم قبلوا السلطة القضائية للمحكم البريطانية ولم يجبرهم أحد على الرفض ، وكانت لديهم حرية اختيار مطلقة . فقد مزق « دوف جرانيير » ، وهو أكثر هؤلاء الشهداء اخلاصا ، توكيلا رسميا كان قد وقعته يفوض فيه أحد المحامين باستئناف الحكم . لقد كان هؤلاء شهداء بمعنى الكلمة : رجال اختاروا الموت فى سبيل هدف . كانت تضحياتهم تشكل جاذبية خاصة بالنسبة « لبيجين » الرومانسى والمعقائدى ، القائد والمتفرج فى وقت واحد . لقد كانوا يتصرفون وكأنهم شخصيات خرجت من بين صفحات رواية بقلم « جابوتنسكى » ، حيث يقومون بتوجيه قضائهم ثم ينشدون « الحاتيكنا » (نشيد الحركة الصهيونية) وهم يقفون عند المشنقة . وعندما توفيت « اليزا بيجين » فى نوفمبر من عام ١٩٨٢ ، دفنت عند جبل الزيتون بالقرب من مقابر « مائير فينشتاين » و « موشيه برازاني » ، اللذين خدعا الجلالد بأن نجرا قنبلة يدوية مهربة اليهما فى سجن القدس المركزى . وكان « بيجين » قد طلب فى وصيته التى كتبها بعد انتخابه رئيسا للوزراء فى عام ١٩٧٧ ، أن يدفن هو وزوجته بجوارهما .

وكان « بيجين » بصفته قائدا للارجون يقدر أرواح المقاتلين حق قدرها . فكان يصر قبل تنفيذ أى عملية على أن تتضمن خطة للهروب قابلة للتنفيذ . ومع ذلك فقد كان يضع فى اعتباره احتمال أن يتعرضوا أحيانا للمقاومة ، وأن يموت بعضهم أو أن يصابوا بعاهات ، بينما يعقل آخرون بل وقد يتعرضون للنفى أيضا . وهذا هو ثمن « التمرد » . فاذا كانت المعركة ذات قيمة فانها تكون جديرة بالتضحية . وكان « بيجين » يرمض السكوت على الاذلال بواسطة المشنقة أو السوط . فقد عانى اليهود فى شتاتهم بالمهجر فى

صمت من مثل هذا الاذلال ، ولكنهم لن يسكتوا عليه في وطنهم القومي . ولم يتس « بيجين » عندما كان طفلا وأجبر على مشاهدة تنفيذ عقوبة الجلاد العلني في زعماء اليهود « بيديست - ليتونيسك » ، بناء على أوامر أحد الجنرالات البولنديين ، ويقول « كنت آنذاك في السابعة ، ولكن بشاعة هذا المنظر المهين لم يمح من ذاكرتي مطلقا » .

وكانت عمليات الشنق والجلد بالسياط من الأساليب التي اعتاد البريطانيون على استخدامها من أجل قمع حركات التمرد بالمستعمرات وان كان ذلك في الحالات القصوى ، وكانوا ينفذون الإعدام في أعداد من عرب فلسطين تفوق عدد اليهود . ولكن لم يرد على البريطانيين بالمثل ، من بين الجماعات المتمردة ، سوى « منظمة أرجون زفاي ليومي » . وقد تمكنت المنظمة من وقف عمليات الشنق والجلد التي مارستها السلطات البريطانية بممارستها الشنق والجلد بالسياط ضد الضباط وضباط الصف البريطانيين أنفسهم وردت على الإهانة بالمثل ، ليس ضد الجنود كأفراد فحسب بل ضد النظام ككل . وما زال الالم الناجم عن تلك الإهانة قلما حتى اليوم . ويتردد ان « مارجريت تاتشر » قالت بعد مرور ثلاثة عقود على تلك الأحداث ، لرئيس وزراء آخر في الكومنولث ، أنها لا تستطيع مطلقا مصافحة رجل مسئول عن شنق اثنين من الجنود البريطانيين برتبة سيرجنت (ومع هذا فقد استقبلت مناحم بيجين في مقر رئاسة الوزارة في داوونج ستريت) .

وقد أثير أول تهديد وجهته الأرجون ، فقد القى القبض على كل من « ميشيل آشيل » و « يوسف سمحون » ، عضوي المنظمة ، وهما في طريقيهما الى المستشفى بعد أن أصيبا أثناء اشتراكهما في غارة مسلحة وقعت في ٧ مارس عام ١٩٤٦ ، ضد أحد معسكرات الجيش بصرافند . وكانت فرقة من « الأرجون » قد تسللت الى القاعدة العسكرية متخفين في زي جنود مظلات بريطانيين ، ولكن اكتشف أمرهم عندما طبع أحد أفرادها وحاول انتزاع مدمع آلي من طراز « فيكرز » من فوق إحدى الدبابات . وانسحبت الفرقة في غير نظام . وصدر الحكم بالإعدام ضد « أشيل » شاعر الأرجون ، و « سمحون » وردت المنظمة على ذلك باختطاف ستة من الضباط البريطانيين : خمسة من أحد نوادي تل أبيب والسادس من القدس . وقد تمكن الأخير من الهرب ، مما سبب « لبيجين » الشعور بالخزي الأبدي . وفرضت السلطات حظر التجول في تل أبيب ، وبدأت عملية التفتيش من بيت الى بيت وأعلن « بيجين » أن الأرجون سترد على « الشنق بالشنق » . وجبرت المفاوضات بين الطرفين من خلال الوسطاء اليهود . وأطلقت « الأرجون » ، كتعبير عن حسن النية ، سراح اثنين من الضباط المحتجزين وأعطيت كل واحد منهما جنيها كتعويض عن أي أضرار لحقت بهما . وأعلن الضابطان انهما لقيا معاملة طيبة . وعندما تم استرداد عضوي

«الارجون» ، القى الرهائن البريطانيون البلقون في وسط تل أبيب ، وهم محشورون داخل صندوق شحن . وخرجوا منه ، وهم يرتدون زيهم العسكري الانيق الذي كان قد تم كيه ، مما أثار سخرية وضحك المارة . لقد عقدت «الارجون» صفقة ولم تتراجع عن تنفيذها .

ولكن لم تكن للعملية التالية نهاية سعيدة مماثلة ، وان كانت قد أسفرت عن تحقيق نصر آخر «للالرجون» . فقد صدر حكم ضد «بنيامين كيمتشي» المقاتل في الارجون البالغ من العمر سبعة عشر عاما ، بالسجن لمدة خمسة عشر عاما مع جلده ثماني عشرة جلدة عقابا له عن حمل السلاح . وردت «الارجون» على ذلك باعلان : « اذا استخدمتم السوط ضدنا ، سنستخدم السوط ضدكم » . ومع ذلك تم جلد « كيمتشي » ونفذ « بيجين » وعيده ، حيث تم اختطاف ضابط بريطاني برتبة ميajor وثلاثة ضباط صف من تل أبيب ونيثانيا وريشون لوزيون . وتلقى كل واحد منهم ثماني عشرة جلدة قبل الامراج عنهم . وقد أكد البيان الذي صدر وهو يحمل شعارا يصور ضفتي الاردن وبندقية وتحتها فترة تقول « ليس اقل من هذا » : ان المنظمة لن ترد « بالسوط فقط مستقبلا ، اذا استمرت عناصر القهر في جراتها التي تهدف الى الحاق الالهانة الجسمانية بالشباب اليهودي وشرفه القومي والانسانى ، بل اننا سنرد بالنار » . وابتلع البريطانيون كبرياءهم . فأعفى شاب آخر من «الارجون» كان قد اعتقل مع « كيمتشي » من عقوبة الجلد . ولم يوقع البريطانيون بعد هذا عقوبة الضرب بالسوط على أى من اليهود أو العرب طوال المدة المؤلمة الباقية لهم في « الارض الموعودة » ومهما يكن من أمر ، فقد تحققت أمنية أحد الجنود البريطانيين ، كتب عبارة على أحد ملصقات «الارجون» التي تحذر جميع ضباط الجيش البريطاني من احتمالات تعرضهم للجلد بالسوط . . كتب يقول : « لا تنسوا المضابط الذي برأسنى برتبة سيرجنت — ميajor » .

أما استخدام حبل المشنقة فقد احتاج الى جهد أكبر لايقافه . اذا احتاج الامر الى تنفيذ الاعدام شنقا في سبعة من رجال « بيجين » قبل أن يتم ايقاف مثل هذا الحكم . كما استدعى الامر أن يلحق بهم اثنان من الجنود البريطانيين برتبة سيرجنت ، تم تنفيذ الاعدام فيهما شنقا بمقصلة أقيمت خصيصا لهذا الغرض ، لا لاي ذنب ارتكبه سوى كونهما بريطانيين موجودين بفلسطين في ذلك الوقت . وكانت حكومة « اتلى » والادارة البريطانية في القدس ، في وسط هذا الجو من الارهاب الذي يزداد جراءة ، تقعان تحت ضغوط مكثفة من الراى العام لاستعراض قوتها . ومن ثم فقد أصبح « دوف جرائر » المهاجر اليهودى المجرى البالغ ثمانيه وعشرين عاما

والذى أصيب بجراح مرتين أثناء خدمته فى الجيش البريطانى رمزا لروح التحدى المبهزة للارجون ، وللإصرار البريطانى .

وقد ألقى القبض على « جرائر » فى أعقاب غارة مسلحة على مركز شرطة « رماث جان » فى ٢٣ ابريل ١٩٤٦ وكانت فرقة من الارجون قد دخلت المبنى متخفية كجنود بريطانيين جاءوا لتسليم مجموعة من المعتقلين العرب . وعندما لم يعثروا على مفتاح خزانة الاسلحة ، قاموا بنسف الباب ، مما نبه حامل مدفع برن يقف على سطح المبنى وأحد رجال الشرطة الذى أجرى اتصالا تليفونيا طالبا النجدة . وفقدت « الارجون » فى هذه المعركة غير المدبرة ، ثلاثة من رجالها . وتحطم فك « جرائر » عندما أصيب برصاصة فيه ، وكاد أن يفلق الحياة عندما عثر عليه رجال الجيش . وأجريت له سلسلة من العمليات الجراحية ، وأصبح لائقا للمثول أمام القضاء حيث جرت محاكمته فى يناير سنة ١٩٤٧ بالقدس . ووجه « جرائر » أثناء شرحه للأسباب التى تجعله يرفض حق المحكمة فى مقاضاته ، اتهامها الى بريطانيا بتحويل « أرض اسرائيل التاريخية » الى قاعدة عسكرية وباغتصابها من الشعب اليهودى « لذلك فلم يعد هناك أى أساس قانونى لحكمكم ، الذى أصبح لا يقوم الآن سوى على مبدأ واحد فقط : القوة الغاشمة ، المثلة فى استخدام السلاح وسيادة الارهاب المتخفى فى صورة القوانين المزعومة . لقد صيغت هذه القوانين بواسطة حاملى الحراب . وهم يصدرونها ثم يطبقونها بما يتناقض مع الحقوق الاساسية للانسان ويتعارض مع ارادة الشعب المحلى والقانون الدولى » .

وعندما أصدر القضاء العسكريون الحكم عليه بالاعدام شنقا ، رفع صوته مرددا النشيد الصهيونى وهو يقف فى قفص الاتهام . وكئن « جرائر » يفضل الحياة على الموت ، ولكن على أن يكون ذلك رفقا لمبادئه ، وليس لمبادئ قضائه . وكان المعتقلون من رجال « الارجون » يعرفون جيدا الفرق بين الاستشهاد والانتحار . وكانوا يودون أن يتم انقاذهم أو مبادلتهم ، ولكن على ألا يكون المقابل هو التماس الرأفة . وأصدرت « منظمة الارجون » انذارا ، وان كل أقل تحديدا من الانذارات السابقة : ان اعدام أسرى الحرب يعتبر جريمة قتل مع سبق الإصرار . ونحن ننذر نظام الحكم البريطانى باراقة الدماء ردا على ارتكساب مثل هذه الجريمة » . وكان رد فعل « بيجين » المبدئى ، مرة أخرى ، هو اختطاف رهائن بريطانيين . فاختطف البيجور ه . ا . كولينز ، الذى قيل انه ضابط مخابرات ، ولكنه كان فى واقع الامر ضابطا متقاعدا يشتغل فى الاعمال الحرة ، وذلك أثناء تناوله الشاى بمدينة القدس . واختطف كذلك ، القاضى « رالف ويندام » من قاعة المحكمة فى تل أبيب . ويبدو أن عملية الاختطاف

الآخيرة أزعجت البريطانيين أكثر من الأولى ، وإن كان من المشكوك فيه أن السبب في ذلك هو صلاته بالطبقة الأرستقراطية ، كما كان يزعم « بيجين » ، وبدأت الحكومة تحلول كسب الوقت بعد أن كانت قد قررت في بداية الأمر تنفيذ حكم الإعدام على « جرائر » بصرف النظر عن المعواقب . فأعلنت تأجيل تنفيذ الحكم إلى أجل غير مسمى لاتاحة الفرصة له لتقديم التماس إلى « المجلس الملكي الخاص » . وكان هذا الإعلان بمثابة نقطة تحول في القضية وكانت جماعة « الأرجون » تواجه تفوقا عدديا . وقرر « بيجين » أن استمرار احتجاز الرهائن لن يحقق شيئا ، خاصة وأن المخبا الموجود به القاضي « ويندام » ، لم يكن آمنا على الإطلاق ولكن عندما اتضح أن البريطانيين كانوا لا يزالون مصممين على شنق « جرائر » وثلاثة آخرين — هم « يحيل دريزنير » ، و « مردخاي الكوشى » و « الايزر كاشانى » — لم تدبر « الأرجون » عملية الانقاذ بسرعة كافية . وكانت البلاد كلها تخضع للقوانين العسكرية ، ونقل الرجال الأربعة المحكوم عليهم بالإعدام من القدس إلى حصن عكا ، حيث أعدموا في ١٦ أبريل عام ١٩٤٧ ، تحت ستار قانونى من الدخان . وقلم بعد أسبوع واحد « فينشتاين » و « برازنى » ، من الأرجون و « عصاة شتيرن » ، على التوالي ، بتفجير قنبلة يدوية ، تم تهريبها اليهما داخل برتقالة . وكانا ينويان أن يصحبا معها الجلاذ إلى القبر ، ولكنهما رجعا عن ذلك عندما أصر حاخام السجن على مرافقتهما حتى حبل المشنقة .

وقد حققت « الأرجون » ، أبان صيف ذلك العام ، أكبر انتصاراتها ، اقتحام حصن عكا ، الذى كان يبدو منيعا منذ عهد الصليبيين — ولكنها عانت أيضا من آلام تنفيذ أحكام اعدام أخرى واتخاذ القرار الصعب بشنق الجنديين اللذين يحملان رتبة سيرجنت واللذين تحتجزهما المنظمة . وتمت عملية اقتحام الحصن البكتن فى وسط المدينة العربية ، عن طريق تنفيذ خطة معقدة لاختراقه من الداخل والخارج . وقد بلغ المجموع الكلى للمسجونين الذين هربوا من الفجوة التى فجرت فى الجدار الحجرى السميك ٢٥١ سجيناً. منهم ١٣١ عربيا ، والباقي ١٢٠ من اليهود . ولكن كانت الحسائر فادحة فى المقابل ، حيث قتل خمسة عشر يهوديا أثناء المطاردة كما القى القبض على خمسة آخرين . وكان من بين القتلى « ميتشيل اشيل » الذى كان قد نجا من حبل المشنقة منذ عام مضى . وقدم ثلاثة من المعتقلين الجدد — وهم « إشفالوم جيب » ، و « مائر ناكار » و « يعقوب ويز » — إلى المحاكمة بتهم عقوبتها الإعدام . وقال أحدهم للقضاة :

« إننا نعلم أن هذه المعركة ستبشر عن نتيجة واحدة . فإن شعبنا سيحصل . على حريته وسيجلى المستبد عن الأرض . ولهذا فأننا نحتفظ بهدوئنا . بل الأكثر من هذا فأننا سعداء . فليس هناك سعادة أكبر من أن نهب حياتنا من أجل مثل

اعلى ، وان نعلم ونعلم بما لا يترك مجالاً للشك ، أننا من بين أولئك الذين يلعبون دوراً مباشراً في سبيل تحقيقه .

وأدرك « بيجين » أنه يجب على « الأرجون » أن تأخذ رهائن من رتب عالية ، حتى يستطيعون انقاذهم . ولكن منذ تنفيذ عمليات الاعداد السابقة أصبح البريطانيون على حذر ، مما جعل تنفيذ ذلك أمراً صعباً . واضطر « التصيادون » في نهاية الامر الى الاكتفاء باختطاف اثنين من جنود المخابرات برتبة سيرجنت ، أثناء عودتهما الى مسكنيهما سيرا على الاقدام وهما يرتديان الملابس المدنية بعد ان قضيا ليلة في مصيف ناتانيا بدون تصريح . وتمت عملية الاختطاف عن طريق ضرب السيرجنت « كليفورد مارتن » و « ميرفن بيس » بالهراوات وتخديرهما بالكلورفورم ثم نقلهما بسرعة الى مخبأ أعد خصيصاً لهذا الغرض أسفل مصنع لصقل الماس بناتانيا . وكان حارس سجنهما هو «جيدى باجلين» رئيس عمليات الأرجون . وأعلن البريطانيون تحديد اقامة جميع سكان المدينة اليهودية ، وتم استجواب ١٤٢٧ شخصاً منهم ، ولكن بقى الجنديان في زنازتهما الخائفة برحاضها المصنوع من قماش سميك والاكسجين المعبأ. ونفذ حكم الاعداد في ٢٩ يوليو عام ١٩٤٧ ، في المسجونين الثلاثة من منظمة الأرجون — « جيب » « نكار » و « فيس » ، حيث اقتيدوا الى حبل المشنقة في عكا . وفي ظرف ساعات قليلة من ذلك ، لحق بهم كل من السيرجنت « مارتن » والسيرجنت « بيس » . وتولى « باجلين » بعد التشاور مع « بيجين » ، مؤكداً له امكانية تنفيذ العملية وتم شنقهما بواسطة عارضة خشبية في سقف مصنع الماس المهجور . ثم نقلا الى غابة صغيرة من أشجار الكافور حيث تركت جثتيهما لتتدليان من شجرتين . ووضع « باجلين » لغماً بالقرب من الشجرتين على أمل أن يقتل جندياً ثالثاً حتى يتحقق التعادل ، ولكن عندما تأخر البوليس في العثور على الجثتين أخطرت منظمة « الأرجون » الشرطة بمكانهما ، مع تحذيرهم من وجود الغام فان « باجلين » كان يخشى أن يصيب اللغم أى جندي يهودى قد يشترك في مهمة البحث وبناء على التحذير ، فان البريطانيين سحبوا الجثتين مستخدمين الحبال والخطافات ، معتقدين أن الجثتين ذاتهما ملغومتان . ومما زاد من بشاعة عملية استرداد الجثتين بالنسبة لفرقة الانقاذ العسكرية والشرطة والصحفيين والمصورين الحاضرين ، أن الجثة الاولى عند انزالها لمست اللغم الذى زرعه « باجلين » ففجرت وتطايرت اشلاؤها . أما الشجرة التى تحمل الجثة الثانية فقد اقتلعها الانفجار من جذورها واصيب ضابط برتبة كابتن من سلاح المهندسين الملكى كان يشرف على العملية ، في وجهه وكفنه .

تردد مدى عملية شنق الجنديين في جميع أنحاء العالم ، مثلما حدث لعملية الانفجار في فندق « الملك داود » وعملية الهروب من حصن عكا . ومع هذا فقد كان « مناحم بيجين » الذى صدق على العملية ، متحفظاً بصورة غريبة

ازاء هذا القرار . وكتب يقول في مذكراته التي نشرت في كتابه « التمرد » :
« وفي اليوم التالي تم شنق البريطانيين . لقد علمنا عدونا بالمثل . ولقد حذرناه
مرارا وتكرارا . ولكنه تجاهل تحذيراتنا باصرار . لقد أجبرنا على الرد عليه
بأسلوب « الشنق بالشنق » . وكانت أيام ساد الظلام نهارها كالليالي الخالية
من النجوم » هذا هو كل ما قاله في المساحة التي تقل عن صفحة واحدة والتي
خصصها لعملية الشنق ، عن هذا القرار أما باقى المساحة فقد ملأها بتوجيه
اللوم للبريطانيين لتنفيذهم « احكام الاعدام » التي لا معنى لها .

بيد أن قرار قتل الجنديين لم يصدر ببساطة ، فقد بذل « بيجين » جهودا
فائقة في مشاورات مع زملائه بالقيادة العليا للارجون ، على الرغم من عدم
وجود ما يفيد بأنه كان يعارض قرار الشنق . ويعتقد « يعقوب أمراى » أن
« بيجين » لم يكن يعرف تماما ما يجب عليه عمله . يقول « أمراى » :

« لقد سأل الجميع عن آرائهم ، ولم يكن يريد أن يؤثر على الآخرين عن
طريق اعلان موقفه . وأنا شخصيا كنت أؤيد القرار . وقام بمشاورة ستة
أو سبعة منا — مثنى وفردى . ولم يكن هناك من يعارض القرار . وأنا لا أنفى
أن البعض كانت تراودهم المخاوف . لقد كانت المسألة نسبية . وكان رأى
البعض قاطعا ، بينما كان هناك آخرون لديهم بعض الشكوك ولكنهم قالوا نعم .
وكان « بيجين » ، يريد أن يسهل المسألة على أى أحد يريد أن يقول لا ، أو
يعبر عن أى تحفظ .

« وكانت مشاورة كل أعضاء القيادة العليا بهذه الصورة ، عملا غير
عادى ، وكانت القرارات تؤخذ عادة بواسطة موافقة أغلبية الأعضاء
الموجودين . ولم أسمع « بيجين » يعترف مطلقا بعد ذلك بأنه كانت لديه بعض
الشكوك . ولو أنه كان لا يوافق على القرار لعارضه بكل قوته ويدافع بقوة
عن وجهة نظره . ولم يكن هناك آنذاك ، أى دليل على أنه كان يعارض
القرار . وكان « باجلين » أقوى المؤيدين لقرار الشنق — فان البريطانيين
شنقوا رجاله هو .

وجدير بالذكر أن أحد الدارسين الاسرائيليين اكتشف بعد خمسة وثلاثين
عاما أن والدة السيرجنت « مارتن » كانت يهودية مصرية . وكان والده قد
تزوجها اثناء عمله فى السودان كموظف مدنى من وزارة المستعمرات . ووفقا
للشرائع اليهودية فان هذا الامر يجعل السيرجنت يهوديا . وقد سئل أحد
أعوان « بيجين » ، الذى كان قد أصبح رئيسا للوزراء ، عما اذا كان هذا
سبؤثر فى مصير السيرجنت ، لو أنه كشف عن تلك الحقيقة آنذاك . وكان رده
« فى الغالب لا » . فان تنظيم الارجون السرى قد سبق له ، على أى الحالات ،
اغتيال يهود آخرين ممن اعتبرهم خونة .

ومهما يكن من أمر ، فان عملية شنق الجنديين البريطانيين حققت الهدف منها ، فلم يتم بعد ذلك اعدام أى ارهابى يهودى وان كان قد تم قتل خمسة من اليهود الابرياء عندما هاجمت جماعات من الجنود والشرطة البريطانيين في تل اسب كرد نعل لعملية الشنق . وأغلق « بيجين » صفحات القضية على أساس افتراض ان اعدام الجنديين البريطانيين قد انتقذ ارواح عشرات من رجاله ورجال « عصابة شتيرن » خلال العلم الاخير للانتداب البريطانى .

ولكن ربما لم يكن من قبيل المصادفة ان « بيجين » كان يصر باستمرار ، منذ ان تولى رئاسة مجلس الوزراء ، على رفض مطالب زملائه من اليمينيين باعدام الارهابيين العرب . فقد حصل على كفايته من عمليات الاعدام ، كما أنه كان يعلم جيدا قيمة الاستشهاد .

الفصل التاسع

الخروج من عش « الدبابير »

كان شنق كل من السيرجنت « مارتن » والسيرجنت « بيس » بمثابة المقشة التي قسمت ظهر البعير بالنسبة للرأيين العام والبرلماني في بريطانيا . وكان رد الفعل المبدئي هو الغضب . فاجتاحت المظاهرات المعادية لليهود في لندن وليفربول ومانشيستر وجلاسجو وغيرها من المدن البريطانية . ولكن سرعان ما تحولت الكراهية الى تساؤل : هل فلسطين تستحق فعلا هذه التكاليف الباهظة التي يدفعها البريطانيون بأرواحهم ومكانتهم ومصلحتهم ؟ لقد أخذ الرد على هذا التساؤل يقبلور ابان صيف عام ١٩٤٧ ليصبح نقيا جازما .

واعترف سير « آرثر جريتش - جونز » ، وزير المستعمرات بمجلس العموم في ١٢ اغسطس ، بأن « ثمة موجة شديدة من التساؤل تسود الجمهور البريطاني حول الاعباء والتكاليف التي تتحملها بريطانيا ، والمأساة الناجمة عن استمرار بريطانيا في تحمل هذه المسئولية الدولية » . وكان هناك شبه اجماع كامل بين أعضاء مجلس العموم ، الذين تم استدعاؤهم من اجازاتهم الصيفية لمناقشة مسألة شنق الجنديين ، على المطالبة بانسحاب مبكر للقوات البريطانية . وقال « ونستون تشرشل » في خطاب وجهه في قصر « بلنهايم » الى أعضاء حزب المحافظين المعارض والمجتمعين هناك :

« ان (بريطانيا) تحتفظ بحوالي مائة ألف جندي بريطاني في فلسطين ونبدد من الاموال التي نحصل عليها بصعوبة ثلاثين مليون جنيه استرليني ، او ربما اربعين مليون جنيه سنويا هناك ، . . وليست هناك أية مصلحة بريطانية في استمرار الانتداب في فلسطين . ولقد بذلنا طوال ثلاثين عاما تقريبا جل طاقتنا من أجل القيام بمهمة شريفة فرضناها على أنفسنا تلقائيا . وقد طالبت الحكومة منذ عام باخطار الامم المتحدة باننا نرفض تحمل المزيد من الاهانات والخسائر . ولكن الوزراء اكتفوا بفتح أفواههم في بله وتردد بصورة مخزية في اتخاذ القرار ، ومازالوا لا يفعلون شيئا سوى ترك أفواههم مفتوحة حتى الآن » .

وتد بعث « هيودالتون » ، عضو الوزارة العمالية ، برسالة الى « كليننت آتلي » ، رئيس الوزراء ، يقول له فيها :

« اننى واثق تماما من ان الاوان قد حان تقريبا لى نخرج كل قواتنا من فلسطين . فان الاوضاع الموجودة هناك حليا ، لا تكلفنا غالبا من حيث الافراد والاموال محسب ، ولكنها ، كما يعلم كلانا ، لا تشكل اية قيمة حقيقية من وجهة النظر الاستراتيجية - وعلى اى الحالات لا يمكن الاحتفاظ بقاعدة آمنة فوق « عش دبلير » - فضلا عن هذا فان بقاها هنا يعرض شبابنا لاقصى التجارب بلا داعى حقيقى ، مما يولد مشاعر معادية للسامية بسرعة مذهلة » .

وجاءت قوة ضغط الراى العام ، عقب شنق الجنديين البريطانيين ، على رأس قائمة الاسباب التى سردها « اليزابيث مونرو » ، الخبرة البريطانية فى شنون الشرق الاوسط ، وراء حدوث « التحول الضخم » فى موقف بريطانيا ، فنقول :

« ان الراى العلم البريطانى اعتاد طوال سنين عديدة ان يتخطى اى عقبات تعترضه فى فلسطين ، وكان ينظر الى « الاضطرابات » و « العنف » هناك ، تماما كما كان ينظر الى « الاضطرابات » فى ايرلندا - اى كتجربة مؤلة على الرجل الابيض ان يتحملها كجزء من أعبائه ، ولكن هذا الاتجاه تغير فى الاول من أغسطس سنة ١٩٤٧ ، وكان السبب فى هذا التغيير هو تنفيذ الاعداء شنتا فى جنديين بريطانيين شابين برتبة سيرجنت ، على يد الارهابيين اليهود الذين ارتكبوا هذا العمل كاجراء انتقامى . فلحجة جميع التعليقات التى ترددت فى الداخل ازاء هذا العمل تختلف تماما عن التعليقات على الاعمال الارهابية السابقة ، والتى أسفر بعضها عن خسائر أمدح فى الارواح - كعملية نسف فندق « الملك داود » مثلا . وقد نشرت الصحف المصورة فى صفحاتها الاولى صور الرجلين المشنوقين ، وساد شعور بالاستياء العام ازاء استخدام الجثتين كشرك متفجر ، بل ان الراى العام الحر عبر فى عدة مدن بريطانية عن استيائه فى صورة ثورات محدودة من المشاعر المعادية للسامية » .

وإدى هذا الحدث بسرعة الى تصعيد المشاعر المناهضة لأمريكا ، وذلك فى فترة غير ملائمة على الإطلاق . « وقدم وزير الخارجية البريطانى تحذيرا فى الثانى من أغسطس الى السفير الأمريكى لويس دوجلاس ، يفيد بان بريطانيا التى « تشعر بالاحباط وخيبة الامل نتيجة للقيام بمهمة الانتداب ، التى لم تحظ بالامتنان عليها ، قد تضطر الى التخل عن هذه المسئولية » وكان الموقف فى فلسطين يعمل على تسميم العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا .

وكانت الحكومة قد بدأت بالفعل فى اتخاذ الخطوة الاولى نحو انتهاء الانتداب - على الرغم من اتهام تشرشل لاعضاء الوزارة بالبلادة - قبل

خمسـة أشهر من اعدام الجنديين . فقد الملح « يرست بيـفين » في مجلس العموم يوم ١٨ فبراير السابق الى « أن السبيل الوحيد الباقي الان أمامنا هو رفع المشكلة الى الامم المتحدة لاتخاذ قرار فيها » . فقد أدرك وزير الخارجية أن بريطانيا لن تستطيع ارضاء أى من العرب أو اليهود — وانها لا تملك امكانية فرض حل من جانبها . وكان بيـفين « ما زال محجما عن الاعتراف بافلاس سياسته والتخلي عن الانتداب » ، غير أن بريطانيا تقدمت في شهر ابريل بطلب الى الامم المتحدة لتشكيل لجنة خاصة لدراسة الاحتمالات القائمة في فلسطين وتقديم تقرير بنتائج دراستها الى « الجمعية العامة » في الخريف . ويعتقد « هارولد بيلى » مستشار وزير الخارجية « بيـفين » لشئون الشرق الاوسط ، أن هذه المبادرة صدرت أساسا عن « أتلى » أكثر من أن تكون من بنـلت أفكار وزير الخارجية . وأصدرت « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين » في ٣١ أغسطس ١٩٤٧ ، توصياتها بانهاء الانتداب البريطانى وبانشاء دولتين منفصلتين واحدة يهودية واخرى عربية . وفي ٢٩ نوفمبر وافقت الجمعية العامة على التقسيم بأغلبية الثلثين .

ولم يكن هذا هو الحل الذى كان « مناحم بيـجين » و « الارجون زفاى ليومى » يسعون الى تحقيقه . وكان « بيـجين » قد عقد اجتماعا سرىا في ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٧ مع « أميل ساندستروم » ، رئيس « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين » . وقد عقد هذا الاجتماع ، الذى منح « الارجون » نوعا من الاعتراف الدولى ، بترتيب من كارتر دافيدسون ، الصحفى الأمريكى بالاسوشيتدبرس ، حيث قدم مساعيه الحميدة نظير أن يكون هو الوحيد الذى يطلع على تقرير مباحثاتهما التى استغرقت ثلاث ساعات .

وكتب « دافيد سون » يقول في تقرير قد أجل ارساله لمدة شهر حتى تنتهى بعثة الامم المتحدة من عملها وتغادر الشرق الاوسط ، أن « ساندستروم » و « بيـجين » قد ناقشا « في هدوء وبأسلوب ودى التاريخ السياسى والدينى لفلسطين وكان الحديث لطيفا ووديا لدرجة أن « ساندستروم » قام بنفسه في النهاية بتحذير « بيـجين » قائلا : « ان الشارع قريب من هنا . اليس من الأفضل أن نخفض اصواتنا ورد عليه بيـجين ضاحكا : « لا تخش شيئا ، فان رجالنا يقفون هناك . وسيبلغوننا اذا ارتفعت اصواتنا ولفقت الانتباه » .

وقد حدد قائد الارجون اهدافه ، بينما كانا يرتشفان النبيذ ويأكلان الفاكهة ، بمنزل الشاعر « يعقوب كوهين » في تل أبيب ، ونص برنامجه على المطالبة بمنح اليهود السيادة على جانبي الاردن على أن يتم تنفيذه وفقا للخطوات التالية :

- ١ — انتهاء الاحتلال البريطاني « لارض اسرائيل » .
 - ٢ — نقل السلطة الى هيئة نيابية ديمقراطية تمثل شعبنا .
 - ٣ — اعادة جميع اليهود الراغبين في ذلك الى الوطن في فلسطين بمساعدة من هيئة دولية .
 - ٤ — اجراء انتخابات ديمقراطية عامة بعد الانتهاء من اعادة اليهود الى الوطن .
 - ٥ — الحصول على قرض دولي لاستصلاح الارض لصالح كل من الفلاحين العبرانيين العائدين والعرب ، والذين يعانون من العوز الشديد وهم يرزحون تحت نير العبودية والاستغلال .
- وعندما استعد ستندستروم للانصراف ، صافحه « بيجين » قائلا :
أتمنى لك التوفيق في مباحثاتك ، ولكن لا أحد منا يتصور أن قرارك سوف يجعلنا نتخلى عن النضال .
- وقد قبل « ديفيد بن جوريون » قرار التقسيم على مضض ، نيابة عن التنظيم اليهودي في فلسطين (الميشوف) كما وافق عليه بصفته الشخصية ، حايم وايزمان ، الذي يعتبر أكثر الدبلوماسيين الصهيونيين اصرارا ومثابرة . غير أن « بيجين » أعلن رفضه للقرار وكأنه شيئا محرما ، وقد صدق وعده الذي أعلنه عند وداعه للجنة الامم المتحدة . وظل يحارب التقسيم فعليا حتى أعلن قيام دولة اسرائيل يوم ١٤ مايو عام ١٩٤٨ ، ثم في الكنيسة طوال مدة الست والعشرين سنة التي قضاها في صفوف المعارضة ، وأخيرا من موقعه داخل الحكومة التي تولى رئاستها بعد عام ١٩٧٧ ، وذلك عن طريق بذل كافة الجهود الممكنة لضمان عدم عودة الاراضي المحتلة في الضفة الغربية الى الاردن أبدا .

هذا ، ولطالما انقسم الرأي العام الاسرائيلي حول مدى مساهمة « الارجون » و « عصابة شتيرن » في انشاء دولة اسرائيل فموجب تفسير « الماباي » للتاريخ ، كان « المنشقون » يعتبرون بمثابة عنصر ازعاج ، لا قيمة له . أما الجهد الفعلي في بناء الامة فقد اضطلعت به حركة العمل (تحت رئاسة حزب الماباي) ، وحلفائها من الطبقة المتوسطة والفئات الدينية . وهم « الصهيونيون العموميون » وحزب « مزراحي » . وشطب الدور الذي لعبه ورثة « جابوتنسكي » . ولكن عندما قام « بيجين » في عام ١٩٧٧ بتشكيل حكومة المليكود المنتخبة ، تبوأ « التصحيحيون » المكائنة التي يستحقونها وانقلبت الاوضاع . وأصبح « بيجين » يوصف بأنه الرجل الذي « طرد البريطانيين من البلاد » ، بينما تحول « بن جوريون » وشركاؤه الى مجموعة

من الاشخاص خائري القوة الذين يقبلون الحلول الوسط ، ورجال لا يملكون البصيرة ولا الشجاعة التى تمكنهم من مقاتلة الطغاة الدخلاء .

ولا يقل هذا التفسير الجديد المتطرف تشويها للحقيقة عن سابقه فالوثائق البريطانية والمناقشات التى دارت فى بريطانيا تبين بوضوح أن « الارهاب اليهودى » قد لعب دورا بارزا فى تحطيم ارادة البقاء فى فلسطين . وكانت لبريطانيا اتهامات أخرى تشغلها فى الداخل والخارج . فالجنيه الاسترليني كان يواجه ضغوطا ، كما كانت بريطانيا تعاني من نقص شديد فى الوقود بعد أن تعرضت لشتاء قاس . وكانت الهند على وشك نيل الاستقلال .

وبدأت نظرة بريطانيا الاستراتيجية تتغير مع بداية نهاية الامبراطورية البريطانية . ولم يكن فى وسع الحكومة ، فى مواجهة التهديد السوفيتى المتزايد فى أوروبا أن تعرض للخطر تحالفها مع أمريكا والمساعدات المالية التى تحصل عليها منها . واصبحت فلسطين تشكل عبئا ، خاصة وأنها ، كما قالت « اليزابيث مونرو » ، « لا تعتبر مسألة حياة أو موت بالنسبة لميزان مدفوعات المملكة المتحدة او مستوى المعيشة بها ، ولا بالنسبة لأمن بريطانيا العسكرى أو علاقاتها بالكومنولث » . وبحلول عام ١٩٤٧ ارتفعت تكاليف المحافظة على سيادة القانون والنظام فى فلسطين واصبحت باهظة . فالى متى تستطيع بريطانيا الاحتفاظ بمائة ألف رجل مرابطين هناك ؟ وعلى أى الحالات فان مائة ألف لم يكونوا كافين لاداء تلك المهمة . وتزايد الشعور بأن الفوائد الناجمة من وراء ذلك أصبحت فى تناقص مستمر . ولم يستطع الجنرالات ولا السياسيين ايجاد رد مقبول على حرب العصابات المستمرة التى تشنها « الارجون » و « عصابة شتيرن » فى المدن . فلم يكن ثمة سوابق يمكن الرجوع اليها . ولم يكن فى وسعهم قهر المتمردين دون أن يسحقوا « اليبشوف » ككل .

وفى الوقت ذاته ، كان الشباب يقتلون بعيدا عن ديارهم بلا سبب مقنع . وكانت بريطانيا تتعرض للاهانة والسخرية . ففى خلال ثلاث سنوات — أى منذ نهاية الحرب العالمية فى ١٩٤٥ الى أن غادر آخر المندوبين الساميين للبلاد فى عام ١٩٤٨ — لقى ٣٣٨ مواطنا بريطانيا حتفهم بأساليب عنيفة على ايدي الجماعات اليهودية . وقتل ٩٩ بريطانيا خلال سنة أسابيع اعتبارا من أول اكتوبر وحتى ١٨ نوفمبر من عام ١٩٤٦ ، بعد ما انسحبت « قوات المهجانه » فى ١٦ يوليو من ذلك العام ، من حركة المقاومة العبرانية . وفى يناير سنة ١٩٤٧ تم اجلاء حوالى الفين من الرجال والنساء والاطفال الى بريطانيا بينما نقل باقى المدنيين للاقامة داخل « ساحة آمنة » خلف الاسلاك الشائكة . وخلال ليلة واحدة من شهر مارس قتل أكثر من عشرين بريطانيا . من بينهم اثنا عشر ضابطا عندما قامت « الارجون » بنسف ناديهم بالقدس ، فضلا عن اصابة ثلاثين بريطانيا بجراح . واشعل رجال « عصابة شتيرن » النار فى معمل لتكرير

البتروول فى حيفا ، واستمرت السنة الذهب مشتعلة لمدة ثلاثة أسابيع .
وأوصى رؤساء الأركان فى لندن بفرض الأحكام العسكرية فى بعض الحالات
المدينة ، ولكنهم أقرّوا أن « فرض القيود فى جميع أنحاء البلاد فى وقت واحد ،
إنما يفوق إمكانيات القوات المتاحة حاليا ، كما أن فرض الأحكام العسكرية من
شأنه أن يزيد من الأعباء الحالية دون مزايا تعويضية » . وكما يقول « نيكولاس
بيثيل » :

« لما كان كل واحد من الضحايا البالغ عددهم ٣٣٨ شخصا ، قد لقي
حତفه بطريقة فردية ، حيث قتل بمفرده عن طريق إطلاق الرصاص عليه ، أو
ضمن مجموعة صغيرة بواسطة قنبلة ، فإن موتهم ترك أثرا عميقا داخل الرأى
العام البريطانى لا يقل عن الأثر الذى أحدثته الخسائر الأكبر حجما فى الأرواح
البريطانية ، أبان الحرب العالمية الثانية ، والتي تحملها بصبر وتصميم . فى حين
بدأ هؤلاء القتلى البالغ عددهم ٣٣٨ وكأنهم ماتوا بلا أى داع . ولذلك فقد
تضاعفت الضغوط السياسية من أجل وقف تلك الاغتيالات .

هذا ، وقد رفع القنصل الأمريكى فى القدس تقريرا الى واشنطن فى أول
مايو من عام ١٩٤٧ جاء فيه ما يلى :

« لا مفر من استنتاج أن حكومة فلسطين ، التى يحول المسئولون فيها
إدارة شئون البلاد من خلف الأسلاك الشائكة ومن داخل مبان محاطة بحماية
مكثفة ، وهم يعيشون (أى أولئك المسئولين بدون زوجاتهم وأبنائهم) فى عزلة
تثير الشفقة فى وسط مناطق آمنة — لا مفر من استنتاج أن هذه الحكومة لا تزيد
عن كونها منظمة طريدة بلا أمل كبير فى أن تتمكن من مواجهة الأوضاع القائمة
حاليا فى البلاد » .

وتوصل « مايكل ج . كوهين » ، المؤرخ الاسرائيلى ذو الميول السياسية
الصهيونية اليسارية ، بعد أن أجرى دراسة مستفيضة للوثائق البريطانية
« الأركية » ، الى « أن التاريخ بوحي ، على ما يبدو » بأن الأساليب العنيفة
التي انتهجتها جماعة « أرجون زفاى ليوى » والمكروهة فعلا من الناحية
المعنوية ، كان لها تأثير حاسم فى تحويل مسألة الجلاء من كونها حلا بديلا فى
فبراير ١٩٤٧ ، الى قرار حازم ، بحلول شهر أغسطس من ذلك العام ، بنص
على التخلي عن أعباء الانتداب » .

ولكن ، لا يمكن تقييم دور « الأرجون » و « عصابة شبتيرن » فى فراغ .
فإن قوات الهاجاناه كانت تدبر فى الوقت ذاته حملة بأسلوب مختلف لم يكن أقل
أضرارا بسمعة بريطانيا ومكانتها ، وإن أدى الى إظهار القضية اليهودية فى
صورة أفضل . فقد عملت فيما بين عام ١٩٤٥ وشهر مايو من عام ١٩٤٨ على
إحضار حوالى سبعين ألف يهودى بطرق غير مشروعة الى فلسطين . وقد
تمكنت البحرية الملكية البريطانية من اعتراض طريق ٥١٥٠٠ من هؤلاء

المهاجرين واحتجازهم في قبرص . وكانت أشهر مراكب الهجرة غير المشروعة ، وهي « الاكسودس ١٩٤٧ » (أى الخروج الجماعي ١٩٤٧) ، قد أقلت في يوليو من ذلك العام من الميناء الفرنسي الصغير ، « بورت — دى — بو » ، حافلة على ظهرها ٥٠٠ يهودى . وقد تعقبتها طائرات السلاح الجوى الملكى وسفن الاسطول البريطانى فى رحلتها عبر البحر الابيض المتوسط . ولما كانت معسكرات قبرص قد امتلأت عن آخرها ، فقد قرر « بيغين » انتهاج سياسة جديدة لعاقبة أولئك المتسللين باعادتهم الى المكان انذى أتوا منه . وفى يوم ١٨ يوليو اعتلى مشاة البحرية البريطانية ظهر « الاكسودس » أمام السواحل القريب من غزة . وانتهجت « المهاجانه » سياسة تجمع بين المقاومة والاعلام . فقد تم نقل صوت المعركة المدائرة مع القوات البحرية التى اعتلت المركب ، الى الشاطئ من خلال أجهزة ارسال قوية واختارت « المهاجانه » أن تعرض قصيتها على المسرح العالمى الاوسع نطاقا بدلا من أن تحاول انزال بعض الركاب . فصدرت التعليمات الى قبطان السفينة « ايك آر ان » ، باستغلالها « كمظاهرة كبرى تحمل لافتات تبين مدى ضعفنا ومسكنتنا وعجزنا ، ومدى قسوة البريطانيين » . وأدى البريطانيون الدور المرسوم لهم فى النص الذى وضعته « المهاجانه » بحماس يفوق كل تصوراتها اذ انهم قاموا بتوجيهها ، بعد سيطرتهم عليها ، الى داخل ميناء حيفا حيث أصبحت هدفا ثابتا يقف أمام آلات التصوير ومراسلى أجهزة الاعلام العالمية ، وشاهد حدث وصول السفينة ، رئيس « لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين » اميل ساندستروم ، واثنان من زملائه ، بدعوة من « أبا ايان » ، الذى أصبح فيما بعد وزيرا لخارجية اسرائيل ، وكان يعمل آنذاك بالوكالة اليهودية . وقد ذكر « ايان » فى مذكراته ان المهاجرين قرروا ألا يسندلوا لمحاولات الابعاد فى هدوء . ووجه « ونستون تشرشل » الى « بيغين » اتهاما بشن « حرب قذرة » ضد اليهود .

وعلق ايان على ذلك بقوله :

« لو أن أحدا أراد أن يعلم حقيقة ما يقصده « تشرشل » لعرفها بسهولة من مشاهدته لجنود البريطانيين وهم يستخدمون أعقاب البنادق والخرائطم والقنابل المسيلة للدموع ضد الناجين من معسكرات الموت . وكانوا يحملون الرجال والنساء والأطفال بالقوة الى السفن لحبسهم ، حيث يتم القاؤهم فى الأقفاص الموجودة فى أسفل السفن لينقلوا الى خارج المياه الإقليمية لفلسطين . وبينما كان « ساندستروم » و « بريليج » و « جراندوس » يراقبون هذه الممارسات البشعة ، كنت أنا أترقب عودتهم الى القدس بصبر نافذ . ورايت وجوههم عند عودتهم وقد علاها الشحوب من هول الصدمة . وأدركت أن سائرنا واحدا فقط كان يشغل بالهم : اذا كلن هذا هو الاسلوب الوحيد الذى يستطيع به الانتداب البريطانى أن يستمر ، فمن الامضل وقفه تماما . »

وقد ضاعف البريطانيون من حماقتهم بإعادتهم لهؤلاء المشردين الى الميناء الفرنسي « بورت — دى — بو » حيث رفضت أغلبية اللاجئين البالغ عددهم ٥٠٠ شخص ، النزول الى الشاطئ بالرغم من العرض الفرنسي بمنحهم حق اللجوء . واتيحت للصحافة العالمية فرصة أخرى لتصوير الظروف الصحية السيئة في السفينة وكتابة التقارير عنها . ووصفت الصحيفة الشيوعية الفرنسية « لومانيتيه » السفن البريطانية الثلاث بأنها تشبه معسكر « أوشفيتز عاثم » . وارثكب « بيفين » عند ذاك أكبر أخطائه على الإطلاق ، حيث أرسل اليهود الى ألمانيا . وكانت سياسته الجديدة بمثابة كارثة اعلامية لبريطانيا خاصة في الولايات المتحدة ، بينما أدت الى تحقيق نصر ساحق للصهيونية . وكتبت « اليزابيث مونرو » تقول : « لقد استغل الصهاينة الركاب كقطع في لعبة الشطرنج . وارثكبت الحكومة البريطانية ، التى تعرضت لاستفزاز بالغ ، نفس الخطأ ، واثارت تصرفها بإرسال اليهود الى المكان الذى كان يعتبر من قبل بمثابة مقبرة لهم ، استياء الملايين ، أكثر مما لو أرسلوهم الى أى مكان آخر فى العالم » .

وكانت الهجرة غير المشروعة تعتبر حتى تلك الفترة ، حـكـرا على « الهاجاناه » والوكالة اليهودية . فقد استطاع « التصحيحيون » أن ينقلوا من أوروبا الى فلسطين فيما بين عامى ١٩٣٧ ، ١٩٤٤ ، أربعين ألف يهودى فقط ، وذلك وفقا لأكثر تقديراتهم تفاؤلا . ولكن نشاطهم فى هذا الصدد توقف بعد ذلك وركزوا جهودهم بدلا من هذا على النضال المسلح « للارجون » و « عصابة شسترن » .

وكان عموم الصهيونيين يحتكرون أيضا انشباط الدبلوماسية فى لندن ونيويورك بل و فى فلسطين ذاتها ، بالرغم من الرنين المرتفع لدعاية « حركة المسيح » فى أمريكا . واذا قلنا أن بريطانيا ما كانت ستتخلى عن الانتداب فى ذلك الحين بدون نغز حرب المتمردين ، فإن الحقيقة تؤكد أيضا أن قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ما كان سيحصل على الأغلبية لولا « مفاوضات الأروقة التى كان يجريها الدبلوماسيون المقوتون فى كل من واشنطن ونيويورك . وبالمثل ، فبدون الريادة الدؤوبة لصهاينة حركة العمل وحلفائهم ، لما كان هناك اعداد لقيام الدولة اليهودية ولما وجدت البنية الأساسية للسيادة . ولولا وجود المزارع الجماعية والتعاونية فى النقب والجبال لما جاء خط الحدود الاسرائيلية بهذه الصورة ، بل يمكن القول أنه لما كانت هناك صناعة أو زراعة .

لقد كتب « جوزيف ب . شيشتمان ، رفيق « جابوتنسكى » وكاتب سيرته ، يقول :

« لقد كان حزب التصحيحيين ، والمنظمات المنبثقة عنه ، هو الوحيد دون جميع التشكيلات الصهيونية في فلسطين ، الذى لم يكن يملك أى مستوطنات (فيما عدا بعض الاستثناءات الضئيلة) أو مشروعلت اقتصادية أو مؤسسات خاصة به . ولقد مكنهم هذا من المحافظة على مثلهم الصهيونية العليا وقدرتهم على حرية الحركة ، مما جعلهم الطليعة العسكرية ليهود فلسطين . بيد أنهم دفعوا ثمننا باهظا جدا نظير ذلك ، فقد أصبحوا يشكلون الفئة المعوزة داخل المجتمع اليهودى ، وكثيرا ما اثرت حاجتهم الاقتصادية على مصلحتهم السياسية » .

ومرة أخرى أصبحت « الهاجاناه » تشكل نواة لجيش يهودى قادر على صد هجوم خمسة جيوش عربية وردها على أعقابها . وكانت جماعة « الارجون » و « عصابة شتيرن » مدينتين على شئ هجمات فدائية والقيام بعمليات تخريبية وغارات انتقامية ، ولكنها لم تكن مدربة على استخدام أساليب الحرب التقليدية . وكانت القوة الاسمية للهاجاناه فى منتصف عام ١٩٤٧ تبلغ ٤٣ ألف رجل وامرأة ، لكن كان ٣٢ ألف منهم يتبعون « الحرس الوطنى » المفتر للتدريب والتسليح . بيد أن « الهاجاناه » كانت تملك أيضا « قوة ميدانية » قوامها ٨ آلاف من المتطوعين المتفرغين طوال الوقت ، يتدربون بانتظام . كما كانت قوات « البالماخ » النظامية تضم ٣١٠٠ رجل وامرأة . وقد جاء من بين هذه القوات الاخيرة معظم قادة الجيش الاسرائيلى الناشئ . وعندما اقتربت الحرب ، قامت قوات « الهاجاناه » بتنظيم نفسها فى ٥ كتائب ميدانية وتدريب على الأساليب القتالية وانشئت ٥ مكار رئاسة اقليمية ، ومع ذلك فان الهاجاناه ظلت ، حتى حلول نهاية عام ١٩٤٧ ، مفترقة بشدة للتسليح . فلم يكن تحت يدها سوى ١٧٦٠٠ بندقية متنوعة ، و ٢٧٠٠ مدفع نصف آلى ، واقل من ألف مدفع ماكينة ويقدر أن الارجون كانت تضم آنذاك حوالى ألفى عضو ولكن نصفهم فقط هم الذين تلقوا بعض انواع التدريب . أما عصابة « شتيرن » فكان قوامها بضعة مئات فقط . وكان مقاتلو « بن جوريون » قد أعدوا انفسهم لشئ حرب تحرير ، بينما نظم مقاتلو « بيجين » عملية التمرد ضد البريطانيين . ولا يمكن استبعاد أى من هاتين العمليتين ، كما لا يجب التقليل من شأنهما .

الفصل العاشر

كما حدث في دير ياسين

« تقبل تهاني على هذا الذي يمد عملا رائعا وأبلغ تحياتي الى كافة القواعد والجنود . اننا نشهد على أيديكم واننا فخورون جدا بالقيادة الممتازة وروح القتال التي سادت خلال هذا الهجوم العظيم ، اننا لن ننسى القتلى ونشهد على أيدي الجرحى بكل الحب . أبلغ الجنود انكم بهذا الهجوم والغزو ساهمتم في صنع تاريخ اسرائيل . فلتواصلوا طريقكم حتى النصر ، وكما حدث في دير ياسين وفي غيرها فلاننا سنهجم ونسحق العدو . يا الهى ، يا الهى لقبدا اخترتنا لنحقق هذا الغزو » .

عندما ارسل مناحيم بيجين هذا الامر الذى يشى بالابتهاج الى قيادته في القدس كان لا يعرف الا قليلا عما حدث قبل ذلك خلال او بعد المذبحة التي وقعت يوم ٩ ابريل سنة ١٩٤٨ في قرية دير ياسين وهي قرية عربية تقع على الطرف الشمالى الغربى من مدينة القدس . ولكنه أعلن بعد ذلك بيومين عبر اذاعة « صوت صهيون المقاتل » التابعة لجماعة ارجون زفاى ليومى انها معركة مقدسة اشترك فيها لأول مرة جنود من الارجون زفاى ليومى وليخى والبالاخ . ولقد ظل قائد الارجون زهاء اكثر من ثلاثين عاما مقتنعا تماما أن دير ياسين كانت عملية عسكرية تقليدية حارب فيها رجاله بشجاعة وشرف ، محاولين التقليل من وقوع خسائر بين المدنيين الى ادنى حد متمسكين بالاخلاقيات التي درجوا عليها . وقد أدان بيجين خلال المقابلات التي أجريت معه مؤخرا وكذلك خلال تصريحاته السابقة بن جوريون وكل شخص آخر خلفه في هذا الراى ووصفهم بأنهم « منافقون ضيقو الافق » بل وصل به الامر الى وصفهم بالكذابين . أن هذا الثبات على المبدأ يعد دليلا قويا على ولاء بيجين لمقاتليه وربما يعد أيضا دليلا على جنون العظمة القوى لديه . ان ما يقوله بيجين بعيد كل البعد عما حدث بالفعل في تلك القرية في صباح أحد أيام الجمعة بعد أن نفضت بريطانيا يديها من الانتداب على فلسطين بشهر واحد .

ان دير ياسين القرية التى يقطنها ما بين ثمانمائة و الف نسمة يكسبون عيشهم من العمل في المحاجر وقطع الاحجار مازالت تؤرق مناحيم بيجين والدولة التى ساعد على انشائها وسواء أكلن الامر مجرد صدفة أم مدبرا ، وسواء أكانت يهودية أم عربية فان دير ياسين سببت ذعرا أدى الى اسراع

سبعمئة ألف من العرب في الهروب من الأرض التي سرعان ما أصبحت إسرائيل . ان الاسم لم يفقد قط رنينه وما زالت قصة دير ياسين تمثل بالنسبة للصهيونيين موضوعا محرما ، فان الوثائق والصور قد أسدل عليها ستار من السرية لفترة أطول مما يمكن أن يلحق الضرر بأمن إسرائيل . ووجد الساسة والكتاب من كلا المعسكرين الصهيونيين انه من الحكمة اغلاق ملفات دير ياسين لان الجميع متورطون في المذبحة . وعلى الرغم من أن بن جوريون أسرع بإرسال برقية عزاء الى الأمير عبد الله في عمان فان الهاجاناة كانت مشغولة بالفعل في محو الدليل الاكثر بشاعة ، فقد استطاع مصور لجريدة سينمائية تصوير فيلم طوله اربعمئة قدم للمرحلة الاخيرة من المذبحة ولكنه ارتكب خطأ بالحديث عن ذلك الى أحد زملائه الذي كان يعمل لحساب مخبرات البانلاخ ، والذي ذهب الى مطنار اللد وقام بتبديل الفيلم قبل أن يطير الى لندن وتلقت الجريدة السينمائية فيلما طوله اربعمئة قدم يصور تشكّل الضباب في القدس .

كان عرب دير ياسين يعتقدون انهم آمنون ، على الرغم من الحرب غير المعلنة التي نشبت بعد تصويت الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين . وكانوا يثقون في معاهدة عدم الاعتداء التي وقعها مختار قريتهم مع الضاحية اليهودية المجاورة في جيفات شاول . وكما يقول محمد عارف سامور وهو مفتش متقاعد بالمدارس الذي كان يبلغ السادسة والعشرين من عمره عند وقوع المذبحة : « كان هناك اتفاق على ألا تحدث مشاكل بينهم ، فإذا قامت مجموعة من شبانهم بمهاجمة دير ياسين فلن اليهود يقومون باعتقالهم ومنعهم . وإذا هاجم أحد من دير ياسين جيفات شاول فان العرب يقومون بمنعه . لم تكن هناك مشاكل بين اليهود والعرب هناك في ذلك الوقت » . كانت دير ياسين بالنسبة للهاجاناة قرية عربية يجب اخضاعها للسيطرة اليهودية عاجلا أو آجلا ولكن ليس بالضرورة عن طريق الغزو ، وكانت القرية تمثل أهمية استراتيجية لسببين ، أن وقوعها في يد العدو يجعلها تمثل خطرا للضواحي اليهودية في جيفات شاول ، بيت حكيرم يافانوف وباييت فاجان بسبب موقعها في أعلى التل . وكانت الهاجاناة تخطط لاقامة مهبط لاطائرات على طول سلسلة التلال بين جيفات شاول ودير ياسين والذي من شأنه الابقاء على الاتصالات بين القدس والساحل في حالة الطوارئ . وفي حلة أبو غوش وهي قرية « محايدة » أخرى تقع على بعد أربعة أميال على الطريق المؤدى الى تل أبيب فان السكان العرب وافقوا على النزوح عن القرية خلال مدة الحرب وسمح لهم بالعودة اليها بعد ذلك وربما كان يجري ترتيب لشيء مماثل بالنسبة لدير ياسين .

ولكن عصابات الارجون وشترين كانت لديها افكار اخرى . فلا انهم خرجوا من تنظيمات سرية فلتهم كانوا يتوقعون لاثبات معدنهم ان يظهرروا للهلجاناه والعرب انهم ليسوا مقاتلى شوارع . وكانوا كذلك يشعرون بالقلق من أن بن جوريون ربما يذعن لاقتراح الامم المتحدة بتدويل القدس او يقوم على الاقل بالتعامل مع الملك عبد الله .

ومع ذلك فان اولئك المنشقين كانوا يدركون مدى النقص في الرجال واسلح لديهم . وكذلك لامتقارهم الى التدريب على القتال . ويقول يهودا لابييدوت وهو ضابط كبير في الارجون ويعمل حاليا استاذ للعلوم في الجامعة العبرية ان جماعته لم يكن لديها اكثر من ثلاثمائة مقاتل في القدس وان عدد جماعة شترين كان يبلغ المائة بالكاد ، وقال لابييدوت في شهادته المودعة في أرشيف جابوتينسكى في منتصف الخمسينات ان الفكرة الاصلية بمهاجمة دير ياسين صدرت عن ييهوشيا جولدزميدت وهو ضابط عمليات الارجون في القدس : « كان السبب اقتصاديا أساسا ، أى الاستيلاء على غنيمة للحفاظ على القواعد التى قمنا حينذاك بانشائها بموارد فقيرة للغاية . وعلى الرغم من هذا فقد ظلت الفكرة الاساسية هى غزو القرية بقوة مسلحة وهو شئ لم يكن معروفا حينذاك فى البلاد وأصبح نقطة تحول فى العملية العسكرية اليهودية وسرعان ما وافقت جماعة شترين التى كانت تتطلع الى المصالحة مع الارجون على الاقتراح الذى تمت احواله الى اجتماع مشترك لكبار الضباط المقاتلين : أربعة من كل جماعة وفقا لما ذكره لابييدوت الذى كان أحد اوائك الضباط ، فلن عصبة شترين اقترحت تحويل العملية الى غارة تأديبية يقول : « لابييدوت » فى شهادته :

بالاضافة الى المناقشة العسكرية تقدمت جماعة ليهى باقتراح يفصى بالقضاء على سكان القرية ليرى العرب ماذا يحدث عندما تشترك ليهى ، والارجون زفائ ليومى فى عملية عسكرية معا .

ولسبب أساسى آخر - فان هذا سوف يحدث اضطرابا كبيرا فى البلاد وسيكون نقطة تحول هامة فى سير المعارك . وكان الهدف الواضح هو تحطيم الروح المعنوية لدى العرب ورفع الروح المعنوية للجالية اليهودية فى القدس الى حد ما وهى التى تلقت الضربة تلو الضربة وخاصة ما حدث مؤخرا من تمثيل بجثث القتلى اليهود الذين وقعوا فى يد العرب » .

واضاف بنزريون كوهين قائد الارجون فى العملية والذى أصيب بجراح عند بداية تبادل اطلاق النار : « عندما وصل الامر الى مناقشة وضع السجناء ، والنساء ، والشيوخ ، والاطفال تضاربت الاراء . ولكن كان رأى الاغلبية يقف الى جانب القضاء على كافة الرجال فى القرية وای قوة

أخرى تعارضنا سواء كانت من الشيوخ أو النساء أو الاطفال «
» ان الرغبة في الانتقام كانت قوية بعد الضربة التي وجهها العرب
الى جوش يتريون واثاروت وهما مستوطنتان يهوديتان بالقرب من القدس
مقدنتهما اسرائيل ثم استعادتتهما في سنة ١٩٦٧ .

وقد رفض ضباط الارجون اتخاذ قرار حول اقتراح عصابة شتير
ولكنهم أحالوه الى القيادة . . ويقول لا بيدوت ان ييجين رفض الاقتراح وأما
على أن يستخدموا مكبرا للصوت لتحذير سكان القرية واعطائهم فرصا
للاستسلام دون اراقة الدماء . وقد أكدت مصادر الهاجاناه هذا . ووافر
قادة الميدان من جماعة الارجون على مفض على استخدام مكبر للصوت
وترددوا في أن تفلت فرصة أحداث مفاجئة من أيديهم ويزعم لا بيدوت ان ك
جندى كانت لديه تعليمات بتجنب أحداث خسائر .

كان الهدف هو حمل العرب على الاستسلام وكلفت الرسالة التي كا
مفروضا اذاعتها عبر مكبر الصوت هي:

« انكم محاصرون بقوات الارجون وليهى ولن يحدث لكم شىء اذ
لم تقاتلوا » .

وكان هناك أحد احتمالين :

اما السيطرة على القرية وترك السكان هناك او نقلهم الى القسم
العربي من القدس ، « اننا لم نتخذ قرارا سريعا وجامدا مسبقا بل قرر
الانتظار ورؤية ما سوف يحدث . وكان القرار الوحيد هو احداث اقل قد
ممكن من الخسائر » .

وعبر ديفيد شالتيل قائد الهاجاناه في القدس خطة المنشقي
لهاجمة دير ياسين . وحاول في بادىء الأمر اثناءهم عن عزيمتهم ، فالقرية
كانت تقع في ذيل قائمة اولوياته . فهى لم تكن تطل على طريق القدس -
تل ابيب ولم تقم بايواء العصابات من العرب الرحل الخارجين عن القانون
وكانت الهاجاناه مشتبكة في معركة يائسة للاستيلاء على كاستيل وهى هضب
استراتيجية تتحكم في الطريق العام . واقترح شالتيل أن ينضم رجال الارجو
وشتيرن بأسلحتهم الى المعركة الدائرة للاستيلاء على كاستيل ولكن
رفضوا كما رفضوا كذلك اقتراحا بالاستيلاء على قرية عربية أخرى قريبة عا
الطريق مثل قرية كولونيا بالقرب من قرية موتزا اليهودية . ويقول لا بيدوت
« كنا نريد أن نركز على القتال في القدس وأن نترك القتال على الطريق
للبالماخ والهاجاناه . ولم يكن لدينا قوة كبيرة كافية في القدس . ولم يك
في استطاعتنا تقسيمها . وكانت دير ياسين ، كما يبدو ، هدفا يسرها
الاستيلاء عليه .

وعلى عكس الإنكار الذى أعلنته الهاجاناه عقب المذبحة مباشرة فإن شالتيل وافق على مفض على الغارة على دير ياسين ولكنه وضع شروطا صارمة فى خطاب أرسله الى قادة عصابات الأرجون وشتين المحلين :

« نها الى علمى انكم تخططون للقيام بعملية ضد دير ياسين ، واود ان الفت انتباهكم الى حقيقة ان الاستيلاء على دير ياسين والاحتفاظ بها هو مرحلة فى خططنا الشاملة . اننى لا أعترض على قيامكم بالعملية شريطة أن تكون لديكم اقوة الكافية للاحتفاظ بها . فاذا لم يكن ذلك فى مقدوركم فاننى احذركم من تدمير القرية مما سيؤدى الى رحيل السكان وقيام قوات خارجية باحتلال المنازل المنهارة . ان هذا الموقف سيجعل المعركة العامة اكثر صعوبة بدلا من جعلها اكثر سهولة . وأن محاولة إعادة احتلال المكان سيلحق حسائر جسيمة برجالنا . وهناك رأى آخر أود وضعه نصب أعينكم وهو أنه اذا دخلت قوات خارجية المكان فان هذا سيقضى على خططنا ببناء مطار » .

وكان شالتيل يأمل فى أن يثنى المنشقين بمواردهم الضئيلة عن تنفيذ ما ينفون القيام به فى دير ياسين ولكنهم كانوا مصرين على المضى قدما . وآثر قائد الهاجاناه اعطاء موافقته بدلا من المخاطرة بوقوع مواجهة مسلحة بين القوات اليهودية المتنافسة . كان قرار ازرائيل جاليلى قائد الهاجاناه بعدم التعاون مع رجال الأرجون وشتين خرقا للأوامر الثابتة . ولكن شعر شالتيل أنه يتعين عليه استخدام الحكمة . وفى يوم الجمعة ٩ ابريل سنة ١٩٤٨ زحمت قوة مشتركة مكونة من ثمانين مقاتلا من الأرجون وأربعين من شتين الى دير ياسين فى هجوم من جهتين . وقبل اذاعة أى تحذير وقع مكبر الصوت فى حفرة وعلى الرغم من أن بيجين ظل سنوات بعد ذلك يزعم أن سكان القرية تجاهلوا التحذير الا أن شهود العيان أجمعوا على أنه لم يذع أى تحذير قط — أو على الأقل من على مسافة تسمح للعرب بسماعه . وساء ألة . حال فكما يتول لا بدوت فان هذا ما كان يفر من الامر شيئا . فضل العرب القتل وكانوا اكثر استعدادا مما كان يظن مهاجمهم . وكانت دير ياسين مثلها مثل أية قرية فى فلسطين التى يسودها الاضطراب شعبين . مرسا أثناء الليل . واستطاع أحدهم رؤية المهاجمين الذين ندموا فيما بعد لانهم لم يقوموا بهجومهم تحت جنح الظلام — وأطلق الحارس تحذيره وكان كل بيت تقريبا يمتلك بندقية وان كثرت من النوع العتيق وأمسك الرجال ببنادقهم وشرعوا فى الدفاع عن انفسهم وعائلاتهم وكان القائد بنزيون كوهين ضمن اائل الخمسة والثلاثين يهوديا الذين أصيبوا بجراح وكان اجمالى القتلى أربعة من الأرجون وواحد من شتين . ولم يكن هناك دليل على وجود مدافع أو غيرها من الأسلحة الثقيلة أو جنود عراقيين أو سوريين كما يزعم الأرجون . وروى شهود العيان اليهود ما راوه من اطلاق النار

من القناصة الذى كان متواصلا ودقيقا . ووفقا لما ذكره لابيودوت الذى تولى القيادة فان مقاتلى الارجون وشتين كان لديهم نحو عشرين بندقية وثلاثة مدافع من طراز برين (وكانت أكثر الأسلحة فاعلية) وما بين ثلاثين الى أربعين مدفع خفيف من طراز ستين وان لم يعمل معظمها لانها مصنوعة بأبدى المهواة فى ورش الارجون ، فى تل أبيب وعدد قليل من المسدسات والقنابل انيدوية تقول شهادة « لابيودوت » :

« كانت المشكلة الاساسية بالنسبة لدير ياسين أن العرب كانوا اقوى منا ولديهم بنادق وذخيرة اكثر وكانوا يحاربون من منزل الى منزل ، وحقيقى أن المقاومة كانت مركزة على تل واحد الى المغرب ولكن كان هذا مركز المدينة ، الذى يشكل تسعين فى المائة من مساحة القرية » .

تم ارسال رسول الى مركز قيادة الهاجاناة فى القدس فى ثكنات شينلار وأرسل شالقييل مجموعة جنود من البالمخ مع مدفع مورتر ومدفع رشاش . وقامت وحدة البالمخ بتطويق التل الغربى من الجهة اليمنى واستطاعت اسكات المقاومة دون وقوع خسائر ثم انسحبت . ومهما كان اعتقاد بيجين الذى عاد الى تل أبيب بالنسبة للمنشقين وقتال البالمخ جنبا الى جنب ، فقد كان ذلك هو حجم الاشتراك الفعلى للهاجاناه فى المعركة . ومع انهيار الجانب الاكبر من دفاع العرب استأنف مقاتلو الارجون وشتين القتال مصوبين نيرانهم الى أى شئ يتحرك وللبنازل لنسفها سواء كان السكان داخلها أم لا وأصبح من الصعب بصورة متزايدة السيطرة على مقاتلى الارجون وشتين . ومما لا شك فيه أن بيجين أمر بضبط النفس ولكن كلما طال أمد العملية ، ازدادت الفوضى ، وبدا أن المغيرين عادوا الى غرائزهم الوحشية الاولى . ويقول يهوشيا جوردينتشك وهو ضابط من الارجون انهم فكروا فى الانسحاب بعد أن لحقت بهم خسائر :

« كان لدينا أسرى وقررنا القضاء عليهم قبل الانسحاب ، كذلك قضينا على الجرحى لاننا لم نكن نستطيع على أية حال علاجهم وفى أحد الاماكن قتل نحو ثمانين من الاسرى العرب بعد أن قام بعضهم باطلاق النار مما أسفر عن مصرع شخص ممن أتوا لعلاجهم ، كذلك تم اكتشاف العرب الذين تنكروا فى زى النساء . وهكذا شرعوا فى اطلاق النار على النساء أيضا اللاتي لم يسرعن الى المنطقة التى تجمع فيها الأسرى » .

أكد يائير تاسبان وهو الان عضو فى حزب ما بام اليسارى فى الكنيست قصة الرجال العرب الذين تنكروا فى زى النساء . وكان تاسبان حينذاك يبلغ السابعة عشرة من عمره ويدرس فى إحدى المدارس الثانوية فى القدس ودفعه مقاتلو الهاجاناه للاشتراك فى دفن الموتى بعد انسحابهم من ساحة المعركة . ولكن تاسبان يقدم تفسيراً مختلفاً لذلك :

« ما رأيناه كان نساء وأطفالا وشيوخا والذي أصابنا بالصدمة هو وجود حائطين أو ثلاث على الأقل من المشيوخ الذين تنكروا في زي النساء واندكر عندما دخلنا الى حجرة المعيشة في أحد المنازل ان وجدنا امرأة صغيرة ميتة في أحد الاركان وكان ظهرها الى الباب وعندما وصلنا الى الجثة وجدنا أنه رجل عجوز بلحية . وكان استنتاجي لما رأيته أن ما حدث في القرية قد أثار رعب أولئك العجائز لدرجة أنهم أدركوا أن كونهم عجائز لن يشفع لهم وكانوا يأملون في ان المتنكر في زي النساء سينقذهم » .

استطاع مائير باثيل الذي أصبح فيما بعد سياسيا يساريا وكان وقتذاك ضابط مخابرات في الهاجاناة في القدس ولم يكن معروفا لعصابات الارجون وشتين ان يشهد العملية برمتها : الهجوم ، والمقاومة والمذبحة . وكان قد عرف بالهجوم المرتقب وقرر ، دون ابلاغ رؤسائه ، أن يذهب وان يرى كيفية تنفيذ المنشقين لخططهم . واخذ معه آلة تصوير وكان هدفه هو ابلّاع مقر القيادة بقدرتهم القتالية . وكان من المعروف ان الانجليز سيتركون البلاد قريبا وان الهاجاناه ستكون هي الجيش الوطني وستعمل على ضم المنشقين الى صفوفه سواء كوحدات متميزة أو موزعة بين المقاتلين الآخرين وعلى أسبوا الاحوال فانهم اذا رفضوا ان تخلى عن وضعهم المستقل فإن الهاجاناة ستقوم باخضاعهم بالقوة وفي كلتا الحالتين فانه سيكون من المفيد تقييم ادائهم في أول عملية تقليدية يقومون بها . واستهل باثيل تقريره لا زرائيل جاليلي بالابيات الافتتاحية لاحدى القصائد العبرية المشهورة التي كتبها حايم ناشمان بياليك بعد مذبحة كيшинيف سنة ١٩٠٣ والتي قام خلالها الرعاع الروس بقتل تسعة واربعين يهوديا وجرح خمسمائة آخرين :

« انهض واذهب الى مدينة القتلى وستصل الى الافنية وسترى بعينيك

« وستلمس بيديك على الاسوار والاشجار والأحجار والحوائط دماء

« القتلى المتجمدة وادمغتهم المسحوقة .. »

ومازال تقرير بليل محظورا ولكن ما يتذكره هو مذبحة قير منظمة بعد ان خمدت معظم المقاومة العربية :

« كانت مذبحة فورية لم يسبق الأعداد لها . كانت أنفجارا داخليا لا يستطيع أحد السيطرة عليه . كانت مجموعات الرجال تذهب من بيت الى بيت تقوم بأعمال السلب والقتل وكنت تستطيع سماع صرخات النسوة العرب ، الشيوخ العرب والأطفال العرب في منازلهم ، حاولت العثور على القادة ولكنى لم انجح ، حاولت ان اصرخ وأن امنعهم ولكنهم لم يكونوا يلقون بالا الى » . كانت عيونهم تلمع كانوا كما لو كانوا مخدرين ، مسجين عقليا ، كانوا في حالة من النشوة » .

وبالنسبة لمحمد عارف سامور لم يكن الضحايا مجرد أشخاص مجهولين لديه كانوا أبناء عمومته ، جيرانه أصدقاءه وشاهد المدرس الشاب المذبحة من منزله الواقع في الجانب الآخر من دير ياسين حتى نجح في الساعة الرابعة بعد الظهر من الهروب الى عين كرم على بعد عدة أميال الى الغرب ويقول ان معظم الناس قتلوا داخل منازلهم :

« في احدى الحالات وهى حالة أسرة زهران نجا شخص واحد من بين خمسة وعشرين ، وفي منزل آخر أمسكوا بابن الاسرة مؤاد البالغ من العمر ستة عشر عاما وكانت أمه تمسك به وقتلوا بقتله بسكين ، ونضت الام بعد ذلك عشرين عاما في احدى المستشفيات العقلية . وفي أحد المشوارع قتلت سيدة شابة وطفلاها البالغان من العمر سنتين فقط وتركوا أجسادهم هناك . وانتقل المهاجمون الى قلب القرية وشرعوا في قتل كل من يرونه أو يسمعون به مجرد أن يفتح بابه كانوا يستخدمون القنابل (الميدوية) البنادق الآلية وشبه الآلية . واستطاع ابن عمى الهرب بعد أن أصيبت ملابسه بثقوب من طلقات الرصاص . وقام أحد الضباط بوضع بندقيته الآلية في أحد النوافذ وشرع في إطلاق النار في الخارج وقتل أى شخص يتحرك . وقتلوا بقتل عمى على حسن زيدان وعمى فاطمة التى سمعته ينادى « انتقونى » فهرعت اليه ولكنهم قتلوها . وجار آخر الحاج يارح الذى سمع بعض الاصوات وخرج ليستطلع الامر ولكنهم قتلوه هو أيضا وسمع ابنه محمد الذى يبلغ السابعة عشرة من العمر سمع أباه يناديه ، فذهب الى نفس المكان وقتلوه . وسمعت أمه صوته يطلب انقاذه فجرت اليه وقتلوه . حدث كل هذا قرب منزلى ورايته » .

وتحدث سامور وبائيل عن قيام مجموعة من الجنود بتنفيذ حكم الاعدام في خمسة وعشرين رجلا في أحد المحاجر بين دير ياسين وجيفات شاول . ويعترف سامور انه لم يشاهد إطلاق النار ولكنه سمع عنه من احدى النساء التى شاهدته . ومع ذلك فان بائيل لا يساوره الشك حين يقول : « قاموا بوضعهم في أحد المحاجر وظهورهم الى الحائط ثم أطلقوا عليهم النار ، رايت إطلاق النار ثم قمت بعد ذلك بتصوير الجثث . ويقول بهوشيا ارييلى وهو جندي بالجيش البريطانى كان يقود المتدربين من الهاجاناه والذى أرسل لدفن الموتى انه رأى عددا من الرجال « قتلى في الحجر » . ويؤمن يهودا لابوديت انه لم يسمع قط عن تنفيذ عمليات اعدام وانه باعتباره قائدا عاملا كان سيفعل ذلك ولكن كل الدلائل تشير الى عكس ما يزعم .

وهناك مزيد من التقارير البشعة حول الفظائع التى ارتكبتها قوات الارجون وشتين التى يستعرض فيها لارى كولينز ودومينيك لابيير في

كتابهما « القدس » مزيدا من القصص حول عمليات الاغتصاب وما زعم حول شق بطن احدى النساء الخوامل وكان مصدرهما الاساسى ممثل الصليب الاحمر فى القدس جاك دى رينير والمقابلات التى أجرتها محطة سى . اى . دى البريطانية مع الذين نجوا من المذبحة ويعترف دى رينير فى تقريره المنشور انه وصل الى القدس يوم الاحد اى بعد يومين من القتال ولكن قوات الارجون وشتيرن كانت لاتزال هناك . ويرى كولينز ولابير ان هناك « اتجاها عربيا لتضخيم الاحداث عند استعدادتها والتأمل فيها » وهناك دليل آخر يشير الى انه لم تثبت ادانة المهاجمين . ويقول ياثير تسبان الذى شهد انسحاب الارجون وشتيرن انه لم ير أية دماء على ملابسهم ويضيف قائلا : « اننا عندما قمنا بدفن ضحايا لم ار اى دليل على استخدام السكاكين فى القتل . اما محمد سامور الذى ليس لديه اى سبب للتقليل من الفظائع فوافق انه لم تحدث اية اعتداءات جنسية » اننى لم اسمع او ارى اى اغتصاب او اعتداءات على النساء الخوامل ولم يتحدث معى اى شخص من الناجين عن حدوث مثل هذا الامر . فاذا حدثك شخص عن ذلك فاننى لا اصدق . وكتب طبيبان من القدس ارسلتهما الوكالة اليهودية لفحص الجثث تقريراً قالاً فيه انهما لم يشاهدا اى اثر لوقوع تعذيب او تهليل بالجثث .

ما لا شك فيه ان المنشقين قاموا بعملية استعراض للاسرى العرب عبر شوارع القدس اليهودية قبل اطلاق سراحهم فى الجانب العربى من المدينة ، وانهم رفضوا الاحتفاظ بدير ياسين كما امرهم شاليتل او دفن الضحايا . ويوافق لايدوت فى مجال تذكره لما حدث ان رفض دفن الموتى كان خطأ فاحشا « انك لا تستطيع ان تترك جثث الموتى فى ارض المعركة حتى لو كانت جثث الاعداء ، لم تكن منظمين لنفعل ذلك لم تكن نعرف ما يجب علينا عمله كانت تلك هى المرة الاولى التى نخوض فيها مثل هذه المعركة ويحدث مثل هذا العدد الكبير من الضحايا . كنا مكدودين ، كذلك كنا خائفين من ان يقوم البريطانيون بضربنا بالقنابل من الجو » .

كان هذا الخوف الاخير صحيحا وحاسما فقد تعرفت السلطات البريطانية على المتهمين وكانت تواقعة الى تصفية الحسابات معهم ولكن لم يكن لديها فى ذلك الوقت الطائرات أو القوات المطلوبة . وبعد مواجهة عصبية سمحت الهاجاناه لمقاتلى الارجون وشتيرن بالانسحاب . وقد تمت تعبئة ياثير تسبان ومعه نحو مائة من رفائله المدربين للقيام بعملية دفن الموتى لان الجانب الاكبر من القيادة الصهيونية كانت لا تريد أن يرى البريطانيون والصليب الاحمر الدولى أو الصحافة العالمية الفظاعة الكاملة فى

دير ياسين وتمت عملية الدفن بسرعة شديدة لدرجة أن احدا لم يتوقف ليحصى الجثث . وبصفة عامة فان الاراء اجمعت على أن عدد القتلى العرب وصل الى ما بين ٢٤٠ و ٢٥٠ على الرغم من أن بيجين كتب في كتابه « التمرد » : ان القتلى يبلغ عددهم نصف ذلك الرقم . ولكن ما يدعو للدهشة أن محمد عارف سامور يوافق في هذا القول ويقول ان ثلاثة وتسعين قد قتلوا في القرية وان ثلاثة وعشرين قد أعدموا في الحجر المجاور لها . وهكذا يبلغ مجموع القتلى مائة وستة عشر قتيلا . وبعد نحو ثلاثة أيام من المذبحة اجتمع ممثلون عن العشائر الخمسة في دير ياسين في القدس في المكاتب الاسلامية بالقرب من المسجد الاقصى ووضعوا قائمة بالاشخاص المفقودين وأحصينا الاسماء فوجدناهم مائة وستة عشر ولم يحدث شيء منذ سنة ١٩٤٨ ليحملنى على التفكير أن هذا الرقم كان خاطئا .

ومرة أخرى فليس هناك ما يدعو سامور للمبالغة أو التقليل من عدد الضحايا ويدعم رأيه هذا يهوئشيا ارييل الذي يعمل حاليا أستاذا للتاريخ واحدا دعاة السلام في اسرائيل فيقول ان « رقم مائة وستة عشر رقسم معقول ولا اعتقد أنه كان باستطاعتنا دفن أكثر من ١١٠ الى ١٤٠ جثة » .

ان الرقم الحقيقى لن يمكن معرفته قط لانه لم يتم وضع علامات على القبور ولم يسمح للعرب بالعودة الى دير ياسين . وعلى أية حال فان الاسطورة فاقَت الاحصائيات .

الفصل الحادى عشر

تمرد على السفينة القتالنيا

انتهت الحياة النشطة للارجون زفاى ليومى يوم الثلاثاء ٢٢ يونيه ١٩٤٨ كان ما حدث أشبه بالفيلم المأساوى الشهير « ذهب مع الريح » : القاء آلاف من العملات النقدية على شاطئ تل أبيب ، الأخ يقتل أخاه ، احتراق سفينة محملة بالأسلحة والذخيرة والمتفجرات شديدة الانفجار بالقرب من الشاطئ ، الشائعات عن الحرب ، الخيانة والغدر ، المواطن المشبوبة والخطب الرنانة الرخيصة وكان اغراق الجيش الاسرائيلى بناء على أوامر من رئيس الوزراء لسفينة الارجون « القتالنيا » الملحمة المحملة بالأسلحة صدمة أخرى تشبه « تهمة الدم » فى مقتل أرلوزوروف وخيانة شمشون وهو مالم يغفره مناحيم بيجين قط لديفيد بن جوريون وحركة العمل الصهيونية التى كان يتزعمها . ومع ذلك فانه يجب على قائد الارجون أن يتحمل مسئوليته عن البرقيات المتعارضة وسوء التقدير التى أوصلت الدولة اليهودية الوليدة الى حافة الحرب الاهلية .

ضعفت سيطرة بيجين على الارجون عندما خرجت عن نطاق العمل السرى وبدأت قيادة القدس التى كانت معزولة فى طرف طريق معرض للهجوم بعيدا عن مقر القيادة فى تل أبيب تعمل باستقلال متزايد . وكانت وحدات الارجون قد تم ادماجها فى الجيش الوطنى الذى استمد بنيانه وقواده من المهاجانه . وبدأت المكاتب فى الخارج تأخذ مبادرات من جانبها دون تنسيق وبينما بدأ كبار الرفاق فى العودة الى الوطن من المنفى أو السجن لم يعد بيجين يملك وحده احتكار الحكمة السيلسية . فكان هناك رجال مثل ياكوف ميريدور ، الياها لا يكن ، اريخ بن اليعازر وهليل كوك ، اكتسبوا خبرة متراكمة فى امريكا ، واوروبا ، والولايات المتحدة ولم يكونوا واثقين ثقة عمياء بأحكام بيجين . والمشيء نفسه بالنسبة للمقاتلين الشبلى مثل اميهاى باجلين الذى نضجت شخصيته وسط النيران . كانوا جميعا يشعرون بحرية اكبر فى مناقشته بل وربما فى الاختلاف مع قراراته أحيانا . كانت الايام والدولة ذاتها فى حالة من عدم الاستقرار . لم يكن هناك اجماع من الارجون بالاعتراف بالسيادة المطلقة للحكومة الانتقالية برئاسة بن جوريون ، أو فى التخلّى عن روح العمل السرى . وفى الوقت الذى أبحرت فيه « القتالنيا » التى سميت على الاسم المستعار لجابوتينسكى عبر البحر المتوسط اختلط الخط الفاصل بين الاستراتيجية والتكتيك ، بين العمل السياسى والقيام

بالعمليات العسكرية التي استمد منها بيجين قوته . خرج القائد من مكنه الى الميدان . كان ذلك عاملا غير مألوف ، اذ اعتقد رجال الارجون الآخرون أنهم أكثر دراية منه في هذا المجال . وبسبب تشتت السلطة ،

كان حوار بيجين مع يزرئيل جاليلي الذي كان حينذاك نائب بن جوريون في وزارة الدفاع مترددا وغامضا أفسدته التركة المثقلة بعدم الثقة والمنافسة السياسية ويشير السجل التاريخي أن كلا الجانبين كانا مخطئين في شكوكهما فلم يكن بيجين يخطط لانقلاب كما أن بن جوريون لم يكن ينصب لقائد جماعة الارجون كميناً يهدف الى القضاء عليه وعلى البقية من قوته . ولكن كلا الرجلين تصرفا بطريقة أوجت بانهما يتآمران ضد بعضهما البعض . فقد أساء بيجين فهم دوافع وقرارات بن جوريون . ولم يقدر كيف سيقوم رئيس الوزراء بارساء أساس بناء الدولة والحكومة والجيش . وساعد تردد الارجون على زيادة شكوك بن جوريون كما ساعدت على ذلك الكراهية المتأصلة في نفسه ازاء كل شيء يمثل الارجون ومناحيم بيجين من عنف ، وفوضى الأمر الذي يشكل تحدياً وثقا للحق الإلهي لحزبه ، حزب المabay .

وما كان يجب أن تحدث مأساة « الثاليفيا » . فقد كانت دولة اسرائيل التي ولدت قبل ذلك بشهر واحد أى في ١٣ مايو ١٩٤٨ تقاتل من أجل بقائها . وكانت القدس اليهودية تتعرض للتهديد من الشرق وتل أبيب من الجنوب . وكان الجيش يمر في طور التشكيل من عصابات الهاجاناه والارجون وشتين ومن العناصر المتنافرة من المتطوعين اليهود القادمين عبر البحار . وكلن يعاني نقصا شديدا في الأسلحة والذخيرة . وكانت « الثاليفيا » تحمل نحو خمسة آلاف بندقية بريطانية من طراز لى أنفيلد وأكثر من ثلاثة ملايين طلقة بندقية ، ومائتين وخمسين بندقية من طراز برين ومائتين وخمسين بندقية من طراز ستين ، ومائة وخمسين بندقية آلية المانسة من طراز سباندوا ، وخمسين مدفع مورتار ، وخمسة آلاف قذيفة ، ووطننا من مادة ال تي . ان . تي وكذلك تسمعانة وأربعين متطوعا ليسوا جميعا من المتعاطفين مع الارجون . وكانت السفينة أشبه بمنحة الهية ، كانت تلك السفينة سفينة أمريكية من مخلفات الحرب بدأت العمل في سنة ١٩٤٤ واشتراها هليل كوك من اللجنة العبرية للتحرير القومي ، النادي الأمريكي لمؤيدي الارجون بمبلغ خمسة وسبعين ألف دولار . وقام افراهام ستانفسكى بتسجيلها تحت علم بنما . بعد بحث مضى عن الأسلحة تلقى المكتب الاوربي للارجون حمولة السفينة من الأسلحة هدية من الحكومة الفرنسية التي كان واضحا انها ترد الصاع صاعين للبريطانيين لتأييدهم شارل ديغول قبل وبعد التحرير .

وقبل ثلاثة أيام من انتهاء الانتداب البريطانى أبلغ جاليلى بيجين أن بن جوريون ينوى اعلان دولة يهودية . ووافق قائد الأرجون ، الذى كان يخطط لاعلان الدولة بنفسه اذا لم يقيم بن جوريون بذلك ، وافق على الاعتراف بالحكومة المؤقتة وعرض على الفور بيع « الثالوثيا » الى السلطات بمبلغ مائتين وخمسين الف جنيه استرلينى ورفض جاليلى عرضه على أساس أن السفينة معروفة لدرجة أنه من المتعذر أن تقوم بنقل الاسلحة دون اكتشافها . وفى أول يونيو تعهد بيجين بانضمام الأرجون الى صفوف الجيش الوطنى ووقع مع جاليلى اتفاقا من ست نقاط :

١ — انضمام أعضاء الأرجون الى صفوف الجيش .

٢ — يجرى تشكيل وحدات خاصة من مقاتلى الأرجون فى ألوية الجيش .

٣ — يتم تسليم الاسلحة ، المعدات وتجهيزات صناعة الاسلحة الى سلطات الجيش .

٤ — تمارس هيئة أركان مؤقتة تتكون من ضباط من الأرجون عملها نيابة عن الجيش حتى يتم انضمام كافة أعضاء الأرجون (لم يتحدد موعد محدد ولكن بن جوريون رأى أن هذا سيستغرق نحو شهر يتم بعده تسريح هيئته أركان الأرجون) .

٥ — الغاء أنشطة الشراء المنفصلة وتحويل العقود الى الجيش .

٦ — تتوقف الأرجون وقواتها عن العمل كوحدة عسكرية فى دولة اسرائيل وداخل مجال سلطة الحكومة الاسرائيلية .

أضاف جاليلى ، نزولا على رغبة بيجين للحفاظ على ماء وجهه ، جملة تنص على أن الأرجون تحل نفسها بمحض اختيارها . ولم يرد أى ذكر عن وحدات الأرجون فى القدس . ولكن زعم بيجين أن المدينة المتنازع عليها خارجة بصفة مؤقتة عن مجال سلطة الحكومة .

ليس هناك ما يدعو للشك فى اخلاص بيجين بتوقيعه هذا الاتفاق ، كانت ثورته موجهة ضد البريطانيين وكان هدفها اقامة دولة يهودية فى الوطن القديم ، وأقر بأن بن جوريون الذى كان يتمتع بتأييد الاغلبية ، هو الزعيم الطبيعى لهذه الدولة وكان مستعدا بصفة أساسية للتخلى عن اثاره العراقيل من أجل السياسة الديمقراطية ولكنه اختلف اختلافا جذريا حول نقطة حساسة وهى - حدود الدولة - مع الاتجاه السائد للقيادة الصهيونية لدرجة أنه لم يكن من الممكن النظر الى ولائه كأمر مسلم به . رفض بيجين التقسيم وواصل الحديث والعمل كما لو كان يستخدم الأرجون لانفصاله مهما كان قرار الحكومة ، وكان ذلك الأساس المنطقى وراء شك بن جوريون وهو ما لم يحاول بيجين تبديده .

أعلن بيجين في كلمة القاها يوم الاستقلال في ١٥ مايو أن الأرجون ستخلى عن العمل السرى « داخل حدود الدولة العبرية المستقلة » وأضاف في تفسير اختار كلمته بعناية : « لقد لجأنا الى العمل السرى تحت حكم القمع . الان لدينا حكم يهودى في جزء من وطننا . في هذا الجزء ليس هناك حاجة الى العمل السرى اليهودى . في دولة اسرائيل ستكون جنودا وبناءة » .

وفي الوقت الذى كانت الأرجون تتفاوض فيه مع معاونى بن جوريون كتب بيجين الى زملائه في الخارج أن الأرجون ستكون القوة المقاتلة اليهودية الوحيدة « لوضع الامة في موضع القيادة للبلاد بأسرها » ولأن القسيادة الصهيونية الرسمية والمهجاناه لن تكون مستعدة لذلك فإن الأرجون ستحتاج الى أسلحة لاجل عشرة آلاف رجل (وهو عدد أكبر بكثير مما تستطيع استخدامه في ذلك الوقت) وحث ممثليه على (تكديس الأسلحة) . عندما اشتمكت السلطات بعد توقيع اتفاق يونيو من أن الأرجون ما تزال تشتترى الأسلحة من الخارج وتجمع التبرعات من الداخل أجاب بيجين بأن هناك تداخل غنى . ولم تقتنع الحكومة . وانتظرت بعثتها لشراء الأسلحة في مرنسا بدون أن تتصل بها الأرجون ، وفي اسرائيل كرر بيجين القول خلال عرض عسكري في ناتانيا أن دور العمل السرى في الخارج هو جمع الأسلحة حتى يحين الوقت لمشن هجوم لغزو البلاد بأسرها . واثار قلق ليفى اشكول الذى كان زميلا نجاليلى خلال المفاوضات مع الأرجون ما رآه من الانقسام في القيام بالادوار . غنى الوقت الذى يلعب فيه دور السياسى يلجأ زملاؤه الى الخيار العسكرى . كتب الصحفى الاسرائيلى شلومو ناكديمون في تقريره حول موضوع السفينة « التالنيا » المؤيد للأرجون الى حد كبير : « لم تستبعد فكرة أنه ربما يكون ضروريا للأرجون زفأى ليومى أن تتواجد خارج حدود ابلاد وفي القدس الدولية . وأكد هذا شامويل كاتز وهو عضو في جماعة الأرجون في أوروبا :

« اننا لن نحل صفوفنا كلية ، اننا لم ننس قط القدس ، التى رفضت الحكومة الاسرائيلية اعلان سيادتها عليها ، حيث سقطت المدينة القديمة وحيث تتعرض المدينة الجديدة للخطر . هناك يتعين على الأرجون أن تواصل وجودها المستقل للنضال من أجل ضم المدينة بأكملها الى الدولة اليهودية ، وحتى ذلك الحين فإنه يتعين الحفاظ على بقايا الأرجون في الخارج » .

ويبدو أن كلمة خارج الحدود كلفت تعنى خارج حدود التقسيم . ازدادت شكوك الحكومة في ١٦ يناير بعد أن ابهرت « التبالينا » من ميناء بورت دى بوك بالقرب من مارسيليا عندما اقتحمت احدى وحدات

الارجون أحد متاريس الجيش وازدادت اعمال التمرد الماثنة خلال اسبوع
أزمة السفينة « الثالينا » .

وفي ٢٦ مايو كتب بن جوربون مقالا يدعو فيه الى اخمد تلك التهديدات
التي تهدد وحدة الدولة والجيش وحظر الابتساء على أية قوة مسلحة خارج
الجيش ولم يكن هذا مرسومًا روتينيًا وأكد « بن جوربون » :

ان هذا يقرر مصير الدولة الجديدة ووجودها والذين يحيون فوق
ارضها . ان مغزاه هو الحيلولة دون تقويض الدولة وتدمير الجيش ، ان
جيشا واحدا خاضعا للدولة وللدولة فقط يعمل بلسمها يمكن أن يبقى الى الابد
وليس جيوشا خاصا متحزبة .

ويحق لبن جوربون ان يفخر لانه طبق نفس المنطق دون ندم على
البالمخ ، الجيش الخاص لليسار ولكنه انتظر حتى نهاية حرب الاستقلال .

وتسلمت الارجون يوم الاربعاء ٩ يونيو بناء على أمر من جورج بيدال
وزير الخارجية الفرنسية الاسلحة التي بلغ ثمنها خمسة ملايين دولار .
وبعد يومين على الرغم من اضراب عمال الشحن أبحرت السفينة التي
تزن ٨٠٠ طن بحمولتها كاملة . وتوافق ابحار السفينة مع بدء وقف اطلاق
النار لمدة شهر بين القوات الاسرائيلية والعربية الذي توصل اليه مراقبو
الامم المتحدة . وجمدت الهدنة التصرفات في الارض ومنعت ادخال اسلحة
اضافية . وفي مكتب الارجون في باريس أعرب شامويل كاتز عن استيائه
من تلك الشروط باعتبارها تخل بالميزان الى درجة كبيرة في غير صالح اليهود،
ولم تمنع الهدنة بريطانيا من شحن أسلحة الى العراق أو الاردن أو مصر
حيث موانيها بعيدة عن منطقة القتال . وكان الحظر الوحيد الفعال ضد
اسرائيل ، كتب كاتز :

(عقدت الهدنة من حساباتنا ازاء سفينة الثالينا التي ستكون الآن
معرضة للهجوم من جانب المصريين أو البريطانيين ، كانتهاك للهدنة ..
قررنا انه على ضوء خطورة الموقف بالنسبة للأسلحة فائنا سنقوم بالمخاطرة
التي ربما تنشأ عن انتهاك رسمي للهدنة ، ولذلك فانه يجب أن تبصر
السفينة وأن يقوم قائدها بالقيام بما يراه ضروريا لتجنب أو مقاومة الاعمال
العداوية أي أنه يتمتع على القائد أن يفعل كل ما هو ممكن لتجنب مراقبة
الامم المتحدة) .

كان ذلك قرارا من جانب واحد اتخذه مكتب باريس الذي احتفظ سرا
بموعد ابحار السفينة عن مقر الارجون في تل أبيب . وكانت باريس تعترف
أن بيجين لديه تحفظات حول انتهاك الهدنة على الرغم من أنه كان يعارضها
من حيث المبدأ ، وكان يقول لزملائه : « ليس مهما موقفنا ازاء الهدنة ولكننا

لا نريد أن نتحمل مسئولية النتائج المحتملة التي تنتج عن انتهاكها » . ولكن كان مكتب باريس واثقا أن الحكومة ستخضع للأمر الواقع ولم تكن لديه النية للسماح لتل أبيب بتقرير موعد إبحار السفينة أو إذا كانت ستبحر أم لا . ان القول انه كانت هناك مخاوف من أن يتم اعتراض برقية أو مكالمة تليفونية كان عذرا واهيا . وعلى أية حال فإن مغادرة السفينة عرفت على الفور وعرف بيجين بأمر الإبحار من محطة البى . بى . سى كما عرف عن أزمة أخرى حدثت بعد ذلك . وقام بيجين بإرسال برقية الى كفتز ، الذي أكد - بعد ثلاثة أيام - أن الشحنة في طريقها . ولمضل بيجين أن يدع الحكومة تقرر ما إذا كانت ستخاطر بانتهاك الهدنة بالسماح للسفينة بالدخول الى ميناء اسرائيل . وقام بمخاطبة مونرى فين قبطان السفينة والياهو لانكين قائد كتيبة الارجون على السفينة عن طريق الراديو وأمرهما بالبقاء بعيدا وانتظار مزيد من التعليمات . وعلى الرغم من أن لانكين تلقى الرسالة الا انه اختار أن يتجاهلها وواصلت السفينة إبحارها .

وخلال اجتماع عقد في ١٥ يونيو أبلغ بيجين وأريخ بن اليعازر الذي كان قد وصل من فرنسا جاليلى عن السفينة وحمولتها الثمينة . وفي هذه المرة نجاهل بيجين اعتراضات زملائه وأبلغ الحكومة عن حمولة السفينة وكان قد احتفظ حتى ذلك الحين بسر هدية بيدال . وبمسد التشاور مع بن جوريون أبلغ جاليلى تليفونيا عن موافقة الحكومة على السماح للسفينة بالاقتراب من الشاطئ ولكن أمر الارجون بسحبها الى كفاريتكين وهي مستوطنة بين ناتانيا وقاصرة وليس الى شاطئ تل أبيب ملتقى الانظار . وقد أثار بيجين فيها بعد الى رسو السفينة في كفاريتكين وهي أحد معازل المabay على أنه دليل على أنه لم يكن يخطط للقيام بعصيان . وافترض جاليلى أن بيجين سيقوم بتسليم السفينة وحمولتها الى الحكومة بدون شروط . وعبر مفوضو الارجون الذين صدمتهم بعض أسئلة جاليلى التي اتسمت بالخشونة عن شعورهم لأول مرة بعدم ارتياح ازاء دوافعه .

وخلال المحادثات التي جرت في ١٧ و ١٨ يونيو ثارت شكوك متبادلة . وعندما وافق جاليلى على أنه يتعين إرسال عشرين في المائة من الاسلحة الى مقاتلى الارجون الذين ما زالوا يعملون بصورة مستقلة في المدينة ، بينما قال جاليلى أنه يعنى أن تذهب الاسلحة الى الجيش النظامى (لم تفصل الحكومة ، كما فعلت الارجون بين القدس وبقيّة البلاد واحصت قوات الهاجاناه السابقة هناك باعتبارها جزءا من قوات الدفاع الاسرائيلية) . ورفض جاليلى كلية طلبا ثانيا بأن توزع الثمانين في المائة الباقية من الاسلحة على وحدات الارجون العاملة في الجيش الوطنى أولا . ورأى أن هذا بعد بداية لوضع اسفين لانه اذا ما وافقت الحكومة على مطالب الارجون

بالنسبة للأسلحة فإنها سرعان ما ستحاول إرغامها على التخلي عن التزامها بقرار التسليم . أصر جاليلي على أن تتسلم وحدات الأرجون الأسلحة بنفس الشروط التي تتسلم بها الوحدات الأخرى . وفي يوم ٢٢ يونيو أعلن بيجين في كلمة شهيرة أذيعت بالراديو بعد ليلة تدمير « التالنيا » أن رجائه ما كانوا سيستمعون له إذا ما خضع لمطالبهم بأن تكون لهم الأولوية . وكشف خلال حديثه القلب عن رفضه التام لفكرة ترويض نفسه على دمج كتائب الأرجون ، وقال في تلك الكلمة :

(لقد حلموا بتلك الأسلحة منذ سنوات ، ما الذي لم يفعلوه ، ما الذي لم يضحوا به من أجل كل بندقية وكل مدفع ؟ والآن عندما وصلت أسلحة التحرر هذه ، هذه الكمية الضخمة من الأسلحة الحديثة ، كيف لا نعطي هذه الأسلحة إلى مقاتلينا في الجيش ؟ كيف نمتنع عن التأكد من أن يتسلم رجالنا هذه الأسلحة أولا ؟ لقد أحضرناها فكيف إذن نمتنع عن تسليمها بها ؟ .

ولكن أصرار بيجين قابله معارضة قوية من جانب هليل كوك الذي قامت لجنته الأمريكية بشراء « التالنيا » . وكان كوك الذي يزور تل أبيب قبل انتهاء أعمال الأرجون في الولايات المتحدة شديد الغضب :

لقد فقدت السيطرة على أعصابي ، قلت أنتظر ان هذه أول وآخر سفينة لنا ، هناك عدة سفن في طريقها إلى الهاجاناه . ان علينا عمل كل ما يمكننا حتى لا تقع أية تفرقة ضد مقاتلي الأرجون في الجيش فإذا بدأت في التفرقة لصالح الأرجون فإنيك ستعطيههم رخصة للتفرقة ضدنا بعد شهرين أو ثلاثة من الآن .

وبعد مشاورات أجراها مع اثنين من كبار زملائه وهما ياكوف مريدور وحاييم لاندو وافق بيجين وأجرى اتصالا تليفونيا مع جاليلي . ووفقا لما ذكره كوك فإن بيجين وافق على أن تذهب نسبة المئتين في المائة من الأسلحة إلى الجيش ككل . ولكن بمجرد تسوية هذا الخلاف نشأ خلاف آخر . أصر بيجين على أن يحضر ممثل عن الأرجون ، أي هو نفسه ، استعراضا للوحدات عند استلام الأسلحة وتسليمها باسم الأرجون . ويقول كوك : ضحكت فيما بيني وبين نفسي « ظنا مني أنه يريد القاء خطاب » . بحث جاليلي الموقف ثم قرر ألا تكون هناك شروط . ويعتقد كوك ان غرور بيجين كان سببا في دوام الخلاف بدون مبرر : ويقول « ان السمة المميزة في بيجين هي الاهتمام بالمظهر قبل الجوهر » فمن أجل رغبته في القاء خطاب ضاعت السفينة واختفى الجانبان كذلك حول من سيقوم بتفريغ السفينة « التالنيا » ومكان تخزين الأسلحة . وأصررت الأرجون على أن توكل إليها مهمة التفريغ وإن يتم تخزين الأسلحة في مخازن الأرجون تحت حراسة مشتركة من الأرجون زفاي ليومي وقوات الدفاع الإسرائيلية . وأصررت وزارة الدفاع على أن يتحمل الجيش

بمفرده مسئولية التفريغ والتخزين . وتبنى جيدي باجلين قائد عمليات الارجون موقفاً أشد تشدداً مما كان ينويه بيجين . ووفقاً لما ذكره « ميريدور » فان قائد الارجون لم يكن يقصد فرض اية شروط ولكن « باجلين » جره الى موقف متشدد . أبلغ « نبهاس فازي » رئيس هيئة شراء قوات الدفاع الاسرائيلية وديفيد هاكوهين ضابط الاتصال بقوات الدفاع الاسرائيلية اللذين كانا يقومان بالمفاوضات بهذا الشأن وصول المفاوضات الى طريق مسدود . استنتج جاليل أن الارجون تستعد للعمل بمفردها . وفي يوم السبت ١٩ يونيو أبلغ جاليل بن جوريون بأنه « نشأ موقف جديد خطير ، يتمثل في المطالبة بجيش خاص ، بأسلحة خاصة لوحدات معينة في الجيش .

لقد كانت مأساة « التالنيا » تقترب من نقطة اللاعودة . ووسط التقارير القائلة ان السفينة كانت تقترب من الساحل الاسرائيلي وان مئات من جنود الارجون كانوا يهجرون وحداتهم ويتدفقون عبر كفار فيتكين ، دعا بن جوريون الوزارة الى جلسة طارئة يوم السبت ٢٠ يونيو . وتجددت المخاوف القديمة نتيجة للانباء التي ذكرت ان بيجين وبقيّة قيادة الارجون ينتظرون على الشاطئ .

فانفجر بن جوريون قائلاً في غضب : « لن تكون هناك دولتان ، ولن يكون هناك جيشان ولن يفعل مستر بيجين ما يريد ، علينا ان نقرر عما اذا كنا سنقوم بتسليم السلطة لبيجين أو مطالبته بالكف عن أنشطته الانفصالية . واذا لم يستسلم فاننا سنطلق النار .

وافقت الوزارة بالاجماع على اقتراح من جملة واحدة : « تعهد الحكومة الى وزارة الدفاع باتخاذ ما تراه متمشياً مع قوانين البلاد » وأضاف بن جوريون (الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء ووزير الدفاع دفعا لاي لبس ازاء ما يقررونه » ان القيام بعمل يعنى اطلاق النار » . أبلغ جاليل والجنرال ياجيل يادين رئيس الاركان الذي تم استدعاؤه الى الاجتماع ان السفينة ستصل في الساعة التاسعة مساءً ذلك اليوم وان ستمائة من رجال قوات الدفاع الاسرائيلية موجودون بالفعل بالقرب من المكان ، وانه يمكن احضار كتيبتين اخريين وصدرت اليهم الاوامر بالتجميع لمواجهة أي عمل . وأصدر القائد أوامره بان يبذل الضابط المسئول كل جهده لتجنب استخدام القوة ولكن اذا لم تنفذ أوامره فانه سيجري استخدام القوة » . حث بن جوريون الذي ادهشه اجماع الوزارة ، يادين على « العمل بسرعة » . وفسر جاليل تصويت الوزارة بالاجماع على انه قرار اجماعي بتجريد الارجون من كافة الاسلحة . أوضح الجنرال دان ايفين قائد الجيش المحلي لرجاله ان الهدف من العملية الوشيكة هو : « ارغام الارجون زفای ليومي على تسليم السفينة والاسلحة وتجريدهم من الاسلحة التي شرعوا ضدها » .

كان جاليلي مترددا في الضرب دون بذل جهد آخر للتوصل الى اتفاق .
وقام بإرسال فازيه الى كفلر فيتيكين لدعوة بيجين الى التباحث . منزع
ميريدور بيجين من المذهب ، لانه كما أوضح فيما بعد أن تلك كانت خدمة
للقضاء على بيجين في الطريق . ووفقا لما ذكره فازيه فان باجلين رفض الحديث
اليه ، وقال أنه اذا أراد جاليلي رؤية بيجين فانه يجب أن يأتي الى كفلر
فيتيكين . وعندما قفل فازيه عائدا بالرد كتب جاليلي انذارا الى بيجين قام
بالتوقيع عليه الجنرال ايفين :

« بناء على امر خاص من قائد أركان قوات الدفاع الاسرائيلية امر
بمصادرة كافة الاسلحة والعتاد الحربي الذي وصل الى الشواطئ
الاسرائيلية في نطاق سلطاتي ووضعها على الفور تحت تصرف دولة اسرائيل .
لقد صدرت الى الاوامر ان اطلبكم بكل الاسلحة التي وصلت الى الشاطئ
لوضعها تحت حراسني وأبلغكم أنه مطلوب منكم الاتصال بالقيادة العليا
واطالبكم بالامتثال لهذا الامر على الفور ، فاذا لم توافقوا على القيام بهذا
فانني سألجأ على الفور الى استخدام كل الوسائل التي املكها لتنفيذ الامر
وأبلغك أن المنطقة بأسرها محاطة بوحدات الجيش وأن الطريق مسدودة
وتنزع عليك بالكامل مسؤولية النتائج المترتبة عن رفض الانصياع لهذا الامر ،
وامامك عشر دقائق للرد » .

يزعم جاليلي أن الانذار قدم لبيجين « وسيلة مشرفة للانسحاب » على
الرغم من أن صياغة الانذار لا تنم عن ذلك . ويقول ان مهنة العشر
دقائق كانت كافية ، لان الارجون لم يكن امامها سوى خيارين لا ثالث لهما اما
الرفض أو الايجاب . ولكن بيجين لم « يأخذ هذا الانذار الغبي » مأخذ الجد .
وقال فيها بعد انه اعتقد أن ايفين كلن يتصرف من تلقاء نفسه دون معرفة
خلفية الاحداث . وعلى اية حال فان جاليلي لم ينفذ مهلة العشر دقائق ، ففي
الموقت الذي استمر فيه رجال الارجون في تفريغ الاسلحة أرسلت الحكومة
أوفيد بن أمي عمدة ناتانياا للتوسط بين الطرفين . كان بن أمي مقتنعا بأن
الارجون لم تكن تخطط للقيام بانقلاب ولكنه فشل في التقريب بين وجهات
نظر الطرفين .

كان بيجين مازال يواجه المتاعب مع مرعوسيه وأعلن « باجلين » في
جو تسوده روح الشعور بالاضطهاد أن الجيش يقوم بئصب كمين وبدأ في
اعادة تحميل بعض الاسلحة التي كانت قد أفرغت بالفعل من السفينة وأراد
أن يعيدها الى البحر حتى انتهاء الهدنة ثم يتم تفريغها في غزة أو العريش
جنوبا . كان بيجين مازال يعتقد انه يستطيع خداع الجيش ، وقال
« لباجلين » : « اتركها ، اننا سنقوم بتفريغ الاسلحة هنا قبل وصول
مراقبي الامم المتحدة . اننى لا اعتقد ان لدى الجيش نوايا سيئة تجاهنا .
ان المشكلة تكمن في الامم المتحدة . خلاصة الامر أن بيجين قام باعفاء « باجلين »

من متصبه وعين « ميريدور » بدلا منه . ولكنه سرعان ما عرف أن نوايا الجيش كانت أبعد ما تكون عن النوايا الحسنة . بعد أن أبلغ جاليلى رفض انذار ايفين قرر بن جوريون عدم اجراء أى مفاوضات أخرى : « لم يعد ممكنا التوصل الى حل . فاما أن يمتثلوا للأوامر وينفذوها ، أو سنقوم بإطلاق النار . اننى اعارض أية مفاوضات واتفاق معهم . لقد انقضى وقت الاتفاق . . اذا توافرت القوة فانه يجب استخدام القوة بدون تردد » .

أضاف بن جوريون بخط يده كلمة « فورا » وفي كفار فيتكين في الساعة الخامسة بعد الظهر من يوم الاثنين ٢١ يونيو توقف تفريغ الاسلحة في الوقت الذى كان يحاول فيه ميريدور ، ومونروفين وأفرهام ستافسكى الذين سافروا من فرنسا على ظهر السفينة اقتناع بيجين بأخذ السفينة الى تل أبيب حيث سيكون السكان أكثر ودا وحيث تكون الحكومة أكثر ترددا في بدء معركة . بدأ إطلاق النار بينما كان بيجين يقوم باستعراض قواته ، ووجه قائد الأرجون في حديث بالراديو اللوم الى الجيش لهجومه ، من كافة الاتجاهات وبكافة أنواع الأسلحة . قال ناكديمون ان جنود قوات الدفاع الاسرائيلى أطلقت النار دون صدور أوامر لها وكتب يقول انه خلال حالة الفوضى الشاملة التى حدثت فان الأرجون ردت على النار بالمثل . ولكن يزعم هيليل كوك الذى كان على الشاطئ في كفار فيتكين أن قوات الأرجون كانت البادئة بإطلاق النار — ليس على الجيش ولكن باتجاه البحر كما لو كانوا يريدون أن يقولوا أنهم جادون وأنهم مستعدون لعمل أى شيء . ومهما كانت الحقيقة فان الأرجون فقدت ستة قتلى وتسعة عشر جريحا وقوات الدفاع الاسرائيلى قتلين وستة جرحى خلال القتال الذى دار خلال الليل . وأصر بيجين الذى انبطح أرضا على الرمال لتجنب الطلقات المنهرة ، مغادرة المكان لان هذا سيعيد انسحابا مخزيا . لكن عندما أحاط طرادان بحريان بالزورق الذى أقل فيروستافسكى الى الشاطئ قاما بحمل بيجين والقائه في الزورق بعيدا . فأخذ يسب ويحتج باللغة العبرية واليديدية وأخذ الزورق يناور حتى عاد الى السفينة لم ينقذه هوفين من التعرض للاصابة سوى مهارة فين الملاحية التى تعلمها بالاسطول الأمريكى في المحيط الهادى .

غادرت « التالنيا » كفار فيتكين في الساعة ٩٣٥ ليلا يتعقبها اسطول صغير من السفن الحربية الاسرائيلية المعادية . ووصلت تل أبيب في نحو منتصف الليل . وفي ساعة مبكرة من صباح يوم الثلاثاء ٢٢ يونيو أذاع مكبر الصوت عرضا نهائيا من الحكومة : « انصتوا ، انصتوا ، سيقوم ممثل عمن الحكومة والجيش بالصعود الى السفينة لاخلأ الموجودين على ظهرها وتقديم المساعدة للجرحى وتفريغ الشحنة » . مرة أخرى تجاهل بيجين وزملاؤه الفرصة لتسوية الأمور دون اراقة دماء . وعلى ظهر السفينة اقترح انه

يجب على بيجين أن ينزل إلى الشاطئ ويتفاوض ولكن أوقفه الياهو لانكين خوفا من أن يتعرض للأذى . واعترف لانكين فيما بعد أنه ربما كان من الاصوب ترك بيجين يذهب للتفاوض . ربما كان من الممكن تجنب ما حدث بعد ذلك ، ولكن ربما كان بيجين قد قتل .

لم تكن الحكومة يساورها القلق فقط من جراء رفض الارجون الامتثال لأوامرها بل ومن تجمع مؤيدي بيجين على شاطئ تل أبيب وقرار الوية الارجون من معسكر صرمد وغيره من المعسكرات وكان رأي بن جوريون أن سيادة الدولة في خطر . وخلال اجتماع للقيادة العليا أخذ رئيس الوزراء يرغى ويزيد ويحدث نفسه وهو في حالة شديدة من الغضب . ووصفه أحد اليهود بأنه كان أشبه « بأسد حبس في قفص » . وقد طلب من شامويل ياناي قائد العمليات البحرية ابداء رأيه كخبير فيما يمكن عمله أزاء السفينة التالية :

« طرحت كافة الأفكار : قذفت قنابل دخان لاجبارها على الرحيل ، الاستيلاء على السفينة من القوارب ، تفريغ الشحنة ... رفض بن جوريون كافة مقترحاتي بأشارة من يده . لم أصب الهدف وفهمت فيما بعد فقط ما كان يريد سماعه مني - ما هو هدفه الحقيقي . كان تدمير السفينة التي أصبحت ذريعة للصراع بين الاشقاء . كان يريد تدميرها لازالة الموضوع الذي كان الناس يستعدين للقتال حوله ، وسيكون هناك فيما بعد خلافات واتهامات مضادة متبادلة ولكن لن يعود هناك ذريعة للقتال .

بنفس الروح أمر بن جوريون يادين : « عليك أن تقوم بكافة الخطوات : تجمع وحدات الجيش ، النيران ، قاذق اللهب وكافة الوسائل الأخرى التي في حوزتنا لتحقيق الاستسلام غير المشروط للسفينة . وكانت كل تلك القوى سيتم استخدامها إذا ما أصدرت الحكومة تعليماتها بذلك . وخلال اجتماع طارئ عقده مجلس الوزراء تغلب رئيس الوزراء على أية تحفظات أثرت . ورد بن جوريون على أولئك الوزراء الذين فضلوا تقديم تنازلات بدلا من الحرب . . . » أن ما حدث . . . يعرض الدولة للخطر . . . أن هذه محاولة لتخطيط الجيش وهذه محاولة للقضاء على الدولة ولا يمكن في رأيي التوصل إلى حل وسط بالنسبة لهاتين النقطتين ، وإذا ما أصبح من الضروري لسيء حظنا البالغ القتال لهذا الغرض فإن علينا أن نقاتل . لم يرد المتشككون بشيء وصوتت الوزارة بأغلبية سبعة ضد اثنين بمطالبة الارجون بتسليم التالنيا إلى الحكومة واستخدام القوة إذا استدعى الأمر . وعلى الفور أمر بن جوريون يادين بالتصرف .

أصبحت القلانيا التي رست في أكثر الأماكن ازدحاما على شاطئ
تل أبيب على مرأى من الزوار ، والمراسلين ، ومراقبي الأمم المتحدة في
شرفات فنادقهم ، قبلة للرائحين والغادين من الجنود المؤيدين للحكومة
والمؤيدين لبيجين في ملابسهم الرسمية وحاملين أسلحتهم . وتدفق المدنيون
الى الشاطئ كما لو كانوا مشاهدين في مباراة نهائية للكأس . وكان رجال
الارجون المؤيدين لبيجين يرددون الهتافات المعادية للحكومة . وأخذ
الجيش يناضل من أجل منع تعزيزات الارجون . بدأ انزال أحد القوارب
المحملة بالرجال المسلحين من القلانيا وبدأ إطلاق النار خلال دوامة الفوضى
التي حدثت تولى أيجال آلون القائد الشاب لقوات البالمخ العملية . وكانت
الأوامر الصادرة اليه من بن جوريون صارمة ومحددة : « اقبض على بيجين !
اقبض على بيجين ! » .

في الوقت الذي بدأ فيه المصادمات تنتشر ومناشدة الارجون عبر
مكبر الصوت سكن تل أبيب بالانضمام الى جانبهم أرسل آلون في طلب
مدفع . وتم إخلاء الشوارع التي كانت على مرمى نيران القلانيا . وقام
آلون ونائبه اسحق رابين بمعاينة أرض المعركة من مقر البالمخ في فندق
ريتز . وبعد الظهر تم التوصل الى وقف لإطلاق النار لإخلاء الجرحى .
وفقا لأحد التقارير فإن قادة البالمخ رأوا الارجون يضعون مدفعا آليا
ثقيلا على سطح السفينة مصوب الى فندق ريتز . سعى آلون الى
الحصول على إذن باستخدام المدفع ووافق بن جوريون حوالى الساعة
الرابعة بعد الظهر وبدأ القصف . كان بيجين مقتنعا أن آلون لديه النية
تماما في قصف القلانيا وكتب يقول في كتابه « التمرد » : « فجأة سمعنا
أزيزا فوق رؤوسنا وناديننا على قائد البالمخ مذكرين إياه أنه وعد بوقف
كامل لإطلاق النار ، لم يرد علينا ثم جاءت طلقة ثانية وثالثة ورابعة ،
لقد أحاطوا بالسفينة وهم يزحفون لتحقيق هدفهم .. » .

زعم آلون الذي أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية ونائبا لرئيس الوزراء
أنه قام بإطلاق « طلقات تحذيرية » كمحاولة أخيرة لإقناع السفينة
بالاستسلام . ووفقا لرواية البالمخ فإن خمس أو ست طلقات فقط قد
أطلقت . وقال آلون أنه « اندهش » لان السفينة أصيبت وأمر رجاله على
الفور بوقف نيران المدفعية . سواء أكان ذلك صحيحا أم لا فإن الإصابة
المباشرة نفذت أوامر وتعليمات بن جوريون وأشعلت النار في القلانيا وأشعلت
نيران الحرب الأهلية غير المرغوب فيها وغير المخطط لها ، وبسهولة المحل
السريع للارجون لتتحول الى قوة عسكرية منفصلة . كان الهدف الوحيد
الذي لم يصبه آلون هو مناحم بيجين ولكن اذا كان قائد الارجون مصيبا
فلن ذلك لم يكن بسبب عدم المحاولة : « نفى كل مرة أذهب فيها الى

منصة ريان السفينة كانت تتعرض بصفة خاصة الى نيران كثيفة وعندما اغادر المنصة كانت النيران تتوجه الى ناحية اخرى . كانت الطلقة تثقب وسط سطح السفينة ثم تنفجر في مخزن السفينة . انتشر الدخان وانفجرت الذخيرة . نجح مونروفيين في تشغيل المضخات وغمر المخزن بالمياه ولكن مع استمرار اطلاق النار بدأ الامر وكأنه مسألة وقت فقط قبل أن تنفجر السفينة المشتعلة . وعلى الرغم من اعتراضات بيجين الشديدة رفع القبطان عنما ابيض مؤقتا ودعا بالمالخ الى وقف اطلاق النار . كان بيجين منبطحا على المسطح وكانت ركبة احد البحارة فوق ظهره . ورفض مغادرة السفينة قبل ان يغادرها آخر رجل من رجاله ، وقال في حديث اذاعه في تلك الليلة ان رؤسياه هددوا باستخدام القوة لارغامه على مغادرة السفينة ولكنه رفض مغادرتها :

اذا كنت قد استمررت في البقاء فوق السفينة فان هذا لم يكن من منطلق الوطنية بل من منطلق الشعور بالواجب . فكيف لى أن اغادر السفينة التي كانت في طريقها الى الانفجار وكان هناك جرحى على سطحها ! ويمكن ان تحدث الكارثة في أية لحظة ! قال لى القائد : « اعدك اننا سنخرج جميعا ، سنخرج وبالفعل تم اخراج معظم الجرحى ، وهكذا قفزت الى الماء » .

قال آخرون ان اثنين من بحارة مونروفيين الاقوياء قاموا بالقاء الى البحر . وكان آخر من غادر السفينة فينولانكين قبطان السفينة وقائد مقاتليها من الارجون . كلفت معركة شاطئ تل ابيب الارجون اربعة عشر قتيلًا وتسعة وستين جريحًا في مقابل مقتل اثنين من قوات الدفاع الاسرائيلي وستة جرحى . وكان من بين القتلى افراهم ستافسكى صديق طفولة بيجين الذي كان قد قبض عليه ثم أعلنت براءته من قتل حايم اروسورف على نفس ذلك الشاطئ الرطب منذ خمسة عشر عامًا . وتم فيما بعد انقاذ بعض الاسلحة من السفينة المحطمة التي بقى حطامها على مرأى من تل ابيب كشاهد على حماقة السياسيين — سواء بن جوريون أو بيجين وفقا للتحيز لاي منهما . ولم يكن غرق السفينة الثانية أسعد اللحظات في حياة قائد الارجون ولا كانت الكلمة التي القاها في تلك الليلة بعد ساعتين من غرقها من اذاعة الارجون السرية بأفضل خطبة . لقد فقد بيجين السيطرة على نفسه وانفجر في بكاء مرير وسب بن جوريون ووصفه بذلك الغبي ، ذلك الاحمق الذي تأمر لقتله وأردف ذلك بحركة من يده تشير الى انه يستطيع القضاء عليه وهدد بالويل والثبور لكل من تسون له نفسه اذاء أسرى الارجون . وبعد ذلك في نفس الليلة نشرت الارجون بيانًا وصفت فيه بن جوريون بأنه ديكتاتور مجنون « وحكومته بأنها حكومة من الطفلة المجرمين ، والخونة والمقتلة ، والغى البيان الامر السابق لقوات

الارجون بالانضمام الى الجيش . ولكن بيجين حذر رجاله من إطلاق النار على قوات الدفاع الاسرائيلي قائلا : « انه لن يكون هناك قتال بين الاخوة في الوقت الذي يقف فيه العدو على الباب » .

اما يزرائلي جاليلي فقد خصه بيجين بأسوأ أنواع القذف ، فوصفه بأنه « تاجر حقير يتاجر في الدماء والممتلكات اليهودية » ودرج قائد الارجون السنوات عديدة بعد ذلك أن يذكر « رجلاً مجهولاً يشغل منصباً كبيراً في الدولة » وهو أحد المقربين من بن جوريون الذي نسب إليه أنه قال له « ان بن جوريون قد خدع في مسألة السفينة الثانية . وعلى الرغم من أنه لم يذكر التآمر إلا أنه كان يعتقد أن جاليلي هو الذي خدع بن جوريون . وليس من المستغرب أن ينكر جاليلي بشدة كل شيء عن ذلك الأمر » ان هذا القول اما أن يكون حقدا أو حماقة أو كليهما وليس له أساس من الحقيقة . لم تكن هناك تفاصيل حول اتصالات مع الارجون على أي مستوى لم تعلم بها وزارة الدفاع بالكامل وعلى الفور . إنكر بن جوريون الاتهام كذلك . ويزعم جاليلي أن بن جوريون كان « أكثر عدوانية منه بكثير » . عندما كنت في المقر في كفار فيتكين تلقيت رسالة منه يقول فيها أنه لا يفهم لماذا لا نعمل » . لم يكن هناك خلاف كبير في الهدف أو الإدراك بين زعيمى العمل . وتشير الدلائل على أن جاليلي تردد أكثر من مرة في القيام بعمل ، كان يريد أن يمنح بيجين الفرصة لاطاعة أوامر الحكومة وكان رأينا أن بن جوريون هو الذي أرغم الآخرين على الإسراع في العمل . وكان بن جوريون هو الذي قال خلال اجتماع عقد في ليلة وقوع كارثة السفينة الثانية للجنة الشعبية : « فليبارك الله المدفع الذي قصفت تلك السفينة » . كان ذلك دعاء بالبركة لم يستطع إلا قليل من الاسرائيليين ، حتى من بين المعجبين بين جوريون أن يرددوا بغير ارتياح كلمة « آمين » .

الفصل الثاني عشر

اختيار جانب المعارضة

لعل مناحيم بيجين هو زعيم الحزب الوحيد في العالم الديمقراطي الذي خسر في ثماني انتخابات متعاقبة واستطاع الصمود حتى كسب الانتخابات التاسعة والعاشرة . وليس صحيحا انه كان محصنا ضد النقد من جانب زملائه المتطرفين في الوطنية . كان يتعرض دائما للتحدي ولكن متحدوه يملكون الاحترام والنفوذ ، والجاذبية الشعبية والمهارة السياسية التي تمكنهم من احتلال مكانته . وتحولت « حركة الحرية » التي أسسها في أغسطس ١٩٤٨ خلال اجتماع عقده الرفاق القدامى في العمل اليسرى إلى حزب الإرجون زفاي ليومي ، وكان أهم أعضائه ولده أكثر من ثلاثين علما يشكلون ما أسماه بيجين « بال عائلة المقاتلة » حيث يتمتع بين أفرادها بسلطة شخصية غير قابلة للهجوم ، وما زال بيجين هو القائد وما زالوا هم أولاده وينادون بعضهم البعض بأسمائهم الكودية ويشتركون في تبادل الذكريات حول أساطير النصر ، والتضحية والاضطهاد . وخلال أول انتخابات للكنيست في يناير سنة ١٩٤٩ لم يكن حيروت المطالب الوحيد بتركة فالديمر جابوتينسكى . كان هناك ثلاثة أحزاب أخرى هي : التصحيحيون من المدرسة القديمة الذين كانوا يعاملون من الإرجون باحتقار خلال سنوات الثورة ، وحزب المقاتلين بقيادة عصابة شتيرن ، والحزب الرسمي بقيادة مائير جروسمان الذي انفصل عن جابوتينسكى في سنة ١٩٣١ . وكانت كل تلك الأحزاب تتنافس معه للحصول على أصوات الناخبين . ولكن كان أخطر منافسى بيجين هم التصحيحيون الذين ما زالوا يمثلون في المؤسسات الصهيونية والذين استطاع بسرعة تطويقهم بانحياز رئيس الاتحاد الدولي للتصحيحيين بالاعتراف بحيروت باعتباره الفرع الاسرائيلي للحركة . اتبع بيجين أسلوبا تكرر كثيرا فيما بعد للتخلص من معارضى زعامته وهو ما فعله مع كثير من التصحيحيين المحنكين ، انه يهاجم من الداخل ، يعزل معارضيه ويجمد عضويتهم في الحزب . وعبر السنوات أبعد أولئك المنتقدين يملؤهم شعور المرارة ولكن بدون حول ولا قوة - مثل ايرى جابوتينسكى ، ابن النبي ، وهليل كوك الذي دخل مجددا في معارك دستورية غامضة ، وشامويل شاهير في سعيه لتحقيق مستقبل قانوني ناجح ولكنه يدين بالفضول البيجين لاي نفوذ يأمل في ممارسته على هامش الحياة السياسية ، وعبرز غايتسمان الذي يقع في انتظار ، مثل ديخول ، دعوته الى انقاذ الامة .

كان حزب حيروت منذ نشأته حليفا للايديولوجيين اتباع جابوتينسكى ويثير سخط الناخبين اليهود الشرقيين وكان ما يربطهم معا هو مناحيم بيجين الذي

أنشأ الحزب ورعاه حتى نما وازدهر . لم تكن هناك شبكة من الفروع المحلية النشطة بين الانتخابات وكانت « بيتار » اتحادا رياضيا أكثر منه حركة شبابية . وتأكدت سيطرة بيجين مع انتخابات أول كنيسيت ، عندما وضع قائمة المرشحين ، وهو مجال خصص لاسباغ الرعاية في نظام التمثيل النسبي باعتباره بطلا قوميا ، غريبا لدى اليهود . واستطاع في البرلمان ان يستعرض موهبته الخطابية ، مؤكدا مواهبه وهى نادرة في حيروت كزعيم شعبي ، واستطاع الوصول الى أولئك العازمين عن التمسك بالماضي وورث بيجين موهبته الشخصية التى أورثها جابوتنسكى للتصحيحيين . عزل الزعيم نفسه في الدائرة الداخلية لحكى الارجون مبتعدا عن الخلافات الداخلية في الحزب مستخدما اصدقاءه في القتل نيابة عنه ولم يمض وقت طويل في اعداد نفسه للخلافة . كان يفضل مبدأ فرق تسد . كان يترك الطموحين ينافسون بعضهم بعضا والمخلصين يشقون طريقهم الى جانب القائد القديم . وخلال التمرد الاول واجههم بالنتائج بعرض استقالته . وحدث في احد المرات ان قام بتأجير غرفة في القدس واستأنف دراسته للمحاماة ، وبعد كارثة انتخابات ١٩٥١ للدورة الثانية للكنيسيت عندما انخفض عدد الكراسى التى حصل عليها حزب حيروت من اربعة عشر مقعدا الى ثمانية مقاعد وانخفض عدد الاصوات التى حصل عليها الى اربعة آلاف صوت على الرغم من زيادة عدد الناخبين بـ ٨١٤٠٠٠ صوت ، أن ابهر بيجين في اجازة الى ايطاليا وترك وراءه خطاب استقالته مع نائبه اريخ بن اليعازر ولكن يوهانان بادير أحد شيوخ الحزب منع أى شخص من فتح الخطاب .

بعد فوز بيجين في انتخابات سنة ١٩٧٧ سئل سكرتيره السياسى بيهيل كادشاي كيف استطاع الزعيم مقاومة الهزيمة لمدة تسعة وعشرين عاما ، اجاب قائلا : « لا اعتقد اننا توقعنا الفوز قط » . في الخمسينات كانت برامج حزب حيروت يزينها شعار : « ان الله اختارنا لنحكم » وكان بيجين دائما يحذر ديفيد بن جوريون رئيس الوزراء من انتقامه عندما يتولى السلطة ، وفكن كلا الشعار والجدل كانا يعكسان احلاما للخلاص اكثر منها أى حلم بالسلطة . كان حزب حيروت يعتبر حزبا للمعارضة وكانت رسالته الحفاظ على « راية الصهيونية الحقيقية مزقوعة » ، والنضال من أجل اسرائيل ابية وغير مقسمة ودحض لبراجماتية اغلبية الملباي .

على الرغم من أن بيجين تخلى عن العمل السرى وتفرغ لالقاء الخطب بمجرد اعلان بن جوريون للدولة اليهودية فان التزامه بالديمقراطية البرلمانية ظل متكافئا . كان معجبا بنموذج البرلمان الانجليزى على الرغم من كراهيته لحكم البريطانى في فلسطين وكان ينادى بالحصانة والحماية الدستورية للأفراد عندما جرت في الكنيسيت مناقشة « القوانين الاساسية » المختلفة . ولكن كان هناك حنين يراوده دائما للثورة وان لم يكن للديكتاتورية . كانت الحكومة في رايه مخطئة دائما والكنيسيت لم يكن المكان النهائى للحكمة والشرعية

وعلى سبيل المثال ، ففي أول مؤتمر صحفي يعقده بيجين كزعيم لحزب
حيروت أنكر صلة الحزب بقتل عصابة شتيرن لكونت فولك برنادوت السويدي
ووسيط الأمم المتحدة ، ولكنه لم يستطع مقاومة اللقاء المسئولية المباشرة على
« البريطانيين الذين حاكوا المؤامرة » . وكذلك على « شركائهم الظاهريين
والمستترين في وزارة الخارجية الأمريكية » وكذلك « السياسة الخاطئة »
لالحكومة المؤقتة في إسرائيل .

« حذرنا الحكومة المؤقتة من أن نقيم دعائها على حكم
استبدادي في الجبهة الداخلية ومحاولة الاسترضاء على الجبهة
الخارجية الأمر الذي يعد عملا سريا جديدا لقد أعلننا هذا
التحذير في ١٥ مايو ولكن الحكومة المؤقتة التي تتحدث عاليا عن
السيادة في الوقت الذي تمارس فيه الاستبداد والاستسلام
المخزي لم تلق بالا إلى تحذيرنا ، ولذلك فإنه لا يمكن استبعادها
كلية من تحمل المسئولية غير المباشرة لمساة القدس بسبب
سياساتها .

وعلى الرغم من نظائره بالشجاعة شن بيجين حرب عصابات
ضد « استرضاء » التقسيم بالكلمات وليس بقوة السلاح وحتى
لو أراد فإنه لم يكن يملك الوسائل ليفعل شيئا آخر . جرى اعتقال
كثير من الذين فروا من الجيش من جنود الأرجون بعد مسألة
السفينة الثالثة . وفي القدس استسلمت آخر وحدات مستقلة من
الأرجون لانداز الحكومة الصادر في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٨ .
وقال بن جوريون : « ان بيجين ، وهو أبعد الناس عن العمل
الخيرى ، يعرف سلطة القوة واستسلم للقوة فقط » ، وتولى
زعيم حزب حيروت مهمة النضال من أجل « أرض إسرائيل » بعد
ثلاثة أسابيع من اجتماع أول دورة للكنيست وبعد أسبوعين من
توقيع اتفاقية الهدنة بين إسرائيل ومصر . وقال بيجين ان التفكير
بأن إسرائيل تدخل مرحلة سلام وهم بالغ :

« وجد الان في الجزء الشرقي من إسرائيل ، كما في الاردن
'احتلال بريطاني غير مباشر ... لن يكون هناك سلام لدولتنا
ولن يكون هناك سلام لشعبنا اذا لم نحرر هذا الجزء من الوطن
من القوات الغازية ... ان سياستنا الخارجية الرسمية تسير
في اتجاه تجميد الحدود المصطنعة ، حدود التمزيق » .

عاد بيجين الى الهجوم في ابريل سنة ١٩٤٩ عندما تفاوض
الدبلوماسيون والضباط الاسرائيليون للتوصل الى هدنة مع الملك عبدالله في
رودس . وفي محاولة لتقسيم ائتلاف بن جوريون غلف منطقه بعزيج من
العبارات اللاهوتية والسياسية :

« لقد وقعت هذه الحكومة اتفاقية عبودية مع خادم بريطانيا ، مع حاكم الدولة التي تسمى نفسها الملكة الاردنية الهاشمية — ولعارنا العظيم هذا الاسم الذي تمت الموافقة عليه في وثيقة رسمية وقعتها حكومة اسرائيل مع الملكة الاردنية التي تمتد بموافقة حكومة اسرائيل على الواقع على طول ضفتى نهر الاردن . . . ان معنى هذه الاتفاقية ان البريطانيين يستطيعون العودة الى غرب اسرائيل واقامة قواعد عسكرية لهم هناك . . . اريد توجيه بضعة كلمات الى أعضاء الكنيسة من الوجهة الدينية . سالتى اريد ان اسأل ضمائركم — وانا واحد من المؤمنين في اسرائيل — كيف لم تهتز أيديكم عند موافقتكم على مشروع يتضمن الاعتراف بالملكة الهاشمية الاردنية ، وبكلمات أخرى التخلي عن الاردن — كل الاردن الى أيدي الاعداء ؟ كيف لم تهتز أيديكم عند الاعتراف رسميا بسيطرة عبدالله على مدينة القدس القديمة ؟ » .

على الرغم من وجود حراسة اردنية على حواط القدس القديمة ، وعلى الرغم من محنة حرب الاستقلال التي فقدت فيها اسرائيل ٦٥٠٠٠ من بين السكان البالغ عددهم ٦٧٥٠٠٠ نسمة وبالرغم من المشاكل التي تواجه الدولة الوليدة التي ضاعفت سكانها خلال أربع سنوات عن طريق الهجرة ، بالرغم من كل ذلك ، أصر بيجين على ابقاء شعبة « أرض اسرائيل » متوجهة . كان ايمن بيجين قويا في عدم قبول أى حل وسط « لاتقولوا لنا انه لا جدوى من إصدار إعلانات » قال ذلك في مقام اقتراحه بأن يقوم الكنيسة بإعلان « القدس الموحدة » وليس فقط القسم الغربي من المدينة ، عاصمتها . ان الدول الاجنبية يجب أن تعرف أن القدس لنا ، كلها لنا — الهيكل — الحائط المشرقى — والقدس كلها على جانبي الحائط لنا ، والقدس عاصمتنا ليس فقط من الناحية النظرية بل من الناحية العملية .

بالنسبة لبيجين كانت القدس بكاملها العاصمة « أرض اسرائيل » كلها ، ضفتى نهر الاردن كما حددها جابوتنسكى ، كانت الوطن اليهودى سواء كانت اسرائيل في موقف يسمح لها باستردادها أم لا . كان يلح بأن رباط آمون « عمان » مثلها مثل شيكم (نابلس) وجليل مثل السامرا والباشا مثل الشارون هي « وطننا » ومهما كان غضب الرئيس جيمى كارتر خلال محادثات كامب ديفيد سنة ١٩٧٨ فإنه لم يكن يستطيع اتهام الزعيم الاسرائيلى بالتضارب . الا أن ارتباط بيجين كان لفهوم المكان ، للاسماء ولاصدااتها التاريخية لم يكن لديه شيء من حب موسى ديان للأرض لذاتها ولا شيء من ألفة « الصبرا » معها .

في مايو سنة ١٩٥٠ عندما ضمت الأردن الضفة الغربية رسميا وجهه بيجين اللوم لموشى شاريت وزير الخارجية لاعطائه الضوء الأخضر « لعبد الله

وحكومة بيفين التي وقتت وراءه لتحويل النهب والغزو إلى عمل قانسوني
ومعترف به سياسيا « ظلت المملكة الهاشمية بالنسبة لبيجين الاراضى التي
تحتلها بريطانيا من « أرض اسرائيل » اذا استطاعت الكلمات أن تغزو...
أخذ بيجين يسأل بن جوريون من الذى أعطى الحكومة السلطنة للاعتراف
بثبوت سلام القدس ، والمهيكل ، ومقبرة البطريك وقبر راثيل ، والخليل ،
وبيت لحم ، وشيكسيم وجليل وباشان ؟

لقد انتخبتم لتسيير شئون الدولة . ربما يقوم الشعب باختيار
من يحل محلكم . وقد يجدد انتخابكم . ولكن من أعطاكم الحق ، وفي
أى انتخابات أعطيتكم السلطة للتدخل باسم شعب اسرائيل عن ميراث
الاجداد ، ميثاق الاجيال ، قيادة التاريخ التى كان ثمنها دماء الملايين
عبر مسيرة مائة وعشرين جيلا ؟ . لم تعط أية انتخابات هذه
السلطة ومن المؤكد انها لم تمنح لكم فى الانتخابات الاخيرة . دعونى
أناقش هذا السؤال ، اذا أردتم السلطة فلنخرج الى الشعب ونسألهم
اذا كانوا مستعدين أن يعلنوا أن عبدالله ولسنا نحن الذين يجب أن
يهمل على القدس ، والخليل وبيت لحم » .

وجه بيجين فى نفس المناقشة انذارا بان اعتراف الحكومة بالضم الاردنى
ليس ملزما لحزب حيروت . « عندما تأتى حكومة أخرى - وسوف تأتى - سوف
تعلن أن هذا التوقيع غير سارى المفعول . أن كل أرض اسرائيل تخص شعب
اسرائيل ولن تعترف بحق عبدالله أو بحق البريطانيين فى حكم بوصة واحدة
من وطننا » .

كان النضال من أجل « أرض اسرائيل » على الرغم من مثالياته على ضوء
حقائق الخمسينات يحترم حدود الديمقراطية البرلمانية . كان بيجين يضع
علامات أكثر من تسليق الشككات . ولم تظهر مثل هذه الشكوك فى معركته
التاريخية الثانية مع حكومة بن جوريون فى هذه الفترة - المعركة ضد قبول
اسرائيل للتعويضات الألمانية . عاد زعيم حزب حيروت الى سياسات الشارع
محرضا الجماهير على الزحف الى الكنيست معرضا مستقبله السياسى للخطر
وهو فى كامل وعيه . كان هذا الموضوع الذى جاء بعد الابادة النازية لليهود
مباشرة تثير مشاعر عنيفة فى المجتمع الاسرائيلى . كان حزب المابام اليسارى
الذى ظل بعيدا عن الائتلاف الحاكم يعارض أى تعامل مع بون بنفس القسوة
التي كان يعارض بها حزب حيروت . وكان للحركتين جذور مشتركة فى النازية
اليولندية ، وتعرض اليهود البولنديين أكثر من أى يهود آخرين للابادة تحت
الحل النهائى . ولكن بيجين وحده رفع راية الاضطهاد .

كان اقتراح بن جوريون للمستشار الألماني كونراد اديناور ملجأ أخيرا اتسم بالغباء ، لم يكن الهدف منه عقد مصالحة سريعة بين القتل والمقتولين بل كان محاولة يائسة ليواصل الاقتصاد الاسرائيلي المجهد مسيرته وتدعيم الدولة اليهودية في مواجهة اعدائها العرب . أقر رئيس الوزراء أن اسرائيل لا يمكنها البقاء في عزلة وتحتاج الى حليف قوى واتجه أولا الى بريطانيا بل ألح أن اسرائيل مستعدة للانضمام الى الكومنولث ثم اتجه الى الولايات المتحدة ولكن كلتا الدولتين الغنيتين سببتا له خيبة الامل . بدأت حكومة العمال والمحافظين البريطانية محادثات تمهيدية ولكن سرعان ما خمد الاهتمام . واستنتج مستشارو بن جوريون ان وزارة الخارجية البريطانية كانت ضد الفكرة منذ البداية وتأكدوا انه ليس هناك فرصة . وفي واشنطن كان جون فوستر دالاس وزير الخارجية أكثر اهتماما باستعادة العلاقات الامريكية مع العرب . وأعلن أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ : « ان مشكلتنا الاساسية هي تحسين موقف الدول الاسلامية ازاء الديمقراطية الغربية لان هيبتنا تتضاءل في المنطقة بصورة مستمرة منذ الحرب » . ولم يلق اقتراح ابن جوريون بجعل اسرائيل « قاعدة الغرب ومخزن غلاله وورشته في الشرق الاوسط آذانا صاغية » . ولقيت مناشدة اليهود الامريكيين تعاطفا أكثر فقد انتخب رئيس الوزراء حملة لبيع الاسهم الاسرائيلية في اجتماع ضخم في ميدان حديقة ماديسون في مايو ١٩٥١ . ولكن على الرغم من نجاح الحملة فإن مؤرخ حياة بن جوريون كتب يقول : « ان الاموال التي تدفقت لم تكن كافية لتحقيق استقرار طويل الامد لاقتصاد الدولة المزروع . كانت اسرائيل تحتاج الى مساعدة مالية طويلة وضخمة » .

قامت اسرائيل بأول محاولة متكررة للحصول على تعويضات في مارس سنة ١٩٥١ ولكنها حاولت تجنب التعامل مباشرة مع الالمان وقدمت طلبا للحصول على بليون ونصف بليون دولار الى قوات الاحتلال وهي : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي ، وبريطانيا وفرنسا تعويضا عن الممتلكات اليهودية التي استولى عليها النازيون . ولكن الدول الكبرى رفضت القيام بأي شيء ازاء هذا الطلب . كانت التعويضات مسألة تخص الالمان . وجاء هذا الطلب في المرحلة التي اثار فيها اديناور الزعيم الجديد لالمانيا الاتحادية المعادي للنازية الى استعداد له لدفع تعويضات لاسرائيل . كتب تيريس بريتي المؤلف البريطاني في تاريخه لحياة اديناور انه لم يكن هناك ثمة شك في تسوية حساب الالمان مع اليهود « كان الشيء الممكن هو جعل أقصى حد لاعادة ممتلكات اليهود في نطاق الوسائل المتاحة لالمانيا . كان يبدو دائما أن اديناور يفهم ذلك وانه كان يعتبر أن هذا العمل واجب عليه » . ومع ذلك فإن عددا كبيرا من الاسرائيليين ومن بينهم أعضاء في وزارة بن جوريون وزعماء حزبه المابلم شعروا بالذعر من الفكرة . ومع ذلك فإن رئيس الوزراء

لم يجد أية متاعب في تهدئة ضميره وكان يعرف ان الطريق الوحيد لجعل التعويضات مقبولة لدى الاسرائيليين هو وضع كل ثقله وراء الحصول على تلك التعويضات . وقال : « في عبارة واحدة فان السبب يكمن في وصية الستة ملايين ، ضحايا النازي ، الذين كان قتلهم بمثابة صرخة مدوية لاسرائيل من ان تنهض ، ان تكون قوية ومزدهرة لحماية أمنها وسلامها . وهكذا نمنع وقوع هذه الكارثة التي حاقت بالشعب اليهودي من ان تحدث مرة أخرى . ولم يكن بن جوريون أقل براعة في الدفاع عن وجهة نظره في الكنيست حيث قال :

« تعرض أكثر من ستة ملايين يهودي للقتل عن طريق التعذيب ، والتجويب ، والمذابح الجماعية والاختناق الجماعي . . . وحدثت عمليات السلب قبل وأثناء وبعد هذا القتل الجماعي — بطريقة لم يسبق لها مثيل كذلك . . . ان جريمة بهذا الحجم الضخم لا يمكن ان يكون لها تعويض مادي ، ان أي تعويض ، مهما كان حجمه لن يكون تعويضا عن فقد الحياة الانسانية أو نهية لمعاناة وآلام الرجال والنساء ، والاطفال ، والشيوخ ، والرضع ومع ذلك فانه حتى هزيمة نظام هتلر استمر الشعب الالماني في التمتع بثمار المذبحة والسلب والنهب والسرقة من اليهود الذين قتلوا . وتعتبر حكومة اسرائيل نفسها ملزمة بمطالبة الشعب الالماني برد هذه الممتلكات اليهودية المسروقة . دعونا لا نجعل قتلة شعبنا المستفيدين أيضا من ممتلكاته !

انفجر مناحيم بيجين الذي كان والداه واخوه من بين البسنة ملايين قتل في ثورة غضب شديدة . لم يكن هناك شك في اخلاصه في محاولته العنيفة للحفاظ على احترام الذات لليهود ولكن البعض الاخر في حركة حيروت انتهزوا فرصة موضوع التعويضات كوسيلة لاعادة الحيوية الى الحركة وارجاع بيجين الى الحياة السياسية بعد نكسة انتخابات سنة ١٩٥١ . وجد بيجين متعة بالغة في الدور الذي أوكل اليه . ووصف يهوشيا اومير الذي كان يعمل في ذلك الوقت مراسلا في صحيفة الحزب « حيروت » الزيارة التي قام بها الى ياكوف روين سكرتير عام الحركة :

« قرأ صحيفة (يديعوت أحرونوت) التي كانت بحوزتي ولاحظ خبرا صغيرا جاء فيه أن الدكتور ناحوم جولدمان سيقوم بزيارة الى المانيا لاستكمال اتفاقية التعويضات ، وفجأة نادى على أريخ ابن اليعازر : « أريخ ، أريخ ، هذا سوف يعيده . مناحيم سيعود لهذه الحملة ، هذه حملة من أجل شرف الأمة ، وهو ، الوحيد الذي يستطيع أن يقودها . بعد ذلك بأسبوعين عاد بيجين من أوروبا وخرجت حركة حيروت من جهودها العميق » .

بغداد ظهر يوم ١٧ يناير سنة ١٩٥٢. خاطب بيجين جيشدا ترلوح عبيديه بين ٢٠٠٠ (كما قال البوليس) و ١٥٠٠ (كما قال بيجين) من يبيكان القذافي من شرفة فندق بل-أبيب في ميدان صهيون . كان هناك رذاذ خفيف يتساقط ولكن خطابه كان ملهنا .

كتبت صحيفة (جيروزاليم بوست) تحف الموقف :

« كان مبشر بيجين يتحدث بحماس وكان كثيرا ما يصيح ويقرن كلماته بكلمات مؤثرة كثيرة من التوراة . وأشار الى بيان الحكومة المؤيد لإجاءات التعويضات الألمانية باعتباره ذروه سياسات ذلك المجلس الذي أصبح الآن رئيسا للوزراء ، وجذب وسط المقائه خطابه ورقة من جيبه وبسطها بطريقة درامية وقال : « انني لم أجيء الى هنا لاثارتكم ولكن هذه الورقة التي سلمت الى الآن تقول أن البوليس لديه قنابل يدوية تحتوي على غاز مصنوع في ألمانيا - نفس القنابل الذي استخدم لقتل آباءنا وامهاتنا . اننا على استعداد لنجعل أي شيء : حبرات التعذيب ، معسكرات الاعتقال ، السجون السرية في سبيل عدم اتخاذ أي قرار بالتعامل مع الالمان » .

يبدو أن الإشارة الى الغاز الألماني كان مثالا كلاسيكيا لعدم اهتمام بيجين بالحقائق ، فمهما يكن أصل غاز الدموغ فانه ليس مثل غاز ريكلون - بي ولكن هذا التلميح أتى تماره . ووجه بيجين الذي كان يتحدث على بعد عدة ميالت من الماردات من مبنى الكنيسيت حيث كان بن جوريون يدافع عن سمينة الحكومة تحذيرا الى رئيس الحكومة :

« عندما وجهت الينا نيران المدفع ، أصدرت امرا : لا ! واليوم سأصدر امرا : نعم ! وستكون هذه معركة حياة أو موت . . اليوم سيعلن رئيس الوزراء اليهودي انه سيذهب الى ألمانيا ليحصل على أموال ، انه سيبيع شرف الشعب اليهودي من أجل مكسب مادي جالبا له العار الابدي . . ليس هناك ألمانيا واحدا لم يشترك في قتل آباءنا . كل الماني نازي ، كل الماني قاتل ، أديناور قاتل ، كل مسباعدية قتلة ، لكن كل تقديراتهم الاموال ، الإهوال ، الاموال انهم سيكفرون عن هذا الشيء البغيض بدفع ستة ملايين دولار ! » .

سار بيجين عبر شارع بن يهودا مرددا صيحة « الحرية أو الموت ، لا سبيل للتراجع » ليتحدى بن جوريون في الكنيسيت . المبنى الذي يضم وزارة السياحة . وسارت الجياهير وراء بيجين ونشرت صحيفة « جيروزاليم بوست » أن العنف اندلع في الشوارع لمدة ساعتين ؟

إخترقت الجماهير متاريس البوليس المحسطة بالاسلاك الشائكة وقامت بقلب السيارات الواقعة في الشوارع والقسماء الحجارة على مبنى الكنيست وعلى البوليس المنوط به حملة المبنى . ووصل عدد الجرحى من رجال البوليس الى اثنين وتسعين وسعة وثلاثين مدنيا حتى الساعة السابعة مساء .

وفي الساعة السابعة والنصف أعيد النظام الى مسرح الأحداث بوصول فرقة من الجيش اخاطت بمبنى الكنيست وأصبحت الشوارع امامه مهجورة تماما .

من داخل الكنيست كتب مراسل آخر يصف المناقشة التي جرت في جو من العنف لم يسبق له مثيل في الحياة البرلمانية الاسرائيلية .

« كانت تخترق قاعة الكنيست صيحات الجماهير لم تكن بعيدة ، أصوات سيارات البوليس المتقطعة وصوت سيارات الاسعاف والانفجارات المتقطعة لقنابل الغاز والسنة اللهب من سيارة تجترق ، ثم تحطم زجاج النوافذ نتيجة لقذف الحجارة واخترق دخان القنابل المسيلة للدروع من الشارع حيث تجرى الحركة خارج القاعة واصيب احد الاعضاء بجرح في رأسه . »

واستمر الاجتماع على الرغم من كل هذا الاضطراب وتم اخلاء القسم من القاعة التي كانت تتساقط فيه الاحجار والشظايا الزجاجية ، والذي يضم مقاعد المايام ، والصهيونيين العموميين وهابويل هاميزراحي ، وجلس الاعضاء في أماكن أخرى . ولكن فيما بعد جرت مقاطعة المناقشة ذاتها داخل الكنيست عندما وصف مناجيم بيجين (حيرت) رئيس الوزراء بأنه سفاح ورفض أن يتراجع عما قاله ورفض كذلك مغادرة منصة الخطابة عندما طلب منه نائب رئيس المجلس ذلك قائلا : اذا لم أتكلم فلن يتكلم احد وقام نائب الرئيس بفض الاجتماع وسط الضجيج .

كان خطب بيجين ضد التعويضات الألمانية ربما كان سيصبح من أعظم خطبه البرلمانية لو كان في ظروف مختلفة . فعند قراءته بهدوء بعد ثلاثين عاما من القائه يتضح أنه خطاب عاطفي ، فصيح ، متعقل ، أنه نداء الى الكبرياء اليهودي ونقدا قاسيا لأولئك الذين كانوا على استعداد للمساومة بشأنه .

لطمعة من المسرح مفعمة بالحزن والشجاعة وان كان مبالغا فيها قليلا . ولكن في النهاية يجرى تذكرها تحت ظلال أعمال الشغب ، والاحجار ، والقنابل المسيلة للدروع والزجاج المحطم التي صاحبت المناقشة وجنوح بيجين الى لغة غير برلمانية والتبجح المنافي للديمقراطية كان مدركا للمخاطر وخاضها بأعين مفتوحة . بعد سحبه في النهاية لوصفه بن جوربون بالسفاح واصراره على أنه : « اذا لم أتكلم فلن يتكلم غيري » . وافق على طلب رئيس المجلس بالانسحاب (ليس نتيجة للتهديدات بأننى سأطرد من الكنيست اننى أنظر

الى طردى من الكنيسة باستخفاف ، عندما نتكلم عن الحملة الراهنة فلتنى
أؤيدها لانه مازال امامي مهمة اقوم بها هنا وربما تكون الاخيرة ، وساقوم بها
الى النهاية) .

كانت المحجة الاساسية التى دافع بها عن قضيته ان الشعب الالماني
بأكمله مذنب فى المسألة برمتها - الملايين الذين صوتوا لصالح النازيين ،
الذين خدموا فى جيش هتلر ، الجاسطابوا الداس . اس والد اس . ا ، دبلوماسيى
اديناور الذين كانوا دبلوماسيى رينتروب . « من وجهة النظر اليهودية لا يوجد
الماني واحد ليس نازيا وليس هنك الماني واحد ليس قاتلا وانتم تريدون الذهاب
اليهم لتلقى الاموال منهم » . كان بيجين يساوره القلق حول الطريقة التى
سيقبل بها العالم قبول تعويضات حيث قال :

« ان الالمان سوف ترى حقيقة واحدة : وهى انكم جلستم
مع قتلة شعبكم واعترفت انهم قادرون على توقيع اتفاقية ، انهم
قادرون على المحافظة على اتفاقية ، انهم أمة بين الامم ، ان
الالمان لا يكرهوننا فقط ولم يقتلوننا ويحرقوننا فقط ، لم يؤذرننا
وليسوا غيورين منا فقط ولكنهم يكون لنا بصفة خاصة شعورا
بالاحتقار . وفى هذا الجيل الذى نطلق عليه آخر جيل يتعرض
للعبودية واول جيل يتحرر من عبوديته - فى الجيل الذى كسبنا
فيه مركز الشرف الذى خرجنا فيه من العبودية الى الحرية ،
تأتون الآن ومن أجل عدة ملايين من الدولارات الملعونة ، من أجل
بضلع فاسدة وتلقون بالقدر الضئيل من الكرامة الذى اكتسبناه
... انكم تجعلون الارض تميد تحت أقدامنا ، انكم تعرضون
شرفنا واستقلالنا للخطر ، كم سنعرض للاحتقار » .

بعد أن ناشد بيجين بن جوريون اجراء استفتاء بدلا من تحدى مايعتقد
أنه ارادة غالبية الاسرائيليين أعلن بيجين عن رأيه النهائي الحاسم . وقال ان
هنك اشياء فى الحياة أسوأ من الموت ذاته :

« هذه هى احدى الاشياء التى سنضحي بحياتنا من اجلها ونكون
مستعدين للموت فى سبيلها ، سنترك عائلتنا ، سنفارق اطفالنا ولا يكون
هنك مفاوضات مع المانيا . . اعرف ان لديكم قوة ، لديكم سجون ،
معسكرات اعتقال ، جيش ، قوة بوليس ، جواسيس ، مدافع ، بندق
آلية ، كل هذا لا يهم . حول هذا الموضوع ستتناثر القوة مثل تناثر
الزجاج على الصخر ، سنقتل للنهية لاجل قضية العدالة ولا جدوى
للقوة البدنية فى مثل هذه الحالات . انها هراء وتفاهة . اننى أحذر ولكنى
لا أهدد ، من الذى أهدده ؟ اننى أعرف انكم ستجروننا الى معسكرات
الاعتقال ، انكم تسجنون المئات اليوم وربما ستسجنون الالاف ، لا يهم ،

سيذهبون ، سيجلسون ، سيجلس معهم ، وإذا اقتضى الامر فاننا سنقتل معهم ولن يكون هناك تعويضات مع المانيا وليساعدنا الله في منع كارثة ستحقيق بشعبنا ، ومستقبلنا وشرفنا . » .

مهما كانت نوايا بيجين ليلة السابع من يناير سنة ١٩٥٢ فان خطابه تحول الى مجرد كلمات خطابية جوفاء حيث وافق الكنيست على سياسة بن جوريون ازاء التعويضات الالمانية بأغلبية واحد وستين صوتا ضد خمسين صوتا بينهم أحد أعضاء حيروت الذي أصيب بأزمة قلبية وتم احضاره الى قاعة الكنيست على نقالة) . وبعد اسبوعين صوت الكنيست بأغلبية ستة وخمسين صوتا ضد سبعة وأربعين صوتا لتعليق عضوية بيجين للثلاثة أشهر الباقية على دورة الكنيست كمقوبة على مسلكه غير البرلماني خلال المناقشة ، وفي شهر مارس نام بيجين بالقاء خطاب أمام مظاهرة من ٧٠,٠٠٠ من معارضي اتفاقية التعويضات في تل أبيب ولكنه توسل الى مستمعيه بعدم اللجوء الى العنف (وفقا لما ذكره منتقدوه فانه تلقى نصيحة بأن آلاف من سكان الكيبوتزات مفتولي العضلات حضروا الى المدينة لحراسة المباني العامة والقضاء على أية أعمال شغب) صاح بيجين قائلا : « مستر بن جوريون ان اله اسرائيل سيقرر من منا المصيب » .

بعد ذلك بوقت قصير تم توقيع اتفاقية مع المانيا ، تعهدت بؤن بائداد اسرائيل بما قيمته ٧١٥ مليون دولار في شكل بضائع وخدمات على مدى أحد عشر عاما وان تدفع ١٠٧ ملايين أخرى الى لجنة تمثّل المنظمات اليهودية العالمية . وكان ضمن المعدات الضخمة التي تلقتها اسرائيل إحدى وأربعين سفينة تجارية ، وأربع ناقلات بترول ، وحوض سفن عائم ومصنع للصلب وصهر النحاس . ورفض أديناور ، — على الرغم من شكوك بيجين في انه خدم فترة من الوقت في سجن أحد المعسكرات النازية — ، تهديدات العرب لاقتصاد المانيا الغربية قائلا لهم : « هناك أشياء أكبر يتعين التفكير فيها أكثر من مجرد اتفاقيات عمل لا بأس بها » . اننا نريد المانيا مختلفة عن المانيا هتلر » .

لم يستطع منساحيم بيجين توطين نفسه على قبول المانييـبا « الجديدة » هذه وخلال باقى الخمسينات والستينات ، سنوات المعارضة الطويلة المحيطة ، لم يترك بيجين أية فرصة منه لمهاجمة الحكومة لتوصلها الى اتفاق مع « قتلة الشعب اليهودى » ، وشجب تبذل الزيارات بين المدارس الالمانية والمدارس الاسرائيلية ، وندد بعنف ببيع مدافع شبه آلية من طراز « عوزي » الى بون ، وألقى واحدة من خطبه الرنانة « انى أتهم » ضد اقامة علاقات دبلوماسية (في سنة ١٩٦٥) ودعا الى يوم حداد قومي عندما قدم أول سفير لالمانيا أوراق اعتماده . ولكن لم يكن هناك شهداء ، أو زنزانة أو معسكرات اعتقال لأولئك

الذين قاوموا التعويضات ونتائجها كما لم يمت بيجين أو رفاقه في الخندق الأخير .

كان ذلك انتصارا حلوا مشوبا بالمرارة لبن جوريون في مباراة حامية حتى الموت كانت أحيانا مباراة نبيلة ودائما جائرة أصبحت مثل مباراة رياضية يشاهدها الاسرائيليون . كانت مباراة شخصية أساسيا . كان بن جوريون يأخذ زمام المبادرة بوجه عام أو يعرض بيجين لذلك . رفض رئيس الوزراء في الجسد المراحل الاعتراف بوجود زعيم حزب حيروت مشميرا اليه في الكنيسة على انه « العضو الذي يجلس الى جانبه د . بادير ويترك قاعة الكنيسة عندما يصعد بيجين الى المنصة . وكان يثار لنفسه بترديد صلاة « شيهيهانيون » : « لنشكر الرب لأبقائنا أحياء ومسبباتنا وجعلنا نعيش هذا الزمن » وذلك في المناسبات التي يبقى بن جوريون جالسا في مقعده . وصلت مباراة الاتهامات الى ذروتها أو ربما الى دركها الأسفل بمناقشة كريمة ومتأخرة عن موعدها حول موضوع السفينة التالفا في يناير ١٩٥٩ . اتهم بن جوريون بيجين بأنه لم يشترك في حرب الاستقلال ، وسخر بيجين من بن جوريون واتهمه بمقاتلة البريطانيين وسط ملاهي باريس ووبخه بن جوريون قائلا : « لا تقاطعني ، ليس لديك على الأقل شيكا أو جستانبو . وعندما دعا بيجين رئيس الوزراء الى اخراج موضوع السفينة التالفا من الكنيسة الى لجنة تحقيق أجاب بن جوريون : « لا يا سيدي لن اذهب الى أي مكان معك خارج الكنيسة . انني هنا خاضع للقانون وأنا أحترم القانون ويجب أن أولى اهتمامي بك وبكل عضو آخر في الكنيسة . هنا يتمتع كل عضو بحقوق وواجبات متساوية . وليس لدى أية نية للاجتماع بك في نفس الغرفة خارج هذا المكان » .

كان بيجين قد أبلغ حزبه قبل ذلك بثلاث سنوات انه لن يحضر لجنة العلاقات الخارجية في الكنيسة اذا كان بن جوريون حاضرا لانه لا يتحمل الجلوس في نفس الحجرة مع رئيس الوزراء « الذي جرح مشاعره عدة مرات خلال العام الماضي » .

وخلال مناقشة موضوع التالفا اتهم بن جوريون بيجين بالكذب « هذه الكذبة الوحيدة التي قالها هنا كافية بالنسبة لي لمعرفة الحقيقة التي يقدر على قولها . انني لا أظن انه يعتمد الكذب أنه ببساطة غير قادر على التمييز بين الحقيقة والخيال » . ولكن عداء رئيس الوزراء لبيجين كان أعمق من الكراهية الشخصية ، كان يكمن وراء الخلاف اعتقاده أن حيروت مثلها مثل الارجون شكلت خلال أزمة التالفا تحديا لديمقراطية اسرائيل التي لم تثبت دعائمها بعد . وقال « انها نفس الحركة واكتشف مستر أبا اهييمر طبيعتها في مقال كتبه بعنوان « من مذكرات فاشيستي » . ولم يتردد بن جوريون

في مقارنة بيجين بهتلر . وهو انطباع عززه بيجين بخوضه الانتخابات العامة في سنة ١٩٥٥ في سيارة كاديلاك مفتوحة وبحراسة مجموعة من شباب الغرباء . وقد ظلت هذه الصورة مطبوعة في أذهان الناخبين بعد فترة طويلة من نسيان معايرة بن جوريون له .

أذا كان بن جوريون الباديء في تبديلها القذف فان بيجين كانت له الكلمة الأخيرة . وفي مايو ١٩٦٢ عندما اختلف المحارب القديم اخلافا شديدا مع حزبه حاول بدهاء هزيمة خصمه :

... يستشعر هذه الدولة بالراحة ، ويستشعر الأمة انها في حال أفضل ، ويستنتهي الكراهية والعداء ، ويبرز الاحترام المتبادل ، وسيختفى الحقد ويستبرز المنافسة المفيدة ولو كانت منافسة مريرة ولكنها ستكون امنية وجيلية ، وسيختفى التحريف وتزدهر الحقيقة ، وستقل المسافة بين القلوب وسيعمق الاحساس بالوحدة ، وسيختفى النفاق وتبرز الصراحة ، وستوضع نهاية للتعلق البيزنطي ، وستعود الشهادة وحرية التفكير ليحتل مكانهما ، وسيقدم الشعب في كل المجالات الاخلاقية ، والسياسية ، والامنية والاقتصادية . عندما يتقاعد زعيم المabay الذي يعمل رئيسا للوزراء وكلما كان هذا قريبا كان ذلك افضل » .

الفصل الثالث عشر

الخروج من التيه

على الرغم من عدائهما المستمر كان بن جوريون أول من يمنح بيجين أول شعور بالاحترام والتكريم اللائق بزعيم معارض مخلص ، ففي يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٥٦ استدعى رئيس الوزراء بيجين الى فراشه في تل أبيب حيث كان يعاني من حمى شديدة وأبلغه ان اسرائيل بسبيلها الى مهاجمة مصر . وكان بن جوريون قد أطلع مجلس وزرائه في وقت سابق من نفس اليوم على الخدعة العسكرية الانجلو - فرنسية والتي عرفها العالم فيما بعد بحرب السويس ، والاسرائيليون بحملة سيناء . وكان بن جوريون يريد التأكد من تأييد الكنيست والبلاد بالكامل . وقام باستقبال جميع زعماء كافة الاحزاب المعارضة ماعدا الشيوعيين في مسكنه بشارع كيرين كاهيت . ولم يكن بيجين هو الوحيد موضع ثقته ولكن مغزى الاجتماع لم يرغب عن أي منهما . وكان بن جوريون بعد كل انتخبات يعلن انه مستعد لتشكيل ائتلاف مع « كافة الاحزاب ماعدا حيروت والشيوعيين » كان أعضاء حيروت مازالوا منبذين في تولى المناصب العامة وكان أعضاؤه مضطرين للنضال من أجل الحصول على ترقية في الجيش انظامي ، كما أن أبواب المنقبات كانت مغلقة في وجوههم . وكانت حركة العمل تسيطر على معظم المشروعات . كان حزب بيجين يتعرض للتهكم وفقدان الثقة . وكان التصحيحيون مازالوا منبوذين الصهيونية كان استدعاء بن جوريون لبيجين ايماءة بالمقبول على الرغم من محدوديتها .

أمسك بيجين ، الذي كان ينادى دائما بشن حرب وقتائية منذ بدايته العلم وتبنى استراتيجية « الفاعلية الايجابية » ردا على تسلل الفدائيين العرب قبل ذلك ، بيد بن جوريون وقال له : « اننى أحبى قرارك الشجاع » وأكد له : « انك تستطيع الاعتماد على تأييدنا » وخلال مناقشة الحرب في الكنيست أثبت زعيم حيروت انه صادق في وعده . ولكن هذا التقارب لم يدم حيث صب بيجين جام غضبه القديم على بن جوريون في يناير التالي عقب خضوع رئيس الوزراء للضغط الامريكى وسحب الجيش من سيناء : واتهم بن جوريون قائلا : « ان اسرائيل حصلت على نصر عسكري ولكنها عانت هزيمة سياسية » : تذكر انه بعد هذا الانسحاب فان مؤيدي الحكومة ، اى الاغلبية ليست على حق دائما » . بل ان بيجين كان اكثر قسوة بعد ذلك بشهرين عندما قام بن جوريون بسحب قواته من قطاع غزة : « جزء محرر من وطننا »

وقال ان رئيس الوزراء سار بنعال خشنة فوق أجساد ممثلى الشعب المنتخبين « ويل للاعين التى تقرأ والاذان التى تسمع هذه الكلمات » . ظلت رحلة بيجين الشاقة عبر غابة السياسة بطيئة ومضطربة وخلال الحقبنة بين حرب السويس وحرب الايام الستة ايام استطاع حيروت ان يدعم صفوفه ليصبح ثانى اكبر الاحزاب بعد حزب الماباى ولكنه لم يستطع اختراق الصفوف ليهدد هيمنة حزب العمل . وفاز فى سنة ١٩٥٥ بخمسة عشر مقعدا من مقاعد الكنيست المائة والعشرين وحصل على سبعة عشر مقعدا فى سنة ١٩٥٩ ، سنة ١٩٦١ ولكن نصيب الماباى من المقاعد لم ينخفض قط الى اقل من اربعين مقعدا ، الذى كان مع غيره من احزاب العمل - المابام واحدوت وهافودا يضيفان الى ثقل اليسار الديمقراطى .

يرجع التذمر من أسلوب وتطلع زعامة بيجين الى بداية الخمسينات ، كان يلجا عقب كل انتخابات تقريبا الى العمل السرى وهو الاسلوب الذى الفه عندما كان رئيسا للوزراء ، كان بيجين يحب الانتصار ويستمتع بخوض المعارك التى كانت تخرج منه افضل واسوا مانبه ، الرجل الاستعراضى ، والخطيب ، والمشاكس الجبر . وكان سعيدا بشعوره بالاضطهاد . كان اقل ذكر للسفينة التالية واقل سخرية من الارجون كفيل بلثارته ولكنه لم يحب قط تحليل وقوع كارثة . كان يشعر بالملل من الاشياء العادية لانها تخالف طبيعته الرومانسية . وبنهاية الخمسينات اصاب بعض رفاق بيجين التعب من المعارضة الدائمة . كتب احدهم وهو عضو فى « الاسرة المقاتلة » من مخزى الارجون سرا الى بيجين فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ يشكو من ان دعاية الحزب موجهة فقط الى اولئك الذين التزموا بالفعل بتأييد الحزب وليس الى الناخب المتردد . وكتب العضو فى خطابه يقول : ان حيروت معارض للمابام ، ولكن ليس لاجل اى شىء يمكن ان يمنحه الثقة . وأن كثيرا من الناخبين يرفضون بملق رجل واحد ولا داعى لذكر حراسة الدراجة البخارية . وهناك الكثير من « سلطة بيجين » وليس « حيروت » واستحكمت الانتهازية قبضتها ، وهناك السعى وراء الانتصارات الرخيصة ومناشدة مبسطة للجماهير بدلا من حملة معلومات موجهة الى الجماهير المفكرة وتم اتخاذ قرارات كثيرة للغاية وفقا لاهواء الزعيم . وتوقفت الحركة عن تعليم الشباب ولا تقدم افكارا جديدة . كذلك فلن المنتقدين امرىوا عن عدم ارتياحهم ازاء السعى لخطب ود الناخب المتين خاصة عندما يستتبع ذلك التضحية بالحرية الفردية . وبعد خيبة الامل التى اصابته حيروت فى انتخابات سنة ١٩٥٩ عندما حصلت على مقعدين آخرين فقط اذان شامويل تامير وهو من اصغر الامضاء زعامة بيجين علنا ووصفها بانها زعامة « مفلسة » .

اثبتت تلك السخرية وجود صيحة عامة ضد بيجين الامر الذى شكل

أخطر تحدٍ يواجهه بيجين منذ سنة ١٩٤٨-٦٠ ثورة علنية بهت كحما لو كانت
دعوة لاستخدامه خداعة والسماح لسه بالاستقالة وتأجيلتنا المواجهة تعجيبنا
التناق بين حيرت والليبراليين ، ورثة حركة الصهيونية الفهمومية من الطبقة
المتوسطة لتشكيل تحالف جاحل (وهي كلمة مركبة من جوش حيرت -
الليبرالية وكتلة حيرت - الليبرالي) ولم يكن ذلك انما جاحلا كاملا فظل كل
حزب محتفظا بهويته ، وسياساته المنفصلة وتنظيمه ، ولكنها كانت خطوة
هامية من اجل ايجاد بديل يمين - وسط عريض للعمل . وادخلت حيرت
الى مجال نشاط السياسات الاسرائيلية ، وبذلت المحاولات الاولى في بدايه
سنة ١٩٥٠ عندما اقترح ازرائيل روكاش عمدة تل ابيب على بيجين أن يضم
حيرت والصهيونيون العموميون صفوفهم خلال الانتخابات البلدية الوشيكة ،
رفض بيجين العرض ، ولكن في سنة ١٩٥٥ عندما تخطى حيرت الصهيونيين
العموميين في الكنيست جاء الدور على بيجين لاتخاذ زمام المبادرة التي
رفضت هذه المرة لان حيرت كان شديد المتطرف بالنسبة لطفائهم في
الحزب الصغير التقدمي الذي انفصل في النهاية لتشكيل الحزب المستقل
الليبرالي بزعامة مؤشئ كول وجدعون هوسنر ، فشلت المفاوضات السرية
مرة أخرى بعد حرب السويس ولكنها كانت أكثر نجاحا قبل انتخابات سنة
١٩٦٥ . وتم التوصل الى الاتفاق في ٢٦ ابريل سنة ١٩٦٥ والذي فتح
الطريق أمام حيرت الى اتحاد نقابات الهستدروت المنتشرة . أكد بيجين
لشركائه الجدد ، بقيادة يوسف سابير وأليخ ريمالك الليبراليين المخضرمين
انهم لن يظلوا في المعارضة طويلا بعد ذلك . كان الاتحاد زواجا مفيدا وليس
المقاء عقول . ونجح لان الليبراليين كانوا مستعدين للمثول عند رأى حيرت
فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والدفاعية بينما تخلى بيجين لهم عن السياسة
الاقتصادية . ولكن آمال بيجين تحطمت في انتخابات ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٥
حيث فاز جاحل بسنة وعشرين مقعدا أقل بمقعد واحد قبل اتفاق حيرت
والليبراليين . بينما فاز تحالف العمل بخمسة وأربعين مقعدا بزيادة أربعة
مقاعد عن مقاعده قبل الانتخابات على الرغم من عيوب بن جوريون الذي
فاز حزبه رافى بعشرة مقاعد . وبعد تسعة عشر عاما كان شباب حيرت قد
تحمل الكثير . انضم الى شامول تامر وهو محام طموح في تل ابيب وضابط
مخابرات سابق في الاريجون ، في قهدة ضد زعامة بيجين ، اليغيزر شوسنتاك
وامراهام تايير من اتحاد العمل الوطني المنافس اليميني القليل العدد ولكن
المعظم تنظيميا جيدا ، للهستدروت . وكان يوهان بادير قد خدر بيجين من
ترقية تامر بسرعة كبيرة ولكن أجابه بأنه « لديه ثقة غير مخدودة به » . القى
شوسنتاك بالقمار خلال اجتماع اللجنة المركزية لحيرت بعد اسبوعين من
الانتخابات . وقال ان الخلاف بينهما يغلود الى أيام انشاء الدولة في سنة
: ١٩٤٨

«توصل بيجين التي استنتج أن مسيرة حركة التصحيح حتى إنشاء الدولة لم تؤد إلى تولي الحكم ، ولكن هذا الطريق سيؤدي حيرت إلى السيادة . وطالب بمتحه الثقة : « أعطوني الفرصة وسأثبت لكم أن الحركة ستنتج بطريقتي » . هكذا كانت العلاقة بين الحركة وبيجين غامضة . وتم قبول اثنين كثيرة لم يكن يفهمها الاعضاء أو كانوا يوافقون عليها على أمل أن يثبت أنه على صواب » .

واجه بيجين التحدي وجها لوجه . وقال : « منذ دورة الكنيست الثانية والرابعة كانت هناك اشاعات وهمسات وسأقوم أنا هذه المرة بإثارة الموضوع » منحت اللجنة المركزية الزعيم اقتراحا بالثقة بأغلبية ساحقة : تسعة وعشرين صوتا في مقابل خمسة مع امتناع أحد عشر عضوا عن التصويت . ولكن كان يجري الاعداد للمؤتمر القومي التاسع لحيروت في قرية مكابيا خارج تل أبيب في نهاية يونيو ١٩٣٦ .

نظمت العسكرية المؤيدة والمعارضة لبيجين قواتها خلسة كما كان يفعل المتآمرون القدامى في العمل السري . ولم تفصح الخطب الافتتاحية عن وجود معارضة مركزة ، ولكن المعارضة برزت عند التصويت على الرئاسة . قدمت قوائم متنافسة إلى المندوبين البالغ عددهم ستمائة . وفازت المعارضة بنسبة أكثر من اثنين إلى واحد من مجموع الحاضرين والمقترعين (٢٥٣ - ١٣١) . مما دعا يهود اولمورت أحمد زعماء حيروت في الجامعة العبرية لان يقول بدون تفكير ان الامبراطور لا يرتدى ملابس . قال : « حتى الان قاد بيجين مسيرة الحركة باعتبارها حركة معارضة لنظام الحاكم ولكنه لم ينجح في قيادتها الى تولي الحكم وعليه ان يقبل النتائج ويستقيل مع كل قيادة الحركة » . انفجر الميخب في القاعة عندما بدأ المندوبون الموالون لبيجين في التلويح بقبضاتهم والمناداة بسقوط الشاب المغرور . سارح بيجين ، الذي ربما لم يكن يفهم بعد خطورة التحدي التي الدفاع عن اولمرت وقال انه اذا لم يسمحوا له بالاستمرار في الحديث فانه سيفقد المؤتمر . وقال انه يشعر بالخجل لوجود مثل أولئك المندوبين المستعدين للتعبير عن مثل هذه الاراء وتقديم مثل هذه الاقتراحات . واصل اولمرت وهو ابن أحد أعضاء حيروت القدامى وعضو الكنيست عن الليكود فيما بعد انتقاد الصنورة الاخلاقية للحركة ، وافتازها إلى الديمقراطية الداخلية وتوزيع بطاقات العضوية بالجملة ، وعندما تلجأ القيادة الى الهجوم ، فانها تستخدم الهجوم ضد هدف حقيقي وهو شمول تامير وحلفائه من اتحاد العمل الوطني .

في اليوم الثالث من المؤتمر حول بيجين التلياز المعارض له بأن قسم استقالته من زعامة الحزب وعرض التخلي عن مقعده في الكنيست . ولكن هذا العرض رفضه على الفور المندوبون الذين اسابتهم الدهشة البالغة وكتبت صحيفة (جيروساليم بوست) تصف ما حدث : « ولكن رفض مستر بيجين تغيير قراره . وكان قد قال امام اللجنة المركزية في وقت سلق من الميوم نفسه : « عندما تفوز في الانتخابات فاننا نصبح جميعا منتصرين ، ولكن عندما نخسر فاننا الموم » . وفهم الموالون القدامى التلميح وضبط بادير على المندوبين لاعادة انتخاب بيجين على الفور وحث رئيس المؤتمر افهام شستريمان بيجين على العدول عن استقالته : « انه ليس شخصا خاصا انه ينتهي الى الحركة وجزء من تاريخ الامة » . عاد بيجين الى المنصة « لتعديل بيانه السابق » « ووافق » على البقاء كعضو في اللجنة التنفيذية للحزب . واستعادت القيادة سيطرتها وفازت قائمتها الرسمية للمراكز الاساسية في اللجنة بزيادة اربع اصوات (٢٥٣ - ٢٤٩) خلال اقتراع سري في الساعة الثالثة صباحا ولكن لم ينته التمرد . واثار تامير الغضب بالحديث عن التميز بين رجال الماضي ورجال المستقبل ، سياسيو الشتات وسياسيو الصابرا التواقون للسلطة : « باعتباري رجلا حرا مولودا في هذه البلاد ، وباعتباري مرؤوسك في الارجون زفاي ليومي ، اجيء الان واعارضكم في العلن ، واعلن انني لا اعارض الايدلوجية بل الاساليب » ولدهشة بيجين والمندوبين المجتمعين اخرجت المعارضة ارنبا من القبة اذ سعد ايمهاى باجلين رئيس عمليات الارجون السابق الذي لم يقم باى دور في السياسة منذ سنة ١٩٤٨ الى المنصة وبدأ في صب احتقلره على القيادة .

انفض المؤتمر دون حل المشكلة بعد خطاب مفعم بالمشاعر الجياشة القاه بيجين واستغرق ثلاث ساعات :

« هناك حد لما يمكن ان تتحمله الشخصية العامة . هناك حد للمقسوة العامة من رجل ما . انهم يطالبوننى بالتقاعد من الحياة العامة ولم اتقاعد ، ليس لاننى مكروه او اننى محبوب . ولكن ما هو الخطا الذي ارتكبته ضد هذا الشعب طوال حياتى ؟ ما الخطا الذي ارتكبته ضد مستر بن جوريون حتى يكن لى كل هذه الكراهية ؟ هل كان ذلك لاننى انا واصدقائى حاربنا من اجل الدولة التى أصبح بن جوريون اول رئيس لوزرائها بموافقتى ؟

صنى بيجين بعض حسباته مع الصحافة ثم بدأ في توجيه اللوم الى المعارضة الداخلية : « شوستاك وتامير وتايير : كانوا يعملون من وراء ظهري شكلوا ائتلافا فيما بينهم ولم يبلغوننى . كان مستر تامير يعترف اننى كنت انوى الاستقالة وتركونى مثل رجل اعمى اتخبط في الظلام . هل كان يظنون اننى رئيس وزراء موناكو لاکراهى على الوزارة دون علمى ؟ » .

كتب ملك سيجال وهو مراسل سياسى اسرائيلى غير معروف عنه تعاطفه مع زعيم حىروت تعليقا جاء فيه :

« كان الخطاب تجرئة مؤلة بسبب الاعتراف بالتمرض للادى الشخصى العميق . واعترف بعض الصحفيين الذين كانوا يجلسون على مائدة الصحافة والذين تحدثت معهم بعد ذلك انهم شعروا بالخرج الى حد ما لجلوسهم وسط هذا الحشد للاستماع الى هذا الاعتراف العميم من الذى يقف على المنصة فى حالة هياج شديد ، بينما تجلس حولنا النساء البلكيات . شعرنا اننا نشهد تحطيم شخصية عامة » .

ولكن لم تكن مائدة الصحافة هى شرفة المسرح التى كان بيجين يلعب دوره امامها ويوجه لها اهتمامه . وكما كتب سيجال يصف تلك الليلة : « دوت القاعة بتصفيق مدوى بينما كان الرجل الشاحب احمر العينين يتسلل تاركا المنصة » كان بيجين حريصا على أن تقتصر استقالته على مدة الدورة التاسعة لمؤتمر حىروت . لسم يتم انتخاب خليفة آخر فى قرية ماكابيا ، المقر الدائم للبطولات الرياضية اليهودية الدولية . حل بادير مؤقتا محل بيجين كرئيس لمجموعة الكنيست ويكوف ميريدور كرئيس للحزب بدلا منه .

نجح بادير المخادع فى استرضاء المعارضة ولكنه احتفظ بأغلبية الحرس القديم فى اللجنة المركزية . ووافق باعتباره رئيسا للجنة القيادة على اقتراح يمنح المعارضة فرصة متكافئة فى اللجنة المركزية بشرط أن يخدم بها كل أعضاء الكنيست من حىروت أيضا . قلم كل جانب بتعيين سنة واربعين عضوا فى اللجنة ولكن كان للموالين أغلبية اثنى عشر فى مقابل ثلاثة بين أعضاء الكنيست . وقال بادير : « اننى أفضل أن أبقى فى التيه السياسى مع مناحم بيجين بدلا من الجلوس فى الوزارة مع شامويل تامر . وفى نوفمبر البتالى عندما واصل حىروت طريقه استأنف بيجين تولى القيادة بهدوء . وواصل تامر ، وشوستاك ، والشاب اليهودى المرت شق طريقهم بعد فضيحة حول خطاب مزور معادى لبيجين أرسل الى صحيفة (هآرتس) ولكنهم عادوا مرة أخرى وسط تشكيلة من الرايات الممزقة ليجلسوا فى مقاعد الحكومة بعد ذلك بعشر سنوات .

على الرغم من شكوك الليبراليين عقب انتخابات سنة ١٩٦٥ والضجة التى ثارت خلال صراع الزعامة فى حىروت لم يصب جاحال باى اذى . كان الليبراليون لا يحرزون أى تقدم وينظرون فى الاتجاه الآخر . ولكن تأمرت الاحداث لتجمعهم مع مناحم بيجين فى حكومة واحدة أسرع مما كان يتخيل أى منهم . ففى ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ وبينما كانت اسرائيل تحتفل

بالذكرى التاسعة عشر للاستقلال قام الرئيس المصري جمال عبد الناصر بلوسال دباباته الى سيناء عبر قناة السويس مثمرا أزمة ثقة تبدو عند تذكرها في غير موضعها بدرجة غير معقولة ، كان العرب يتحرقون للحرب ، وكان الاسرائيليون يشعرون بانهم معرضون للهجوم ، وللمرة الاولى خلال التاريخ الضخيم للدولة اليهودية انفقوا الثروة في قدوة رعايهم على مواجهة مثل هذا التحدي : كان بن جوريون قد اعتزل الحياة السياسية وذهب الى كيبوتز سيدح بوكرف في صحراء النقب وكان خليفته ليفى اشكول مشهورا عنه قدام الخصم ولم يكن رئيس الوزراء الجديد يمتلك خلفية عسكرية على الرغم من ذهابه كسياسي في الحزب وكان مثله مثل بن جوريون يشغل منصب وزير الدفاع ، وعلى النقيض من بن جوريون لم يكن جديرا بالقيام بالمهمة

تم التشاور مع بيجين وابلاغه عن تطورات الازمة باعتباره زعيما لكتلة المعارضة ، كان بيجين مدركا تماما لحالة الفراغ في قمة السلطة والقلق المتزايد في البلاد ، كان تفكيره الاول اعادة بن جوريون الى الحكم على الرغم من عداوته الطويل والمبادل ، كان بيجين يحترم بن جوريون ، وان كان يضمن عليه بهذا الاحترام - باعتباره الرجل الذي قاد اليهود الى الاستقلال بعد الف سنة من النفي ، وكان يفضل وجود علاقة مختلفة معه ، كان بن جوريون كما يراه بيجين فوق كل شيء سياسيا نشطا ، رجل دولة لم يتهرب من اتخاذ قرارات صعبة كان الشيء الذي لا يعرفه في ربيع سنة ١٩٦٧ هو ان بن جوريون الذي بلغ الثمانين من عمره لم يعد الاسد القديم الذي يوثق به ، وكان الجنرال اسحق رابين قائد الاركان الذي كان يشكو من انه يطلب منه تحمل الكثير من العبء العسكري والسياسي كذلك ، قد توجه الى بن جوريون ليحصل منه على تأييد معنوي ولكنه اصيب بخيبة الامل وكتب يقول بعد ذلك بسنوات :

« كان مؤلما رؤيته في حالته الراهنة ، بعيد كلية عن اية مصادرة للمعلومات والاسوأ انه يتمسك بقوة بهفاهيم قديمة وأخطأ في تقييمه لقوة قوات الدفاع الاسرائيلي ، كان مقتنعا ان اسرائيل في موقف سياسي غير محتمل ويشك في أن تستطيع تخليص نفسها من الخطر ببدء حرب مع مصر » .

استطلع بيجين آراء زعماء الاحزاب المعارضة الاخرى ومن بينهم شيمون بيريز السكرتير العام للحزب بن جوريون راى الذي انفصل عن العمل في سنة ١٩٦٥ ، وشعر بالرضا لانهم يشاركونه تشخيصه ويوافقون على وصفه للعلاج ، وفي ٢٤ مايو وهو اليوم الذي جعل بعده ناصر الحزب امرا محتملا باغلاقه مضائق تيران في هريان الحياة لبناء ايلات الاسرائيلي

على البحر الاحمر - اقترح بيجين سرا على اشكول دعوة بن جوريون لرئاسة حكومة وحدة وطنية . وكان رد اشكول الذي لم يكن خلافه مع بن جوريون اقل حدة من خلاف بيجين معه : « إن العربة الواحدة لا يمكن أن يجرها حصانان » . وعلى الرغم من أن بيجين كان متأثرا بالرد النهائي لاشكول فانه قبل دعوة للانضمام الى زعماء الاحزاب المعارضة الاخرى لمعقد اجتماع خاص في منزل بن جوريون في تل أبيب ولكنه شعر بنفس الفزع الذي شعر اسحق رابين ، كان الرجل المعجوز مازال يحارب حربه الشخصية مع مؤسسة العمل ورفض قيام اسرائيل بضرية وقائية ووصفها بأنها مغامرة خطيرة . وحث الحكومة على طلب مساعدة الدول الكبرى . تخلى بيجين عن فكرة تعبئة بن جوريون للعمل وأبلغ رئيس الوزراء أن جاحال مستعد للانضمام الى ائتلاف شامل بشرط أن يشغل موشى ديان وهو عضو بالكنيست عن رافى منصب وزير الدفاع بدلا من اشكول وقال انه « الرجل المناسب في المكان المناسب » .

كان التيار يتجه بالفعل الى ديان الذي كان رئيسا للاركان خلال حرب السويس ولكن جولدا مائير سكرتير عام حزب العمل كانت تمنع في نسيان الماضي . ومع ذلك فقد أصر بيجين أن جاحال لن يشترك في الحكومة بدون رافى ، ووفقا لما ذكره « يهييل كاديشاي » سكرتيره السياسي - فان بيجين كان اقل اهتماما بسمعة ديان الحزبية من اهتمامه بتأمين أكبر قدر ممكن من الوحدة . وفي النهاية أذن اشكول لمطالبة الرأى العام ولبيجين .

وفي أول يونيو ١٩٦٧ عاد مناحيم بيجين الى الإضواء وانضم الى حكومة اسرائيل ورثة جابوتينسكى : الارهابيون المحققون من جماعة الارجون زغاي ليومى . احترم بيجين ديونه التاريخية ودعا اخلاص ثلاثة من رفاقه ياكوف ، ميريدور ، وارين بن اليعازر ويوهانن بادير للذهاب معه الى مكتب رئيس الوزراء حيث عانقهم ثم انصرف . وفي صباح اليوم التالى ، وهو في طريقه الى الكنيسة في القدس وقف بيجين للحظة الى جانب قبر معلمه ، وكانت حكومة اشكول قد قامت قبل ذلك بثلاث سنوات باحضار رفات جابوتينسكى بطريقة ملائمة وأعادت دفنها على جبل هيرزل جنبا الى جنب مع زعماء صهيون . وذكر موشى ديان انه بعد ان قام رئيس الوزراء بالترحيب بالوزراء الجدد في أول اجتماع لهم مع الوزارة ، رد بيجين بخطاب قصير مفعم بالعواطف جافل بحكمه من الثورة أخذ اشكول الذي كان يتمتع بروح الدعابة يؤكد بها بقوله : « آمين » ، آمين » .

الفصل الرابع عشر

التدريب على الحكم

في هذه الحرب لم يجد منلحيم بيجين نفسه مضطرا لانتظار دعوة وباعتباره وزيرا في الوزارة وان كان لم يتقلد منصبه بعد أن انضم الى حشد من السياسيين والجنرالات المتقاعدين المفصولين في مكتب رئيس الوزراء في تل أبيب في صباح يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ . وكان أول من سمع بالغارة الجوية المنسقة التي باغتها القوات الجوية المصرية أثناء تناول الاططار وكفلت لاسرائيل السيطرة الحاسمة على سماء المعركة . فمئذ الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الاثنين نجحت موجات من المقاتلات القاذفة من طراز الميراج الفرنسية الصنع التي كانت تطير على ارتفاع منخفض بعيدا عن مجال الرادار في تدمير نحو ثلاثمائة طائرة حربية مصرية وعطلت كل القواعد الجوية المصرية الهامة من سيناء حتى مصر العليا . وعند حلول موعد الغداء حدث نفس الشيء بالنسبة للقوات الجوية الاردنية والسورية ، كانت سعادة بيجين بهذا الانتصار والاثارة التي أحسن بها لكونه واحداً من الدائرة الداخلية التي سمح لها بالاطلاع على السر تتسم بالطفولية . كان ينفجر فرحا بالانباء التي حجبته عن الصحافة وعن العدو ، وعانق حاييم لاشكوف قائد الاركان السابق وهو ضابط قديم عمل في الجيش البريطاني وفي حرب سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ وأخبره بما حدث . وخلال توجهه الى القدس في وقت لاحق من نفس اليوم أخذ يلوح بعلم امام سيارة جولدا مائير وضرب معها موعدا وكانت رئيسة الوزراء المستقبلية عن حزب العمل تشغل منصب سكرتير عام الحزب وليست عضوا في الوزارة وفي الكنيست بحث بيجين عن بن جوريون خوفاً من أن يكونوا قد نسوا بلاغ الرجل العجوز .

بينما كان بيجين مازال خارج حجرة ليفي أشكول عقد تحالفا غير رسمي مع مثليته القديم من البالماخ ايجال آلون الذي أصبح الان وزيرا للعمل ، وأدرك كلاهما الاحتمالات المتاحة نتيجة النصر الاسرائيلي الاولى وكان أشكول قد بعث برسالة الى الملك حسين ملك الاردن عن طريق الامم المتحدة يحثه فيها على ابعاد الاردن عن الحرب . فاذا وافق فان اسرائيل تتعهد بعدم مهاجمة المملكة الهاشمية . كانت الوزارة مستعدة من أجل تجنب الدخول في حرب على ثلاث جبهات اضاعة فرصة غزو الضفة الغربية والقدس الشرقية العربية . لم يعارض بيجين أو آلون قرار ارسال البرقية الى عمان ولكن بمجرد أن اتضح في صباح يوم الاثنين أن حسين تجاهل البرقية بدعا في الضغط

على رئيس الوزراء باعطاء اولوية لاعادة توحيد العاصمة المقسمة . قال له اللون بنمزة ساخرة « بيجين وأنا نريد القدس . فأجابه أشكول باللغة العبرية القديمة : « ليست هذه فكرة سيئة » .

وعندما وصل بيجين الى القدس لحضور جلسة خاصة في مبنى الكنيست الجديد الذى بنى على ارض مختصة في اعلى منطقة في جيئات رام والذى تم افتتاحه قبل عام وتعرض المبنى للقصف من ناحية بيت لحم ، أدرك بيجين ان حلمه في طريقه الى التحقيق ربما أسرع مما كان يتوقع . وعندما عرف أن أشكول لم يصل بعد طلب من سكرتيره السياسى الوقوف عند مدخل الاعضاء وطلب منه ابلاغه بمجرد رؤية سيارة رئيس الوزراء . أحاط بيجين بأشكول عند دخوله المبنى وطلب منه عقد جلسة طارئة لمجلس الوزراء قبل انعقاد الكنيست . وافق أشكول واجتمع الوزراء في حجرة الوزارة بالطابق الثانى ولكن سرعان ما قام حراس المبنى بدفعهم الى مخبأ سرى ضيق تسوده الفوضى . كانت قنابل الموترر تتساقط بالقرب من المبنى بدرجة خطيرة وانفجرت احداها بين الاعشاب في الخارج . صوت الاجتماع بالاجماع على الاستيلاء على المدينة القديمة محطة اذاعة الـ ب . بى سى وينتظر الطلعات الاولى من الصحف الصباحية . كانت القدس قد تم حينذاك تطويقها بالدبابات الاسرائيلية ٠٠ وسيطر جنود المشاة على جيل سكوس وجيل الزيتون ، المرتفعات الهامة فوق المدينة القديمة وبعد منتصف الليل استمع بيجين في الاذاعة أن الامم المتحدة تستعد لاصدار أمر بوقف اطلاق النار على كافة الجبهات .

طاردت بيجين ذكرى سنة ١٩٤٨ عندما اصيبت عصابات الهاجاناه الارجون وشتين بالاحباط نتيجة وقف اطلاق النار الذى حال بينهم وبين القيام بمحاولة أخرى لاستعادة القسم اليهودى القديم من ايدى الفيلق العربى بقيادة الملك عبد الله . تناولت أول صحيفة تصل الى عتبة بيته وهى صحيفة المابام اليسارية « عال همشمار » تفاصيل أخرى عن القصة ، كان قرار وقف اطلاق النار وشيكا في الساعة الرابعة صباحا . أيقظ بيجين أشكول واقترح أن يصدروا أوامر الى الجيش بدخول المدينة القديمة قبل فوات الاوان . طلب رئيس الوزراء من بيجين محادثة موسى ديان -تليفونيا - قال بيجين لوزير الدفاع : « على الرغم من اننا اتفقنا أمس على مواصلة تطويق المدينة القديمة الا أن قرار مجلس الامن يغير كل شيء . ولا يمكننا الانتظار بعد ذلك وابق ديان الذى كان حتى حينذاك يتزعم الدعوة الى استراتيجية أكثر حذرا . وتحدث بيجين بناء على اقتراحه الى رئيس الوزراء مرة أخرى وطلب منه القيام بعمل فورى . اتفق معه أشكول في الرأى واستشار زملاءه وأصدر أوامره الى الكولونيل مورد خاى جور ولواء مظلته

باقتحام الجواثب للمرة الاولى منذ قيام السلطان التركي سليمان الاعظم بينائها في سنة ١٥٤٠ م. وفي الساعة ١٥ ر. ١٠ من صباح يوم الاربعاء ٧ يونيو وبعد قتال عنيف في الازقة الضيقة المؤدية الى بوابة سانت ستيفانس ، كانت نجمة داود تخفق فوق الهيكل وكانت حفنة من جنود المظلات الذين يغطيهم غبار المعركة والعرق يؤدون صلاة شكر عند الحائط الغربي . لم يسنر تليفزيون وقف انطلاق النار لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى مما أتاح لاسرائيل استكمال غزوها للضفة الغربية لنهر الأردن وشبه جزيرة سيناء ، وعسلى أرغهم . مما يكتنف ذلك من المخاطر باستثارة البصوفيين خلفاء يسوعيا . فان اسرائيل واصبحت هجوما لتبطل على خروجات الجولان السورية في اليومين الخامس والسادس .

لم تكن تنقضي ثلاثة أسابيع أى في ٢٧ يونيو حتى قامت اسرائيل بتطبيق قرارينها في القدس الشرقية . وكان ذلك يقترّب بالنسبة لكافة المحاسبين الفلسطينيين . بها عدا المتشددون منهم من الضم الفعلي . وهكذا تحتمق حلم بيجين المثالي في تبنس موحدة . قصت السيادة اليهودية ، وتم اتخاذ خطوة حاسمة حتى يضمن الا يعاد تقسيمها مرة أخرى اذا منيت اسرائيل بهزيمة في حرب . . حتى معظم الاسرائيليين من العلمانيين انتابهم احساس بأن شسينا أشعبه بالمعجزة قد حدث . كان خلدا من التحرر من شيء كان يمثل خطرا شديدا والدهشة من تعظيم الحواجز المادية والنفسية التي قسمت المدينة المقدسة . اندفع عشرات من الاسرائيليين الى الحائط الغربي للحج بسدون نظام ليلي نهار : وسواء كانت مبادرة بيجين التي اقترحتها عند الفجر هي السبب وراء الاستيلاء على المدينة القديمة أم لا فانه كان راضيا على أنه قام بدوره .

بشاركت حيرت في الاجماع القومي حول القدس . فلم ينادى تنظيم بعودة القسم الشرقي من المدينة الى الحكم العربي ولكن بالنسبة ليهودا والسامرة في الضفة الغربية التي احتلتها اسرائيل مؤخرا كان بيجين يتحدث باسم الأقلية . لم يكن يتخيل الكثيرون انه بعد حقبتين من الزمن فان اسرائيل ستسيطر على كل فلسطين غرب النهر . تحدث زعماء العمل عن انتظار مكالمات تليفونية من عمان . وأعلن مورديخاي بيفتوف وزير الاسسكان ان « الاوضاع مفعولة في امان حتى يكون الملك حسين مستعدا لاستعادتها » لم يكن الحزب الدينى القومى قد تطرف بعد وأعلن زعيمه حايم موسى شابيرو أمام مؤتمر الحزب في سنة ١٩٦٨ ان التوصل الى تسوية بشأن الاراضى أمر أساسى . ولكن بيجين كان مصمما منذ البداية لبذل المستحيل للحيلولة دون إعادة تقسيم « أرض اسرائيل » . لم يعترض عندما قررت الحكومة ارسال من يقوم بنجس نبض الاردنيين ولكن أبا ايان الذى كان يشغل وقتذاك منصب وزير الخارجية أعرب عن شكه فى أنه اذا استجاب حسين فان بيجين سيستقيل .

قال: «أهل لبنان: ينبغي أن نذكر كيف ضحك بيجين في سريه عندما سمع عبارة «الرفيض التام» في رد الملك حسين . وفي شهر يوليو سنة ١٩٦٧ ساعد بيجين ايبان ووارها فيتج على صياغة خطاب يفتح الطريق أمام التوصل إلى حل وسط بين حقوق إسرائيل القومية في القدس ومصالح المجتمع الدولي . ونص الخطاب على : « أن إسرائيل لا تطالب بالسيطرة على القدس من جانب واحد أو بالسلطة المنفردة في الأماكن المقدسة للمسيحية والإسلام » . وستكون إسرائيل في أية تسوية سلمية « مستعدة لتقديم صياغة مناسبة لتحقيق هذا المبدأ » . ولكن هذا الإعلان لم يتضمن عرضا للتوصل إلى حل حول السيادة الإسرائيلية ، كان ايبان يأمل أن يخلق هذا احتمالا بالتوصل إلى حل ضمنى بالنسبة للمسجد الأقصى وقبة الصخرة . وهي الأماكن الإسلامية المقدسة في الهيكل إذا ما تم التفاوض من أجل تسوية سياسية مع الأردن كان بيجين مستعدا للقيام بتلك المخاطرة .

بعد انتهاء الحرب كرس بيجين كل جراحه اللفظية في تأكيد أن إسرائيل تقبل قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ بأكثر الإلحاح بعدا عن الالتزام بشيء . وكان هذا القرار الذي صاغته بريطانيا في نوفمبر سنة ١٩٦٧ كإحدى خطوات حلّ للتنازع حول المعاهدة لأجزاء متفاوتة بين إسرائيل والمغرب للتوصل إلى حل شامل ، يؤكد « عتسليم السعاح بالاستيلاء على الأراضي عن طريق الحرب » . وبين أشياء أخرى التي انسحب القوت المسلحة الإسرائيلية من أراضي محل النزاع الأخير . « كان اعتراض بيجين الأول هو عتسليم استخدام الحكومة الإسرائيلية الكلمة « انسحاب » . وكان يتباهى بعد ذلك أن خيروت نجح في تحقيق هذا بعد عامين ونصف .

تم تقديم اقتراح إلى الوزراء ثلاث مرات باستخدام كلمة « انسحاب » ورفضت الوزارة خلال إحدى الجلسات قرر ليفي اشكول هذا . تم تقديم اقتراح إلينا لاستخدام كلمة « انسحاب » وكنت ضد استخدامها . اقترحنا كلمة « انتشار » القوات . سأل أحد زملائي رئيس الوزراء ما هو الفرق بين انسحاب وانتشار القوات أجاب بطريقة مميزة : « إذا قلنا انسحاب فعندئذ نكون ملزمين به وإذا قلنا انتشار القوات فإن ايبان سيفسرها بالطريقة التي يراها صوابا وسيفسرها بيجين بالطريقة التي يراها صوابا » .

اعلن بيجين بعدئذ كثر من التفاصيل التافهة أن كلمة « انتشار » ليست ملائمة لمعاهدة سلام . لأن انتشار تعنى دائما تنشيط القوات للقيام بهجوم . واستقر رأي الحكومة في النهاية على : « يكون تنظيم القوات بالتوافق الكامل مع الحدود الدائمة التي تتحدد في معاهدات السلام » .

بالنسبة لبيجين كان الاختلاف بين « الانسحاب » و « والتنظيم » قاطعاً .
كان حريصاً على عدم استخدام لفظ « اعادة » فلم تذكر حكومة اسرائيل كلمة
« اعادة انتشار » او « اعادة تنظيم » فلم تكن تلزم نفسها بالانسحاب وشرح
بيجين الفرق قائلاً ان « الانسحاب يعنى التحرك الى الخلف وفي كلمة تنظيم
ليس هناك حركة . ان ذلك ستقرره الحدود كما تتحدد في معاهدة سلام » .

قال ايبان وهو واحد من أكثر الوزراء مرونة في مجال سرده لذكرياته :
لم يكن سهلاً بالنسبة لى صياغة مقترحات معتدلة في وزارة تتكون من كافة
الاحزاب بما فيهم جاحال الذى يعتقد ممثلوه انه يمكن التوصل الى معاهدات
سلام دون التضحية بأى اراضى على الاطلاق . ومع ذلك فان بيجين لم
يمارس حق الفيتو على الدبلوماسية الاسرائيلية . يقول ايبان ان « اشكول
كان يمنحنى سراوهدوء تأييده للصيغ التى لم تكن تلقى ترحيب بيجين
وزملائه » . ومع فان جاحال توقف فى مرحلة حرجة قبل ان يوضع
الاحتلال فى قلبه .

استكمل اشتراك جاحال فى حكومة الوحدة الوطنية — برئاسة اشكول
حتى وفاته بنوبة قلبية فى فبراير سنة ١٩٦٦ وبرئاسة جولدا مائير حتى
أغسطس سنة ١٩٧٠ — انتقل مناحيم بيجين الى مرتبة يصبح فيها جديراً
بالاحترام . كان من الصعب ارضاءه خلال حضور جلسات الكنيست
 واجتماعات الوزراء كانت علاقاته مع أعدائه السابقين ودية وعملية بل انه
هادن بن جوريون الهرم . وقد تصادف أن تقابلنا فى أحد الايام فى مطعم
الريجنس فى فندق الملك داود ودعا بن جوريون بيجين للانضمام اليه فى تناول
العشاء وكتب له المحارب القديم يقول له بعد ذلك :

« كانت زوجتى بولا لسبب ما معجبة بك لقد عارضت
طريقتك بقوة أحياناً . قبل وبعد قيام الدولة . كما لو كنت
ساعارض طريقة جابوتنيسكى . عارضت بشدة عدداً من أعمالك
وآرائك بعد اقامة الدولة . ولست نادماً على معارضتى لاننى كنت
مصيباً فى رأى ولكننى لا أحمل لك أية ضغينة شخصية وكلما
عرفتك أفضل خلال السنوات الاخيرة يزداد تقديرى لك وتشاركنى
زوجتى بولا فى هذا .

ابتهج بيجين بالاطراء بالرغم من انه ربما كان يفتقر الى الصياغة البارعة
وسر بنفس القدر لان اشكول كان رئيساً للوزراء أكثر قوة مما كان يتوقع أو
ما كانت تؤهله له سمعته . وشهد فيما بعد ان اشكول أثبت انه رجل يستطيع
اتخاذ قرارات :

« رايته يعمل فى أوقات صعبة ، وأكرر انه كان البادىء أو الشريك
أو العامل الحاسم فى اتخاذ قرارات حاسمة تلك التى كانت أقرب
القرارات الى نفسى - القرارات المتعلقة بالقدس ، وبمرتفعات
الجبولان ، والمتعلقة بتوحيد القدس وأعرف مدى تأثيره فى اتخاذ
تلك القرارات »

كان زعيم حيروت وزيرا بين وزراء آخرين ، فلم يكن يتمتع بعلاقة متميزة
مع أشكول ، ولكن تم قبوله وفقا لنفس الشروط . ويقول ياكوف شمشون
شابيرو وزير العدل وأحد المخضرمين فى الماباي : « كان أسلوب أشكول معاملة
الوزراء على قدم المساواة كان يميل الى قبول الجانب الآخر من العملة وليس
كبن جوريون وشاريت بصفة خاصة الذى كان يعتبر نفسه ينبوع الحكمة
كلها » . بدا تولى جولدا مائير لرئاسة الوزراء فى اول الامر تهديدا بانتهاء
شهر العسل . وكانت رئاسة الوزارة الجديدة قد قاومت تشكيل ائتلاف
من كافة الاحزاب عشية حرب يونيو . وكانت أكثر اهتماما بإبعاد موسى
ديان الذى لم تستطع أن تغفر له تركه الحزب مع بن جوريون أكثر من إبعاد
بيجين ولكنها كانت امرأة ذات آراء صريحة تمثل الولاء التاريخي وتحيزات
الماباي . وكانت مسز مائير من الشخصيات التى اذا كرهت أحد فان
كراهيتها تكون شديدة وظل مناحيم بيجين لفترة طويلة هدفا لكراهيتها .
ولكنها كانت تعرف كيف تسحر وتتكيف . وكانت مثل أشكول تقدر أهمية
حكومة وحدة وطنية بمجرد بدء الحكومة العمل . كانت مصممة على نجاحها
وإذا كان ذلك يعنى التعايش مع بيجين فليكن ذلك . ولدهشة المجتمع السياسى
تعاون الاثنان بسهولة بل بود فى الوقت الذى استمر فيه الائتلاف . وعلى
الرغم من أن مسز مائير لم تكن تشاركه التزامه الكامل بأرض إسرائيل الا انها
كانت تشاركه شكوكه تجاه نوايا الفلسطينيين . وكانت فخورة مثله
بيهوديتها .

عمل بيجين الذى كانت له نقطة ضعفه كمدنى تجاه الأبطال العسكريين
على توطيد علاقته فى هذا الوقت مع ديان وكان التقدير متبادلا بينهما مما أدى
فى نهاية الامر الى تجنيد الخارج عن حزب العمل لخدم فى حكومة يشكلها
حيروت . كانت هناك صلة روحية تربط بين الاثنين . فديان من جيل ولد فى
إسرائيل ويعرف العرب كبشر وليس كأعداء مجهولين كان يعرف الأرض
بطولها وعرضها بكل حواسه . كلن بيجين يشعر كما لو كان فى بيته فى
القدس ، فى تل أبيب وفى أحلامه المتعلقة بالتوراة ولكن داخل الوزارة
أصبحت نواة ما أطلق عليه أحد المعلقين الاسرائيليين : « ائتلاف مستقر
تخطى الحدود الحزبية . اشتركا معا فى معارضة الموافقة على مشروع
آلون الذى وضع تمييزا بين السيادة والامن ، ويصور انسحابا إسرائيليا من

المركز الإنسانية للمشكل العزيب عند التوصل الي اتفاق مع الاردن ، توصل
بيجين ودتيان الى موقف مشترك نابع من منطلقات مختلفة : كانوا متشابهين في
ايمانهم بالروحانيات كان بيجين يؤمن بالحق الالهى لليهود في ارض فلسطين
كلها . وكان ديان يتذكر تجولاته في الصبا ، وقضاء الليالى تحت ضوء
النجوم ويرفض أى حل يمكن أن يحرم يهود آخرين من نفس العلاقة
الحميمية . كان الضم يثير استفزازا غير ضرورى ، ولكن يجب ان تكون
هناك حدودا لا يمكن الاضرار بها .

كانت الثلاث سنوات التى قضاهها بيجين للتدريب على الحكم من سنة
١٩٦٧ الى سنة ١٩٧٠ سنوات مثمرة ولكنها اصابته بالاحباط دائما ، فلم
توكل اليه مسئوليات عندما كان وزيرا بلا وزارة ، فالوزراء الاداريون
غويرون بطبيعتهم من هم أعلى منهم ، حريصون على الا يتركوا فراغا
لغيرهم . وبدا بيجين دائما كما لو كان يخلق لنفسه عملا ، فكان يشكل
لجانا فرعية جديدة ، ويستقبل الصحفيين ، ويرد على منتقدي الحكومة .
كذلك فان فرصة البرلمانية كانت محدودة وكان ذلك يكدره وهو أحد النجوم
الأوائل للكنيست . فنادرا ما كان الاعضاء فى المقاعد الخلفية ينافشون
الوزراء بدون وزارة ، كما أن مديري الحزب لم يعطوا للاعداء القدامى
فرصة التالى خلفه انهم ربما يعودون الى صفوف المعارضة فى أية لحظة ،
وعندما وقع الانشقاق فى النهاية شعر ايبان من جانبه أن بيجين « تخلى عن
مائدة الوزراء فى مقابل منبر الكنيست وهو يشعر بالارتياح » .

عندما خلفت مسز مائير اشكول فى رئاسة الوزارة لم يكن استمرار
عضوية جاحال فى الائتلاف اتوماتيكيا بأية حال . كان بيجين وزملاؤه يشعرون
بعدم الارتياح ازاء الاتجاه نحو التوصل لتسوية فيما يتعلق بالاراضى بين
أغلبية الوزارة وحساسيتهم المتزايدة من خطر أن ينجح اللوبى الاسرائيلى
الاكبر فى اخراجهم من اليمين ، ولكنهم فرضوا الموضوع على السياسة
الداخلية وان لم يكن على السياسة الخارجية ففى الوقت الذى ازدادت فيه
الروح القتلية بين العمال الاسرائيليين طالب بيجين بتشريع يقضى بجعل
التحكيم اجباريا فى الصناعات الاساسية والخدمات ، وعندما رفض حارب
المعمل بجذوره الممتدة فى الحركة النقابية والتزامه بحق الاضراب ، أعلن
بيجين عن استعدادة للرجوع الى مقاعد المعارضة ولكن الذى اقنعه بالعدول
عن موقفه هو تفجر موضوع ارض اسرائيل وهو نفس الموضوع الذى ادى
فى النهاية الى خروج جاحال من الحكم . وفى شهر ديسمبر ١٩٦٩ بدأ جونار
يارنج مهمة الأمم المتحدة للسلام بعد أن طوى النسيان القرار رقم ٢٤٢ الذى
كان قد تبناه مجلس الأمن وكان قتل عفيف قد نشب بين القوات الاسرائيلية
والمصرية على خطى قناة السويس . وكانت هجمات الفدائيين الفلسطينيين

تتصاعد من الاردن وسوريا . وبدأ العالم يخشى وقوع مواجهة أخرى ، وفي واشنطن قدرت ادارة الرئيس نيكسون أن الوقت قد أوفى للقيام بمبادرة دولية جديدة لاعادة الشرق الاوسط لصوابه . وفي ٩ ديسمبر أعلن وليام روجرز وزير الخارجية الامريكية أن الدول الاربع الكبرى في مجلس الامن ستتعاون مع يارنج للتوصل الى تسوية وفقا للقرار رقم ٢٤٢ وكان الامريكيون قد قرروا ايضا « التشاور مع الاتحاد السوفيتي مباشرة على أمل تحقيق أكبر قدر ممكن من الاتفاق بيننا » . أصاب اسرائيل الذعر من كلا النقطتين - البحث عن تسوية في اطار القرار رقم ٢٤٢ واشتراك الاتحاد السوفيتي ، صديق اعدائها الذي قام بقطع العلاقات الدبلوماسية معها خلال حرب ١٩٦٧ . ومما زاد من شدة المقاومة للاقتراح الامريكي ما أوضحه روجرز حول سياسة الادارة الامريكية ازاء الحدود . فقد أعلن أن الولايات المتحدة تؤيد مبدأ عدم الاستيلاء على الأراضي بالحرب وانسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراض احتلتها في سنة ١٩٦٧ .

« أقيمت الحدود التي نشبت منها حرب سنة ١٩٦٧ بناء على اتفاقيات الهدنة في سنة ١٩٤٩ وحددت مناطق السلطة الوطنية في الشرق الاوسط لمدة عشرين عاما . وتلك الحدود كانت خطوط الهدنة وليست حدودا سياسية نهائية . وكانت تحكم حقوق ودعاوى ومواقف الاطراف ازاء التوصل الى تسوية سلمية نهائية اتفاقيات الهدنة ولم يكن قرار مجلس الامن يوافق أو ينادى بتلك الحدود السياسية المحددة . ومع ذلك فإنه يدعو الى الانسحاب من الاراضي المحتلة ، وعدم الاستيلاء على الأراضي نتيجة الحرب واقامة حدود آمنة ومعترف بها . . .

اننا نعتقد أنه في الوقت الذي يتعين فيه اقامة حدود سياسية معترف بها ومتفق عليها من جانب الاطراف ، كما أن أي تغيير في الخطوط الثابتة لا يجب أن يعكس ثقل الغزو ويجب أن يقتصر على التغييرات الطفيفة المطلوبة لتحقيق الامن المتبادل . انفسا لا تؤيد السياسة التوسعية ونعتقد أنه يجب سحب القوات كما ينص القرار . اننا نؤيد أمن اسرائيل وامن الدول العربية كذلك . اننا نؤيد إقامة سلام دائم يحقق الامن لكليهما » .

هكذا كان مشروع روجرز عند صياغته الاولى ، كان أكثر اعتدالا مما اعترف به الاسرائيليون ولكن ما لم يستسيغوه هو فكرة الانسحاب الفعلي من كافة الاراضي وما يشتمل من فرض حل كان ذلك كافيا لبقاء مناحيم بييجين في الحكومة ، بدأ أن علاقت حزب العمل أصبحت تافهة . فجأة ، وقع جاحال

اتفاق ائتلاف جديد وارتفع عدد وزرائه من اثنين الى ستة وزراء من بينهم عيزرا وايزمان الذى انتقل مباشرة من الرجل الثانى فى قوات الدفاع الاسرائيلية الى حيروت ثم الى الوزارة كوزير للنقل وفى ٢٢ ديسمبر رفضت الحكومة مشروع روجرز جملة وتفصيلا وقالت ان المقترحات الامريكية :

« تتحيز ضد فرص اقامة سلام ، وتتجاهل الحاجة الاساسية لتقرير حدود آمنة ويتفق عليها عن طريق توقيع معاهدات سلام بطريق المفاوضات المباشرة ، وتؤثر على حقوق اسرائيل السيادية رامنھا فى صياغة قرارات تتعلق بالفدائيين ووضع مدينة القدس ولا تتضمن اى التزام فعلى من جانب الدول العربية لوقف الانشطة المعادية لمنظمات الارهاب والتخريب » .

كان بيجين راضيا ولكن قلقل ، فقد رفضت الوزارة مشروع روجرز بتشجيع من موقف جاحال المتشدد ولكن لم يتوقع احد أن يؤدى الرفض الاسرائيلى الى القضاء على المبادرة الامريكية خاصة أن حربا الاستنزاف فى قناه السويس تزداد يوما بعد يوم وكذلك الخسائر الاسرائيلية . غير زعيم حيروت موقفه نتيجة بيان حول السياسة الخارجية صيغت كلمانه بعناية فى أواخر شهر مايو سنة ١٩٧٠ حيث اقتربت مسز ملير من اى وقت مضى من قبسول القرار رقم ٢٤٢ دون سابق انذار . وشكا بيجين من أن جاحال لم يستشر . ولكن رئيس الوزراء عملت على تهدئته بصفة مؤقتة بالتاكيد على أن شيئا لم يتغير . وخلال الاقتراع الذى جرى فى الكنيست حول بيانها امتنع نواب جاحال الستة والعشرين الذين علوا الى الكنيست خلال انتخابات سنة ١٩٦٩ عن التصويت ولكن كتلة حيروت الليبراليين ظلوا فى الائتلاف لمقاومة تقديم مزيد من التنازلات للامريكيين . لكن بيجين لم ينتظر طويلا لخوض التحدى . فى يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٧٠ أقدم روجرز على خطوته الثانية فاقترحت الولايات المتحدة على اسرائيل ، ومصر والاردن بدء المفاوضات تحت اشراف يارنج للتوصل الى اتفاق سلام قائم على الاعتراف المتبادل بين اسرائيل والاردن باسيادة ، ووحدة الاراضى والاستقلال السياسى وانسحاب اسرائيل من الاراضى المحتلة فى سنة ١٩٦٧ . وفى نفس الوقت، تلتزم الاطراف بوقف اطلاق النار المتزاما كاملا لمدة ثلاثة أشهر على الأقل ، ولتخفيف حدة المقترحات كان الرئيس ريتشارد نيكسون اكثر تحديدا عن ذى قبل فى تأكيد أمن اسرائيل وكان قد ألمح فى شهر مايو خلال مقابلة مع ايبان فى البيت الابيض أن اسرائيل تستطيع الاعتماد عليه فى الحصول على طائرات مقاتلة — مقاتلة اذا احتاجتها فى حرب استنزاف — ووفقا لما ذكره وزير الخارجية الاسرائيلى غسان نيكسون عمق الان التزامه :

« جعلنا نفهم أن تعهده لى حول طائرات الفانتوم يجب أن يؤخذ مأخذ الجد وأكد انه لن يكون متوتعا من اسرائيل سحب جندي واحد من أى من خطوط وقف اطلاق النار الا فى اطار اتفاقية سلام متبادلة تعتبرها اسرائيل مرضية لامنها ، كان هناك أيضا تعهد باستخدام الفيتو الأمريكى فى مجلس الامن لمقاومة أية قرارات تدعو الى الانسحاب الكامل الى خطوط ما قبل خط ط سنة ١٩٦٧ »

استنتج ايبان ومسز مائير ان مخاطرة الاقتراح الأمريكى اقل من المخاطرة برفضه فان التوصل الى وقف كامل لاطلاق النار سيؤدى الى استمرار الحرب مع مصر ، واحتمال المتورط مع الاتحاد السوفىيتى وهبوط التأييد الأمريكى لاسرائيل . مع ذلك فان بيجين رأى فى ذلك خيانة للقضية ، وقال املم اعضاء جاحال بالكنيست « شلت يمينى قبل أن أوقع على مثل هذه الوثيقة » . وحذر بيجين من قيام مظاهرة معادية لمشروع روجرز لمنع حدوث ميونيخ أخرى فى الشرق الاوسط . من أجل الحفاظ على الوطن التاريخى فان اسرائيل ستعتمد على « انفسنا ، على جنودنا وعلى البناء » . كان جاحال يريد وقف اطلاق النار ولكنه يرفض الموافقة على أية مفاوضات حول الانسحاب حتى يتحقق السلام . وحاولت مسز مائير اقناع بيجين أن اسرائيل لا يمكنها الحصول على نصف الصفقة دون نصفها الآخر . كذلك فانها لن تتوقع الحصول على أى أسلحة من الولايات المتحدة . كانت اجابة بيجين أن الأمريكىين لم يقدموا أسلحة الى اسرائيل بسبب طيبة قلوبهم فان اسرائيل قد فعلت لامريكا أكثر مما فعلته امريكا لاسرائيل . اعربت مسز مائير عن سخطها فى مذكراتها :

« لم أستطع افهامه انه على الرغم من أن الالتزام الأمريكى تجاه بقاء اسرائيل كان كبيرا بالتاكيد فاننا كنا نحتاج الى مستر نيسكون ومستر روجرز أكثر بكثير مما يحتاجوننا ولا يمكن اقامة سياسات اسرائيل بالكامل على افتراض أن اليهود الأمريكىين سيعملون أو يستطيعون اجبار مستر نيكسون على تبنى موقف ضد ارادته أو تقديره . ولكن جاحال الذى اسكرته كلماته الجوفاء اقنع نفسه أن كل ما علينا أن نفعله هو مواصلة ابلاغ الولايات المتحدة اننا لن نخضع لاي ضغط مهما كان واذا فعلنا ذلك لمدة طويلة وبصوت عال هذا الضغط سيتلاشى يوما ما » .

لم يكن جاحال يقف كوحدة متراسة كما اعتقدت رئيسة الوزراء . كان الليبراليون يتعاطفون مع موقف بيجين المعارض للانسحاب ولكنهم لم يكونوا يريدون ترك الائتلاف بسبب موضوع ما زال افتراضيا . كان اريخ دولزين

أحد وزراء جاحال ورئيس اللجنة الليبرالية المركزية المتحدث باسمهم ضد العودة الى المعارضة . يقول : « أننا لا نتأثر بالبيانات أن رأينا الاساسى هو أننا سنترك الائتلاف فقط اذا اتخذت الحكومة « قرارا » بالانسحاب . لنبقى في الحكومة حتى نتأكد أنه لن يكون هناك « انسحاب » . تبنت اقلية في حيروت بما فيهم عيزرا وايزمان وجهة النظر ذاتها . وكتب يقول : « كنت مقتنعا ان اذعان اسرائيل لمشروع روجرز سيكون كارثة . ولكن لنفس ذلك السبب على وجه الدقة اقتنعت أنه يجب علينا أن نبث في الائتلاف والا نترك الوزيرة اتخاذ قرار حول ذلك المشروع دون وزراء حيروت » . ولكن ما كان ييجين ليغير من موقفه . كانت الكلمات بالامتعة له ، مثل حلابة الاقتبال ، فكان يري أنه بمجرد أن توافق اسرائيل على « الانسحاب » فانها ستقف على الحافة المنحرفة المؤدية الى التخلي عن « ملكية اجداننا » . ان التنازل عن الحق اليهودى فى الارض ليس الا خطوة قسرية من التنازل عن الارض ذاتها . اينتخدم ييجين كل قواه لحث حيروت على البقاء فى الائتلاف ، ولكنه لم يكن لديه نفس التأثير على الليبراليين .

حسم الموضوع خلال اجتماع مشترك للجنة المركزية لكل من حيروت والليبراليين فى مبنى اليانصيب القومى . قام كل حزب بإرسال ١٧ مندوبا . حاولت مسرعات التأثير على نتيجة الاجتماع بالسباح لاعضاء جاحال فى الكنيسة بالتصويت ضد روجرز فى الكنيسة دون الاضطرار الى ترك الائتلاف . يقول دالزين فى مجال روايته لذكرياته : « حاول ييجين بشهيدة اقناعنا . لم يكن يحاول اللجوء الى التهديد معنا ، لم يكن يغضب كان يحاول دائما الاقتناع ، حاول جاهدا ولكنه لم ينجح » .

كان التصويت بالاقتراع السري بوضع أوراق التصويت فى صناديق خاصة . وصل التوتر الى اقصى عندما جرى تفريغ الصندوق الأخير فى الساعة الثالثة صباحا . فاز ييجين بأقل أغلبية يفوز بها فى حياته حيث حصل على ثلاثة أصوات بين ٢٣٤ صوتا . صوتت نحو ثمانية من المنشقين الليبراليين مع حيروت . يعتقد دالزين أنهم كانوا يصوتون ضد زعامتهم أكثر من تصريتهم ضد ييجين . صوت عدد أقل من منشقي حيروت بالبقاء فى الائتلاف . وقبل الليبراليون الحكم بدلا من ابعاد جاحال عن الائتلاف . وأصر دالزين على أنه يجب عليهم الوفاء بوعدهم : « لقد دخلنا الحكومة معا ويجب أن نخرج معا . لقد أعطينا كلمتنا ومهما كانت نتيجة التصويت فعلينا احترامها » . ولكن اذعان الليبراليين كان سياسيا وأخلاقيا كذلك ، كان طويل الاجل وقصير الاجل كذلك ويرى دالزين أنه « كان هناك احتيال واحد لإيجاد بديل لحزب العمل وكان ذلك معا . وهذا هو سبب تشكيلنا لجاحال . من الناحية التاريخية كان من الخطأ القول أننا تركنا الحكومة ولكن كان من الضوابط أننا لم نفضل عن حيروت » .

استقال مناحيم بيجين وخمسة من زملائه في جاحال من الوزارة في ٤ أغسطس سنة ١٩٧٠ ، وهو اليوم الذي ابلغت فيه جولدا مائير الامريكيين والكنيست أن اسرائيل قبلت القرار رقم ٢٤٢ « بكافة بنوده » بهدف تحقيق — من بين أشياء أخرى — « انسحاب القوات الاسرائيلية من اراضي احتلت في حرب سنة ١٩٦٧ » . انهيار الحائط الذي اعتقد بيجين انه بناء حول شعب اسرائيل ولكنه رفض ان يكون طرفاً في الهدم ، وأعلن انهم جميعاً من زملائه في جيروت . انهم لم يكن أكثر سلاماً مع ضميرهم من الآن . كان قرار الحكومة ان يصاروا لحنائهم حزب العمل ولكن ارتضاهم لقرار جاحال للثلاثاء . كان يشويه ندم خلفه . كتب « أبا ايمن بسخاء غير عادي » وهو من أكثر الحائمين اعتدالاً : « ترك رحيل بيجين وزملائه البارعين مائدة مجلس الوزراء أكثر اندماجتنا وهدوياً » . ولكننا امتدنا نكته وحيوية الجدل الفكري » .

كان الانقسام محتماً ان عاجلاً أو آجلاً ، في السياسة الاسرائيلية فان حكومات الوحدة الوطنية لتفضل في صنع الحزب من صنع السلام . ما زالت آثار هذه الاحداث مثارة للحدس والخلاف . فزعمت مسز مائير ان حشر يوم كيورر سنة ١٩٧٣ أثبتت صحة قرارها ، فبدون ذلك القرار لم تكن اسرائيل مؤهلة لمواجهة الهجوم المفجئ للمصريين والسوريين . حافظ الرئيس نيكسون على وعده ووصلت الى اسرائيل بالفطن طائرات الفانتوم وغيرها من الأسلحة الأمريكية بين سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٧٣ ويغندد أريخ دالزين ، أنه اذا كان جاحال قد ظل في الحكومة فلان الحرب ما كانت تحدث قط . « بعد تركنا الحكومة توقفت لجنة الأمن الوزارية . كان بيجين واحداً من العوامل الرئيسية في هذه اللجنة ، وكان الأمن مجال اهتمامه الرئيسي . كانت الحكومة ستكون أكثر وعياً بالوقوف الأمني وما كانت ستعتمد على شخص أسطوري مثل ديان بامتلزاه ضماناً لكل شيء . ويرى الليبراليون كذلك أنهم اذا كانوا قد انفصلوا عن تحالف جاحال فان بيجين ما كان يستطيع الفوز في انتخابات سنة ١٩٧٧ . ولكن هذا يفترض أن افتراق السبيل ما كان يمكن تغييره الى عكسه . ولكن هناك شيء لا يقبل الجدل وهو أن توقعات بيجين لم تتحقق . وإفقت اسرائيل على القرار رقم ٢٤٢ بما في ذلك مبدأ الانسحاب . لكن سواء أكان ذلك خيراً أو شراً فان اسرائيل لم شرع في التخلي عن عوصة واحدة من ارضي اسرائيل غرب الأردن .

الفصل الخامس عشر

وحدة أم اخفائي

أعاد ارتداد جاحال من حكومة الوحدة الوطنية برئاسة جولدا مائير في شهر أغسطس سنة ١٩٧٠ موضوع السلطة في مواجهة المبدأ الى جدول أعمال حيرت . كان مناحيم بييجين فخورا بأن حزبه صدق عهده مع ناخبيه والتزامه بأرض اسرائيل غير المقسمة كان سعيدا ليسيب بالاحباط كل اولئك الصحفيين الاذكياء ورسلى الكاريكاتير انذين كانوا على اتم استعداد فقط للسخرية قائلين : « انك لا تستطيع اخراج جاحال من الحكومة حتى ولو ببلدوزر » .

ان اولئك الناس ذاقوا حلاوة المنصب الوزاري (المكتب والسيارة) ولن يتخلوا عن المنصب (او تلك الاشياء) . . ولكن اعضاء حيرت الآخرين الاكثر شباهيا كانوا اقل رضى واقل ميلا الى القناعة بحياة متقشفة ورعة . . اصبح عيزرا وايزمان قائدا لحركتهم ، كان الجنرال السابق رجل افعال لا اقوال كان يشارك بييجين في وطنيته اليمينية . وكان يعتقد أيضا أن التخلي عن دعوى اسرائيل في الضفة الغربية لنهر الاردن كان يعنى القبول بتسوية مذلة ولكنه كان يفتقر الى الدعاية الايديولوجية التي كان يتمتع بها زعيمه سلك وايزمان مجال السلسلة لتنفيذ أشياء هي انتهاء احتكار المabay ، وعدم العبادة عند ضريح جابوتنسكى كان من « الصابرا » ابن أخ أول رئيس لاسرائيل حاييم وايزمان كانت جذور صهيونيته في حيفا وليس في بريست — نيتوفسك ، وفي قوات الدفاع الاسرائيلي وليس في الأرجون ، فايي ليومي . وباعتباره مهندس السلاح الجوي الاسرائيلي الحديث عرف احساس الرضا التابع عن القيادة والانجاز ، وبمجرد أن أدرك أنه لن يصبح قط رئيسا للاركان فإنه أصبح تواقا الى نقل نشاطه الى الحياة المدنية .

لم يكن هناك شيء أكثر اشباعا لغروره من المهرجان الذي اقله بييجين للترحيب به بين صفوف حيرت أو من الانتقال السريع من صفوف الجيش الى مائدة الوزارة ولكن هذه السعادة الفائرة لا يمكن أن تدوم . كان بييجين يريد وايزمان كنجم ، وكبطل حرب وكصائد للامسوات ، وكأحد رجال الحاشية وليس منافسا له ، وكان حيرت ما زال حزبه وهو وحده الذى بيده تقرير سياساته وأهدافه .

برز الصراع خلال مؤتمر الحزب في تل ابيب في شهر ديسمبر سنة ١٩٧٢ بدا بييجين الهجوم من البداية مخدرا المتمردين ومؤيديهم أن نجاح التحدى

لسلطته ربما يرغبه على التقاعد وقال « اننى سأجد أنه سيكون أكثر من الشعب العمل مع لجنة مركزية غير مقبولة ادى . كان ذلك مسرحية مألوفة ولكنها نجحت مرة أخرى . فهم المندوبون الابهاء واعطوا الموالية أغلبية الثلثين في اللجنة المركزية . بعد تعرض وايزمان لهجوم مدمر من بيجين لم يجد أمامه خيارا سوى الاستقالة من رئاسة اللجنة التنفيذية للحزب التي كان بيجين قد عينه فيها وقال « لقد تعلمت بعض الدروس المهمة للغاية عن المسيرة الديمقراطية » وتساءل في حديث خاص مع بيجين عما كان قد رغب قط في الانتقال من المعارضة الى الحكومة فرد زعيم الحزب قائلا : اننا نخلص للمبادئ وليس لمقاعد الوزارة » . كان ذلك فيما يتعلق ببيجين نهاية المناقشة ، اصر بيجين على موقفه وفشلت كافة المحاولات التي بذلت للصلح بينهما . كان بيجين وثقا كما لو كان قد تملك حكمة احد انبياء العهد القديم ولم يكن يساوره أى شك . كتب يقول في صحيفة « معاريف » اننا لم نخطئ قط ، لقد حكمنا دائما على الاشياء بطريقة صحيحة ، ولهذا فاننا لم نتغير قط لاننا لم نحتاج الى التغيير قط .

وبنفس الروح استبعد بيجين مجرد تشجيع المعارضة داخل حيروت باعتبارها أمرا غير ديمقراطى . ويستطيع وايزمان أن يهاجم بعنف من مقاعد الاقلية فقط . « ان هذه حركة أشخص سلبيين ، خائفين من التغيير انها لا تبرز صورة حركة سياسية حيوية » وعندما شعر بيجين بالانتصار الكامل عهد الى حايم لاندو ، تابعه الامين القديم فى الارجون بتوجيه الضربة القاضية، كتب وايزمان فى كتابه « على أجنحة الملائكة » : « لا تروى لى الحكايات حول تجديد الحركة عندما يكون هدفنا جميعا هو السلطة ، لو نظرنا الى بنيان الحزب وتسلسله الهرمى وطبيعة العلاقات على مستوى القمة يتضح أنه لم يكن هناك مجال أمام مخلوق مثلى » .

ووصل فى مجلد آخر من مذكراته الى استنتاج ان حيروت كان مكانا صغيرا لحفظ التوابل المعرضة للخطر .

فى هذه الفترة قام القائد القديم للارجون بزيارته الاولى غير السعيدة الى بريطانيا وهى الزيارة التى أظهرت جميع غرائزه المولعة بالقتال . كان الزمن قد مضى وكان مستعدا لنسيان الماضى ولكن البريطانيين أو بالأحرى صحافتهم وأعضاء البرلمان المؤيدين للعرب لم ينسوا : ففى مقنبل بعنوان : « زيارة قاتل » ذكرت صحيفة « صنداى اكسبريس » قراءها بشنق اثنين من الجنود البريطانيين . وقالت أن بيجين لم يلق عقابه قط على وحشيته ، كما قالت :

« ان من الامور البالغة الغرابة ، أن يرغب بيجين فى زيارة بلد يكن له هذا القدر من الكراهية بل والاكثر غرابة هو تصريحاته

التي قال فيها أنه يشعر أنه قد مرت فترة زمنية كافية وأنه يتوقع
استقباله بكرم الضيافة التقليدي أي نوع من الناس يظننا ؟ ان
أحدًا لا يستطيع أن يعيش الى الأبد مع الغضب والظما الى الانتقام .

وفي بريطانيا هناك حقيقة نوايا طيبة ضخمة تجاه اسرائيل
ولكن ليس هناك نوايا طيبة تجاه القنلة . هل يتخيل بيجين
حقيقة أنه حتى بعد مضي ربع قرن ، فان الشعب البريطاني سيكون
تواقا للترحيب بقاتل لم يلقى جزاءه ؟ » .

ولشهرت صحيفة « التايمز » نقدا لاذعا يشبه دير ياسين بمذبحة هائي لاي
في فينتنام وركزت صحيفة « الجارديان » هجومها على الوقت الراهن حيث
قالت : « ان هدفه هو سحب التأييد من حكومته المستعدة للتفاوض من أجل
الانسحاب وما يقوم به مستر بيجين يجعل مشكلة الشرق الأوسط أكثر تعقيدا
ويزيد من احتمال نشوب حرب . أنه ليس عاملا مساعدا او موضع فخر
لاسرائيل » .

انتهم بيجين كل فرصة للرد على الصحافة ، في الراديو وفي التليفزيون
وعندما سأل أحد الصحفيين ماهو شعوره عندما يجسد البوليس البريطاني
يحرسه بدلا من مطاردته أجاب « هذه واحدة من أمتع فترات حياتي وأظن أن
هذا مؤثر للغاية . ان رجال البوليس لديهم مخلصون للغاية وعندما أبلغ أن
بعض السفراء الغرب طلبوا من الحكومة البريطانية تسلمه لمحاكمته باتهامات
عن جرائم حرب ارتكبتها في دولة عربية رد بنيتنا : « سناكون أول عضو من
الكنيسة يقوم بزيارة دولة عربية ، ربما يكون هذا بداية مقاضات مباشرة
للتوصل الى سلام دائم وعادل . على الرغم من التهديدات بتفجير قنبلة ،
والمظاهرات المعادية والاستللة التي وجهت اليه في المجلس رفض بيجين الغاء
رحلته التي استغرقت ثلاثة أيام ولكن دعت معاملات التهديد التليفونية مديري
فندق رويال جاردن وسنترال هول ، ووسمنيستر الى الغاء الاجتماعات العامة
الهامة التي رتبها حيروت البريطاني . وعند عودته الى اسرائيل وصف بيجين
الزيارة بسعادة ، وقال « أنها كانت أروع ثلاثة أيام في حياتي » ولكن ذاكرة
العنف القديم التي لم تغفر له تركت لديه مذاقا مريرا . فبرغم كل شيء فان
هناك زعماء وطنيين آخرين من الذين وصموا بالازهاب خلال الأيام الغامضة
للالامبراطورية البريطانية من أمثال جومو كينياتا ، والأسقف مكاريوس ..
ولكنهم يستقبلون الآن باحترام في لندن وكذلك الامبراطور هيروهيتو
امبراطور اليابان . لم يكن بيجين يحتاج الى اشارة شعوره بالاضطهاد حتى
يشتم المعاداة للسامية .

كان الجنرال ايريل شارون مثله مثل عازر وايزمان يمينيا متطرفا وربما شديد الغرور أيضا بما لا يمكنه بالتأكيد من تحقيق طموحه العسكري تحت حكومة العمل ، وكان شارون قد ترك الخدمة في الجيش في أوائل شهر يوليو سنة ١٩٧٣ وانغمس في سياسات جاحال واختار بدلا من حيروت الحزب الليبرالى لا لسبب الا أنه يبدو أكثر استعدادا للاغراء فخلال شهرين غير من وجهة اليمين الديمقراطية الاسرائيلي - ودفع مناحم بيجين خطوة حاسمة في اتجاه رئاسة الوزراء . لم يكن هدفه مجرد تحويل جاحال الى حزب للحكومة ولكن توسيع قاعدته حتى يمثل بديلا لهيمنة العمل .

واقترب شارون من تحقيق مهمته بنفس الحماس الذى اكتسب تملق قوات مظللاته وخوف رؤسائه . كان سياسيا مبتدئا لا يتسم بالتواضع . كان يشق طريقه بحذر وتملق وكان يرفض كلمة لا وخلال اسبوعين منح حيروت بركاته لكتلة « ليكود » (الوحدة) الجديدة وهى تضم حزبي جاحال بالإضافة الى الوسط الحر بزعامة شامويل تامير والقائمة الرسمية وهى جماعة منشقة من جماعة منشقة من منشقى بن جوريون الذين لم يعودوا الى العمل . وعلى الرغم من تحفظاته على تامير المتمرد الذى كان قد طرده من حيروت فى سنة ١٩٦٦ . كان بيجين من أكثر مؤيدي شارون حماسا . فالشريك الاكبرسيظل حزب حيروت وسيظل حيروت هو بيجين ولم يكن شارون يشكل أى تحد لهيبة الزعيم .

وعلى الرغم من دفعه للمفاوضات فانها تحولت الى شئ كره وسارت على نحو بطيء حتى شهر سبتمبر . تجادل الحزبان الصغيران حول من سيحتل المركز الخامس والثلاثين أو السادس والثلاثين فى القائمة المشتركة لانتخابات الكنيست المقرر اجراؤها فى ٣٠ أكتوبر رد اليميلاخ ريمالت وهو زعيم ليبرالى صبور ومثقف على تامير بعنف قائلا : « ان أى شخص يراوغ للحصول على المركز الخامس والثلاثين فى هذه المرحلة من المحادثات لا يريد الليكود حقيقة » ولاسباب تكتيكية غير بيجين مفاوضى حيروت فوضع يروهانان بادير الموالى القديم الذى لم يستطع أن يخفى لتامير تمرد فى قرية مكابايا بدلا من بنجامين هاليفى المؤيد صراحة لليكود . عمل تامير بقوة ليحصل لنفسه على المركز الخامس بدلا من الثامن . أما عازر وايزمان الذى شجعه احتمال التوصل الى تحالف أوسع على الصلح مع بيجين فكان يشعر بالفشيان لدرجة أنه انسحب مرة أخرى . وكتب يقول فى خطاب أرسله الى الزعيم حيروت :

« اننى لم اشترك قط فى مثل هذه العملية القبيحة والمخزية التى وقعت فى جماعة من المفترض أن تكون مثالا للامانة والزعامة .

ولست أعفى نفسى من اللوم . لقد ساهمنا جميعا فى خلق هذا المشهد السلبي . اشتركنا جميعا فى التنازع حول مقاعد الكنيست بتبادل القذف

والأكاذيب الرهيبة • ان ما حدث خلال الاسابيع القليلة الماضية أكد فشلنا في تقديم الزعامة وأشعر أنه من الضروري ، من أجل الصحة — العامة — أن أترجل من عربة الحزب التي كنت أجلس فيها وأعود الى الحمول السياسى من أجل البحث عن الذات — والبحث عن طريق سياسى • »

ولم يكن بيجين فى حالة نفسية تسمح له بالدخول فى مواجهة أخرى مع القائد السابق للقوات الجوية • ورد قائلا « أعتقد أنه يتعين على كل شخص التصرف وفقا لضميره وفهمه وذلك بدلا من مناقشة وايزمان البقاء • ثم سمح بيجين لمساعديه بتسرب أنباء الخطابات المتبادلة الى الصحافة •

كان ايريل شارون يتمتع بصلابة أكثر كان يهدى ويستحث ويكره محترفى الحزب على الوحدة : « اما كل شيء أو لا شيء » وبينما الانتخابات على الابواب فى ١٦ سبتمبر سنة ٧٣ ، تم التوقيع على اتفاق ليكود • قال أحد زملاء شارون من الليبراليين وهو بين الاعجاب والصدمة « أنه اغتصب أربعة أحزاب • »

تنبأ بعض المعلقين الاسرائيليين أن تشكيل الكتلة الجديدة سيعنى بداية النهاية لمستقبل بيجين • كتب بيجين مقالا ساخرا فى صحيفة « معاريف » كان ممكنا أن تتحقق رغبتهم ولكن كان ممكنا كذلك نفس القدر أن يصابوا بخيبة الأمل • وفى نفس الوقت فانه حدد الأهداف الثلاثة الرئيسية بأنها : الحصول على أغلبية فى الكنيست تسمح برفض أى اقتراح — باعادة تقسيم أرض اسرائيل والقيام بمبادرة عملية للقضاء على الفجر ، والاندماج لايجاد بديل لحزب العمل • ومضى يقول فى عشية السنة اليهودية الجديدة : « ولكن بالنسبة للان فان أحدا من بيننا ليس فى طريقه الى بداية نهايته السياسية اننا جميعا فى بداية سنة جديدة وربما — من يعرف ؟ — فى بداية عهد جديد •

أثبت بيجين أنه أقرب ما يكون الى نبي أكثر مما توقع هو أو توقع قرائه •

وفى ٢٦ سبتمبر ، عشية السنة الجديدة قام موسى ديان وزير الدفاع بجولة فى الجبهة الاسرائيلية فى مرتفعات الجولان ، كانت هناك تقارير معلقة حول تدعيم سوريا لقواتها المسلحة ولانه شاهد بنفسه امر بتعزيزات محدودة للقوات الاسرائيلية فى الجولان ، • ثم ابلغ الاركان العامة « لدينا على الحدود الاردنية مستوطنات مدينة وليس اعداد وعلى الحدود المصرية لدينا عدو وليس لدينا مستوطنات • وعلى الحدود السورية لدينا الاثنى عشر وإذا ما وصل السوريون الى مستوطناتنا فان هذا سيكون نذيرا بوقوع كارثة • بعد ذلك بأحد عشر يوما ، فى يوم كيبور وهو من أقدس الايام فى التقويم اليهودى قامت الجيوش المصرية والسورية فى نفس الوقت بالهجوم على الجولان وقناة السويس •

وعلى الرغم من الدلائل المندرة بالسوء فان اسرائيل لم تكن مستعدة تماما .
وللمرة الاولى منذ سنة ١٩٤٨ كانت نخوض حربا يائسة دفاعا عن بقائها
القومى .

وحدد السياسيون صفوفهم وعاد ايريل شارون الى الجيش وقاد احدى
الفرق العسكرية التى اعاققت الهجوم المصرى ثم قاد قوة الهجوم التى اعادت
المعركة مرة اخرى عبر القناة وكانت جولدا مائير قد اطلعت بيجين باعتباره زعيما
للمعارضة على تقارير المخابرات الاسرائيلية بأن الغزو وشيك الوقوع ومع
ذلك فانه دهش مثل غيره عندما فتحت الجيوش العربية النار . فى الساعة
الثانية من بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر قبل الموعد المتوقع بأربع ساعات كان زعيم
حيروت يصرى فى معبد مقر حزبه فى تل ابيب عندما ابلغته ابنته يائيل بالانباء .
امتنع بيجين طوال الاسابيع الثلاثة التى استغرقتها الحرب عن انتقاد الحكومة
او القيادة العليا عن الخطأ الذى كاد أن يسبب كارثة للبلاد . لم يكن هذا هو
الوقت المناسب لمعارضة مسئولة لانهائى الفرصة لجمع اصوات للحزب ، ولكنه
كان ينتظر فقط فرصة مناسبة . ولكن مع تحديد موعد اجراء الانتخابات فى
نهاية العام ومطالبة الأمة برؤوس « المذنبين » . أمسك بيجين بهراوته وطالب
خلال مناقشة فى الكنيست فى ١٤ نوفمبر باستقالة مسز مائير وتساعل المرة ثلث
الآخرى بعبارة — عبرية — منغمة : « لماذا لم تقومى بتعبئة الاحتياطى قبل
يوم كيبور ؟

لماذا لم تقومى بتحريك التعزيزات الى الجبهات ؟

يمكنك القول فليبارك الله الأمة التى لديها هؤلاء الجنود الذين يقاتلون
دفاعا عنها . ولكن لا يمكنك القول فليبارك الله الامة التى لديها تلك الحكومة
لتقوها « أصيبت رئيسة الوزراء بالصدمة ازاء تدفق بلاغة بيجين بتلك السهولة .
وكتبت تقول (: ليته كان قد تلثم أو تردد . كان المتحدثون من المعارضة
يتحدثون عن اقتراب كارثة ، عن الرجال الذين قتلوا أو أصيبوا بالعجز عن
أشياء عظيمة ، ولكنهم يتكلمون بسلاسة دون توقف وشعرت بالفئان » .)

كان الشعور القومى يقترب من بيجين أكثر من مسز مائير . كتبت عائلات
القتلى تقذف ديان على القبور . تلاشت فقايع حرب ١٩٦٧ والثقة المبالغ
فيها بتفوقها العسكرى — وقعت الحكومة والجيش فى كمين من صنع ايديهم
لقد افترضوا أنه طالما أن العرب لا يستطيعون كسب حرب فانهم لا يستطيعون
بدء حرب وأثبت منطق الشرق الاوسط أنه اعتقد من ذلك . . . فعلى الرغم من
أن الجيش قلب الموائد على الغزاة المصريين والسوريين فى نهاية الامر الا أن
ثقة النفس لدى اسرائيل قد اهتزت بعنف ووجه معظم الناس اللوم للحكومة
وخاصة ديان الذى كان يتعين أن تجعله خبرته العسكرية فى موقف التأهب
للاخطار .

لم يخض بيجين قط حملته في ظروف أكثر ملائمة ولكن نتيجة الانتخابات التي أجريت في ٣١ ديسمبر كانت مخيبة للآمال عاقب الناخبون حزب العمل ولكنهم لم يطرده . فاز الحزب الحاكم وحلفاؤه بأربعة وخمسين مقعدا في مقابل تسعة وثلاثين لليكود . كان ذلك يعنى فقد العمل لستة مقاعد وفوز أحزاب الليكود بسبعة مقاعد وهو أفضل انجاز حققه ولكن كانت أصوات المعارضة مقسمة فازت حركة حقوق المواطنين بزعامة شولتى ألونى بثلاثة مقاعد وهى قائمة يسار — وسط دخلت الانتخابات في آخر دقيقة .

لم يكن الاسرائيليون مستعدين تماما لقبول حكومة برئاسة بيجين ولكن الاتجاه كان قد ارسيت دعائمه . وكان ليكود يتمتع بشعبية كبيرة بين الشباب الناخبين فى الجيش أما اليهود الشرقيين فى المدن النامية ومهاجرى الموشاف والاحياء الفقيرة فى المدن فكانوا يعيرون خلافهم فى جماعة الماباى التى بذلك لهم الوعود بتوفير السكن والاعمال والخدمات الاجتماعية وكلفت انتخابات سنة ١٩٧٣ أول نذير بوقوع زلازل .

الفصل السادس عشر

« زلازل صيف »

خاض بيجين انتخابات الكنيست الثامنة وهو مصمم على الفوز بينما كان حزب العمل الذى حكم بصفة مستمرة على رأس ائتلاف متجسّس فى حالة فوضى وقد أبرزت حرب يوم كييبور أنه ليس قادرا ، وأنه تولى الحكم كثيرا جدا . وكما لو كان توليه للحكم قد أصبح أمرا مسلما به .

أدى انتصار سنة ١٩٦٧ الى تاكل يقظة الحكومة وبدأت المحسوبية التى كان يسمح بها على نطاق واسع خلال مرحلة الريادة تتحول الى فساد . اهتزت قيادة العمل وان لم تفلت تماما . وكان عدم الرضا عن أداء الحزب ينتشر الى ما هو أبعد من صفوف الناخبين المعارضين التقليديين عند افتتاح دورة الكنيست . فى يناير سنة ١٩٧٤ كان هناك الكثير مما يحارب بيجين من أجله . وعلى الرغم من تنيؤ القليلين بفوز ليكود عند إجراءنا انتخابات قادمة فان التحالف الجديد كان يبدو بديلا معقولا ، كان بيجين يقود كتلة ليكود المكونة من تسعة وثلاثين عضوا يمثلون ٢٠٪ من مجموع الناخبين وكان من الصعب تجاهله او المتعامل معه على أنه مجرد مثير للقلق على هامش السياسية الاسرائيلية . أصبح المقاتل السرى القديم لبنى العريكة فى أسلوبه وان لم يكن فى افكاره وأصبح أكثر امتلاء ، خلق شاربته . كان شعره يلعب ، وتوقف عن تدخين سجائره التى اعتاد عليها . واشتهر فى الكنيست بأنه برلماني بارع ومجتهد ليس فقط على المنصة بل فى قاعة اللجان وفى قاعة طعلم الاعضاء . كان على طبيعته مع كافة زملائه الاعضاء من الاحزاب الاخرى ، متفتح على الصحافة ، ومرحبا بالزائرين الاجانب وعلى لسانه دائما عبارة ترحيب : « أهلا بكم فى بلدنا » . اثبتت الثلاث سنوات التى قضاها فى حكومة الوحدة الوطنية أنه يمكن أن يكون شخصا بناء مثلما هو شخص انتقادي . وعلى الرغم من استقباله العدائى فى لندن فى سنة ١٩٧٢ . فان زعيم المعارضة أصبح ضيفا يلقى الترحيب فى احتفالات السفير البريطانى بعيد ميلاد الملكة سسنويا .

وفى الوقت الذى كانت فيه اسرائيل ما تزال تدفع ثمن رضائها عن نفسها بعد أكتوبر لم يعدم بيجين أهدافا يهاجمها . وأن بيجين يكون فى أفضل حالاته كخطيب وكرجل استعراضى عندما يهاجم . وفى أعقاب الكارثة الكثيفة التى خسرت فيها اسرائيل سياسيا وان لم تخسر فى ميدان المعركة بدت انتقاداته اللاذعة مشروعة أكثر مما سبق ، وكان الكثيرون يشاركونه شكوكه .

ومع ذلك فان التاريخ سيثبت أنه كان مخطئاً في شكوكه في تأكيد الرئيس أنور السادات رغبته في السلام وعدم ثقته في دبلوماسية هنري كيسنجر في الشرق الأوسط لقد أصبح ممكناً نتيجة « للمعبور العظيم » أن تتوصل مصر وهي أكبر دولة عربية الى اتفاق مع اسرائيل وتضع اتفاقيات سيناء في سنة ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ الاساس للحيلولة دون وقوع غزو جديد . ولكن ما كان بمقدور أكثر المتنبئين جساره أن يتنبأ بأنه خلال خمس سنوات سيقبضهم بيجين والسادات جائزة نوبل للسلام .

وسط رياح باردة ومطر منهمر في الليلة التي قامت فيها اسرائيل بأول انسحاب لها أعلن بيجين أمام رء شخص تظاهروا احتجاجاً على الانسحاب وكانوا يحملون المظلات في أحد ميادين تل أبيب : « ان هذه مظاهرة ضد سياسة المظلة لشمبرلين » ألتقط ايريل شارون الذي كان قد تحول من الجيش الى السياسة ونجم تلك الليلة ، اصداء محاولة التهدة واتهم الحكومة بأنها تضع أفضل أوراق اسرائيل قائلاً : (« ان جيشنا المنتصر ينسحب تحت زعامة حكومة منهزمة وانهزامية من أرض دفعت في سبيلها حياة الالاف ولم نحصل في مقابلها على شيء ») .

كان الليكود يتحدث بصوت واحد على الرغم من أنه لم يكن قد اندمج في حزب واحد . وأعرب اليملينج ريمالت زعيم الليبراليين عن خوفه من ان تقوم جولدا مائير بقيادة اسرائيل الى الانسحاب حتى حدود سنة ١٩٤٨ . واضف شامويل تامر تحذيراً ضد ميونيخ أخرى في الشرق الاوسط . وفي الكنيسة بدأ بيجين اطلاق اسم « الادارة الانتقالية » على الحكومة . وبدأ يتحدث مراراً بقليل من التردد (متذكراً عملها المنسجم في حكومة الوحدة الوطنية) . واقتناع ديان أن السادات يسعى باخلاص للسلام . وتسأل من قال ذلك لك لدرجة أنك ضللت هذه الأمة ؟ « ان الحكومة لم تكن تقلل من قواتنا أنها كانت تقلل من أمن اسرائيل . زادت شكوك بيجين تجاه كيسنجر بسبب أصل وزير الخارجية اليهودي قال بيجين ، يجب تذكير كيسنجر أنه ليس أول يهودي في التاريخ يصل الى مركز كبير . لقد عانى يهودا آخرون أيضاً من عقدة انه ربما يواجه اليهم الاتهام لمحاباة اخوانهم اليهود ولهذا ساروا في الاتجاه العكسي تماماً » وقال ان هذه عبودية في وسط الحرية » وعندما سأل أحد اعضاء الحكومة عما اذا كان يستطيع مواجهة كيسنجر بمثل هذا الحديث أجاب بيجين : « أنفى سأفعل بالتأكيد » .

لكن على الرغم من كل ذلك فان بيجين لم يكن محصناً ضد ان تصيبه عدوى السلام ففي خلال مؤتمر حيروت في سنة ١٩٧٥ الذي افتتح وسط احتفال رمزي في كيريات عربية . وهي مستوطنة يهودية في ضواحي الخليل، قدم بيجين مشروع سلام الى العالم العربي يتكون من ثمان نقاط ويشمل

هدنة لمدة ثلاث سنوات في البر والبحر والجو وأجراء مفاوضات للتوصل
المفعلى لمعاهدات سلام بين اسرائيل وجيرانها تقضى بتجديد الحدود النهائية ،
ومحاولة لايجاد حل انساني لمشكلة اللاجئين السرب ومطالب اليهود الخاصة
بملكياتهم التى تركوها عند مغادرة البلاد العربية الى اسرائيل . ولكن المنبر
لم يغير جلده . ففى نفس الخطاب دافع بيجين عن « العقيدة التى كرسنا
لها حياتنا ، الحق اليهودى فى كل ارض اسرائيل .

واضاف بيجين يقول انه اذا لم يتم التوصل الى سلام فانه يتعين على
اسرائيل الا تقوم بمزيد من الانسحاب الذى عمل فقط على اقتراب العدو
من مراكز السكان الاسرائيليين وعرض للخطر امن اليهود . ان الانسحاب
بدون سلام تدمير لكل فرصة لتحقيق السلام .

اثبتت حكومة جولدا مائير بحق انها ادارة انتقالية وعلى الرغم من أن
لجنة تحقيق « أجرانت » التى قامت بالتحقيق فى نواحى القصور التى أدت
الى حرب أكتوبر ، ألقت باللوم على الجنود أكثر من السياسيين فان ثقة
الجماهير فى الحرس القديم بدأت تضعف . وبمجرد توقيع اتفاق فصل
القوات الاول مع سوريا فى أواخر مايو سنة ١٩٧٤ رضيت رئيس الوزراء
التي كانت تشكو من المرض بالتقاعد بشرف ولحق بها موشى ديان وزير
الدفاع ، ولكن رغبة الجماهير فى رؤية وجوه جديدة قبولت بتصعيد جيل
آخر من قيادات حزب العمل وليس باجراء تغيير للحزب او على الاقل
تشكيل حكومة وحدة وطنية ثانية وهو ما كان يطالب به بيجين . سسمى
اسحق رابين ، وهو من مواليد اسرائيل والذي عمل سفيرا لاسرائيل فى
واشنطن بعد تقاعده من منصب رئيس الأركان الى رئاسة الوزراء بعد ستة
أشهر فقط من وجوده فى الكنيست ، كان اسمه يقترن بانفجاح ، حرب
الستة أيام والفترة المثمرة فى العلاقات الاسرائيلية - الامريكية وأكثر من ذلك
فان اسمه لم يقترن بأزمة حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان على ليكود أن ينتظر
اجراء انتخابات أخرى قبل أن يأمل فى تولى السلطة .

لم يضطرب بيجين بشدة فهو قد استطاع لمدة ستة وعشرين عاما فى
مقاعد المعارضة ان يترك بصمة واضحة . كان اريل شارون أقل ضبرا ،
ان الحياة البرلمانية بتقاليدها المهذبة والثروة لساعات بلا معنى لم تجذبه . وقد
اكتسب خلال عمله فى الجيش سمعة بأنه شخص مستقل ، ومقاتل يجسد
الروح العدوانية لقوات الدفاع الاسرائيلى وشخصية انفرادية يطلق النصار
أولا ثم يناقش بعد ذلك . ففى خلال حرب السويس لم يخضع شارون للأوامر
وهبط مع قوات مظلاته فى ممر تلا .

وكانت تلك العملية مكلفة وغير ضرورية قتل فيها ثمانية وثلاثين
اسرائيليا وأصيب مائة وعشرين وقد اتهمه أربعة ضباط من رؤسسيه
١ تولى اثنان منها فيما بعد رئاسة الأركان وتولى آخر

رئاسة الموساد) بأنه يقوم بإرسال رجاله الى حتفهم لأجل مجده الشخصي . كتب موشى ديان رئيس الاركان في مذكراته في سنة ١٩٥٦ أن شارون لم يقدم الى المحكمة العسكرية لان الجيش الاسرائيلي لا يعاقب قائداً لانه قام بالكثير بل للتقصير في عمله . وكان شارون قد دخل ميدان السياسة في سنة ١٩٧٣ لان مستقبله العسكري وصل الى ذروته . ولم يكن يسعى الى التقاعد بهدوء ولكن كان يسعى الى السير في طريق جديد يضع فيه بصمته الذاتية على الامة . وعندما بدأ أن ذلك لم يتحقق تخطى عن مقعده في الكنيسة وقبل قيادة احدى وحدات الاحتياط . وفي يونيو سنة ١٩٧٥ أصبح شارون مستشاراً لثلاثون الامن لزميله السابق في السلاح اسحق رابين وعندما اتضح كذلك أن ذلك عمل تافه وعندما أدرك أن هذا لن يمنحه فرصة أخرى لتولى رئاسة الاركان قفل راجعاً الى مزرعته في صحراء النقب . وكان على ليكود ، أو هذا ما كان يبدو ، أن يواصل طريقه بدون الرجل الذي حثه على الوحدة .

خيب أول رئيس وزراء لاسرائيل من « الصبرا » آمال الكثيرين الذين علقوا آمالهم عليه . أثبت رابين أنه مفاوض عنيد ما كان كيسنجر يضغط للتوصل الى اتفاق ثان حول سيناء ومنح الاتفاق الذي وقعته في سبتمبر سنة ١٩٧٥ اسرائيل أساساً أفضل للدفاع عن نفسها أكثر من ذلك الاتفاق الذي حاول وزير الخارجية الامريكي فرضه عليه في مارس .

لم يدخل الجيش المصري ممرات الجدي ومثلاً الاستراتيجية كما ان التحركات شرق قناة السويس تتم مراقبتها بمحطات انذار مبكر اسرائيلية — أمريكية ولكن اتهام بيجين بأن رابين غير موقفه السابق وجد آذانا صاغية بين البسطاء الذين رأوا فقط أن اسرائيل تتخلى عن المضائق وحقول بترول أبو رديس المريحة دون وعد مصرى بانتهاء حالة الحرب وان رئيس الوزراء كان يعادى الامريكيين بدون داع خلال العملية . وفي نفس الوقت شعر الحماثم بالحزن بسبب اتجاه رابين المتشدد ازاء الضفة الغربية .

كان يسألوره القلق مثل بيجين من اخطار وجود دولة فلسطينية وبرفضه اقتراح من الملك حسين بالتفاوض من أجل التوصل الى اتفاق لفصل القوات في أريحا شبيه بالاتفاق في سيناء ومرتفعت الجولان ترك الاردن دون دفاع في مواجهة العرب الراديكاليين الذين اقنعوا مؤتمر الرباط للدول العربية باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى .

كان الانتصار الباهر الذى حققه رابين هو عملية الانقاذ في مطار عنتيبي في يوليو سنة ١٩٧٦ كانت عملاً بطولياً لم يسبق له مثيل في الاتحاد والمهارة وفي الحس السياسى والتخطيط العسكرى على حد سواء ولكن

زعماء العمل أحجوا عن سرقة الاضواء من قوايت المظاهرات بالخروج بمكاسب سياسة من العملية ، ولكن بيجين الذي لم يقم بأى دور فى العملية اللهم الا احترامه لثقة رئيس الوزراء التى اولاه اياه باطلاعه على العملية لم تكن لديه مثل تلك الموانع .

ذهب الى مطار بن جوريون حاملا زجاجة ويسكى لثحية الرهائن المائدين وكان معظمهم من الاسرائيليين من مواليد المغرب والذين كانوا فى طريقهم الى باريس على متن الطائرة المختطفة فما كان من الرهائن ومن مائلاتهم الا أن حملوه على الاكتاف وبدعوا ، يهتفون بيجين كما لو كان بطل الساعة .

وعلى الصعيد الداخلى لم يكن لرابين اصدقاء كثيرين كان الاسرائيليون يجترمون عقليته التحليلية ، وحذره كجندي ولكنهم وجدوا انه شديد الانطواء مع زملائه ومع الجياهر كتيب الى حد يثير السخرية خلال خطبه ومقابلاته التليفزيونية . كان يفتقر الى قرون من استشعار السياسى والمصير على خلق القيادة النافعة ، لم يكن يستطيع دائما فى عزله التى فرضها على نفسه اكتشاف الخطر فى وقت مبكر فقله تأمر عليه من وزارة الدفاع شيمون بيريز الذى هزمه للفوز فى زعامة العمل ولكنه لم يعرف كيف يواجهه .

وعلى الرغم من جذور عائلته فى حركة العمل فان رابين امضى سنوات تكوينه فى الجيش . يستطيع القياد حتى فى قوايت الدفاع الاسرائيلى كملجا آخر أن يفرض رتبته ويتوقع أن يطاع ولكن رابين وجد أن السياسة لا تسير على هذا النحو ولذلك وجد الطريق صعبا .

ازداد الاجساس أن العمل يفقد سيطرته ، جاءت الفضيحة تلو الفضيحة ارتكبها رجال آخرون ورجع تاريخها الى أوج أيام ينحاسى سابر وزير المالية العملى ورجال السياسية البخارق الذى اكتسب سمعة أنه يسيطر على الاقتصاد الاسرائيلى من نوبة صغيرة ، سوداء اللون . وقد حكم على أحد الذين كان يشملهم بحمايته وهو ميشيل تاسور مدير المجلس البلدى الاسرائيلى بالسجن خمسة عشر عاما بعد اعترافه بأنه مذنب بأربعة عشر تهمة وهى الرشوة ، والسرقة ، وخيانة الثقة وتحويل غير قانونى للنقد ، واجراء مبادلات غير قانونية فى النقد الاجنبى ، وتزوير المستندات وشملت هذه الاعمال ملايين من الدولارات المقدمة من المستثمرين الاجانب لتدعيم الصناعة الاسرائيلية ، كذلك فان اشير بادلين مدير نقابة كوبات هوليم التى تعاني من مشاكل مالية وكان (سواء لسوء الحظ وربما لسوء التقدير) مرشح رابين ليكون محافظا لبنك اسرائيل ، حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات

بتهمة الرشوة وتقديم اقرارات ضريبية كاذبة ، ورفض القاضي ما زعمه
أشير بأنه قام بتحويل بعض تلك الأموال الى حسابات حزب العمل .

كما انتحر افراهام أوفير وزير الاسكان وسط انبا غير مؤكدة أنه قام
بالاستيلاء على أموال لنفسه خلال ادارته لشركة التنمية التابعة للهستدروت
كان ذلك مادة — صالحة للمتهكمين والمعارضين ، كانوا يقولون أن السلطة
افسدت حزب العمل ولم تحدث الاشاعات المضادة حول سوء تصرف حيروت
في أموال تل — هاي الا تأثيرا ضئيلا أو انها لم تحدث أى تأثير .

وسط هذا المناخ من الاسحال الاخلاقي عهد الحزب الدينى القومى والدى
ظل لمدة ثلاثين عاما أكثر الشركاء التصاقا بحزب العمل ، الى تضخيم موضوع
انتهاك اجازته يوم السبت لاسقاط الائتلاف . كانت اسرائيل بعد ظهر يوم
١٠ ديسمبر سنة ١٩٧٩ ، تحتفل باستلام أول ثلاث طائرات مقاتلة من
طراز اف — ١٥ العملاق من مصانع ملكدونيل دوجلاس وبينما كانت الطائرات
الثلاث تقوم باستعراضات جوية أمام المجتمعين من كبار الشخصيات صاح
رئيس الوزراء فى فرح : « ان هذا يوم عطلة يوحى لنا بالايان والثقة
التي نحتاجها — الثقة فى قوتنا والايان فى مستقبل أفضل » .

واضاف الجنرال مورديخاي جور رئيس الاركان : « أن دولة اسرائيل
الميوم دولة مختلفة وقوات الدفاع الاسرائيلية قوات مختلفة . ولسوء حظ
رابين فان طائرات اف — ١٥ وهى أكثر الطائرات المتقدمة الى تسليمتها
اسرائيل حتى ذلك الوقت وصلت فى وقت خطر قريب من يوم السبت ، وخاطر
اضيف بانتهاك القانون الدينى بقيادة سياراتهم خلال العودة الى منازلهم
بعد حلول الظلام . تقدم بوالى أجودات اسرائيل وهو حزب متطرف صغير
كان خارج الائتلاف اقتراحا بعدم الثقة . وعند طرح الاقتراح للتصويت
فى ١٤ ديسمبر امتنع عن التصويت تسعة أعضاء من بين الاعضاء المعثره من
الحزب الدينى القومى على الرغم من الاعتذار الذى قدمه رابين . تراجعت
الحكومة ، ولكن قام رئيس الوزراء بإقالة الوزراء الثلاثة من الحزب الدينى
القومى مؤكدا : « ان الحكومة التى لا تستطيع الالتزام بمبدأ المسؤولية الجماعية
لا تستطيع العمل كحكومة » .

بعد ذلك بأسبوع لم يعد واثقا من حصوله على أغلبية . فاستقال من
رئاسة الوزارة ودعا الى إجراء انتخابات مبكرة

فى النظام الاسرائيلى فان هذا القول استهل من العمل لانه يتعين أن
يصدر الكنيست تشريعا بتحديد موعد الانتخابات ويخوض كل حزب مساومات
ضخمة قبل نشر قائمة مرشحيه ويستسمح للموظفين العاملين وضباط الجيش بمائة
يوم للاستقالة وتقديم أنفسهم لقرار الترشيح للانتخابات ويستغرق طباعة

أوراق التصويت أسبوع غير محددة . في هذه الحالة تحدد موعد الانتخابات في ١٧ مايو — وهو وقت كاف لوقوع فضيحة أخرى كفيلة بوضع مسمار آخر في نعش حزب العمل وفي نعش أول رئيس للوزراء من « الصبرا » .

فقبل شهرين من الانتخابات في ١٥ مارس نشر مراسل صحيفة « هآرتس » في واشنطن أن ليا زوجة رابين لديها حساب بالدولار في أحد البنوك الأمريكية بعد أن أنهى زوجها جولته الديبلوماسية في سنة ١٩٧٢ . ويعد هذا انتهاكا للقوانين — الاسرائيلية في تداول النقد .

وأصر أهارون باراك المحامي العام اقامة الدعوى ضد مسز رابين لان المبلغ لا يقل عن ١٠.٠٠٠ دولار . ولا أحد فوق القانون فقبل منتصف الليل بقليل في يوم الخميس ٧ ابريل والجماهير تنتظر فوز نلدى مكدابى تل أبيب في بطولة كرة السلة الأوروبية بفارق نقطة وإحدة أعلن رئيس الوزراء في التلفزيون والاذاعة انه ينسحب من المعركة الانتخابية ويتحمل مسؤولية متساوية بالنسبة لحساب زوجته في البنك وعلى الرغم من أن الدستور يمنع استقالته من رئاسة الوزراء في حكومة انتقالية فإنه عهد بواجبته وترشيحه على رأس قائمة العمل الى شيمون بيريز وزير الدفاع أما ليا رابين فقد قامت بدفع غرامة تعادل ٢٧.٠٠٠ دولار .

خاض الليكود انتخابات سنة ١٩٧٧ باسم مناحم بيجين ولكن زعيم الحزب لم يشترك في الحملة الانتخابية الا بأدنى قدر . وكان ذلك اختيارا من ناحية وضرورة من ناحية أخرى . فخلال الاسبوع الاخير من شهر مارس وكان مازال باقيا على الانتخابات شهرين تقريبا أصيب بيجين بأول أزمة قلبية وأكثرها خطورة ودخل إحدى مستشفيات تل أبيب ولكن استراتيجية ليكود كانت قد تحددت قبل ذلك بكثير . وكانت تلك أول انتخابات تجري في اسرائيل بالوكالة فقد تم تعيين عازر وايزمان الذي كلن قد عاد الى الحزب لإدارة الحملة وأصر على ادارتها بشروطه بمساعدة اليعيزر زورابين وهو وكبل اعلانات مشهور . حث وايزمان المراسلين بعد أن أطلق طلقة البداية : « اقرأوا ما بين السطور وأبحثوا عن ما ليس هناك » .

وكتب يوسف جوئيل في صحيفة « جيروزاليم بوست » : « ما لم يكن هناك هو ذلك الجزء من الصورة السياسية لليكود وحירות الذي يشك في أنه نفر الكثير من الناخبين في الماضي حتى لا يحصل على نصر انتخابي . لم يكن هناك هجوم غير ضروري ولا أية إشارة الى موضوع الاراضى التي تحتلها اسرائيل والتي تثير الخلاف .

ظل بيجين أكثر مصادر القوة رواجاً بالنسبة لليكود ولكنه أصبح أكثر اعتدالا — رجل لا يخاف الناخب المتردد . يقول وايزمان : « أنه رجل أمين

لا يهتم بالاشياء التافهة في تلك الايام انه يعيش بتواضع وليس لمجرد تحقيق اهداف علاقات عامة ، ولا يضيع وقته سدى في الحديث عما يؤيده وعما يعارضه .

أصبح بيجين ديمقراطيا ، مقاتلا (منذ سن السادسة عشر كرس مناحيم بيجين كل جهده ، وموهبته وقدراته لقضية واحدة ، توطيد اقدام الشعب اليهودي على ارضه) انه الرجل الشريف (المتواضع ، ذو العمل الخالص) . ورجل العائلة ، كان التناقض واضحا بينه وبين معارضيه من حزب العمل ، ولم يكن الليكود في حاجة الى كشفها ، فقد كان الناخبون مدركين تماما للمضائق الاخيرة ولسمعة بيريز في الالتواء والتناقض ، كان بيجين يظهر وهو يداعب احفاده ، يخطب ، ويزور الجيش ، ويحمل حفيده الطفل عند الاحتفال بختانه . وفي المقابل اخذ العمل يسخر من بيجين : « اكتشف الليكود اكتشافا خطيرا وهو ان بيجين انسلن بالفعل .

واعلن الياهو بن اليعازر رئيس لجنة دعاية ليكود المشتركة امام عمال الحزب :

« ايها المسادة أننى أريد أن أقدم لكم وعن طريقكم شكل الحياه تحت حكم الليكود ، تحت حكم مناحيم بيجين ، ستكون بلادا جميلة ، وسيكون من دواعي السرور والفخر العيش فيها ، حيث لا تكون هناك رغبة في الاضراب وحيث يخجل الشخص من السرقة سيكون هناك احترام بين اليهودي والاخر ، بلاد لا يشعر أبناؤها بالخجل من كونهم يهود أو صهيونيين . اننا سنقوم بتعليم الشباب حتى تصبح الخدمة لصالح الدولة وفى الجيش أو فى أى جهاز وطنى آخر شرفا وامتيازا .

لم يرد أى ذكر للأراضي المحتلة ، أو للحقوق اليهودية أو للخدمة أو الشهداء القدامى وهم يعلقون على المشنقة . ولكن كان « بين » مـؤال يسيطر على السياسة من وراء الكوليس لقد تخطى عن الحملة الانتخابية ليعازر وايزمان ورجاله الجدد ، ولكن لم يتخل عن الحزب .

ويشهد ابن اليعازر « أن برنامج الحزب كان دائما من وضعه فى سنة ١٩٧٧ ، كما فى السنوات السابقة كان يحدد الخط السياسى خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والمشكلة الفلسطينية والسلام والحرب ، ويهودا والسامرا »

خرج بيجين من المستشفى ومن مناظرة تليفزيونية مع شيمون بيريز — وهى بدعة أخرى فى الانتخابات الاسرائيلية — طـافرا . لم يستطع النقاد تحديد الفائز النهائى كان بيريز متحفظا خلال المناظرة بينما صال بيجين خلالها وجال . ولكن ما كان يهم الليكود هو أن المناظرة أخذت أى شكوك حول صحة

بيجين ، كان مقاتلا — غير متوترا مازحا . وكان واضحا أنه متمالك لنفسه ومادته ومثير لدهشة بيريز بلفتباهه عبارات من أقوال وزير الدفاع نفسه .

أظهرت استطلاعات الرأي النهائية أن حزب العمل مازال متقدما تقديما طفيفا ولكن ليكود كان يكتسب أرضا بسرعة وقال واحدا على الأقل ممن شملهم الاستطلاع أن بيجين ربما ينجح إذا ما حصل على دفعة . ولكن لم يأخذ رأيه بجدية سوى عدد قليل من المعلقين . لكن الادعاءات القديمة بتصويت بسرعة . فعلى الرغم من كل شيء كان العمل يمر في لحظاته الأخيرة كحزب يشكل حكومة . كان بيجين مازال في دور النقاهة ولكنه تجول في مراكز التصويت خلال النهار . ثم عاد الى منزله في تل أبيب المواتع في شارع روزينيوم ليستريح مع زوجته الهزا وابنتيه ماسيا وليا وصديقين من أصدقاء العائلة القدامى ، ماكس ويهوديت فيرير . وبعد أن تناولوا عشاءا بسيطا ، شاهدوا التلفزيون في الحجرة الضيقة التي يستخدمها بيجين وزوجته كحجرة معيشة ، ونوم ومكتب . وكانت هناك حجرة نوم أخرى في المشقة التي عاشا فيها منذ سنة ١٩٤٦ اشترك في النوم فيها أولاد بيجين الثلاثة خلال فترة المراهقة . وهناك أيضا صالة صغيرة . وحمام ومطبخ كان ابن بيجين بنجامين يدرس في الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراة في الجيولوجيا وكان أكثر أولاد بيجين ميلا الى السياسة ولكنه أقل حبا للظهور وهو شاب يقدر خصوصيته .

في الساعة الخامسة عشرة مساءا بعد انتهاء التصويت مباشرة أدهش حاييم يافين كبير مذيعي التلفزيون الأسرائيلي المشاهدين بالتنبؤ بفوز ليكود اعتمادا على غيبة التلفزيون غير الرسمية للتصويت وفي شارع روزينيوم لم تستطع بنات بيجين السيطرة على انفعالاتها ولكن والدهما استقبل الانباء بهدوء بل يشك بالنتيجة لم تكن نهائية ولا رسمية بعد وتسترجع ماسيا ذكرياتها فتقول : « كان والدنا أكثر هدوءا وخاصة والدتنا — جلس والدي في كرسيه المفضل مرتديا روب دى شاجر على قميص وبنطلون .. أخذنا نقاذب أطراف الحديث كما لو أن شيئا خاصا لم يحدث .

تجمع حشد كبير من الخامس خارج المنزل ، حرس من البوليس ، دلائل التغيير اتخذوا أملاكهم لحماية رئيس الوزراء الجديد ، كان بيجين مازال ينتظر كان الوقت مبكر جدا للاحتفال . عندما وصل سكرتيره السياسى يهيل كاهيشاي في الساعة الواحدة والنصف ظهرا لدموته للذهاب الى مقر الحزب الذى يقع على مسيرة خمس دقائق أجاب : « مازال أمانا وقت ، ان هذا مجرد تخمين من الاولاد في التلفزيون » وجده وراءه في قلعة جابوتشيسكى « كان مرتديا ملابسسه ولكن بدون رباط عنق أو سقرة » .

ذهب ليخلق ثقة لهم بماد ومضى يشاهد التلفزيون وفي نحو الساعة الثانية والرّبع فقط قرر أن الوقت قد حان للذهاب الى مقر الحزب وعندما أصبحت النتائج واضحة .

احتشد المئات من مؤيدي ليكود في الطابق الثاني من قاعة الاستقبال في شارع الملك جورج . حاول عازر وايزمان ابعاد بعض اعضاء الحزب غير المهمين ولكن كانت تلك ليلة طال انتظارها ، ولم يكن احد منهم يريد أن تفوته ذروتها . عندما امتلأت نشرات التلفزيون بأنباء الانتصار غابوا في دوامة من الضدمة والابتهاج المغامر هل يمكن أن يحدث هذا حقيقة ؟ جيف شاميتس ، مهاجر امريكي شاب جنده — الليبراليون للعمل في مكتب صحافة ليكود ، انضم بحماس الى الصخب والمرح : « اننا نحتفل جميعا ، لقد عملنا بجهد وكسبنا الانتخابات » . فجأة قام أحد اعضاء الارجون انقدامى بامساكه من قميصه كان شديد الغضب وسأله : « من انت انك كنت هنا من عدة شهور فقط ، أما أنا فقد أنتظرت ثلاثين عاما من أجل هذا » .

سرت الاشاعات المتناقضة بيجين سيأتي ، لا لن يأتي واخيرا في نحو الساعة الثانية والنصف وصل الزعيم وعائلته كان بيجين يبدو نحيفا وضعيفا نتيجة للارزمة القلبية الاخيرة . حاول مساعدوه حمايته من اندفاع الجماهير ولكنه عانق بسعادة سمحاً ارليخ الزعيم الليبرالي وعازر وايزمان مدير حملة ليكود الانتخابية . أوقف أحد الحراس اليزا وابنيها على الباب . كان بالداخل ما يكفي من الأشخاص بالفعل استعطفته الابنة قائلة : « هذه أمي مسز بيجين ، آتينا مع أبي مع بيجين » لم يتأثر الحارس لكلامها حتى جاء لانقاذهم اسحق شامير الذي أصبح فيها بعد وزير الخارجية وخلفا لبيجين في النهاية . وعلى المسرح انضم بيجين الى الحشد في غناء : « يحيا شعب اسرائيل » مصفقا بيديه على انغام الوطنية . كان الجميع يتدافعون ليكونوا على مقربة منه بقدر الامكان . السياسيون والعاملون في الحملة الانتخابية على امل الظهور في الصور التاريخية والافلام السينمائية ، أمكن في النهاية افساح مكان ووقف بيجين بمفرده . تحت صورتين كبيرتين لجابوتنيسكي وهيرتزل . أخرج غطاء أسود للرأس من جيب بذلته شهدت اياها افضل وكتابا أسود صغيرا اخذ يتلو منه الترانيم كان الخطاب الذي القاه بعد ذلك مسالما بصورة غير متوقعة ، لازهو بالانتصار ولا تهديدات . اقتبس بيجين فقرات من خطاب ابراهام لنكولن الذي القاه عند توليه الرئاسة للمرة الثانية . « بدون حق على احد ، بلخير للجميع ، بالثبات في الحق لان الله يهدينا لرؤية الحق فلسمي لاتمام العمل المنوط بنا ، تضديد جراح الامة . » وشكر اليزا للسنوات التي كرسها من عمرها للوقوف الى جانبه مقتبسا كلمات من النبي زيرماح : « اننى اذكرك ، عطف شبابك حب معتقداتك عندما يتبعنى في التيه ، في ارض لم ينبت

بها زرع » وبعد استرجاع ذكرى جابوتنيسكى دعا بيجين كافة الاحزاب الصهيونية بما في ذلك حزب العمل — للاشتراك في حكومة وحدة وطنية اختلط اعضاء وانصار ليكود وسط صخب وصجيج رجسال البوليس ، والصحفيين ، والمصورين ، غادر بيجين المحان على غير توقع كما حضر محاطا بالمساعدين الحريصين عليه جاء زلزال الصيف ومضى ، ابعث الناخب الاسرائيلى ورثة بن جوريون وانتخب ورثة جابوتنيسكى واصبح الخارجون هم الممتنون للنظام .

فاز ليكود في انتخابات سنة ١٩٧٧ بأغلبية متواضعة وخسرها العمل بهبوط مدمر ارتفع نصيب بيجين من مجموع الاصوات بنسبة ٣٢٪ فقط وحصل حزبه على ثلثته واربعين مقعدا بالمقارنة بتسعة وثلثين مقعدا حصل عليها في سنة ١٩٧٣ وقل نصيب العمل بنسبة ١٥٪ عقب انخفاض مماثل في سنة ١٩٦٩ ، وسنة ١٩٧٣ أى انه فقد أكثر من نصف مؤيديه في الانتخابات التي جرت مرتين خلال السبعينات وانخفض تمثيل العمل في الكنيست من واحد وخمسين بالاضافة الى ثلاثة من النواب العرب المنضمين للحزب في دوره ١٩٧٣ الى اثنين وثلثين بالاضافة الى نائب عربى واحد في سنة ١٩٧٧ كان اكبر الانتصارات في سنة ١٩٧٧ تلك التي سجلها حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ، وهو حزب جديد للوسط بقيادة ايجال يادين عالم الاثار المسادا وجنرال سابق ، حصلت قائمة يادين على خمسة عشر مقعدا . (٢٠١٠٪ من مجموع الاصوات) في اول معركة انتخابية يخوضها الحزب . وعلى الرغم من وجود شامويل تامير المنشق عن ليكود اليميني على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير فان القدر الاكبر من التأييد حصل عليه من الناخبين المنحرفين من وهم العمل والذين سمحوا لانفسهم برفاهية الوقوف ضد الحزب كانوا يعاقبون العمل دون — او هكذا تخيلوا — مكافأة ليكود . حصل يادين على اصوات من الليبراليين في ليكود واحزاب وسط اصغر ولكن نتائج انتخابات سنة ١٩٧٧ أكدت تغيرا جذريا أكثر بكثير مما أحدثته الطبقة المتوسطة الساخطة تمثل في تحول في الولاء الذي كان يهدد بتغيير وجه الحياة السياسية في اسرائيل على مدى جيل بأكمله . لقد صوت اليهود الشرقيون بقلوبهم بدلا من جيوبهم وكان اليهود الشرقيون يشكلون بالفعل نصف اجمالي عدد السكان وسيصبحون قريبا نصف عدد الناخبين في المدن النامية ، والقرى والمدن غير الكبيرة حيث يشكل اليهود الشرقيون (اليهود الذين نشأوا في الدول التي تتحدث العربية) أغلبية ساحقة حصل ليكود على ضعف الاصوات التي حصل عليها العمل . بينما حصلت الاحزاب الدينية على اصوات أقل وفي المدن التي جميع سكانها من اليهود الشرقيين مثل أوفاكيم ونيتيفوت في الجنوب وكريات شمونة وبيت شمعين في الشمال زاد

عدد الاصوات التى حصل عليها ليكود بنسبة ١١٪ بينما قل نصيب المين بنسبة ١٧٪ (حصلت الاحزاب الدينية نسبة الـ ٦٪ الباقية) كان الاتجاه مماثلا فى المدن التى يسكنها خليط من اليهود الشرقيين واليهود الغربيين ، ولكن بالاتجاه الى ليكود بنسبة معاكسة لعدد الغربيين وكلمما زاد عدد اليهود من أصل امريكي أو أوروبى كلما قل الاتجاه الى ليكود . أما القدس التى تسكنها أغلبية من اليهود الشرقيين وجماعة دينية كبيرة فقد أعطت لبيجين دفعة قوية ، وقللت تل أبيب التى تسكنها أغلبية من اليهود الغربيين نصيب بيجين من الاصوات بنسبة ٢٪ فقط وأعطت يادين ١٣٪ وفى حيفا حيث يشكل اليهود الغرييون الأغلبية الساحقة قل نصيب ليكود بالفعل بنسبة ٢٪ من عدد أصوات المدينة .

ترجع محاولة استمالة اليهود الشرقيين واليهود السافريديم (أولئك الذين طرد أجدادهم من اسبانيا فى سنة ١٤٩٢) الى فجر حركة التصحيح كاحدى الحركات الصهيونية . قام جابوتنيسكى بزيارتهم وتعهدهم بل أنه اضاف لغة لادينو (اليهودية — الاسبانية) الى لغاته العشر . وحث الحركة الصهيونية على اعطائهم نصيبا متكافئا فى الاستيطان فى الأرض واثنى على نطقهم باللغة العبرية وسارت الارجون زفائى ليومى على نهجه وجندت لخدمة اليهود الشرقيين فى الوقت الذى ركزت فيه الهاجاناه والمبالاخ على سكن الكيبوتزات وخاصة من بين خريجي المدارس العليا من اليهود الغربيين .

وبعد اقامة الدولة جند بيجين نفسه مدافعا عن اليهود المظلومين المفدين الذين ينظر اليهم اخوانهم باحتقار وعرف حيروت نفسه على أنه حزب الفقراء المفدين والمقهورين « ويروى بيجين أن أحد الهاجاناة سألته ذات مرة كيف استطاعت الارجون حل مشكلة الجماعات اليهودية الشرقية ، فأجابته ان الارجون ليست لديها مثل هذه المشكلة :

« لكن لانه أصر على أن أشرح له ذلك ونهبت ما الذى خان يضايقه ، أوضحت له أنه خلال القتال السرى كانت المراكز العليا يجرى توزيعها دون تفرقة فى الأصل عندئذ فهم . هذه هى الطريقة التى يحل بها المرء المشكلة ، ويتغلب عليها ويتوصل الى الحل الكفيل بانتهاء المشكلة » .

فى الحقيقة فان كلا من الارجون وحيروت كانا أبداً مما زعم بيجين و اعطاء السلطة لليهود الشرقيين ، كشيء منفصل عن القيام بدور نشط . كانت القيادة العليا من الارجون قاصرة على الأوربيين وحتى فى سنة ١٩٧٧ رشح ليكود عددا أقل من العمل من أعضاء الكنيست من اليهود الشرقيين على الرغم من أن بيجين كان أكثر كرما فى تعيين وزراء من اليهود الشرقيين فى وزارته .

سمى بيجين منذ الايام الاولى للهجرة الجماعية بعد سنة ١٩٤٨ للحصول على اصوات الناخبين . كان يقوم بجولات في خيام المهجرين دون أن يبدو أنه يتفضل عليهم . لم يتوقف قط عن أن يكون يهوديا بولنديا ، ولكنه كان يخاطب اسيهود الشرقيين باغتهم العاطفية العميقة ذاكرا الله دون اثارة للعواطف . لم ينتهم نعايم جابوتنيسكى ولكنه كان يدعو الى القوة اليهودية ويحتقر تأسيس العمل الصهيوني كان هدفه تحقيق شىء واحد وهو أن بيجين واحد منهم ولا يهم ماذا يأكل أو كيف يلبس .

ان حزب العمل لايلومن الانفسه . كان ايدلوجيته فرع من انثورات الوطنية والاشتراكية التى وقعت خلال القرن التاسع عشر فى أوروبا كان هدفه هو خلق نموذج جديد لليهودى ، للفلاح ، للعامل وللبناء ، كان اساسه علمانيا ، وهو انكار متعمد لقيم الجيتو . كان اليهود الشرقيون يعيشون فى ايقاع أبطأ كانوا فى توافق مع تقاليدهم لم يتعلم شبابهم من أجل أحداث التغيير . جاءوا الى اسرائيل من منطلق التقوى أو الضرورة . شعر زعماء العمل بالذعر من تدفق اليهود الشرقيين الى اسرائيل لخوفهم من أن يحولوا الدولة الى دولة « شرقية » وبدون سؤال القادمين الجدد عن المكان الذى يفضلون الذهاب اليه ارسلوهم لتعمير الحدود ولاء الامكن الخالية . لقد ذهب الرواد الى هناك كذلك ، ولكن وفقا لارادتهم الحرة . عملت حكومات العمل على اسكان المهجرين وايجاد اعمال لهم — ولم يكن هذا انجازا سيئا ولكن بطريقة توحى دائما بالتنازل .

استوعبهم فى سياسات الملبأى ، فى شبكة الوظائف والادارة ولكن كمعوسين وليس كرؤساء . تشكل الجيل الاول الذى كان عاطلا عند وصوله الى اسرائيل بطابع واحد كانوا يذعنون للقوة الحاكمة كما لو كانوا يفعلون فى شمال افريقيا أو العراق ، ولكن داخل بيوتهم كانوا يعربون عن استيائهم منها ، وكان اطفالهم يسمعون .

صاح أحد الشباب : « جاء والدى من شمال افريقيا » فى كيبوتز أموز أور الجديدة عندما تسلم ورقة للذهاب الى احدى المدن النامية : « حسنا ، من المغرب ماذا اذن ؟ ألم يحصلوا على احترام الذات ؟ لا ؟ قيمهم ؟ ايمانهم ؟ أننى لست شخصا متدينا ، أننى اسافر يوم السبت ولكن والمدى ، لماذا يسخرون من ايمانهم ؟ لماذا نظفهم بالليزول فى ميناء حيفا ؟ لماذا ؟ .

أصبح الجيل الثانى اسرائيليا لم يعودوا يدينون بشيئا للعمل وعرفوا كيف يؤكدون ذاتهم . علمهم بيجين أن ليس فيهم شىء يخلون منه . ولكن فى الوقت الذى أعاد لهم كرامتهم أجاز كراهيتهم لليهود الغربيين الاشكنازيين وكل مايمثلونه ، السلبي والايجابى كذلك ، الطاقة الخلاقة والتبلد الثقافى : المؤسسات الديمقراطية وادعاء التفوق . كان ينثر الريح .

الفصل السابع عشر

تجربة ثقة رهيبة

« ان هذه ليست اراضى محتلة لقد استخدمتم هذا التعبير لمدة عشر سنوات ولكن منذ مايو سنة ١٩٧٧ أمل ان تبدأوا في استخدام كلمة الاراضى المحررة . ان لكل يهودى الحق فى الاستيطان فى هذه الاراضى المحررة من الارض اليهودية » . خلال ثمان وأربعين ساعة من فوزه فى الانتخابات أعلن بيجين تحذيرا الى المجتمع الدولى الذى اذهلته مفاجآت انتخاب بيجين ، أن بيجين رئيس الوزراء سيكون هو نفسه الزعيم الدائم للمعارضة . عقد بيجين مؤتمرا صحفيا مرتجلا خلال زيارته لمجموعة من المستوطنين العسكريين فى « قادوم » بالقرب من « نابلس » ، أكبر المدن العربية فى الضفة الغربية وكانت تلك المجموعة قد تم نقلها الى قادوم داخل حدود معسكر للجيش ، بعد اقامة مستوطنة رمزية أطلق عليها ايلون مدراخ ، كتحدى لحكومة العمل ، وسط انقراض سابستا المذكورة فى التوراة . وكانت زيارة بيجين قد تم ترتيبها مقدما للاحتفال بوضع لفائف الشريعة فى معبد قادوم . ولكن الانتخابات حولتها الى حدث اعلامى وبداية استيعاب المتمردين من جماعة جوش امونيم فى بنية ادارة الضفة الغربية . وعد بيجين المستوطنين : « خلال أسابيع أو شهر قليلة سيكون هناك الكثير من المستوطنات مثل ايلون ماروخ » . وقال : « لن تكون هناك حاجة الى قادوم » عندما سأل أحد الصحفيين رئيس الوزراء المقبل عما اذا كانت حكومته ستقوم بضم الاراضى فقال : « اننا لا نستخدم كلمة ضم ، انك تضم أرضا أجنبية ، وليس بلدك نفسها » وسأله آخر ، أكثر فطنة فى استخدام لغة الصهيونية الجديدة : « هل سيطبق القانون الاسرائيلى فى الضفة الغربية » . ويخه بيجين قائلا : « قل يهودا والسلمرا . استخدام الاسم دائما » . كانت الالفاظ واضحة تماما ، ولكن بيجين أخذ يتلاعب بمضمون السؤال : « ان هذه مسألة تقديرية ، عندما تتشكل الحكومة فائنا سنذهب الى الكنيست ونطلب اقتراحا بالثقة ثم نقوم بدراسة الخطوات التى يمكن اتخاذها » . كان بيان ليكود الرسمى حول الضم أقل لياقة . ظهر سبب حذره هذا بعد أسبوع وقد ادهش ذلك حزبه كما ادهش المعارضين والأمة بأسرها .

دعا بيجين موشى ديان ، الذى كان قد أعيد انتخابه للكنيست على تذكرة العمل الانتخابية للعمل وزيرا لخارجيته . وعلى الرغم من عودته الى المستشفى لمعاودة متاعبه من مرض القلب ، قاوم بيجين المطالب القوية التى قدمها الليبراليون لاسناد المنصب اليهم . يزعم أريخ دلزين انه بينما لم يكن هناك

تعهد شخصى من بيجين فانه كان هناك اتفاق بين حىروت والزعماء الليبراليين بين بيجين وسيحيا ارليخ على ان يتم تقسيم المناصب الاربعة الكبرى بين حزبيهما حيث يحصل حىروت على رئاسة الوزراء والدفاع ويحصل الليبراليون على المالية والخارجية . توقع الليبراليون ان يحافظ بيجين على الاتفاق ، ولكن افكاره الآن كانت تسبق سياسات الائتلاف ، كذلك لم يلق بالالى رد الفعل الغاضب الذى ابداه حزب العمل والصحافة وتجدد المظاهرات المعادية لديان التى نظمها العائلات التى نكبت بفقد ذويها فى حرب يوم كيپور والتى قامت بالقاء الحجارة على شقة بيجين فى شارع روزنيوم . كان مقتنعا ان سمعة ديان فى الخارج مازالت عالية حتى ولو لم يغفر له مواطنوه . كان الرجل ذو الرقعة على عينه مازال مستر اسرائيل . قال بيجين من فراشه فى المستشفى :

« قررت ترشيح مستر ديان لمنصب وزير الخارجية ، بعض النظر عن كافة الاعتبارات الحزبية ، لاننا نحتاج خلال السنوات القادمة الى وزير خارجية يتمتع بمكانة واحترام عالى ، ولا يساونى الشك فى ان مستر ديان سيحظى باحترام شديد بين السفراء ، ووزراء الخارجية وغيرهم من الزعماء وهذا امر بالغ الاهمية بالنسبة لعلاقات اسرائيل مع الشعوب القريبة والبعيدة » .

لم يكن غصن الزيتون الذى مده بيجين للعرب حيلة دعائية . كان يريد استكشاف الاحتمالات وخاصة مع مصر . وعلى العكس كان مرتلجا فى نوايا السادات ولكنه كان يريد الآن اختبارهم بنفسه . فاذا اثبت السادات اخلاصه فانه سيكون من السهل التوصل الى سلام مع مصر اكثر من « الشعوب القريبة » الأخرى . لم تكن سيناء جزءا من أرض اسرائيل . كل اختيار ديان اعترافا من ليكود بانه ليس لديه مرشح لمنصب يقارن بديان فى قدرته أو خبرته . فمن بين وزراء ليكود المحتملين لم يكن هناك أحد سوى عيزرا وايزمان الذى كان وزيرا فى حكومة الوحدة الوطنية التى راستها جولدا مائير . أكد تعيين ديان كذلك الاستمرارية . وهو ما أكدته احتفاظ بيجين بكبار العاملين فى مكتب رئيس الوزراء والذين كانوا على صلة وثيقة بسلفه من حزب العمل : مثل دان باتير المتحدث الرسمى ، ويهودا افينر مستشار علاقات الدياس-سبوراك وكاتب خطب رئيس الوزراء التى يلقبها بالانجليزية والبريجيدير — جنرال افريم بوران السكرتير العسكرى وايلي مزراحى مدير مكتب رئيس الوزراء . كان يريد أن يظهر للعالم أن انتقال الرئاسة اليه كان انتقالا ديمقراطيا وليس انقلابا قامت به حفنة من الارهابيين المتقاعدين .

كان ديان قد ترك منصبه مع مسز مائير فى سنة ١٩٧٤ ولكنه استعاد مقعده فى الكنيس وكان أحد أعضاء الهيئة التى وضعت برنامج حزب العمل لانتخابات سنة ١٩٧٧ . واجاب على التساؤلات بقوله انه طالما خدم الدولة تحت شخصيات عملاقة مثل بن جوريون وجولدامائير فانه لن يقوم

بدور ثانوى تحت امرة زعماء أصغر (وأقل) مثل اسحق رابين وشيهون بيريز . ويبدو انه كان يعد بيجين واحدا من جيل الابطال حتى ولو كان أكبر بسنتين فقط من ديان . كانت جذور وزير الدفاع السابق عميقة في حركة العمل . ولد ديان في داجانيا وهى أول كيبوتز . وكبر في ناحل وهى أول موشاف . ولكنه كان دائما ذنباً وحيداً ، رجلاً غير ثابت الولاء لا يعترف بالديون الشخصية أو الفكرية . كانت لديه ثقة لا تهتز في حكمه الشخصى ، ولكنه لا يسمح قط لهذه الثقة أن تتحول الى عقيدة ثلثة . أثبت التقاعد انه شيء أصعب مما كان يتوقع . فاذا كان هناك ما يمكن عمله فانه يريد أن يشارك فيه ولكن ليس بدون شروط . كتب ديان يقول : « قدرت انه سيتعين على اسرائيل قريباً أن تتخذ قرارات خطيرة ستشكل مستقبلها واننى اذا استطعت أن اشترك فى تقرير السياسة فاننى استطيع ممارسة تأثير ضخم على قرارات الحكومة تلك . كانت العقبة بالنسبة لديان هى مصير الضفة الغربية وقطاع غزة . كان ضد ضمها وبالمثل كان يعارض عودتهما الى السيادة العربية . كان يحلم بتسوية مؤقتة ترضى على نحو ما كل من اسرائيل والاردن دون اللجوء الى الابتكارات الاوروبية مثل الحدود الوطنية . وافق بيجين بناء على توصية ديان ان لا يتم ضم الاراضى « فى الوقت الذى تجرى فيه المفاوضات » وان يستمر السكان العرب فى ارسال مندوبيهم الى البرلمان الاردنى وتلقى مساعدة مالية من الدول العربية عن طريق عمان . تبنى ديان سياسة « الجسور المفتوحة » فى سنة ١٩٦٧ وكان لا يريد أن يشهد موتها بعد عشر سنوات . وقد ارضت تعهدات بيجين التى اكدها فى جناحه بالمستشفى ديان . وكتب الى أحد المنتقدين فى إحدى الكيبوتزات يقول :

« ان البديل عن ترتيبات أمنية مع العرب سيكون هو الحرب بالتأكيد . هل يمكن أن تكون حكومة برئاسة بيجين أفضل لاسرائيل بدونى ؟ واذا ما انضمت اليها فهل ستكون هناك فرصة لتحقيق اهدافنا — كما اراها ؟ هل لدى ، فى الحقيقة حلاً لمشكلة — نزاعنا مع العرب وهل سأكون قادراً على العمل وفقاً لتصوراتى فى مثل هذه الحكومة ؟ اذا كانت الاجابة على السؤال الاخير بالإيجاب فهل يتعين على ، رغم ذلك ، ان أرفض عرض بيجين ؟ »

كانت المقامرة قد بدأت . من الصعب تصديق ان ديان تردد طويلاً فى اتخاذ قراره . قال لزميل من أعضاء الكنيست عن حزب العمل وهو جاد بالكوبى : « كان السؤال الذى كان على أن اواجهه هو ماذا كان قبولى لعرض بيجين والعمل معه يمكن أن يغير بشكل أساسى الموقف لصالح اسرائيل : » . كان ديان مختلاً بدرجة كافية ليجيب بدون تردد بنعم وليثبت انه على صواب .

لم يكن عرض بيجين على ديان مفاجئاً . فقد جرت محاولات أولية لجس النبض خلال الايام الاولى من الحملة الانتخابية عندما قام زعيم حירות بزيارة الى فيلا ديان في تل أبيب في حي الضباط المتقاعدين في زاحالة . ووفقا لرواية ديان فانها كانتا يبحثان عرضاً بان يدخل ديان الانتخابات على قائمة ليكود ، لكنه رفض لان بيجين كان لا يستطيع خلال تلك المرحلة اعطائه التأكيدات التي كان يسعى للحصول عليها حول الضفة الغربية وقطاع غزة . اقترح بيجين أن يترك الباب مفتوحاً . وخلال إحدى مناقشات الكنيست بعد ذلك بخمس سنوات فسر رئيس الوزراء تلك المحادثات تفسيرا مختلفا قائلاً ان موسى ديان قام بالمبادرة وتطسوع من تلقاء نفسه باعلان استعدادده للعمل تحت رئاسة بيجين اذا قام بتشكيل حكومة قادمة . يضيف يهيل كاديشاي ان محاولات الاستكشاف استمرت بعد دخول بيجين مستشفى انشيلوف في شهر مارس . ووفقا لكاديشاي فان بيجين دخل الى المستشفى لاجراء فحص عام وانه أصيب بأول أزمة قلبية خلال زيارة ديان له .

على الرغم من تعاونهما في حكومة الوحدة الوطنية فان الغزل بين بيجين وديان كان مسألة عقلية بحثة . يقول نافتالي لافي الذي كان متحدثاً باسم ديسان في حكومتى مائير وبيجين ان ديان لم يكن يحمل الحب لزعيم حירות :

« كان يقدر تصميمه ، قوته والطريقة التي كان يعصرف كيف يمارس بها هذه القوة . كان ديان يقدر أكثر من أى شيء آخر اخلاص بيجين ليهودا والسامرا على الرغم من ان دوائعه للحصول عليهما باعتبارهما جزء من أرض اسرائيل لم تكن قبل دوافع ديان . ولكنه كان يكره أسلوب بيجين ، لغته الطنانة ، ومبالغاته مما كان يعتبره تمثيلاً رخيصاً . كان يعتقد ان بيجين لا يفهم العرب ولا يعرف كيفية التعامل معهم وكيفية التوصل معهم الى اتفاق مقبول لا يجرح كرامتهم ، اتفاق يعطيهم أقصى ما تستطيع اسرائيل عرضه عليهم « دون القيام بمخاطرة ضخمة بأمثنا نحن » .

كان ديان يقبل حلاً سياسياً لا تكون فيه الضفة الغربية جزءاً من اسرائيل . كان تعلقه بالامكن هناك لا يعنى اننا علينا أن نستولى عليها . كان ديان مستعداً لان يعيش آخرون هناك وفقاً لاسلوب حياتهم ولكنه كان شديد الخوف من أن يتحول حكم العرب الى شيء لا يمكننا السيطرة عليه . كان يعارض الضم بشدة ويجب أن يكون اليهود جناسين في الا. يضموا أشخاصاً اجانب ومعادين وارغامهم على أن يكونوا اسرائيليين . ان الفلسطينيين في الضفة الغربية يجب ألا يكون لديهم جيش خاص بهم أو دسرة جيموشي عربية أخرى . وخلصاً الامر ، ان ديان كان مستعداً لاعطائهم الكثير . وكان يفضل اعطاء الاردن دوراً كبيراً في اقامة مجتمع يتمتع بالحكم الذاتي .

أما فيما يتعلق بموقف بيجين إزاء ديان فان أحد موظفيه وصفه على هذا النحو : « أنه قام بتعيين ديان أولا وقبل كل شيء بسبب سمعته الدولية . وكان أيضا يكن احتراما لديان ، ذلك الاحترام الذى يستحقه كل من كان جنرالا بارزا فى القوات المسلحة الاسرائيلية . كان يتسامح فى رغبة ديان فى الاستقلال بأرائه » .

استغرقت اسرائيل وقتا طويلا فى تشكيل حكومة مثل الوقت الذى استغرقه اجراء انتخابات عامة . كان على بيجين أن ينتظر ثلاثة أسابيع بعد فوزه فى الانتخابات قبل أن يستكمل الرئيس افراهام كاتزير مشاوراته الشبيهة بالطقوس مع جميع الاحزاب الثلاثة عشر التى حصلت على مقاعد فى الدورة التاسعة للكنيست ، ثم عرض عليه رئاسة الوزارة . وخلال تلك الفترة تلم بيجين بتغيير سياسة حزب العمل فى ابقاء المستوطنات اليهودية بعيدا عن المدن الجبلية فى يهودا والسامرة حيث يتركز معظم عرب الضفة الغربية ، وانتزع موثى ديان من مقاعد حزب العمل وخرج من المستشفى التى دخلها للمرة الثانية دون اعراض تذكر سوى التهاب فى الغشاء المحيط بالقلب .

فى مقر الرئيس الاسرائيلى فى القدس التقطت الصور لبيجين وهو يصافح رئيس الدولة ويقبل مسز نينا كاتزير . كان يتصرف بشهامة كما لو كان أحد نبلاء العصور الوسطى . ومن منزل الرئيس ذهب الى الحائط الغربى حيث وضع غطاء الرأس الاسود . كان بيجين أول رئيس وزراء يعين هويته باعتباره يهوديا أكثر منه اسرائيليا . كانت الدولة بالنسبة له هى أرض اليهود وليس فقط تلك الاقلية من الجنس البشرى التى تصادف ان تعيش هناك . وبالنسبة له فان اليهودية لا يمكن ان تفصل عن الديانة اليهودية . كانت الزيارة عملا من أعمال التكريس قام بها رجل يعتبر نفسه حاكما بين اليهود وليس مجرد رئيس وزراء اسرائيل . وعندما ذهب الى هناك مرة أخرى بعد انتخابات سنة ١٩٨١ ارتدى غطاء الرأس الذى أصبح شارة مستوطنى جوش امونيم .

كان يجب مرور أسبوعين آخرين قبل أن يستعد بيجين لتقديم حكمته الى الكنيست وحلف اليمين . كان السؤال الاساسى موضع الخلاف فى مفاوضات الائتلاف المطولة هو عما اذا كان فريق الحكم سيضم حزب ايجال يادين الجديد — الحركة الديمقراطية من أجل التغيير — الذى خرج من أول انتخابات يخوضها وهو ثالث أكبر الاحزاب بعد ليكود والعمل . كان الديمقراطيون تواقين للحكم ، كانوا حركة اصلاحية تعهدوا باحساء الامة بعد انتشار الفساد والمصالح الذاتية خلال حكم حزب العمل فى السنوات الاخيرة . كانت القوة الدافعة لبرنامجهم هى السياسة الداخلية وليس الخارجية على الرغم من أنهم اعلنوا عن تأييدهم للتوصل الى تسوية حول

الاراضى فى الضفة الغربية . كان زعماء الحركة يشملون الخارجيين عن اليمين وكذلك عن اليسار . كانوا يحتاجون الى تولى الحكم ، والى فرصة لتحقيق نتائج ليوموا بومودهم للناخبين . لم تكن المعارضة كافية وما كانت يمكن ان ترضى طموحات رجال مثل يادين وشمويل تامير . كانت المشكلة ان بيجين يستطيع تشكيل ائتلاف قوى دون مقاعد الديمقراطيين الخمسة عشر . كان التوصل الى اتفاق مع الحزب الدينى القومى ، واجودات اسرائيل ، شديد القطر سيعطى ليكود — مدعما بايريل شارون — الذى حصل على مقعدين بقلامة خاصة ولكنه سرعان ما انضم الى حيروت — اثنان وستون مقعدا من مجموع المقاعد فى الكنيست البالغة مائة وعشرين . فاذا استقال ديان من عضوية العمل فانه سيحتفظ بمقعده فى الكنيست ، فعندئذ سيرتفع عدد المقاعد الى ثلاثة وستين مما يعطى بيجين اقلية ستة على الاقل (عضو مستقل آخر هو شمويل فلانو شارون الذى كان مطلوبا بتهمة جنحة مالية فى فرنسا وعد بتأييد الحكومة ولكن كان ليكود حريصا على ابعاده) .

استطاع بيجين مناورة يادين تعضده تجربة ثلاثين عاما من الخداع الحزبى . كان يريد الديمقراطيين فى الائتلاف ، انهم سيعملون على توسيع قاعدة الائتلاف حتى لا يستطيع احد اتهمه بأنه يقود تحالف من الايديولوجيين اليمينيين والمتعصبين النظريين . كلوا سيمنحونه امانا فى عدد المقاعد ولكنه كان يريدهم وفق شروطه . اعترض يادين على تعيين ديان وعلى اتفاق بيجين مع وزير خارجيته المرشح حول صيغة الضفة الغربية . سارع زعيم ليكود باجراء المفاوضات وارغم يادين على التركيز على موضوعات السياسة الخارجية والامن . طالب يادين بسحب العرض المقدم لديان لتولى الخارجية وأن يترك الائتلاف الاحتمال مفتوحا امام التوصل الى تسوية حة الاراضى ولكنه لم يكن ندا لبيجين . فوضت اللجنة المركزية لليكود زعيمها مؤسسة التفاوض للتوصل الى اوسع ائتلاف ممكن ، وقررت بالتحديد ان أى قرار باسناد الوزارات ستنتظر حتى المرحلة النهائية من عملية التفاوض . وفى نفس الوقت اخذت اللجنة المركزية مذكرة باقتراح بيجين بأنه يجب تولى ديان لوزارة الخارجية . وقال سيمحا ارليخ ليهذا المتشككون : « اننا سنتكلم عن هذا عند تعيين المناصب » . لم يتغير شىء فى التطبيق . كان بيجين يريد ديان وفى النهاية ما كان باستطاعة احد مخالفته ولكن هذا اعطى الديمقراطيين ذريعة للعودة الى مائدة الوزارة . وبالمثل فان بيجين وافق على عدم ضم الضفة الغربية ، واكد استعداد حكومته للاشتراك فى محادثات السلام فى جنيف عندما تعقدها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على أساس قرارى مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، ٣٣٨ . كان بيجين قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بسحب حزبه من حكومة الوحدة الوطنية بسبب موافقة جولدا مائير على القرار رقم ٢٤٢ . كان العهد بالتخلي عن تلك الموافقة غير ملائم

بالنسبة لحمايم الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ولكنه شجع أولئك الذين كانوا يحتاجون للتشجيع . قدم بيجين وزارته الى الكنيسة في الموعد المحدد ولكنه ترك ثلاثة مقاعد خالية بصفة مؤقتة للديمقراطيين . وبعد أربعة شهور أثمرت حيلة بيجين التي توصل اليها بالصبر والتهديد والاغراء كما أرادها بالضبط . انضم ياديين الى الائتلاف كنائب لرئيس الوزراء ولم يكن يهلك سوى حق التأخير (وليس الفيتو) حول بناء مستوطنات جديدة في الضفة الغربية والقيام بدور اسمى كمنسق للسياسة الاجتماعية . ارتفعت أغلبية بيجين من ستة مقاعد الى ستة وثلاثين بين عشية وضحاها بينما واصل حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ، براءة ، طريق الحل الوسط والتفسخ حتى أصبحت الحركة لا تبدو أن تكون ذكرى وتحذير عندها حان الوقت للدعوة الى انتخابات أخرى في سنة ١٩٨١ .

دفع بيجين عن طيب خاطر ثمننا باهظا في مقابل أصوات الاحزاب الدينية خاصة أصوات أجودات اسرائيل الذي كانت تسيطر عليه من خارج الكنيسة هيئة من الحكماء الموقرين . كان الحزب الديني القومي ، حاملا لواء الصهيونية الدينية يكافح دائما من أجل الحفاظ على الوضع القائم في التوازن بين ما هو علماني وما هو مقدس في الدولة اليهودية . وقد حال دون السماح بادخال الزواج والطلاق المدني وحافظ على الاحتكار المؤسس للتيار الارثوذكسي المتشدد في اليهودية ، وقاوم الاتجاه الى الابتعاد عن مراعاة الشرائع اليهودية فيما يتعلق بيوم السبت في الخدمات العامة . كان حزب أجودات اسرائيل يسعى الى المضي أبعد من ذلك وتغيير التوازن لصالح الشيوعية (حكومة دينية) . كان الحزب يجاهد من أجل ذلك لانه - بالاضافة الى الحصول على الاموال العامة من أجل نظام تعليمه الخاص - كان دافعه التوحيد للدخول الى الساحة السياسية . كانت السياسة الخارجية وسياسة الامن خارج ادراكه . كانت لدى بيجين موانع أقل مما كانت لدى رؤساء الوزراء من حزب العمل للتوصل الى تفاهم ، كان يعلن بسعادة - أنه « أحد المؤمنين في اسرائيل » . بالنسبة له كان هناك نوع واحد من اليهودية ، واسرائيل مدينة لاجيال من اليهود الاتقياء باحترام قيمتها وممارساتها . كانت جميع فقرات اتفاق الائتلاف الموقع في ٩ يونيو سنة ١٩٧٧ الثلاث والاربعين ما عدا عشر فقرات تتناول التطبيقات والمزايا الدينية . وخلال أول حكومة لبيجين وجدت الفتيات من « العائلات المحافظة » من السهل الهروب من الخدمة العسكرية وأصبح من الصعب الاجهاض في حدود القانون وفرضت قيود على الاطباء في القيام بتشريح الجثث مما أدى الى حدوث عجز في الكلى وغيرها من « قطع الغيار » اللازمة لعمليات زرع الأعضاء . ومنع النشاط التبشيري المسيحي .

بعد أربع سنوات من حرب يوم الغفران شعر بيجين بالرضا لانه استطاع اقامة ائتلاف حاكم لم تكن أسسه ثابتة في الداخل فقط ولكنه كان

جديرا بالثقة بدرجة كافية تردع أى دولة معادية من التفكير فى إعادة الكرة وتكرار ما حدث فى أكتوبر . كانت وزارته تضم فى وقت من الأوقات خمسة جنرالات متقاعدين هم : يادين ، وديان ، ووايزمان (الذى كوفىء باسناد وزارة الدفاع اليه لنجاحه فى ادارة الحملة الانتخابية) وشارون (الزراعة والمستوطنات) ومائير اميت (رئيس المخابرات السابق تم انتخابه على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير وعمل لفترة قصيرة وزيرا للنقل) .

أثار تولى بيجين لرئاسة الوزراء عاصفة من التوجس والعداء فى المغرب خاصة فى بريطانيا حيث ثارت ذكريات الارجون زفاى ليومى كما لو كان لم يحدث شئ منذ سنة ١٩٤٨ . كتب لويس هيرين فى صحيفة « التايمز » اللندنية يقول : « ان مؤسس اسرائيل يجنى ثمر الارهاب . الارهاب يؤتى ثماره ويجب تشجيع عرفات » . وكتب عضو قديم فى الوحدة السادسة المحمولة جوا الذى فقد أحد رجليه فى هجوم قامت به الارجون فى ناثانيا الى السفارة الاسرائيلية يقول : « اذا جاء بيجين الى هنا فانتى سأقتله » وفى الولايات المتحدة امربت صحيفة « نيويورك تايمز » عن قلقها ازاء السياسات فى انشرق الاوسط .

أما « التايم » فقد اثارت شعور بيجين بجنون العظمة وعندما نصحت قرائها بأن « بيجين يتطابق مع ناجن » .

ذهل بيجين من ذاكرة العالم القوية ، والرفض العنيد لرؤية الارجون من خلال عيون قائدها . وطلب اعتذارا من شبكة تليفزيون سى . بى . اس الامريكية لوصفه بالارهابى السابق . وأجيب الى طلبه وقال لاحد المذيعين الاسرائيليين الذى أجرى معه مقابلة :

« اذا قدمنى أحد على أننى ارهابى وقدم ياسر عرفات على أنه فدائى مقاتل فأننى لا أحمل له سوى الاحتقار . لقد حاربنا لتحرير شعبنا عندما كنل يتعرض للابادة فى أوروبا . واعتقد أن ردود الفعل الغبية هذه ستتلاشى عندما اشكل الحكومة . وأنا مدعو للمجتمع بالرئيس كارتر فاذا لم تتوقف حتى حينذاك فأننى سأعرف كيف أتصرف » .

كان الاسرائيليون من كافة القناعات السيلسية يقدرون بوضوح أكثر من الاجانب أنهم قد انتخبوا أول رئيس وزراء ايديولوجى ، الرجل ظل يردد نفس الاغنية لمدة أربعين عاما ويعنى كل حرف فيها : « أنه سيكون مستعدا لتأييد كل كلمة حتى آخر دولار أو آخر قذيفة » انه جدير بالثقة لدرجة مخيفة ، وفى الحقيقة فان بيجين جاء الى السلطة وهو أوضح من أى من اسلافه ولكنه كان يعترف صراحة أنه يتطلع الى مؤرخيه المفضلين وكتاب السير الذاتية لاهداده بالجمال الماثورة للاستشهاد بها فى خطبه . ظل عاله هو

عالم المؤتمر الصهيونى . كانت رؤيته غير واضحة ، وعرقية . كان ييقى من أجل المعاناة اليهودية ويدعو الى التمسك بالكرامة اليهودية ويفخر بالقوة اليهودية . فاذا كان مستعدا لاجراء محادثات مع العرب للتوصل الى سلام فانه يفعل ذلك من منطلق القوة وليس من منطلق الضعف . وقال عند تقديم وزارته الى الكنيست فى ٢٠ يونيو لمن تطلب من أية دولة الاعتراف بحقها فى الوجود :

« ان اله آبائنا هو الذى منحنا حق الوجود منذ وميض فجر الحضارة الانسانية منذ ما يقرب من أربعة آلاف سنة . ومن أجل الحق الذى جرى فى الدم اليهودى من جيل الى جيل ، دفعنا ثمننا له فى تاريخ الالم . حقيقة أن هذه الحقيقة لا تمحى أو تضعف حقنا بل على العكس . ولهذا فاننى أؤكد مرة أخرى أننا لا نتوقع أن يقوم أحد بالنيابة عنا بالاعتراف بحقنا فى الوجود فى أرض أجدادنا . انه اعتراف مختلف ذلك المطلوب بيننا وبين جيراننا ، اعتراف بالسيادة وبالحاجة المشتركة الى حياة يسودها السلام والتفاهم ، ان هذا هو الاعتراف المتبادل الذى نتطلع اليه وسنبذل من أجله كل جهد ممكن » .

وفىما يتعلق بالعلاقات مع الولايات المتحدة وضع بيجين تفرقة بين الرؤية والسياسة . كان يؤكد ان اسرائيل حليف ومصدر قوة . فأمريكا تحتاج اسرائيل بنفس القدر الذى تحتاج به اسرائيل الى امريكا . خلال أزمة سنة ١٩٧٧ حول مشروع روجرز سخرت جولدا مائير وأبا اييان من « سذاجة » بيجين . ولكن بالنسبة للموضوعات التى تهمة كان رئيس الوزراء الجديد مستعدا للتودد الى أمريكا ومقاومة ضغطها فى نفس الوقت . كان مصمما على تثبيت حدود أرض اسرائيل نهائيا . ومهما كانت حقائق القوة فانه نادرا ما كان يلجأ الى الخداع ، ولم يوضع استعداداه « لاكل السمن الصناعى » اذا لزم الامر موضع الاختيار قال أحد خبراءه فى الشؤون الامريكية « انه مقتنع كلية أن الشعب الاسرائيلى سيواصل المسيرة معه ، كان يؤمن بقوة الاقناع ، بالكلمات ، بتدرياته على الاقناع . اننى ليس لى شك اطلاقا فى انه اذا حدثت مواجهة مع الولايات المتحدة حول موضوع ذى أهمية بالغة بالنسبة له فانه لن ينحنى » . خلال زيارة بيجين الاولى الى واشنطن فى يوليو سنة ١٩٧٧ حثه الرئيس جيمى كارتر على اظهار مرونة حول الضفة الغربية فاما كان من بيجين الا أن قام ببسط « خريطة للامن القومى » أحضرها معه تحسبا لهذه اللحظة وأخذ يشرح المخاطر الناجمة عن السماح للمدفعية العربية بالعودة الى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ . وقال للرئيس كارتر الذى شعر بالارتباك ، « اننا شعب ثلاثى » وكان يعنى أنه من بين كل ثلاثة يهود قتل يهودى فى الهولوكوست النازى . ومضى يقول « لم يكن باستطاعة الرجال اليهود الدفاع عن نساءهم كان عليهم أن يسلموهن الى القاتل . ثم بدأ يقول :

« لقد أخذت على نفسى عهدا .. » ثم انفجر في موجة انفعال . وعندما حذره كارتتر في نفس الجلسة في حجرة اجتماع الحكومة الامريكية في البيت الابيض من المضى في برنامج الاستيطان المضخم الذى وعد بالقيام به في الاراضى المحتلة قدم له رئيس الوزراء قائمة معدة مسبقا بعدد المدن الموجودة في الولايات المتحدة وتحمل اسماء عبرية مثل ساليم والقدس وتساءل قائلا : « ماذا ستقول اذا قال حكم تلك الولايات انه لا يمكن أن يعيش يهودى في تلك المدن ؟ . كان مسئولو السفارة الاسرائيلية المصاحبين لبيجين للمرة الاولى يعرفون أن هذه لا يمكن أن تكون كلمة اسرائيل الاخيرة ، واصيبوا بالانزعاج ازاء حدة كارتتر حول موضوع المستوطنات وعندما عادوا من البيت الابيض الى بلير هاوس ، قصر الضيافة الفخم سألوا رئيس الوزراء عما ينوى القيام به ، رد بيجين قائلا انه سيقوم ببناء المستوطنات كما هو مخطط . وتنبأ بان الامريكيين سيتحمسون لمدة ستة اشهر ثم يعودون الى الحالة الطبيعية .

كان اول حاكم عربى يتقرب اليه بيجين في بحثه عن السلام واكثرهم قابلية وفتحا هو الملك حسين ملك الاردن . كان وزراء اسرائيليون يقومون بالاجتماع به سرا منذ ما قبل حرب سنة ١٩٦٧ عندما كان لا يزال يحكم الضفة الغربية والقدس الشرقية واستمر الحوار خلال حكومات ليفى اشكول ، وجولدا مائير واسحق رابين . اما اكثر المقابلات وجها لوجه فقد قام بها ايجال آلون وزير الخارجية الراحل الذى اجتمع بالملك اربع عشرة مرة ، بينما اجتمع به رابين ووزير دفاعه شيمون بيريز ثمان مرات . واجتمعت به مسز مائير لأول مرة في باريس قبل حرب الايام الستة عندما لم تكن رئيسة وزراء بعد ، وفي اسرائيل بعد ذلك عندما أصبحت رئيسة للوزراء . ويضيف نافطالى لافى أن ديان قد تحدث الى الملك « عدة مرات » بها في ذلك عدد من المرات عقب استقالته كـوزير للدفاع في سنة ١٩٧٤ . وخلال فترة حكم رابين عقدت كل الاجتماعات في اسرائيل . ويقول أحد شهود العيان أنه على الرغم من أن تلك الاجتماعات لم تحقق اية نتائج فانها كانت اجتماعات جميلة ، ومناقشات حرة ، مفتوحة وودية بين جنترلمان وآخرين على شاكلته .

ومور تولى السلطة ، الملح بيجين عن طريق الوسطاء الى انه يرغب في الانضمام الى اجتماعات حسين .

القسم الثالث

وجاء الرد من عمان بالرفض القاطع الامر الذى أغضبه كثيرا . وعلى الرغم من ذلك فقد فوض ديان في حضور اجتماع خاص مساء يوم ٢٢ أغسطس بعد ان تخلص وزير الخارجية الاسرائيلى من حارسه الخاص بدخوله منزلا آخر من خلال الباب الاملى والتوارى في سيارة كانت في انتظاره في الخلف .

وعلى الرغم من أن المحادثات استمرت ليوم آخر بناء على طلب الملك حسين ، الا انها لم تكن مثمرة بالمرة . وقال الملك أنه نفى يده من الضفة الغربية والمشكلة الفلسطينية . وأعلنت الدول العربية أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . وإذا كانوا لا يريدونه ، فبوسعهم ادارة دفة شئون الفلسطينيين بدونه .

وكتب ديان يقول ان محاولة ايجاد ترتيب مناسب ومتفق عليه لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة هي محاولة تتسم بعدم الاكتراث فيما يبدو . . وفى الاجتماع الثانى ، أوضح الملك حسين موقفه بشأن احتمال تقسيم الضفة الغربية بين اسرائيل والاردن ، أى تسوية اقليمية .

وقد رفضها على الفور ، اذ أن أى ترتيب للسلام يقوم على أساس تقسيم الضفة الغربية من شأنه أنه يعنى أن يوافق حسين على ضم جزء منها الى دولة اسرائيل ، وقال يجب أن أفهم أنه بصفته ملكا عربيا لا يمكنه أن يقترح حتى على شعب قرية واحدة أن يقطعوا أوصالهم مع أشقائهم العرب ويصبحوا اسرائيليين . وسيتم النظر الى موافقته على خطة من هذا القبيل على أنها خيانة . وسيتعرض لللائم بأنه باع أرضا عربية الى اليهود حتى يستطيع توسيع مملكته . . وقال ان الحل الوحيد لتحقيق السلام هو أن تعود اسرائيل الى حدود ما قبل شهر يونيو عام ١٩٦٧ . . وفيما يتعلق بمسألة السيادة ، يجب أن نعيد الى الاردن كافة الاراضى التى استولينا عليها فى عام ١٩٦٧ .

وصرح ديان لمساعديه عندما عاد الى القدس بأنه لم يندهش لموقف حسين ولم يندهش كذلك رئيس الوزراء . وطبقا لما ذكره أحد اصدقاء بيجين المقربين ، فان بيجين لم يعتقد أبدا أن أية تسوية اقليمية ستفرى حسينا على التفاوض .

لقد كان يريد أن يستريح ضميره ، ويحصل عليها بعيدا عن نظايه ،
وجس نبض حسين . ولم يؤمن ديان بذلك على أية حال . وقد عرفنا موقف
حسين من المحادثات السابقة ، واستوضحه بيجين من جدول أعمال ديان
ولو كان حسين قال نعم ، لما تغير شيء . الا أنه لم تحدث حتى المتابعة
نفسها . اننا نعرف الرد مسبقا .

وطبقا لما ذكره مصدر مطلع ، فانه على الرغم من ذلك ، اوحى ديان
تبل ان يفترقا بأن الملك قد يجتمع مع بيجين . ورد حسين بانه لا يرى جدوى
من ذلك ، فأراء بيجين معروفة تماما . وفي حدود ما هو معروف كان اجتماع
ديان هو آخر اجتماع يحضره العاهل الاردنى مع وزير اسرائيلى . وكان
بيجين على استعداد للبحث فى أى مكان آخر .

الفصل الثامن عشر

السلام وفق شروطنا

كان ذلك بعد الثامنة من مساء التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٧ وكان الياهو بن اليسار ، مدير عام مكتب رئيس الوزراء وعميلا سريا سابقا يحمل درجة الدكتوراة في التاريخ ويطلق لحيحة سوداء تشبه لحيحة تيودور هيرتزل ، كان يقرأ وهو مضطجع في سريره في شقة بالقرب من مسكن الرئيس في القدس . وكان ذلك اليوم يوما طويلا ومرهقا . وقد خرق المقاتلون الفلسطينيون وقف إطلاق النار عبر الحدود اللبنانية وتسببوا في قتل مدنى اسرائيلى وصرح خمسة آخرين بصواريخ كاتيوشا وردت القوات الجوية بقصف استمر خمسا وستين دقيقة لمخيمات الفلسطينيين وكان العنصر البارز في أخبار التلفزيون المسائية تتناول المزاغم والمزاغم المضادة حول الاصابات بين المدنيين وكذلك تأكيدات رئيس الاركان بأن اسرائيل سوف تحترم وقف إطلاق النار اذا ما فعل الجانب الآخر الشيء نفسه وتلقى بيجين تقارير عن الحادث وادلى أيضا بمشورته ولم يكن هناك شيء جديد في نشرة أخبار التلفزيون وكان في استطاعة بن اليسار ان يسترخى ولكن لم يكن هذا الاسترخاء ليطول أمده .

فلقد دق جرس الهاتف الى جوار السرير . وكان المتحدث هو عنان صفاوى ، محرر شئون الشرق الاوسط في صحيفة جيروزاليم بوست . وكان صفاوى قد تابع الاستماع الى اذاعة حية (على الهواء) من اذاعة القاهرة لخطاب أنور السادات الذى وجهه في افتتاح الدورة السنوية للبرلمان المصرى المسمى « مجلس الشعب » وبعد ان أعلن استعداده للتوجه الى مؤتمر في جنيف والذى يحاول الامريكيون احياءه من جديد ، وبعد ان هاجم اسرائيل لجدلها حول كل كلمة وكل فصلة وكل شرطة ،لقى السادات قنبلة لقد قال انه مستعد لان يذهب الى نهاية العالم من أجل محادثات السلام . وقال السادات « ان اسرائيل سوف يصعقها ان تسمع انى أخبركم باستعدادى للذهاب الى اسرائيل نفسها الى الكنيسة ، لا تباحث معهم من أجل ان أحول دون جرح جندي مصرى واحد . أعضاء مجلس الشعب ، ليس لدينا وقت نضيمه » . ولقد توبل هذا العرض الذى قدمه الرئيس السادات بالنداء الحماسى « الله أكبر » من الاعضاء . لكن بعض الذين استمعوا له لم ينتبهوا كثيرا لما قال أو اعتبروا ما قاله نوعا من الصيغ البلاغية في الخطابة تماما كما اعتبروا تهديد السادات منذ أربع سنوات مضت بالنضحية بمليون جندي مصرى في سبيل استعادة الارض العربية من الغاصب الصهيونى . لكن حرب يوم

المغفران قد علمت أنان صفاوى ان الرئيس فى العادة يعنى ما يقول . وقد ذهب الى بيجين ليعلمه بالقضية وليعلم رد فعل بيجين لها .

كان بن اليسار غير مصدق لما سمع، لكن هذا المسئول الاسرائيلى لم يرد ان يستبعد ما سمع استبعادا تاما .

لقد سألته « هل انت متأكد من أن هذا هو ما أعلنه السادات ؟ اننى لا أصدق » وبالرغم من كل ما نعرفه مقدما الا اننى دهشت من سماع السادات على استعداد للحضور الى القدس . ورد قائلا انه متأكد كل التأكيد . وسأله عما اذا كان قد تلقى برقيات من وكالات الانباء . ورد بأنه لم يتلق بعد أى رسالة . وقلت « أرجوك أن تتأكد فاذا ما كان هذا صحيحا وصح ما أعلنه السادات فعليك أن تكتب اليه بأنه سيلقى كل الترحاب فى القدس .

وفى اليوم التالى نشرت صحيفة جيروزاليم بوست قول أحد كبار مساعدى رئيس الوزراء مناحم بيجين بأن السادات سوف يلقى كل الترحيب هنا وأنه سوف يستقبل استقبالا لائقا . لكن الاسرائيليين كانوا او لا زالوا مترددين فى مواجهة هذه المبادرة بجدية . ولم تنشر صحيفة جيروزاليم بوست رواية صفاوى بعنوان رئيسية .. فى الصفحة الاولى . ولم يعكر بن اليسار أمسية بيجين بهذه الاخبار ولكنه انتظر حتى بعد الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . ولم يذع راديو اسرائيل بيان رئيس الوزراء بأن السادات سوف يلقى الترحيب الا فى الساعة الثامنة صباحا ولكن الاحتمالات لم تزل تبدو غير واقعية . ولما كمن السادات قد استمر فى وضع التأكيد كله على مؤتمر جنيف وطلبه بتعهده اسرائيل مقدما بالانسحاب من كل الاراضى المحتلة ، فان الحيرة قد أصابت اسرائيل آخذة فى الاعتبار أيضا أن جميع المقابلات السابقة بين الاسرائيليين والزعماء العرب كانت كلها سرية ابتداء من زيارة جولدا مئير للملك عبدالله الى مقابلة ديان لحفيد الملك عبدالله بعد تسعة وعشرين عاما . وكانت اسرائيل مدركة تماما للحساسية العربية لدرجة استخدام الرقابة العسكرية للحفاظ على سرية هذه اللقاءات. ولكن ماذا عليك أن تفعل اذا ما سمعت رئيس أكبر دولة عربية يعلن جهارا أنه مستعد للحضور الى القدس ومخاطبة الكنيست ، فهل سوف يؤذيه بين شعبه أن يتلقى دعوة علانية ، أن بيجين شأنه شأن سابقه قال مرارا أنه مستعد للذهاب الى أى مكان من أجل محادثات السلام وفى أى وقت . وعلى أية حال فان مصر لا زالت فى حالة حرب مع الدولة اليهودية رسميا . فكيف يمكن استقبال عدو فى عاصمة دولة لا يعترف بها وما زاد الامر حيرة عدم وضوح الرؤيا فى اشارة السادات . فالى أى شىء كان يهدف ؟

وبالرغم من العلاقات الحارة التى اقامها بالفعل مع جيمى كارتر ، الا ان السادات لم يستشر الأمريكين مقدما حول اعلانه هذا فى مجلس

الشعب . وطبقا لما قاله سيروس فانس وزير الخارجية الامريكية انه أخطر الرئيس قبل اعلانه بيوم واحد عن تفكيره في الذهاب الى اسرائيل . ونظرا لانه قد صوم فكرة عقد مؤتمر قمة في القدس الشرقية يضم الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الامن ومنظمة التحرير الفلسطينية وكذلك اسرائيل وجيرانها المباشرين ، فان رسالة كهذه لم تقبل بمعناها الواضح الظاهري . ولكن ما ان ادلى بتصريحه هذا حتى اصبحت الولايات المتحدة تسعى البريد السعيد على حد قول صموئيل لويس السفير الامريكى في تل ابيب .

وجاءت الرسائل وعادت عن طريق القنوات الدبلوماسية وعن طريق اعضاء الكونجرس الذين زاروا المنطقة ، وبصورة حيوية عن طريق الصحافة . وفي اذاعة باللغة الانجليزية موجهة الى السفير المصرى — سك بيجين هذا القسم للامتين ، « لا حروب جديدة ولا سفك للدماء ولا تهديدات بعد اليوم » وأجرى كرونكايت وبريرا وولتر المعروفين بلقائهما في التلفزيون الامريكى مع النجوم والقادة ، لقاء مع كل من السادات وبيجين . وأضاف هذا اللقاء المزيد الى الكرنيفال السائد في المنطقة وان كان بعض الدبلوماسيين المغرضين قد اشاروا الى ان هذا ليس بالطريقة الوحيدة او الرئيسية للاتصالات بين القدس والقاهرة . وكان لقاء كرونكايت هو أول لقاء مشترك عن طريق القمر الصناعى من نيويورك وقال السادات انه لا يبد من استلامه لدعوة مكتوبة . ووافق بيجين على ارسال هذه الدعوة . واستجاب السادات لذلك بقوله انه سوف يكون مستعدا للذهاب الى اسرائيل في اقرب وقت ممكن . وفي الخامس عشر من نوفمبر بعث بيجين برسالة الى القاهرة عن طريق حامل رسائل امريكى قال فيها :

« بالاصالة عن حكومة اسرائيل فان لى الشرف ان أقدم لكم دعوتى الودية للحضور الى القدس وزيارة بلدنا . ان استعداد سعادتكم للقيام بمثل هذه الزيارة كما عبرتم عنها في خطابكم لمجلس الشعب المصرى ، قد قوبل هنا بالاهتمام العميق والايجابى شأنها شأن بيانكم بانكم ترغبون في مخاطبة اعضاء برلماننا ، الكنيست ، ومقابلتى . فاذا ما قبلتم دعوتى ، وهذا ما آمله ، فسوف تجرى الترتيبات لكى تخاطبوا الكنيست من فوق منبره وسوف تمكنوه ، اذا ما رغبتم في ذلك ، من مقابلة مختلف المجموعات البرلمانية ، المؤيدين منهم للحكومة والمعارضين لها . ودعنى أؤكد لكم ، سيدى الرئيس ان البرلمان والحكومة والشعب في اسرائيل سوف يستقبلونكم بكل احترام ومحبة » .

وجاء رد السادات بنفس الايجابية فقد أخبر وفدا امريكيا من مجلس النواب مكونا من أربعة عشر عضوا انه يعتبر الزيارة المقترحة « مهمة مقدسة » وانه سوف يذهب في اقرب فرصة ممكنة . ثم استطرد قائلا :

« وعلينا أن نفعل المستحيل لكسر الحلقة المفرغة التي أخذ العرب والاسرائيليون يتحركون فيها لمدة ثلاثين عاما . وهذا من أجل الاجيال القادمة . ومن هنا جاءت قدسية هذه المهمة . واننى اذا لم أحاول كسر هذه الحلقة المفرغة فان الله سوف يحاسبنى وكذا سوف تحاسبنى الأجيال القادمة . »

وبالنسبة لى فان ٧٠ ٪ من الصراع العربى — الاسرائيلى سببها مشاكل نفسية و ٣٠ ٪ ترجع الى أسباب مادية . وعلينا أن نتغلب على المشاكل النفسية ثم نتجه الى الأسباب المادية . ومن أجل ذلك فسوف أذهب الى الكنيسة . واذا ما لزم الامر فسوف افتتح باب المناقشة مع أعضاء الكنيسة المائة والعشرين لتزويدهم بالحقائق المجردة هنا فى المنطقة — أى وجهة النظر الأخرى — حتى يستطيعوا أن يقرروا لانفسهم . »

ولقيت الزيارة الوشيكة الوقوع صدى فى نفس بيجين وتقديره لذاته وفى احساسه المعيب للتاريخ . فهذه المحادثات من شأنها أن تبرهن لأولئك الذين تساورهم الشكوك على أن حكومته تسير فى الطريق السليم « وأشار فى الخطاب الذى أدلى به أمام اللجنة المركزية لحزب حىروت الى انه يتوقع دعوة مقابلة لزيارة العاصمة المصرية وقال . . هناك تبادلية فى هذه الامور ، وبمشيئة الله سأزور القاهرة فى يوم من الايام ، وسأشاهد أيضا الاهرام . وعلى أية حال ، فائنا ساعدنا فى بنائها » . واحتجاج رئيس الوزراء النى ثمانية عشر شهرا من الدبلوماسية فقد اقتنع بان أبناء اسرائيل لم يبنوا الاهرامات .

ان مبادرة السادات لم تولد من فراغ ، فقد ساعد فى مولدها حلكتان من طرفين متضادين على المسرح الدولى وهما رئيس شيوعى وملك عربى ، وفى شهر أغسطس ، بعد عودته من واشنطن ، قام بيجين بزيارة رسمية الى رومانيا ، وهى الدولة الوحيدة من دول الستار الحديدى التى احتفظت بعلاقات دبلوماسية مع اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ . وقد قضى ثمان ساعات فى اجتماع مغلقة مع نيقولاى شاوشيسكو ، زعيمها المتشدد وان كن مستقلا فى رأيه . وذهب السادات وراء بيجين الى بوخارست ، وكان يتوق لسماع انطباعات شاوشيسكو عن رئيس الوزراء الاسرائيلى الجديد . وهل هو متعصب كما يبدو ؟ وأكد له شاوشيسكو بان بيجين يريد حلا . والى السادات على السؤال القائل « هل بيجين أمين وهل هو زعيم قوى بدرجة تمكنه من العطاء ؟ وكان رد الرئيس الرومانى على السؤالين هو أجل » .

وكان ذلك كافيا بالنسبة للسادات ، الذى كان مصمما على كسر سلسلة حروب الشرق الاوسط . وكان لديه أسبابه القوية التى تدعوه لتقوية

الرباط الدبلوماسية والاقتصادية مع الولايات المتحدة ، الراعى التقليدى
لاسرائيل .

وقام الرئيس الشيعوى بدوره ، وجاء الآن دور الملك العربى . لقد كان
الملك الحسن ملك المغرب رئيس الدولة العربى الاكثر قبولا لفكرة اجراء حوار
مع اسرائيل . وزاره اسحق رابين ، بصفته رئيسا للوزراء متنكرا باستخدام
شعر مستعار ونظارة شباب . وفى شهر سبتمبر ، بعد جلسة تمهيدية مع
ممثل كبير للموساد وهو جهاز المخابرات ، وجه الملك دعوة الى موسى ديان
لزياره القصر الملكى فى مراكش . وبناء على طلب من وزير الخارجية ، أرسل
الملك الحسن رسالة للقاهرة تقترح عقد لقاء مصرى اسرائيلى على مستوى عال .
وفى غضون أربعة أيام من عودة ديان الى القدس ، جاء الرد بأن المصريين على
استعداد لذلك . واقترحوا عقد اجتماع اما بين السادات وبيجين أو بين حسن
التهامى نائب رئيس الوزراء المصرى فى ذلك الحين وموسى ديان . وعلى الرغم
من التحفظات التى أبدتها ديان ، فان بيجين كان مستعدا للتوجه قورا الى
اجتماع القمة ، الا أن المصريين فى ذلك الحين أعادوا النظر فى الموضوع .
واستقر رأى على اجراء المحادثات بين ديان والتهامى فى الرباط يوم
١٦ سبتمبر .

وبالرغم من أنه كان من المفترض أن تكون تلك المحادثات سرية ، فقد
كان الأمريكيون على علم بها من خلال المغرب فيما يبدو . وتوقف وزير
الخارجية فى أوروبا وهو فى طريقه للولايات المتحدة ، واختفى فى بروكسل
وانطلق بطريق البر الى باريس ثم بطائرة خاصة الى المغرب ، بعد أن وضع شعرا
مستعارا وشاربا ونظارة شمسية على عينيه طوال الطريق . أما مسز راشيل
ديان ومساعد وزير الخارجية فقد اتجهوا الى نيويورك على متن الطائرة
(سابينا) واعتدروا للطيار هنرى ليفى الذى كان قد تم انقاذه من الطائرة
سابينا المختطفة فى مطار الدد فى عام ١٩٧٢ عندما كان ديان وزيرا للدفاع وكان
يتطلع لمكافاته على ضيافته .

وعلى الرغم من احترام كافة المجاملات ، فان النجاح لم يحالف مؤتمر
الرباط . وقال التهامى أن السادات وافق على فتح حوار مع اسرائيل ، الا أنه
لن يجتمع مع رئيس وزراء اسرائيل ويصافح يده الا بعد أن يقبل بيجين مبدأ
الانسحاب الكامل من الاراضى المحتلة . وكان الانسحاب الاسرائيلى هو المشكلة
الأساسية ، وكان يشمل كما حدث قضايا السيادة والشرف الوطنى وبقاء
السادات فى السلطة . وكان ديان فاترا ولكن غير ملتزم وكان عليه أن يرد
على رئيس الوزراء . وعلى نحو كان متوقعا ، عندما فعل ذلك ، رفض بيجين
تقديم أى تعهد بالانسحاب الشامل . والتزم التهامى بقوله ، وهو مسلم
متشدد لا يشعر بالمودة تجاه اسرائيل . وأبلغ ديان بأنه لن ينعقد أى اجتماع

للقمة حتى يجلو آخر جندي اسرائيلي من الأرض العربية . وتقرر اجراء جولة ثانية من المحادثات بين ديان والتهامى بمجرد أن يتلقوا تعليمات جديدة من القدس والقاهرة . الا أن السادات لم يكن لديه صبر على الديبلوماسية السرية البطيئة . وكان يشعر بضيق تجاه التفاصيل وبعدم اكتراث تجاه البروتوكول . وكان عرضه الخاص بالذهاب الى القدس ضربة نموذجية كبيرة ومذهلة اجتازت حاجز الشك التاريخي وأعلنت التحدى بجراتها وبساطتها . الا أنه أيا كانت توقعاته ، لم يكن بمقدور هذه المبادرة وحدها تبديد نسبة السبعين فى المائة التى تمثلها الأسباب النفسية فى الصراع العربى الاسرائيلي بل انها فجرت بالكاد نسبة الثلاثين فى المائة التى تمثلها الاسباب المادية .

وبالنسبة لمعظم الاسرائيليين كانت زيارة السادات خيالا تحول الى حقيقة وعندما وصل الى مطار بن جوريون بعد انتهاء السبت اليهودى يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ ، كان مضيفوه ما زالوا يمزحون حول استحالتها وارتجالها نقل قائد فرقة موسيقات الجيش النشيد المصرى من اذاعة القاهرة . وقام صانع الاعلام فى القدس بصناعة المئات من الاعلام المصرية ذات اللون الاحمر والابيض والاسود . وقام احد اصحاب المطابع بتقديم ملصوق نذكارى باللغة العبرية والعربية والانجليزية مكتوب عليه كلمة «السلام» وتنافسست أشهر وأرقى فنادق القدس الثلاثة على ارضاء زبائنهم المصريين والتشريف بهم بحللم الملكية (وكانت من طراز الملك داود) وأعلن وكيل احدى المنشآت عن مبنى فاخر مكون من أربع عشرة حجرة . فى مكان مناسب وبشروط يمكن التفاوض حولها يصلح لان يكون مقرا للسفارة المصرية وعرضت « متاجر السلام » المعروفة تخفيضا قدره ١٠٪ على جميع المبيعات من متاجرها .

وأعلن مذييع التليفزيون وهو يلهث فى مكبر الصوت بينما كان الرئيس المصرى ينزل درجات سلم الطائرة بيونج ٧٠٧ ان عهدا جديدا قد بدأ « . وردد أحد مذييعى الراديو « اننى أراء ولكننى لا أصدق » وكانت جولدا مائير واقفة بين علية القوم الذين جاءوا لاستقبال السادات . وقال لها السادات « سيدتى » لقد انتظرت طويلا مترقبا لحظة لقاءك . وردت السيدة البالغة من العمر ثمانين عاما والتى صلت ودعت فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ أن يأتى اليوم الذى ينتبه فيه أحد القادة العرب ويحزن على موت شباب بلاده وسقوطهم فى ساحة القتال « وأنا انتظرت طويلا مترقبة لقاءك . وها قد حان الوقت وها أنا فى انتظارك » وتوقف الرئيس لحظة ثم بدأ يصافح المستقبلين وانغمز فى مناقشة حية مع آريل شارون الجنرال الذى تحول الى رجل سياسة وهو الذى غير مجرى حرب يوم الغفران بعبوره قناة السويس . وكان رئيس الأركان جنرال مورداخى جور قد حذر الأمة فى مقابلة صحفية أثارت جدلا كثيرا من أن يكون السادات

قد خطط لشن هجوم مفاجيء تحت ستار زيارته لاسرائيل : وقال قد تكون العملية كلها مجرد خدعة . وعندما قدموه للسادات ابتسم السادات وقال « اننى لم أكن أخادع » ووقف الرئيس كاتزير رئيس دولة اسرائيل والسادات رئيس مصر وكتفاهما متلاصقان والى جانبهما وقف مناحم بيجين بينما أخذت فرقة الموسيقى تعزف النشيدين الوطنيين للبلدين وفيما بعد أخذت المدفعية تطلق ٢١ طلقة تحية للضيف . وتقدمت المسيرة الى القدس ثمانى عشر حمامة بيضاء أطلقت فى الجو ووقف ما يقرب من ٢٠٠٠٠ اسرائيلي وقد غمرتهم البهجة يستقبلون الموكب عند أبواب العاصمة بالخبز والملح وأناشيد السلام . وأخذت الأجراس تدق بينما اقترب موكب سيارات الليموزين من فندق الملك داود وأخذت حشود أخرى من الجماهير تنشد باسم السادات . وبعد ما أثاره وصول السادات من المشاعر . وبعد جولته صباح يوم الأحد فى المدينة القديمة وأداءه صلاة الظهر فى المسجد الأقصى كانت الكلمات التى ألقى فى الكنيسة هى قمة هذا الحدث . وبالرغم من التوقعات التى سادت المجلس الذى ازدحم بأعضاء البرلمان السابقين والحاليين وبالديبلوماسيين وبالمحررين ومراسلى الصحف فقد أوضح السادات وبيجين للحاضرين ولكل من استمع اليهما فى أرجاء العالم أن السلام لن يتحقق عن طريق الخطب وما لم يعتزم أى من الزعيمين أى شىء غير عادى بصورة كافية يمكن أن يحفز الطرف الثانى على تغيير موقفه . فقد كان السادات مصرا على أن يحقق السلام بشروط مصرية . ولم يكن بيجين بأقل منه فى شروطه الاسرائيلية واذا ما حكمنا على أداء الاثنين وممارستهما فى العلاقات الدولية نجد ان السادات قد ربح بسهولة مدهشة . فقد بدأ متحديا ومرحاً . وهكذا أخذت اسرائيل موقف المدافع . وكان بيجين متعبا ولم يقل شيئا غير متوقع . وهذا شأنه دائما حيث لا يكون فى أحسن حالاته عندما يلقي خطابا رسميا . فهو لم يقدم أى فكرة جديدة ، وليس هذا فحسب بل انه لم يجد كلمات جديدة للتعبير عن الافكار القديمة .

وفى خطابه الذى القاه باللغة العربية والذى استغرق خمسا وخمسين دقيقة عبر السادات بأسلوب أكثر دقة من ذى قبل عن استعدادة لقبول اسرائيل كحقيقة واقعة فى حياة الشرق الاوسط . وقال : « اننا نرحب بكم لتعيشوا بيننا فى سلام وأمن . ولكى يتم تحقيق السلام مع العدل اقترح قيام حدود آمنة ضد العدوان وأية ضمانات أخرى دولية قد ترغب اسرائيل فيها . وفى مقابل ذلك تلا السادات قائمة كاملة بالمطالب العربية باستثناء ملحوظ وهو اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية المثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . وأصر السادات وهو يجفف العرق من على جبهته والجزء الاصلع من رأسه على الانسحاب الاسرائيلى الكلى من الاراضى العربية التى تم احتلالها بالقوة بما فى ذلك القدس . بالارض ليست قابلة للتفاوض انه لن

يتنازل عن بوصة واحدة أو حتى مجرد قبول مبدأ المساواة حول الأرض • وينبغي أن تكون القدس مدينة حرة ومفتوحة لجميع المؤمنين • وينبغي ألا يحرم منها أولئك الذين اعتبروها موطناً لهم لعدة قرون • وفوق ذلك أكد الرئيس المصري أنه يوقع اتفاقية سلام مصرية - اسرائيلية منفصلة وكذلك فإنه لن يتفاوض على ترتيب جزئي آخر سوف لا يكون من شأنه سوى تأجيل الوصول الى حلول حقيقية وبالرغم من تجاهله لمنظمة التحرير الفلسطينية الا أنه وصف المشكلة الفلسطينية بأنها لب وجوهر النزاع • وأكد قائلاً أنه سوف يكون خطأ خطيراً تجاهل الحقوق الفلسطينية الخاصة بحقوقهم في إقامة دولة وفي حقهم في العودة •

وقام بيجين كل اغراء بالتفاوض من فوق هذا المنبر • وقال أحد السفراء الغربيين وكان حاضراً هذه الجلسة أن الأمريكيين قد حذروا رئيس الوزراء الاسرائيلي من الانزلاق الى هذا الموقف • وأعلن بيجين عن رغبته في قيام سلام حقيقي يتضمن تسوية كاملة بين الشعب اليهودي والشعب العربي دون الانزلاق في ذكريات المضي • وعلى أية حال فإنه قد عرض على السادات دراسات التاريخ اليهودي الحديث مشيراً الى مغزى مذبحه حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ والتي قتل عنها انها فرضت على اسرائيل الضعيفة بواسطة جيرانها العرب الأقوياء وأردف يقول : « ان الجيل الذي تعرض للابادة قد أقسم على الا يعرض الشعب اليهودي مرة أخرى للخطر • وقل رئيس الوزراء أن السادات يعلم أن مواقفهما من مسألة الحدود مواقف مختلفة متباينة ولكن لا يعني هذا أنهما لا يستطيعان التفاوض • واقترح أن يتفاوضا على كل موضوع خلاف والا يضع أي من الطرفين شروطاً مسبقة وقال « اننا سوف نتفاوض كانداد • فليس بيننا مهزوم ومنتصر » •

وبناء على مبادرة من بيجين تصافح الزعيمان في نهلية خطاب رئيس الوزراء الذي القاه بالعبرية والعربي استغرق أربعين دقيقة • ولكن كان هناك شعور بخيبة الامل بين الصحفيين وبين أعضاء المجلس • وربما ما كان ينبغي توقع حدوث معجزات • وبدلاً من حدوث معجزات فقد تم تحديد الخطوط الفاصلة للسلام • وفي مؤتمر صحفي مشترك في اليوم التالي أنهى السادات زيارته • بأن وضع المسئولية والعبء كله على اكتاف بيجين قائلاً :

« ادعو الله ان يرشد خطوات رئيس الوزراء بيجين وخطوات الكنيسة ، ذلك لاننا في حاجة ماسة لاتخاذ قرارات صعبة وحاسمة • وانما قد حملت نصيبي بالفعل بقراري الحضور الى هنا واني في انتظار القرارات التي سوف يتخذها رئيس الوزراء بيجين وكذلك الكنيسة » •

وأصبح هذا يتردد كثيرا على السنة المصريين . فلقد قدم الرئيس التنازل
الأكبر بذهابه الى القدس وبلاعتراف باسرائيل مغامرا بحياته في مصر وفي العلم
العربي كله . وليس هذا هو غاية ما كان يطمح ويتوق اليه الاسرائيليون
دائما ؟ والآن قد حان الوقت لمقابلة ذلك بالمثل . وعلى أية حال فانه
من الصعب الاعتقاد بان السادات كان يتوقع احراز نصر بسهولة هذا
فضلا عن وجود عنصر التمثيل فيما اقدم عليه . ولم يكن يؤخذ في الخارج
على محمل البراءة . وهو لم يكن بأقل من بيجين في سجله التآمرى . وبالرغم
من انه يكره ويقت التصرف المكتوب والمخطط الا انه ماكن لينطلق في تصرفه
بناء على وحى الساعة فكل مبادراته ابتداء من عبور أكتوبر ثم توجهه الى
القدس انها هى قائمة على الحسابات . وكان محقا في توقعه من حدوث استجابة
اسرائيلية كريمة وهى المقابل الذى يمكن أن يلوح بها فى وجوه منتقريه من
العرب ولكن بعد ثلاثين عاما من الحرب فانه سيكون من السذاجة توقع انهيار
الجدران امام اول نفخه فى النفير .

وكان بيجين ، شأنه شأن معظم الاسرائيليين يذكر تاريخ السادات المتعدد
الالوان . فهذا نشاطه المؤيد للنازية اثناء الحرب العالمية الثانية ، وهذا
دوره فى الثورة الناصرية ضد الملك فاروق ، ثم شنه حرب يوم الغفران . لكن
بيجين استبعد عداءه الغريزى ضد الزعيم المصرى الا عندما كان يشعر بأن
السادات يلعب لعبة قذرة . نفى اجتماعاته الخاصة مع رجاله كان يسمح
لكراهيته بالظهور فكان يقول « أن السادات كاذب » وكان بيجين يميل الى
احتقار العرب بصفة عامة ولذلك فانه كان يحتقر السادات بصفته عربيا .
ولكن فوق هذا كله فان بيجين يدرك ان السادات يريد السلام وانه ركب المخاطر
من أجل ذلك . ولقد لحص يحيل قديش موقف رئيس الوزراء بأنه موقف « الاحترام
والشك » وفى احدى المناسبات عندما حثه احد اصدقائه بان يفتح عينيه على
السادات المراوغ والمخادع اجاب قائلا : « لقد وهبنا الله التقدير عقولا نحن
أيضا » . وكان بيجين يصدق دعايته هو نفسه حول تعرض اسرائيل للخطر .
وكان مصرا على الا يتخذ اية خطوة قد تعرض الدولة اليهودية للخطر . وحتى
لو كان بيجين لاشارك جنرال جور فى شكوكه العميقة الا انه لم يكن على
استعداد ليأخذ صداقة السادات بثقة تامة . لكن كان الزعيم المصرى عدوا
لفترة طويلة . وكان بيجين فى حاجة الى دليل عملى على حسن نية السادات .
وهو ايضا لم يكن يحب ان يبتعد كثيرا عن خصلائه فى حزب حيروت الذين آزره
فى حملته ضد حكومة العمل حول اتفاقيات سيناء . لقد كانوا فى حاجة الى
التأكيد وكاتوا فى حاجة الى الوقت لكى يلحقوا ببيجين . وفوق ذلك كله فان
بيجين كان مصرا على الا يقع فى شرك سلام شامل قد يؤدى الى اعادة تقسيم
ارض اسرائيل انه كان يريد السلام ولكن ليس على حساب كل شىء حارب من

أجله فى الانتخابات وفى الحكومة . ان السلام مع مصر له جاذبية خاصة لعدة اسباب . فمصر اكبر دولة عربية واكثرها قوة . وبدون مصر فلن يستطيع العرب شن حرب . ان سيفاء على عكس الضفة الغربية وقطاع غزة يمكن التخلّى عنها طالما امكن الابقاء عليها خالية من القوات المصرية والمطارات العسكرية . هذا وكان بيجين يأمل فى التوصل الى وسيلة يمكن بها الاحتفاظ بالمستوطنة اليهودية وبالرغم من احتجاجات السادات ضد ذلك وبالرغم من تشاؤم ديان تفاوضت اسرائيل على افتراض ان مصر سوف تكون قلعة بتحقيق سلام منفصل . ان كل ما يريده السادات وكان يسعى اليه هو استعادة أرضه السليبة ومساعدة امريكية فى حل مشاكل مصر الاقتصادية الرهيبة . فاذا ما كمن السادات فى حجة الى دليل يقدمه على انه لم يتخل عن الفلسطينيين فان بيجين سوف يحاوس ان يقدم له هذا الدليل .

وبهذه الروح توجه بيجين الى الاسماعيلية فى أعياد الميلاد سنة ١٩٧٧ فى اول زيارة له لمصر وثقنى لقاء قمة مع السادات . واذا كان الاسرائيليون قد توقعوا استقبالا حارا وتلقائيا فى مدينة القناة كالذى استقبل به السادات فى القدس فانهم سرعان ما اصيبوا بخيبة أمل . لقد تاججت المشاعر فى طائرة العال ٤٤٧ التى انطلقت من مطار بن جوريون عندما أحاطت احدى المضيفات بذراعيها برقبة بيجين وقد انفجرت فى البكاء . لقد كان زوجها قد سقط صريعا على الجبهة المصرية فى حرب سنة ١٩٧٣ لكن المناخ فى مطار أبو صوير العسكرى كان باردا بصورة واضحة فلقد أرسل السادات بنائبه حسنى مبارك لاستقبال الجانب الاسرائيلى . ولم تكن هناك اعلام ولا موسيقى ولا اناشيد . وعند الوصول الى الاسماعيلية سمع عزرا وايزمان رفيقه ديان وهو يهمس لبيجين « أنظر ليس هناك علم واحد اسرائيلى وليس هناك لافتة واحدة ترحب بقدمونا » وعلى نقبى ذلك كانت الاسماعيلية تعج بالصور واللافتات والمصقات والاعلام واقواس النصر ولكنها تمجد مصر ورئيسها وليس هناك اى مظهر لنجمة داود او اية صورة لبيجين ، وليس هناك اى ترحيب بالانجليزية او العبرية . هذا النمط الواحد اخذ يكرر نفسه طوال أشهر المفاوضات . ولكن الاسماعيلية قد صدمت الاسرائيليين اكثر من اى استقبال آخر . ذلك لانها كانت اول بلد عقد فيها اجتماع على مستوى الوزراء . وكان المصريون العاديون وسائقو التاكسي والجرسونات واصحاب المحلات التجارية كرماء ولطفاء وكانوا يقابلون الاسرائيليين بكلمة سلام - وشالوم العبرية . ولكن مصر ظلت مجتمعا مغلقا

وقال احد محررى الصحف العربية ان السلطنت كانت تسعى الى اقامة صلح دنيوى يرضى العقل ولا يرضى النفس وكان السادات لا زال يرمى ببصره الى العرب والى المعالم الثالث ولقد ادهشه الا تقف الى جانبه اكثر الدول العربية اعتدالا مثل الاردن والعربية السعودية بعد زيارته للقدس . وقال

بـطرس غالى وزير الدولة المصرى للشئون الخارجية ان هذا قد انعكس على موقف السادات الشخصى تجاه بيجين .

ان اولى الاتصالات بين السادات وبيجين لم تكن بالامر السهل . ان الاتصال الجيد هو الذى تحقق مع عزرا وايزمان فقط . انه كان الوسيط بين بيجين والسادات . وحتى لحظة توقيع معاهدة السلام فى مارس ١٩٧٩ لم تكن العلاقات بين بيجين والسادات طيبة . وبعد توقيع المعاهدة بدأ السادات يثق فى بيجين — لكنك فى امكانك ان تثق بدون اية عواطف — وكان هناك دائما تحفظ فى علاقاتهما .

وبعد بدايتين زائفتين على مستوى اقل حاول بيجين فى الاسماعيلية ان يأخذ المبادرة من أجل اسرائيل . لقد حصل السادات على تقدير العالم كله وخاصة فى الولايات المتحدة حيث رحبت ادارة كارتر بأخلاقه وصراحته الواضحة وجاذبيته وتعقله . وبدت اسرائيل وضيفة التفكير ومتمسكة بالنظريات . ورد بيجين على ذلك بمشروع سلام اسرائيلى كان يأمل فى ان يكون جذابا بنفس المستوى . وفى سينما اقترحت اسرائيل انسحاب اسرائيليا مرحيا ومتوازنا بعملية نزع للسلاح على ان تبقى المستوطنات اليهودية فى نتوء رفح وان يظل الجيش الاسرائيلى مسئولاً عن الدفاع عنها . اما فى الضفة الغربية وقطاع غزة فان العرب الفلسطينيين الذين عاشوا فى ظل الحكم الاسرائيلى منذ سنة ١٩٦٧ سوف يمنحون « حكما اداريا ذاتيا » فى ظل مجلس منتخب . وتحفظ اسرائيل بالسيطرة على الامن والنظام العام وان يكون المواطنون الاسرائيليون احرارا فى اقتناء الارض والاستيطان فى هذه الاراضى . ونصت المادة ٢٤ على تمسك اسرائيل بحق السيادة هناك . ولكن لما كانت هناك مزاعم اخرى بهذا الحق فان اسرائيل تقترح ترك هذه المسألة مفتوحة واقترحت المادة السادسة والعشرين الاخيرة مراجعة الاتفاقية كلها بعد خمس سنوات . ولكن فى المناقشات التالية التى جرت بين الامريكيين والمصريين اتضح ان بيجين يعتبر هذا الحكم الادارى الذاتى ترتيبا نهائيا وليس مرحلة انتقالية مؤدية للاستقلال وهذا هو كل ما يمكن ان يطمح فيه الفلسطينيون .

ورفض السادات المثقين من هذا المشروع الاسرائيلى واصر على عدم بقاء أى اسرائيلى ، مدنى او عسكرى ، فى سيناء . اما بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة فقد طالب المصريون بانسحاب اسرائيلى كامل وبأن يقرر الفلسطينيون مصيرهم بأنفسهم وبعدم توقيع سلام منفصل . وفى مناقشتها الخاصة قال السادات لبيجين : « لا أستطيع ان أوافق على تسليم بوصة واحدة من الاراضى العربية . انها مقدسة ورد بيجين بقوله : « سيدى الرئيس اننى لا أستطيع ان أتنازل عن بوصة واحدة من ارض اسرائيل ، انها مقدسة » .

وعاد ديان الى اسرائيل وهو راض لان الزعيمين لم يقطعا المحادثات ، وهو قانع أيضا بان مصر جادة « لقد اقلقني كثيرا الثمن الذي تصر مصر على الحصول عليه منا وهو الانسحاب الكامل من سيناء ، والالتزام بالانسحاب الكامل من الضفة الغربية ومن الجولان وقيام دولة فلسطينية . ولقد أدركت وجود مشاعر عميقة من وراء هذه الكلمات . انها لم تكن مجرد كلمات تلقى . وساورنى الشك فى أن اسرائيل عليها أن تواجه بديلين كلاهما صعب فاما أن تقدم تنازلات قوية ثقيلة أو انها لا تصل الى معاهدة سلام مع مصر » .

لقد صاغ بيجين مشروعه للحكم الذاتى فى سرية كاملة . ففى أول الامر املى صيغة المشروع باللغة العبرية ثم أعاد كتبته باللغة الانجليزية وبخط يده هو . ولما كانت كتابة رئيس الوزراء معروفة بعدم الوضوح للجميع الا للقلة القليلة لذلك فقط طلب من يهودا افنير المتخصص فى قراءة خط بيجين أن يكتب نسخة واضحة من هذه الخطة . وحمل بيجين هذه النسخة معه فى رحلة استكشافية لكل من واشنطن ولندن حيث حاول أن يعرض آراءه على كل من كارتر ورئيس وزراء بريطانيا جيمس كالاهاى . ولقد وجد كلا الرئيسين هذه الوثيقة أساسا مشجعا للتفاوض . . ولكنها أصيبا بالاحباط والقلق عند سماع بيجين يترجم آراءهما التى اسرا بها الى بيجين الى موافقة وتأييد وكانت هذه أولى المناسبات العديدة التى شعر فيها كارتر أن بيجين يرتكب خدعة معه . وفقط عندما وصل بيجين الى واشنطن سمح للفريق المرافق له بنسخ الخطة على الآلة الكتابة . . بوساطة سكرتيرة فى السفارة الاسرائيلية كان بيجين حريصا للغاية على تجنب أية مخاطرة بتسرب أى شئ ولو ضئيلا عن المشروع .

وقد كره عزرا وايزمان ، وزير الدفاع فى حكومة بيجين هذا الاسلوب الذى تنتهجه الحكومة القائمة على السرية البالغة . ولم يكن مقتنه لهذا الاسلوب مرجعه الى أنه كان يترك فى الظل فحسب بل ان نقده لهذا الاسلوب قد يلقى ضوءا على اسلوب بيجين كرئيس للوزراء فقال .

« لا يعمل بيجين بالاشتراك مع الحكومة انها هو يعمل من خلال مكتب تابع له . . وزعماء على مثل هذه الشاكلة لا يحتاجون الى مستشارين . انهم يستغنون عن المستشارين المساعدين . ومثله غير قادر على أن يأخذ فى اعتباره وجهات نظر أو مقترحات لا تتطابق مع فلسفته الأساسية . والناس الذين يعملون بالقرب من بيجين لا يقدمون مقترحات مختلفة أو يقدمون سلسلة عريضة من البدائل . وهذا يعود الى تجربتهم السابقة ، تلك التجربة التى علمتهم أن مثل هذه البدائل ليست أمامها أية فرصة لان تأخذ مكانها من التنفيذ . ويعود هذا أيضا الى أن بيجين قد اختار

مساعدية من نمط معين من الاشخاص والهويات السياسية المعينة . انهم يفكرون كما يفكر هو . لقد تعلموا تخمين ما يريد بيجين وهم يتنافسون في تقديم واقتراح الآراء التي يحبها بيجين ويفضلها ، وبذلك يحوزون على موافقته » .

وعلى الفور ادرك وايزمان الذي أصبح من حمائم الحكومة أن بيجين يرى في الحكم الذاتي وسيلة لتحديد الحكم الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة بدلا من أن يكون أول خطوة نحو قيام دولة فلسطينية . ويقول وزير الدفاع أن هذا هو السبب الذي من أجله لا يتشاور بيجين مع أى شخص قد يحاول أن يبعده عن طريقه هذا .

وبالرغم من أن الحكم الذاتي فشل أمام أول اختبار له في الاسماعيلية فقد ظل الاطار لجميع المفاوضات التي تلت ذلك بين اسرائيل ومصر حول المسألة الفلسطينية ولم يكن السادات راضيا عن هذا المفهوم برمته ولكنه لم يتقدم بأى بديل قد يهيء فرصة للتوصل الى حل متفق عليه وكذلك لم يفعل الأمريكيون . لقد نجح بيجين في تحديد شروط الحوار .

وتدهور العلاقات بين اسرائيل وكل من مصر والولايات المتحدة في الاشهر الثمانية الاولى لعام ١٩٧٧ من سيء الى أسوأ . ونظرا للهوة بين دولتي الشرق الاوسط أصبحت أمريكا شريكا في المفاوضات لا غنى عنه ولا بديل له . وصمم بيجين بأنه الطرف السيء وأنه « عقبة في سبيل السلام » لكنه لم يتزحزح عن موقفه الاساسي . وقال بيجين للجنة المركزية لحزب حيروت في شهر يوليو : « اعتقد أنني عقبة حقيقية — ولكنني عقبة في طريق الاستسلام — الى جانب رماقي في الحكومة وفي الكنيسة وفي الحركة » . ووعده منتقديه في حزب حيروت وكذلك مؤيديه في الحزب بأن مشروع اسرائيل للسلام سوف يفتح الأفاق أمام السلام والامن واستقرار أرض اسرائيل .

وعندما فاز بيجين في انتخابات سنة ١٩٧٧ أدركت واشنطن موقفه المتطرف من مسألة الأرض ، ولكن وزارة الخارجية الامريكية كانت تميل الى التقليل من مدى التزامه بأرض اسرائيل التي تمتد من البحر الابيض الى الاردن ويقول هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية الامريكية السابق لشئون الشرق الاوسط ان وزارة الخارجية تلقت المشورة من اناس يعرفون أن بيجين يمكن أن يكون أيضا سياسيا براجماتيا (عمليا) . وقد أوضح سوندرز ذلك بقوله :

« لقد تم اقناعنا بأننا نستطيع أن نعمل معه ، واننا لن نتوقع بالضرورة الاستخدام بحائط صخري من الايديولوجية . اننا كنا نعرف أنه حائز في وجهة نظره وكنا نعرف وجهة نظره هذه . وقد قيل لنا أنه في مناسبات

سابقة في الحياة السياسية الاسرائيلية قد أدرك الحاجة الى تغيير وجهة نظره في مواجهة الرياح السياسية العاتية واعتقد اننا لم نتبين على التو الاختلافات بينه وبين الحكومة السابقة والمصاعب في زحزحة بيجين » .

وقد استطاع ويم كاندت مستشار كارتر للامن القومى لشئون الشرق الاوسط ان يرى بثاقب ويعد النظر قوة بيجين في معرفته لما يريد ومعرفة مدى استعدادده لان يدفع مقابل ما يريده . فقد قال :

« يتميز بيجين بأشياء لا تجدها عادة في السياسيين انه يتميز بوضوح ادراك — لما يريد ان يفعله وكذلك ادراك للحقائق السياسية وكيفية التعامل معها . انه يعلم ان عليه ان يناور . وفي بعض الاحيان كان عليه ان يؤجل المناورة ولكنه لم يفقد قط وضوح رؤية هدفه . انه كان يعرف دائما الى أين هو سائر ، ولكنه كان قادرا تمليا على التكيف التكتيكي من حين لآخر لقد كنت دائما اذهل من كفاءته السياسية اذا ما أخذنا في الاعتبار كذوبة الارض وأيضا القوى التي كان عليه ان يتعامل معها .

ومن الامثلة على قدرته على المناورة صراحته الواضحة فيما يتصل بالصفة الغربية اثناء محادثاته مع كارتر في ديسمبر سنة ١٩٧٧ عندما كشف عن مشروعه الخاص بالحكم الذاتى . لقد كتب الرئيس كارتر في مذكراته : « بدأ بيجين اكثر ليونة مما كنت اتوقع ولكنى اكتشفت ان كلماته الطيبة لها العديد من المعانى الامر الذى لم يدركه مستشارى ولا أنا في ذلك الوقت » . واشتكى المصريون من أن بيجين قد أدخل الايديولوجية في المفاوضات . ولقد انزعج بطرس غالى من براعته في التحول من المنهج الثانوى الى المنهج الجدلى وغير من ذلك بقوله :

« يتفاوض بيجين كما لو كان محاميا . انه مزيج من المحامى والبرلمانى البارع . انه يستطيع ان يمزج ما بين الجدل القانونى والجدل الدبلوماسى وأيضا الجدل الايديولوجى . ويستطيع ان يقتل من مجال الى آخر طبقا لاستراتيجيته الخاصة فاذا ما وجد نفسه ضعيفا في المناقشة القانونية فانه يفتز الى المنهج الدبلوماسى او الايديولوجى ولقد اعتاد على هذا النوع من المناقشة البرلمانية فهو مجادل جيد . وهو يستخدم نفس التكتيك في المناقشة الخاصة كما فعل على منبر الكنيست » .

ومن الصعب القول بما اذا كان هذا الاسلوب اسلوبا محسوبا ومسيطر عليه ، وما اذا كان متطابقا مع عواطف حقيقية او مشاعر دينية . وليس ذلك هو الحال مع عزرا وايزمان او مع رجل دين مثل يوسف بورج (وزير الداخلية وزعيم الحزب الدينى القومى والذى ترأس الفريق الاسرائيلى للحكم الذاتى) . فلا تراودنا نفس المشاعر . فلدى بورج وبيجين نفس المزيج من العقيدة الدينية

والصهيونية . وكل منهما رجل دين . لكن بيجين بفضل المنهج الدرامى
والمرحى .

لم يدرك المصريون بسرعة أن ايدىولوجية بيجين ليست نسيجاً خارجياً
طعم بها بل هى جذع الشجرة ذاتها . فالرجل هو الايدىولوجية ، والايدىولوجية
هى الرجل وعندما سألته مراسل « البى بى سى » المخضرم مايكل الكنز كيف يريد
أن يذكره التاريخ أجاب بيجين : « على أننى الرجل الذى رسم حدود أرض
اسرائيل وإلى الأبد » . لم يكن هذا طموحاً اكتشفه فى شيخوخته . فمنذ صباه
فى بولندا عاش بيجين فى دير حركة جابوتينسكى الثقافى والفكرى . ولم يكن له
حماس خارجى مثل شغف ديان بعلم الحفريات . ولم يكن له تاريخ منفصل من
تاريخ وايزمان فى القوات الجوية أو تاريخ يعقوب مريدور فى المهام الخارجية .
لقد كان بيجين سياسياً طوال الأربع والعشرين ساعة من اليوم . ويستطيع
أن يكون مرحاً ولكنه نادراً ما يكون مسترخياً . ان اجتماعاته ونزوحه الى العيش
مع الآخرين إنما هو نتاج مهنته التى تملى عليه أن يكون مترقياً ويقظاً ذلك أن
النضال كان شغله الشاغل وبدرجات متفاوتة من الطلاقة يعرف بيجين تسع
لغات هى العبرية والبيدشية والبولندية والروسية والانجليزىة والالمانية
والفرنسية والاسبانية واللاتينية وفى شبابه كرس نفسه لدراسة الآداب
الكلاسيكية الاوربية . وفى مرة أرسل برقية الى زوجة الرئيس السادات يصحح
لها سوء اقتباسها من مسرحية الملك لير (لشكسبير) ولكنه قرأ قليلاً ولم يقرأ
شيئاً البتة فى الادب الحديث بعد ابسن . وفى سنوات المعارضة كان يجب أن
يقرأ فى التاريخ والتراجم . ولكنه هجر الكتب تماماً عندما أصبح رئيساً للوزراء .
وان كان قد قرأ مذكرات كيسنجر ونيكسون وهو فى المستشفى .

وهو يتصفح معظم الصحف العبرية وكذلك ما يقرب من نصف دستة من
الصحف الامريكية والاوربية . وقبل أن يصبح رئيساً للوزراء كان يذهب
مرتين فى الاسبوع الى السينما خاصة لمشاهدة الافلام الغريبة . وكان يتسلل
الى مقعده فى السينما بعد اطفاء الانوار وكان يتسلل خارجاً قبل أن تضاء
الانوار ايذاناً بانتهاء العرض . وهو مولع بالاذاعة والتلفزيون وكان مسلسل
دالاس من العروض المفضلة لديه ، بعد نشرة أخبار الساعة التاسعة . ولكنه
نادراً ما يحضر حفلاً موسيقياً أو يتوجه الى المسرح أو صالات العروض
الفنية . ويوماً عندما اشترك فى أداء احدى الاغنيات قالت له ابنته حاسيا أنه
أفضل فى المقام الخطب من الغناء . وهو يعيش حياة مقتصدة غير متزمتة ذلك
لان أى شئ فاضر أو دخل فى الطعام أو فى الزخرف فهو غريب عنه . لقد كان
بيجين رجلاً من جيل الصحراء بصورة لا يمكن تغييرها أو شفاؤه منها .

ومنذ الايام الاولى لمبادرة السادات تبنى الممثلون الاسرائيليون الثلاثة
الرئيسيون — بيجين وديان ووايزمان — ادواراً منفصلة ولكنها مكملة بعضها

للبعض الآخر . فقد وضع رئيس الوزراء الاهداف واسلوب الدبلوماسية الاسرائيلية وهو الذى اتخذ القرارات . أما ديان فقد كان دائم البحث والتفتيش عن تسوية الخلافات واعادة تحديد بنود الاتفاق محاولا انتزاع المتنازلات من زعيمه ومقدما بعض الافكار . ولم يكن اسهام وايزمان بأقل أهمية فى الفترة التى سبقت مؤتمر كامب ديفيد ، فقد عمل على استمرار الاتصالات الشخصية . وفى أدنى نقاط المفاوضات ظل وايزمان هو الاسرائيلى الذى كان فى امكان المصريين التحدث معه . وهو الاسرائيلى الذى اقنع السادات بأنه لا زال فى الامكان التوصل الى السلام . وكان وايزمان أول اسرائيلى باستثناء بيجين ، قابله الرئيس المصرى على انفراد اثناء زيارته للقدس . وقد قال السادات لرئيس الوزراء بيجين : « أننى أحب عزرا » وقد مضت عدة شهور بعد ذلك قبل أن ينطق اسمه (عيزر) بصورة صحيحة .

وكان ديان ووايزمان مصريين تماما على الا يدعا فرصة السلام هذه تفلت من أيديهم . وبالرغم من أن وزير الدفاع كان عضوا فى حزب حرموت الا أن اخلاصهما لرئيس الوزراء ولبلادته ومثله لم يكن بالاخلاص الذى لا حدود له . وكان هذا ميزة وايضا نقیضة فى نفس الوقت . لقد مكن هذا من تحقيق نوع من البرونة ولكنه فى نفس الوقت كان تحذيرا لرئيس الوزراء لان يحكم قبضته عليهما .

لقد كان ديان يحظى باصفاء الامريكيين له أما وايزمان فقد كان على صلة طيبة بالمصريين . وكان سيروس فتس يشعر بالقلق ازاء غليان وحماس وايزمان الشديد وقد قال :

« ان عيزر رجل شديد الجاذبية ، وشديد الحماس وكفاء الا أنه ينزع الى أن يكون شديد التفاؤل بصورة مبالغ فيها انه لا يواجه الحقيقة بصورة كافية . وهذا مالا يستطيع أن تتهم به ديان . فديان يستطيع أن يرى كل المآزق والشراك . وأحيانا ما يجرف وايزمان الحماس ولذلك فأننى كنت أشعر براحة أكثر عندما انتزع شئ من ديان ذلك لانك تشعر بأنه يرى الحقيقة المجردة القاسية . ولم أكن لأشعر بهذا الشعور مع عيزر . أننى شديد الميل الى عيزر وأنا متأكد أنه وزير دفاع رائع ولكن ليست لديه الطاقة التى لدى ديان » .

وفى مجلس الامن القومى قال وليم كوانت هن ايزمان أنه نافذ الصبر فى مواجهة مجادلات بيجين الشرعية والثقافية وفى مواجهة ما كان يقوم به بيجين من صياغة واعادة صياغته للاتفاقية . لقد كان وايزمان يتوق الى التوصل الى اتفاق . وكما قال كوانت أنه كان مستعدا لان يقول فى أى لحظة من لحظات المحادثات : « دعونا نوقع ونخرج من هنا » .

لكن أحد كبار الدبلوماسيين الأمريكيين ، الذين لا زالوا يتعاملون مع مشاكل الشرق الاوسط ، ولذلك ينبغي أن يظل اسمه مجهولا ، قد قال ان السلام ما كان ليتحقق بدون اشتراك هؤلاء الاسرائيليين الثلاثة .

« لقد كان اسهام وايزمان هو منع الاحباط الذى كان يشعر به المصريون وخاصة السادات من دبلوماسية بيجين ومنع الغليان بحيث لا تدمر عملية السلام . لقد نجح المرة تلو الاخرى في الحفاظ على استمرار العلاقات الشخصية بين القادة الاسرائيليين والمصريين واعطائهم الامل في الاستمرار حتى بعد أن يكونوا قد فقدوا كل امل » .

ونادرا ما كان المصريون يشعرون بالراحة في تعاملهم مع ديان . وقال المتحدث الرسمي باسم ديان وهو تفتالى لافي : « لقد كان هناك برود يخيم على العلاقة بين ديان والسادات منذ اللحظة الاولى التى التقيا فيها في مساء يوم السبت من شهر نوفمبر عندما نزل السادات من الطائرة » .

لقد قل له السادات : « لاتقلق فكل شئ سوف يسير طيبا » . وفى السيارة التى اقلت ديان ود . بطرس غالى الى القدس سأل ديان بطرس غالى قائلا :

هل أنتم مستعدون لتوقيع سلام منفصل ؟ واجاب بطرس غالى : « لا » وقال ديان أنه أساء فهم رد فعل العرب . ونقل بطرس غالى هذا الحوار الى السادات وإلى الأمريكيين . وفسر السادات ذلك على أنه يعنى أن ديان لا يثق فيه . وقال أحد مساعدى السادات أن السادات لم يكن يشعر بارتياح في وجود ديان . فقد كل يشعر بأنه الاسرائيلى الذى لا تستطيع كسبه . لقد كان كل من السادات وديان سياسيا داهية . ولم يكن أحدهما يثق في الآخر كثيرا . ولذلك فإن ديان لم يشترك في ذلك النوع من العلاقة المصطنعة التى قامت بين وايزمان والسادات .

ويقول بطرس غالى أن ذلك لا يعود الى ذكريات المصريين لحرب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ او الى شهرة ديان في المراوغة والخداع . ان ما باعد بينها هو ما عرف عن ديان من أنه خليط من الخجل والفطرسية . ولعب وايزمان دور الوسيط بين السادات وديان وكذلك بين السادات وبيجين . ويذكر غالى قائلا :

« انه — ويقصد وايزمان — قد يقول ان ديان يشعر بالاكثاب . فما رأيكم في دعوته على العشاء أو مارايكم في الاتصال به هاتفيا ؟ انه قد يقول اشياء كهذه : « انتهى في وضع صعب . لقد رأى السادات اربع مرات . وديان رجل خجول ولكنه لم يقابل السادات . » أن بيجين يكن احتراما شديدا لديان كرجل من رجال الصابرا (اليهودى المولود في فلسطين) وكجنرال . انه ينصت لديان ويستمع اليه ولكن ليس بالقدر الكافى . لقد كان لى مع ديان محادثات طويلة

وكثيرا ما كان يقول : « لا يستطيع ان اعدك بشيء فلو كنت اعمل مع بن جوريون لكن في استطاعتي ان اعطيك ردا في خلال ساعتين » . لكنه لم يكن قط يعتقد مقارنة مع بيجين . ولكن هذه المقارنة كانت تفهم ضمنا . فالاسرائيليون يمكنهم ان يطلقوا النكات على بعضهم ولكنهم لم يتصفوا ابدا بعدم الاخلاص . ولم اشعر ان ديان كان يتفادى تعليماته . لقد كان ديان كبير المفاوضين وكان يتفاوض بقدر من الخيال . وكان محددا ودقيقا كمفاوض . ولم يعد قط بشيء لا يستطيع تحقيقه . لقد كان يريد ان يحدد مايعنيه ومايقصده نحن .

لم يكن ديان بالرجل غير المخلص أو غير الوطنى ولكنه كان يدرك ان بيجين على استعداد لتقبل الفشل . ولعله يكون الوحيد الذى يدرك ذلك في الفريق الاسرائيلى . وعندما كان السادات يضع ثمننا مرتفعا للسلام كان بيجين يقول « لا » ويتحمل النتائج وحاول ديان جاهدا ان يحد من امكانيات وحدود التفاهم والقبول ومن اساليبه المحببة ان يقتنع الاخرين — مثل وايزمان أو الأمريكيين — يعرض وجهات نظره وافكاره على انها وجهات نظرهم وافكارهم . ومن اساليبه كذلك وخاصة في الظروف الصعبة ، ان يقدم صيغة وسطا بصفته الشخصية موضحا للمصريين وللأمريكيين انه لا يلزم الحكومة بذلك ثم يتحدى بيجين في ان ينكر أو يعترض على وزير خارجيته .

كان اول ناتج ملموس لقمة الاسماعيلية هو التوصل الى اتفاق بتشكيل لجنتى عمل احدهما سياسية والاخرى عسكرية وذلك لمباشرة تفاصيل المفاوضات وبدأ عمل اللجنة السياسية بصورة مأسوية في القدس في السابع عشر من يناير . لقد زار الرئيس كارتر السادات في اسوان في اوائل ذلك الشهر حيث اعلن عن نظرية امريكية جديدة عن المشكلة الفلسطينية . لقد قال : « ينبغي ان يكون هناك قرار حول المشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها . وينبغي ان تعترف المشكلة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وان تمكن الفلسطينيين وتتيح لهم الاشتراك في تقرير مستقبلهم بانفسهم » وكانت هذه الصيغة قد وضعت بعناية كبيرة بحيث لاثير استنكار الاسرائيليين ورفضهم . ولكن اول رد فعل في القدس هو : « اننا نستطيع ان نقبل ذلك » . ولكن بيجين اوضح ان اسرائيل لن تقبل اعلان كارتر هذا على انه غطاء لاعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير .

« اننا لانحوم حول الموضوع . ان تعبير تقرير المصير كما هو مفهوم في القانون الدولى يعنى قيام دولة فلسطينية ، واننا لن نوافق على قيام هذا الخطر المهيئ بالنسبة لاسرائيل » .

لقد فشلت محادثات القدس منذ وصول الفريق المصرى الى مطار بن جوريون لقد رحب ديان بوزير خارجية مصر محمد ابراهيم كحلل بها اسماء هو الترحيب العام المذهب المعتاد في مثل هذه المناسبات . وتدلنا من أن يرد بنفس الاسلوب اخرج كامل ورقة من جيبه وقرا منها مطالب مصر المتشددة :

« انه لن يكون هناك سلام للارض ، ولن يكون هناك سلام مع انكار الحقوق القومية للشعب الفلسطيني وعلى رأسها حق تقرير المصير » .

وبدلا من استمرار هذا الخلاف الذى نشب فى المطار انتظر ديان حتى صباح اليوم التالى . وفى اجابة لسؤال عدائى فى مؤتمر صحفى قال من الافضل ان تسلب مبادرة السلام من بين اصابع ايديهم بدلا من ان ينتزع امن اسرائيل وسلامتها من بين ايديهم . ان اسرائيل لن تتفاوض والمهندس مصوب الى رأسها . وكان هذا امرا صعبا للغاية على المصريين لتقبله . ولكن بيجين اضاف الى هذه الاساءة فى حفل عشاء فى ذلك المساء ، رغم ان رئيس الوزراء ووزير الخارجية كامل قد اتفقا سرا على وقف حرب الكلمات هذه ، فقدلقى بيجين خطابا سياسيا محمدا فيه الشروط التى لن تقبلها اسرائيل وهى : اعادة تقسيم القدس ، واقامة دولة فلسطينية والعودة الى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ . وكتب ديان فى مذكراته :

« وفى تدفقه البلاغى اساء بيجين عن غير قصد الى محمد ابراهيم كامل بوصفه اياه بأنه شاب صغير وهو غير مدرك ان مثل هذا الوصف يبدو فى اذن المستمع العربى وصفا تحقيريا . وعندما جاء دور كامل ليلقى كلمته وكان مضطريا ويشعر بالاساءة التى وجهت اليه فانه بدلا من ان يقرأ الخطاب المعد مسبقا قال بسلطة ان مكان مناقشة الموضوعات التى اثارها رئيس الوزراء هو اللجنة وليس هذا المكان . ثم جلس ولم يرفع كوبه فى نخب رئيس اسرائيل » .

وعلق وايزمان فيما بعد « ان بيجين كان مقتنعا تماما بأنه يحبل الحقيقة فى جيبه الخلفى » . ولم يستطع بيجين مقاومة اغراء اعطاء كامل درسا فى التاريخ اليهودى ومحاضرة فى فن سياسة الدولة .

. وفى مساء اليوم التالى فاجأ السادات الجميع بما فيهم وفده فى اسرائيل باستدعاء وزير خارجيته كامل الى القاهرة . وعاد المصريون على عجل وفى حالة من الارتباك . ولم يعرف الاسرائيليون ولا الامريكيون عندئذ ما اصاب المصريين . وجاء فى تفسير رسمى من اذاعة القاهرة ان السادات تصرف هكذا عندما أصبح واضحا من التصريحات التى أدلى بها بيجين وديسان ان هدف اسرائيل هو تأمين التوصل الى حلول جزئية لا يمكنها ان تحقق سلاما شاملا عادلا ودائما . وفى طريقه الى مطار بن جوريون اخبر كامل ديان ان الرئيس السادات قد اساءه كلمات بيجين . وقال : « وليس مرجع ذلك ما قاله بيجين فى خطابه ولكن لانهلقى مثل هذا الخطاب منتهكا بذلك الاتفاق الذى تم التوصل اليه قبل ذلك بساعات ثلاث فقط ، وهو الاتفاق الذى ارسل به كامل تقريرا الى السادات ووافق عليه السادات » .

وزادت العلاقات سوءا نتيجة لموضوع المستوطنات الوهمية في صحراء سيناء . وكان ايريل شارون وزيرا للزراعة ومسئولا مسئولية خاصة عن سياسة المستوطنات . وكان جنرالاً متقاعدا يعرف شبه جزيرة سيناء أكثر مما يعرفها أحد غيره في الحكومة الاسرائيلية ولقد حارب في سيناء ثلاثة حروب وتقلد منصب قائد الجبهة الجنوبية . وكان بيجين يستشير في الشؤون الاستراتيجية وشؤون المستوطنات . وبينما كان رئيس الوزراء في واشنطن في ديسمبر سنة ١٩٧٧ اتصل به شارون تليفونيا وأكد على ان تقوم اسرائيل بملء الثغرات في خط المستوطنات الاسرائيلية في سيناء . ففى ضوء مطالب مصر المتطرفة كان يريد ان يعزز موقف اسرائيل التفاوضى . ولقد اوضحت تجربة سنة ١٩٤٨ ان موقع المستوطنات عامل هام وحاسم في رسم الحدود . ونفس الشيء يمكن تطبيقه اذا ما كانت اسرائيل تتفاوض للحفاظ على شريط في شمال سيناء . وكان بيجين مقتنعا بهذا الراى . فكلف شارون بالسـمـر قدما في هذا المخطط . وكانت وجهة نظر وزير الزراعة شارون هى اقامة مستوطنات وهمية مكونة من برج للمياه وخندق للامن وبيوت متنقلة على عجلات وذلك في المواقع الحساسة ودون ان يضع فيها أكثر من قوة رمزية .

وشجب وايزمان هذا المشروع عندما عرض على مجلس الوزراء في وقت متأخر واصفا اياه بأنه صورة ممسوخة سيئة لتاريخ المستوطنات اليهودية في اسرائيل . وعلى اية حال فقد حظى هذا المشروع بالموافقة الاجماعية وبدى العمل فيه . ولم يصدر أى بيان في هذا الشأن ولكن اذاعة اسرائيل حصلت على هذه القصة واذاعتها . وكان المصريون والامريكيون غاضبين من هذا المشروع الذى اعتبروه محاولة لاجهاض المفاوضات . وترك شارون وحده لتحمل حدة الانتقادات وما اثارته فكرة المستوطنات الوهمية هذه من سخرية . ولم يخف بيجين دوره في تكليف شارون بالمضى قدما في تنفيذ هذا المشروع . وسرعان ماخبأ الموضوع كله واختفى لكنه ترك مذاقا مرا . ولم تكن هذه هى المرة الأخيرة التى سار فيها بيجين خلف شارون فى حقل من الألغام . لقد كان سريع الاذعان للخبرة العسكرية وكلفه ذلك كثيرا من المفاجأة السياسية . ولم تكن وجهة وايزمان القائلة بأن هذه المستوطنات الوهمية تكلف اسرائيل فرصة الابقاء على المستوطنات في سيناء وربما أيضا المطارات العسكرية ، بالوجهة المقنعة . لقد كانت الأرض تعنى بالنسبة للسادات تماما ما تعنيه لبيجين . فقد كان السادات مصرا على استعادة كل سيناء حتى آخر بوصة منها . ويستطيع الاسرائيليون ان يأتوا الى سيناء كسياح ولكن لا كمستوطنين أو كجنود في حامية .

وبالرغم من هذا الفصل الاضافى فقد ظلت البؤرة الاساسية للمناقشة هى الأرض — الفلسطينية المحتلة ، الضفة الغربية وقطاع غزة . وقد وصلت الحادثات مع الولايات المتحدة الى درك اسفل جديد في مارس من عام ١٩٧٨

عندما زار بيجين واشنطن مرة أخرى وحاول الأمريكيون استخدام قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ كعتلة لتحريك مقاومة إسرائيل لأي حل وسط بالنسبة للأرض . وقد اعترف بيجين بأن حكومته ملتزمة بقبول الحكومة السابقة لهذا القرار .

نقد قال : « ينبغي الالتزام بالمعاهدات والاتفاقات » وقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ينص على الانسحاب من أراضي محتلة وعدم السماح بالاستيلاء على الأرض عن طريق الحرب . ولكن مستشاري بيجين لم تروعهم مثل هذه الاعتبارات . انهم يجادلون بأن القرار لم يحدد الانسحاب من كل الأراضي ، وان حرب عام ١٩٦٧ كانت حرب دفاع عن النفس بالنسبة لإسرائيل (ولذلك فإن التغيير في الحدود أمر مسموح به) ، وان سيادة الأردن على الضفة الغربية لم تحظ قط باعتراف المجموعة الدولية . وفي حفل وداع أوضح كارتر ما وصفه بلاءات بيجين الست . وقال ديان « بالرغم من ان كارتر قد تكلم بنغمة مملّة الا انه كان هناك غضب في عينيه الزرقاوتين الباردتين . وكانت نظراته حادة مثل الحنجر . ان وصفه لموقفنا وصف صحيح في أساسياته ولكن لم يكن في استطاعته ان يعبر عن ذلك الموقف بصورة أكثر عدوانية . واختتم كارتر حديثه بقوله « ان بيجين قد أصبح عقبة كئودا في طريق تقدم المفاوضات » واذا لم يحدث تحرك في الجانب الإسرائيلي فلن يكون هناك سلام . وهذه الملاحظات هي :

— لا نرغب في الانسحاب السياسي أو العسكري من أي جزء من الضفة الغربية .

— لا نرغب في وقف إقامة مستوطنات جديدة أو توسيع المستوطنات القائمة بالفعل .

— لا نرغب في سحب المستوطنين الاسرائيليين من سيناء أو حتى تركهم هناك تحت حماية الأمم المتحدة أو حماية المصريين .

— لا نرغب في الاعتراف بأن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ينسحب من منطقة الضفة الغربية وقطاع غزة .

— لا نرغب في منح العرب الفلسطينيين سلطة حقيقية أو صوتا في تقرير مستقبلهم لدرجة انهم يستطيعون الاختيار بين البدائل المحددة عاليه (الارتباط مع إسرائيل أو الأردن أو استمرار في إقامة حكومة انتقالية خاصة بهم) .

وبعد ذلك بأسابيع ستة عندما عاد بيجين الى واشنطن للاشتراك في احتفال امريكا بذكرى استقلال إسرائيل كتب كارتر يقول : « اعتقد انه لن يتخذ الخطوات الضرورية لجلب السلام لإسرائيل — انها فرصة قد لا تتكرر أبدا » وحاول بيجين ان يؤكد الموقف الايجابي لإسرائيل لكنه ترك لديان استكشاف

طريق لتقدم المفاوضات . ولم تستطع محاولته الأولى نحو تحقيق موقف أكثر مرونة سوى اذابة القليل من الثلج . لقد وضع وزير الخارجية أربعة مبادئ للسياسة الاسرائيلية هي :

١ — ان قرار رقم ٢٤٢ أساس للتفاوض بين اسرائيل وجيرانها العرب : مصر والأردن وسوريا ولبنان .

٢ — ان مشروع اسرائيل للسلام والذي يتضمن حكما ذاتيا ليهودا والسامرة ولقطاع غزة مشروع يتفق مع مبادئ القرار رقم ٢٤٢

٣ — اذا باقدم العرب مقترحات مقابلة فان اسرائيل سوف تناقشها بما تستحقه .

٤ — ان قرار ٢٤٢ يطالب باجراء مفاوضات .

وهذا العرض الجديد تم رفضه باعتباره مناورة في العلاقات العامة . وبدأ السادات في وضع تواريخ نهائية (وفي رواية انه حدد شهر يوليو وفي رواية أخرى انه حدد شهر أكتوبر) وبدأ في التحدث عن خيار الحرب . وخرج وايزمان من اجتماع لمجلس الوزراء ليعلن انه اصدر أوامره للجيش ليستعد للمعركة . وفي مناسبة أخرى مزق وزير الدفاع ملصوقا عن السلام . وفي اجابة عن اسئلة أمريكا قال بيجين في الثامن عشر من يونيو ان اسرائيل راغبة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتي في الضفة الغربية ان تتدارس وتتفق على صيغة مستقبل العلاقات بين الاطراف » وهذا يبعد كثيرا عن مطلب أمريكا بأن تكون اسرائيل مستعدة لمنقشة السيادة بعد فترة انتقالية ، رفض المصريون هذه الصيغة على انها مثل آخر على تصلب بيجين وعناده .

ولم يجعل ديان الوضع أفضل بقوله أن معظم الوزراء الاسرائيليين قد رفضوا الزام اسرائيل بأن تقرر بعد خمس سنوات الوضع الدائم لهذه الأراضي ذلك لانهم يعتبرون الادارة الذاتية هي الاطار الدائم لهذه الأراضي .

وكان من المتوقع أن ترفض اسرائيل اقتراحا مصريا باعادة الضفة الغربية وغزة للعرب لفترة مؤقتة وحاول السادات في أوائل يوليو ان يذهب من ورا بيجين لعقد محادثات في انهمسا مع وايزمان وزعيم حزب العمل شيمون بيريز ولكن رئيس الوزراء بيجين وضع حدا لذلك بأن أعلن بحدة قائلا : « ينبغي أن يوجه الحديث الى انا » وحذرت الحكومة السادات قائلة أن جميع الاتصالات في المستقبل ينبغي ان تجرى مع بيجين أو من يحدده كممثل له .

« ان سلطة التفاوض مع مصر أو مع أى دولة في حالة حرب مع اسرائيل انها هي قد أعطيت للحكومة ولن يمثلونها . وسوف يكون مستوى التمثيل في عملية المفاوضات متساوية . وسوف يرأس رؤساء الدول أو من يخولونهم من الوزراء فريق المفاوضات » .

وأول خرق لحائط العناد المتبادل جاء نتيجة لاجتماع غير ناجح بين وزراء خارجية كل من أمريكا واسرائيل ومصر في قلعة ليدز في كنت . وكانت هذه احدى المناسبات التي جرب فيها ديان حظه . فلقد سلم وزير خارجية أمريكا سيروس فانس مذكرة عبر فيها عن وجهة نظره الشخصية « وقال انها مقدمة » على مسئوليتي الخاصة » واقترح فيها أن تعلن اسرائيل استعدادها لمناقشة مسألة السيادة على الضفة الغربية وغزة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتي . . وفي نفس الوقت كرر أن اسرائيل لن تنسحب أبدا الى خطوط ما قبل سنة ١٩٦٧ حتى مع ترتيبات الامن ولكنها سوف تناقش أية اقتراحات عربية محددة من أجل السلام تقوم على الحل الوسط بالنسبة للأرض وغضب بيجين من فكرته هذه ومن تمرده وعصيانه . واستجاب وزير الخارجية بأن عرض على بيجين الخيار بين أن يؤيده أو يطرده أن يتحمله بشروطه هو أن ينال منه :

« لقد أخبرت رئيس الوزراء أن ما قلته وكتبته انما يعكس موقف الحكومة ، على حسب مفهومي ، ولذلك فأننى لن امتعض أو استاء اذا ما هو أو الحكومة ابطلته أو سحبته . اننى سوف أقبل بحكمهم وأخطر فانس طبقا لذلك - وأضفت قائلا : اننى على أية حال لست بمستطيع أن أدبر المفاوضات دون أن يسمح لى بأن أتقدم بالانكار والمقترحات ، بينما أؤكد انها تمثل وجهات نظرى الشخصية التى ربما قد لا توافق عليها الحكومة . وكان هذا موضوعا كثير التردد حيث كنت أنا وبيجين مصرين على موقفنا حياله . ولم أكن مستعدا لأن أتصرف بصورة أخرى . وكلن بيجين يعلم هذا تماما . وكان السبيل الوحيد المفتوح أمامه اذا ما أصر على أن أحذو حذوه هو أن يبحث له عن وزير خارجية غرى » .

لكن الوقت كان مبكرا جدا فى حكومة بيجين لان يتخذ رئيس الوزراء مثل هذه الخطوة العنيفة المتطرفة بالرغم من أن ديان قد ذهب بعيدا وأبعد بكثير من موقف الحكومة وكفوا جميعا يعلمون ذلك . وكان بيجين لا يزال فى حاجة الى ديان . ولدهشة وزير الخارجية اقترح بيجين ان تؤيد الحكومة ، ذكرته لسيروس فانس وان تعرض هذه المذكرة على الكنيست للموافقة عليها . ولقد حصلت المذكرة على موافقة ٦٤ عضوا مقابل ٣٢ عضوا وذلك فى ٢٤ يوليو . وقال ديان بكثير من الرضى والقناعة « ان المذكرة التى قد قدمتها الى فانس فى قلعة ليدز قد أصبحت وثيقة رسمية تمثل موقف اسرائيل » وبالرغم من الجمود المستمر فان « صيغة ديان » قد مهدت الطريق أمام مغامرة الرئيس كارتر اليائسة والمعروفة باسم « قمة كامب ديفيد » . ومرة أخرى سمح بيجين لجنرال سابق بأن يثير غضبه ويضايقه ، ولكن هذه المضايقة ، هذه المرة كانت فى موضوع وقضية أكثر رقّة ولطفا .

الفصل الخامس عشر معرض اعتقال فاخر

كتب زيجنيو بريجنسكى مستشار الامن القومى فى مذكرة سرية للرئيس جيمى كارتر يوم ١٨ يوليو عام ١٩٧٨ ما يلى : « يبدو لى أنه اذا خرجنا على رؤوس الاشهاد وجانبنا النصر ، فستعرض سياستنا فى الشرق الاوسط لحالة من الفوضى الشديدة ، كما أنه سيتم رفض السلدات وآخرين معه أو أنهم سيتحولون الى اتجاه راديكالى وبعبارة أخرى . اذا خرجنا على الملا فلابد أن نفوز » . وعقد الرئيس ، وهو يدرك تملها المخاطر التى ينطوى عليها مثل هذا الموقف ، مؤتمر قمة مع الزعيمين المصرى والاسرائيلى فى كلب ديفيد ، وهى استراحتة الرسمية فى تلال منطقة ميرلاند التى تبعد عن واشنطن سبعين ميلا . وخلص الى انه من الافضل العمل من خلال بيجين وليس ضده .

وبدا المؤتمر يوم ٥ سبتمبر وانتهى بعد ذلك بثلاثة عشر يوما ، كانت الوفود الثلاثة خلالها فى حالة من الاعياء الجسدى والذهنى الشديد كان ذلك المعسكر الذى تحيط به أشجار كثيرة ، قد اقيم من أجل فرانكلين د . روزفيلت خلال الحرب العالمية الثانية . وقام الرئيس ايزنهاور بتغيير اسمه من شانجرى لاه الى كامب ديفيد وفقا لاسم حفيده الاكبر . ووجد (عيزرا وايزمان) ذلك المكان يثير الشعور بالخوف من الاماكن المغلقة رغم ما يحيط به من طيور السنجاب اما موشى ديان ، فلم يشعر بالارتياح فى قلب النباتات الغربية وبساط أوراق الخريف البنى اللون المائل الى الذهبى . وكان الشئ المغرى فى ذلك المكان هو انه من الممكن الابقاء على الصحافة وروادها فى وضع حرج يضطرون معه للدفاع عن انفسهم . وكان الزعماء الثلاثة ورفاقهم ينعمون فى ذلك المكان بعالم خاص من الكبائن والممرات وملاعب البولينج والتنس وحمام سباحة وقاعة للتلياردو وسينما وبعد أن عاد ديان من مهمة استطلاعية وقدم تقريرا عن سياج الامن المخيف ، اطلق (بيجين) عليه اسم « معسكر الاعتقال الفاخر » . ولما كانت مدة بقائهم هناك طويلة فقد تندر (بيجين) بقوله ان عليه أن يرسل الى هارب جماعة الارجون القديمة « يلكوف مريدور » لتهريبهم . وسلم الاسرائيليون بان الكبائن موضع تجسس ، لكن بريجنسكى أصر على عدم وجود شئ من هذا القبيل واستبعدت توصيته .

كانت كامب ديفيد ملعبا أمريكيا ، ولم يلعب التنس أو البولينج سوى عدد قليل من الاسرائيليين أو المصريين ، اذا لعبوا على الاطلاق . وكان كل

من السادات وديان يقوم بنزهات منفصلة على الاقدام كل يوم . وركب وايزمان دراجة للمرة الاولى منذ طفولته . أما الاسرائيليون الاصغر سنا فلعبوا البلياردو كثيرا وشاهدوا السينما . ولعب بيجين الشطرنج مع بريجنسكى ، واعطى بيجين . سواء كان بمحض الصدفة أو عن قصد ، مستشار الامن القومى انطبعا بأنه لم يلعب منذ ثمانية وثلاثين عاما . ووجد البروفيسور البولندى الاصل ان « بيجين » يلعب بطريقة منظمة وعدوانية الى حد ما ، وان كانت مدروسة استراتيجيا . وتحدث الرجلان باللغة الانجليزية وليس بلغة طفولتهم وشدت المنافسة بينهما انتباه « ديان » الذى كان يتفرج عليهما من حين لآخر . . . وكتب يقول : ان اللعب برهن على انه مواجهة ميدانية وليس شكلا من التسلية السلمية ، حيث كان يستमित كل منهما على هزيمة الآخر . وطمس الغموض النتيجة مثلها في ذلك مثل الكثير مما حدث في كامب ديفيد ، انه لامر عادى أن تكون اللعبتان الاوليان متساويتين . وزعم بريجنسكى انه فاز باللعبة الثالثة وما تلاها من ادوار . الا انه طبقا لما ذكره بهيل قاديشاى فانهما لعبا دورا رابعا فاز به بيجين وبذلك أصبحت النتيجة متساوية . واتصل هاميلتون جوردان كبير مستشارى الرئيس كارتر برئيس الوزراء تليفونيا ليهنته . وقال لو كلن بريجنسكى هو الذى فاز لما كان بوسعهم الحديث اليه .

كان الامريكيون يعلمون ان اجتماع القمة كان مقامرة ، الا انهم اساءوا تقدير الاحتمالات . وحدد البيت الابيض للمباحثات ثلاثة أيام مع احتمال مداها ليوم رابع لو أحرز المؤتمر تقدما بشأن مبادئ السلام . واعترف كارتر بعد ذلك قائلا انه ما كان هناك شخص يحلم بوجودهم هنا طوال ثلاثة عشر يوما في اجتماعات مضية وغير مشجعة ، ودون أن يلوح في الافق احتمال النجاح الا في الساعات الاخيرة . ولم يكن هناك توازن في المفاوضات في اكثر من ناحية . وكان كل من بيجين والسادات قد وصل الى كامب ديفيد ولديه تصميم على خوض مساومة صعبة ، الا ان الزعيم الاسرائيلى كان يتمتع بميزة وحده من بين الزعماء الثلاثة الذى يمكن أن يتوقع الفشل برباطة جأش . وهناك الكثير من الاسرائيليين الذين سيשמعون بخيبة أمل مريرة ، ومن بينهم كبار الاعضاء في وفده ، الا أن بيجين سيشرح لهم أنه فعل كل شيء لتحقيق السلام اللهم الا التضحية بأرض اسرائيل وحينئذ سوف يوحد الليكود صفه . وستخرج حكيمته سالمة من هذا الموقف ، وستظل إسرائيل محتفظة بسيئات ، ومن ناحية أخرى لم يكن (كارتر) وسيطا نزيها . وكتب يقول « يبدو ان السادات يثق في كثيرا ، بينما لا يثق بيجين في بالقدر الكاف . وبالمثل انه لامر حقيقى ان الرئيس الامريكى كان يثق في السادات كثيرا وكان يشك في بيجين . وصرح في حديث صحفى قدمه لمجلة التليم قائلا : اننى لا أحاول حتى أن أنكر اننى موال للسادات . . » انه صريح تماما ، وشجاع وكريم وبعيد النظر «

وكان مستعدا لتجاهل التفاصيل وتحقيق سلام يعود بالفائدة عليه ، وعلى مصر » . وكان كارتر مستعدا لان يتسامح مع السادات أكثر مما يتسامح مع الزعيم الاسرائيلى . ويرجع ذلك من ناحيه الى ان السادات أطلقه مسبقا على بعض أوراقه — بينما يرجع من الناحية الأخرى الى أنه استسلم لسحر السادات . كما أن مطالب السادات لم تكن أقل تطرفا من مطالب بيجين ، لكنه ترك المساومة لمستشاريه وسهل له ذلك الاحتفاظ بموقف رجل السلام المنطقى والشجاع . وعلى العكس من ذلك ، كان بيجين أكثر المفاوضين الاسرائيليين تعنتا ، إذ كان يدقق فى كل كلمة وعلامة ترقيم ويواصل الليل بالنهار . وعندما دعت (روزالين كارتر) ، زوجة الرئيس الأمريكى الزعماء الثلاثة مجتمعين بأن يطالبوا العالم بالانضمام اليهم فى الصلاه من أجل النجاح ، أصر بيجين على مشاهدة النص . كان (بيجين) صعب المراس كما كان مزعجا وواسع الاطلاع أما السادات فهو رجل ذو ثقافة مختلفة لها وقعها وقيمها ذات المذاق الخاص . وكان من الضرورى أن تكون هناك تجاوزات ، ولكن السادات يريد من كارتر أن يقدم بالترويج لأفكاره نيابة عنه لكن بيجين رفض على الدوام أى شئ من هذا القبيل . وهو يستطيع التصدى للسادات حتى النهاية ، لكنه رفض التصدى للأمريكيين بنفس الصورة . وأثناء المفاوضات توسل (بيجين) لكارتر ألا يقدم مقترحات مصرية صنعت فى أمريكا ، واتخذ السادات موقف الهجوم منذ اليوم الثانى . فقدم ما اعترف به كارتر بأنه مشروع جديد للغاية « لتحقيق سلام شامل ملء بكافة العبارات العربية المطنانة غير المقبولة » وهو يطالب ضمن أشياء أخرى ، بانسحاب اسرائيلى من كافة الاراضى المحتلة وازالة جميع المستوطنات الاسرائيلية ونقل سلطتها الى عرب الضفة الغربية وقطاع غزة ، مع توفير فترة انتقالية مدتها أربعة أعوام يقوم الاردن خلالها بالاشراف على الضفة الغربية وقطاع غزة ، بالتعاون مع ممثلين منتخبين بطريقة حرة من الشعب الفلسطينى يتولون ممارسة السلطة المباشرة على الادارة » . وقبل انتهاء الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة أعوام بسنة شهـهور ، يمارس الفلسطينيون حقهم الاساسى فى تقرير المصير وتتم مساعدتهم على انشاء كيان وطنى لهم » . أما اسرائيل فستتم مطالبتها بالانسحاب من شرق القدس الى خطوط الهدنة التى كانت قائمة عام ١٩٤٩ علاوة على عودة السيادة والادارة العربية الى القطاع العربى . وأخيرا طالب السادات بأن تدفع اسرائيل تعويضا كاملا وعاجلا عن الضرر الذى ترتب على العمليات التى تقوم بها قواتها المسلحة ضد السكان المدنيين والمنشآت المدنية ، بالاضافة الى استغلالها للموارد الطبيعية فى الاراضى المحتلة . وهذا المطلب الاخير من شأنه أن يشمل تعويضا عن ملايين البراميل التى قامت اسرائيل بضخها من حقول بترول سيناء منذ عام ١٩٦٧ . واختار بيجين ألا يتمرد فى أول اجتماع مشترك له ، وتصرف كل من بيجين والسادات بأحسن ما فى وسعهما ، لدرجة أن كارتر اعتقد بأن بيجين قد خفف من موقفه ازاء التشدد فى وثيقة السادات ، التى

وصفها لعدة أيام بعد ذلك بأنها دليل على الموقف غير المنطقي من جانب المصريين .

وفي اليوم الثالث ، وبعد التشاور مع زملائه ، رفض بيجين الوثيقة تماما ، وأبلغ كارتر بأن ذلك يحمل رائحة دولة منتصرة تفرض النصر على الطرف المهزوم وقال ان هذه الوثيقة لا تمثل أساسا صحيحا للمفاوضات . وكان السادات يريد سلاما مع اسرائيل لا يكون هشا فحسب وانما يكون قدريا أيضا . وفيما برهن على أنه آخر جولة وجهها لوجه في قمة كاهب ديفيد ، قام بيجين بتشريح مقترحات السادات فقرة فقرة . ورد السادات على ذلك قائلا انكم تريدون الارض ، ومصر تقدم لاسرائيل الامن ، وليس الارض . وقال كارتر « لقد زال التحفظ وأحمرت الوجوه وانتهت المجاملات واللغة الدبلوماسية . ولقد اغفلوا في أغلب الظن أنني كنت موجودا » . وقبل أن ينفذوا من اجتماعهم بعد ثلاث ساعات من المناقشة المكثفة ، اشتكى السادات من أن المشاعر الودية التي تحققت بعد زيارته للقدس قد تلاشت » . لانه لم يعد هناك حد أدنى من الثقة منذ أن تصرف بيجين بنية سيئة » وعند استئناف الاجتماع في وقت لاحق من النهار ، تبادل الزعيمان المحادثات بسرعة انتهت الى طريق مسدود بشأن المستوطنات . وقال السادات ان الشعب المصري لن يقبل أبدا أى انتهاك لاراضيه أو لسيادته ، وأجاب بيجين بأنه ليس هناك سبيل يستطيع به اقناع حكومته أو شعبه بإزالة المستوطنات أن نقل المستوطنين من شأنه أن يعنى سقوط حكومته . وعند ذلك وقف السادات وهدد بالانسحاب من الاجتماع ومن مؤتمر القمة . واعترض كارتر طريقته الى البـاب وطلب من كليهما وقف المحادثات . ووافق بيجين على الفور ، ووقف السادات وهو يستشيط غضبا قبل أن يوميء برأسه ، ثم خرج بدون أن ينطق بكلمة أخرى . ورأى الأمريكيون الآن بصورة أكثر وضوحا من ذي قبل . انه يتعين عليهم الامسـاك بزمـام المبادرة . وظل السادات في حجرته الخاصة وهو عابس الوجه ، وأبلغ مستشاروه بريجنسكى بأن الرئيس يفكر في العودة الى الوطن . ورفض بيجين الترحيح بشأن القضيتين الرئيسيتين المتعلقتين بمستوطنات سيناء وتطبيق القرار رقم ٢٤٢ على الضفة الغربية وقطاع غزة ، الا أنه تخلى عن ما اعتبره كارتر بمثابة تلميح بالمرونة عندما قال للرئيس الأمريكى : « اننى لن أوصى شخصا أبدا بإزالة المستوطنات القائمة في سيناء » . وليس هذا مثل القول بأنه لن يذعن أبدا لازالتها . الا أن بيجين كان مصمما على موقفه بشأن الاراضى الفلسطينية المحتلة . وهاجم كارتر في نقطة ما رئيس الوزراء بقوله : « ان ما تريد أن تفعله هو أن تجعل الضفة الغربية جزءا من اسرائيل » وأجاب بيجين على ذلك قائلا : « ان الحكم الذاتى شىء والسيادة العربية شىء آخر . ولن تشمل مبدأ القرار ٢٤٢ الذى ينصر على عدم جواز الاستيلاء على الارض بالحرب » . وقال نقلا عن المزامير « أوه ياقدس لو أنساك » . وقال بيجين

لكارتر شلت يمينى قبل أن أوقع على مثل هذه الوثيقة » . وعلى الرغم من انتعاب المتزايد ، أعدالامريكيون مشروع اتفاقهم في اليوم الخامس . وفي اليوم التاسع أدركوا أنه لن يصدق عليها أى من الجانبين بدون ادخال تعديل كبير عليها . وقدم بيجين بيانا موجزا غير أساسى أوحى فيه بأنهم قد يعودون جميعا الى بلادهم . وحينذاك اتخذ كارتر خطوة غير تقليدية أدت في النهاية وان كانت ببطء وتذبذب الى التوصل الى اتفاق ، فقد أنشأ فريق عمل يضمه هو وسيروس فانس وآهرون باراك المدعى العام الاسرائيلى وأسامة البزاز وكيل وزارة الخارجية المصرية للشئون الخارجية . ولم يتم السماع عن قيام رئيس دولة بالتفاوض حول التفاصيل بهذه الطريقة مع خبيرين منيين ، كان عليهما حينذاك التنقل جيئة وذهابا لاقتناع رؤسائهم بالمقررات المتفق عليها . الا أن ذلك كان مجديا .

والى جانب ديان ، ظهر (باراك) كأحد أبطال الفريق الاسرائيلى وفي عام ١٩٧٨ كان أستاذ القانون في ريعان شبابه في الواحدة والاربعين من عمره وكان مرشحا بالفعل لمقعد المحكمة العليا لكنه ظل مدعيا عاما طيلة فترة محادثات السلام . وعلى الرغم من أن حكومة حزب العمل هي التي كانت قد عينت (باراك) ، فإن بيجين كون شعورا غير عادى بالاحترام تجاه مواهبه كعالم ضليع في القانون . وكان (باراك) مثله في ذلك مثل ديان ووايزمان متمطشا للسلام . وقد استغل كل مهارته ومكانته لكسر مقاومة بيجين ، وتأثر سيروس فانس ، بصفته زميلا له في المحاماة بنوعية ذهن (باراك) وقال عنه انه رجل على درجة عالية من الحساسية والرأى المصائب . ولا يمكن تقييمه بشيء في كثير من النقاط الصعبة في المفاوضات . وهو لديه موهبة عجيبة في استخدام الكلمات ، ويستطيع دائما أن يضع نفسه في مكان الشخص الآخر ، ثم يحاول أن يجد سبيلا لارضاء حاجة ذلك الشخص الاخر بدون أن يضر بالمصالح الحيوية لبلاده . وساتفق أنا وديان على طريق الالتفاف حول المشكلة ، وسيجد (باراك) بدوره الكلمات اللازمة لتوفير الطريق للالتفاف حول العقبة او تخطيها .

ووجده (ويليام كوانت) خبير الرئيس لشئون الشرق الاوسط اسراييليا تعلم بنجاح كبير كيفية التأثير على الموجات الطويلة لبيجين . . لقد عمل بثابة في المضمون والصياغة ولعب في الاغلب لعبة تلمودية في تغيير العبارات ، بدون أن يكون قلبه في الحقيقة حاضرا فيها . ولم يكن يعتقد في الواقع أن هذه الاشياء من الامور التي تستحق الخلاف حولها الا أنه أدرك أيضا أنه أمر هلم للغاية لئلا ينعكس ببيجين . وهو على استعداد لأن يقوم بالكثير من الصياغة واعادة الصياغة والتفكير في الصيغ التي قد يقبلها ببيجين .

وبوحي دبلوماسي أمريكي آخر يعرف بيجين وباراك بأن كارتر استغل اهتمام باراك بالاتفاق وبالرونة . وقد أوضح ذلك بقوله :

« اقنع الرئيس الأمريكي (باراك) بالتقدم بسبل للتعبير عن المفاهيم والمضامين الغامضة بلغة قانونية وعندئذ يستطيع باراك أن يبررها لبيجين بلغة قانونية ويقتنع بان هناك تفسيرا قانونيا . ومشروعا من شأنه أن يحمي موقف بيجين رغم ما يكتنفها من غموض . وهناك عدة مواضع في النص تتجلى فيها قدرة (باراك) على ان يفسر لبيجين كيف يمكن تفسير احدها بحيث أصبح معناه (اكس) في حين انك ربما تعتقد من شكله الظاهري أنه يعنى (واى) ، الامر الذى أعطى لبيجين تبريرا ليسمح له بتقديم هذه التنازلات ، عندما قرر تقديمها بدلا من فقدان الاتفاق . وليس بوسع أى شخص آخر أن يفعل ذلك . وفي الوقت نفسه ، كان ديان يناقش الاسباب الدبلوماسية أو السياسية لقبول مثل هذه الامور ، الا أن بيجين لابد أن يكون لديه تبرير قانونى لارضاء نفسه ونظرته الخاصة للمبادئ القانونية » .

وساهم أيضا المدعى العام في تحقيق التقارب مع المصريين ، بالرغم من انهم لم يكونوا متاكدين مثل الأمريكيين من مدى نفوذه . وقال (بطرس غالى) ان (باراك) نجح فى خلق جو من الثقة القانونية « ، مثلما خلق وايزمان جوا من الثقة الانسانية » . لقد وثقنا فى باراك عندما قال « اننى اريد هذه الكلمة فى المادة الرابعة من أجل كذا أو كذا » .

وعلى الرغم من ذلك لم يتخل بيجين ابدا عن السيطرة على الاستراتيجية للمفاوضات . وقد حدد المتضليا التى يمكن أن يتوقفوا عندها . وقرر الوقت والسبيل لتقديم تنازلاتهم تلك التى يمكن أن تعطى . وقال أحد الشهود الأمريكيين أن (بيجين) أظهر شعورا رائعا بالوقت . وقد كان متمكنا من معرفة عنصر التوقيت ومتى تحين اللحظة الاخيرة للتوصل الى حل وسط . وقد حقق مقابل تقديم تنازل صغير أكثر مما يستطيع أن يحقق مفاوض آخر من أى نوع مقابل تقديم ما هو أكثر من ذلك . ويتذرع رئيس الوزراء بصبر العالم كله وفى بعض الاحيان يبدو أنه يلعب لعبة الاستنزاف لذاتها ، ويفقد منظر الغابات من أجل الاشجار . ولقد وجده كارتر صارما وغير خيالى . وذكرت (روزالين) زوجته لبريجينسكى ان الرئيس قد اطلق على بيجين اسم (المعتوه) ، وهو لفظ كان كارتر أمينا جدا لدرجة أنه لم ينكره عند مواجهته به على شاشة التلفزيون الانسائلى خلال زيارته الخاصة للقدس فى شهر مارس عام ١٩٨٣ . . الا أنه فى نهاية محنة كامب ديفيد التى استغرقت ١٣ يوما لم يشك أحد فى أن ثمة منهجا فى جنون بيجين . ويصف فانس بيجين بأنه . . واحد من أبرع لاعبي البوكر فى العالم الذين شهدهم .

وهو يستطيع أن يعرض قلبا جريحا بطريقة مؤثرة للغاية : وتعد
أظهر كل مشاعر الألم وعدم التصديق عندما قال : « كيف يمكنك أن تتوقع
منا قبول موقف من هذا النوع ؟ » ، وحينذاك يجلس هناك دون أن
يسجل على وجهه شيئا . أنه يحاول ويصمد في وجه خصمه حتى النهاية ،
وهو عنيف يستطيع البقاء بعد أي شخص آخر على الجانب الآخر للمنضدة
إذا استلزم الأمر وهذه جميعا صفات المفاوض الماهر ، أو لاعب اليوكر
الماهر للغاية .

وكان يبجبن واضحا جدا في أهدافه ودقيقا للغاية في تفكيره وقد قدم
بعض المطالب التي كان على استعداد للتضحية بها . واستطيع أن أذكر
عددا من مرات عندما قال فيها أن ذلك شيء لن نتفق أبدا على حل وسط
بشأنه ، وفي وقت لاحق من نفس اليوم ، بعد أن دق على المائدة ، نبر
تفكيره . وقد اكتشفت ذلك في وقت مبكر إلى حد ما ، ولذلك لم أقبّل أبدا
تصريحاته التي يقول فيها : « أنني لن استسلم أبدا بشأن هذه النقطة » ،
وخلصت إلى أن ذلك جزء من أسلوبه وهو لا يعنيه .

رفض ببجبن التفاهم بشأن ثلاث قضايا وهي : مستوطنات سيئاء
وصياغة القرار ٢٤٢ (الاستيلاء على الأرض بطريق الحرب) وأخيرا القدس .
وعلى الرغم من التقدم الذي أحرزته مجموعة العمل التي أنشأها كارتر
والفريق المائل الذي يضم وزراء الخارجية تحت إشراف بريجنيسكي ،
أوشك اجتماع القمة على الانهيار مرة أخرى في اليوم العاشر واليوم
الحادي عشر . وظهر الإسرائيليون كجبهة موحدة من أجل الإبقاء
على المستوطنات ، في حين رفض المصريون السماح ببقائها ، وبدأ كارتر
في اعداد خطط لانتهاء المؤتمر وتقليل الضرر إلى الحد الأدنى وقد حدد
يوم الاحد ١٧ سبتمبر على أنه الموعد النهائي . والاعتراف بالفشل أفضل
من السماح لاجتماع القمة بأن يموت ببطء . وحزم السادات ومساعدوه
حقائبهم وطلبوا من الأمريكيين توفير طائرة هليكوبتر لهم . وتبادل الرئيس
المصري حديثا حادا مع ديان ، إلا أنه استجاب لآخر نداء شخصي من
جانب كارتر . وشمر بعض الأمريكيين المتشككين بأن السادات يمارس
التمثيل . وهو لا يحتاج إلى الكثير لاقناعه . وقال (ويليام كواندت) أن
هناك جزءا في السادات يتقمص شخصية الممثل . « وهو يعلم أن كارتر
سريع التأثر بذلك النوع من ندائه العاطفي » .

وحدثت بعض المفاجآت على المسرح . فقد تنازل وايزمان ، الذي تمثل
دوره حتى ذلك الحين في الإبقاء على توهج الجمرات ، عن المطارات العسكرية

في سيناء مقابل نعهد من جانب (هارولد براون) وزير الدفاع الامريكى ببناء بدائل لها في صحراء النقب . واتفق (باراك) واسامة الباز على ازالة عبارة « عدم جواز الاستيلاء على الارض بالحرب » من النص الرئيسى ، ونشر القرار كاملا على انه ملحق به ملحوظة في المقدمة بأن كلا الطرفين يوافق على القرار ٢٤٢ بجميع أجزائه . « وتجرع (بيجين) عبارة « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى » التى كان قد أصر من قبل على أنها تتمثل خطرا مميتا لاسرائيل . وبعد محاضرة أدلى بها على رفاقه حول الاصل اللاتينى لكلمة « مشروع » تساءل قائلا « هل يمكن أن يكون الحق » غير مشروع ؟

الا أن النزاع حول مستوطنات سيناء لا يمكن حله بدون حدوث معجزة . وظهرت هذه المعجزة في الشكل المروع والمستبعد لاريل شارون ، وهو بطل الحرب المحبب الى بيجين والمسئول عن الاستيطان . واقتراح الجنرال افراهم تامير قائد التخطيط العسكرى في عهد وايزمان الاتصال تليفونيا بشارون واعطائه تقريراً عن أزمة كامب ديفيد واقتناعه بحث بيجين على الجلاء عن المستوطنات . وكان (وايزمان) يساوره الشك فيما اذا كان (شارون الروح المحركة خلف برنامج الاستيطان ، سيتعاون أم لا ، الا أنهم لن يخسروا شيئا . ولموض لتامر بأن يجرب حظه) .

« وبعد ذلك بضع ساعات قليلة ، كان بيجين البالغ التأثير يبلغ الوفد الاسرائيلى بان آرييل شارون قد اتصل به تليفونيا . والشيء الذى أدهشه ان ثيارون كان يحيد اجلاء المستوطنات اذا كانت هى العقبة الاخيرة في طريق تحقيق اتفاقية السلام . وقال شارون لرئيس الوزراء . . اننى لا ارى أى اعتراض من الناحية العسكرية على اجلائها .

وتأثر بيجين ، الا أنه كان مازال رافضاً بشأن التخلي عن المستوطنات ، وان حجته في الإبقاء عليها قد بنيت على أسس أمنية وكان فتوء (رفع) يمثل منطقة عالية لها قيمتها بين سسيناء التى ستتم اعادتها الى مصر وبين اللاجئين الفلسطينيين فى قطاع غزة البالغ عددهم ٤٠٠.٠٠٠ شخص ، وهى أرض تجنيد خصبة للإرهابيين . ولكن الامن لم يكن اهتمامه الوحيد ، اذ ان رئيس الوزراء ، مثله في ذلك مثل الكثير من الاسرائيليين من مختلف المذاهب السياسية يشعر بانزعاج لفكرة استئصال المستوطنين من جذورهم . ويتعارض ذلك مع الزاج الوطنى . وهو متاف من أن يضع سابقة للصفة الغربية ومرتفعات الجولان . الا أنه في المقام الاول كان بيجين يخشى من أن يؤدى التخلي عن المستوطنات الى حدوث انقسام في صفوفه ، الامر الذى حدث بالفعل على وجه السرعة .

وعندما اجتمع الرئيس كارتر في اليوم الثاني عشر ، كان (بيجين) مازال يحاول جاهدا الفوز . واقترح التفاوض مع السادات بشأن كل مسألة اخرى معلنة لتحقيق معاهدة للسلام في غضون ثلاثة شهور . وحينذاك سي طرح مسألة الاستيطان على الكنيست . وأبلغه كارتر ان ذلك أمل مئوس منه ، ولن يقبله السادات أبدا . وكتب الرئيس يقول . . من الواضح ان ذلك كان مؤلما جدا بالنسبة لرئيس الوزراء مناحم بيجين . . ، وكان يصيح بكلمات مثل . . انذار « مطالب مبالغ فيها » و « انتحار سياسى » ومع ذلك في النهاية وافق بيجين على ان يطرح على الكنيست في غضون اسبوعين القضية التالية : « اذا تم التوصل الى اتفاق بشأن جميع قضايا سيناء الاخرى ، هل سيتم سحب المستوطنين ؟ » ورفض طلب كارتر بان يتخذ موقفا محايدا خلال هذه المناقشة ، لكنه تعهد تاجرا تصويتا جر .

كان بيجين يأمل في الفصل بين التصويتين بحيث يكون احدهما حول اتفاق السلام بينما يكون الآخر حول المستوطنات وتوقع أغلبية برلمانية ساحقة للتصويت لصالح اتفاق السلام وأغلبية أصغر ضد إزالة المستوطنات . الا ان مناوراته باءت بالفشل على يد حزب العمل المعارض الذى كان يحتاج الى تأييده والذى أصر على اجراء تصويت واحد يشمل كلا من الاتفاق والجلء عن المستوطنات . ومن غير المتصور ان يتوقع برلمانى له خبرة بيجين بالموافقة على جل التصويت الواحد على المشروعين دون عواقب وخيمة ، او انه كان سيرضى المصريين او الأمريكيين . الا ان تدخل حزب العمل قدم له عذرا . ولم يقايض مناحم بيجين بالمستوطنات اليهودية فى حين فعلت المعارضة ذلك . ان ذلك لم يقتنع أبدا لا يريد ان يقتنع ، الا انه انقذ ضمير بيجين وربما كان ذلك هو المقصود تحقيقه .

والتزم بيجين بكلمته . وتم اجلاء مستوطنات رفح ، بها فى ذلك مدينة (ياميت) النموذجية ب بتكلفة عاطفية ومالية كبيرة ، فى الموعد المقرر فى شهر ابريل عام ١٩٨٢ . وانتهى بصورة اقل ودية المطلب الأمريكى الذى يطالب بتجميد النشاط الاستيطانى الاسرائيلى فى الضفة الغربية . وقضى كارتر وفانسي أكثر من ست ساعات مساء يوم السبت الثانى عشر وهما يناقشان قضيتهم مع بيجين وديان وباراك . ومن العسير التوقع بأن يأخذ العسبر مفاوضات الحكم الذاتى مأخذا جديدا اذا استمر الاستيطان اليهودى بلا ضوابط ورفض الإسرائيليون التوقيع على مثل ذلك التعهد مع السادات كجزء من إطار الحكم الذاتى من أجل السلام . وأصروا على أن الاستيطان فى الضفة الغربية ليس من شأن مصر . وفى النهاية وافق بيجين على ان يكتب خطابا الى كارتر يتم نشره بين ١٠ ثائى المؤتمر . وبعد ذلك بخمسة أعوام ، مازالت الاطراف المتبقية تجرى مفاوضات مع منعهده به رئيس الوزراء . هل هو تجميد طويل

الامد ، ام انه تجميد محدد لمدة ثلاثة شهور ؟ وهل يرتبط بمفاوضات الحكم الذاتى او بمفاوضات التوصل الى معاهدة سلام اسرائيلية ؟ . واقتنع كل من كارتر وفانس بأن بيجين قد خدعهما . وكلا الجانبين لديه شهود موثوق بهم ، الا يروون قصصا عكسية تماما .

وطبقا للرئيس ، تم الاتفاق على انه لن يتم انشاء اية مستوطنات اسرائيلية جديدة بعد التوقيع على « اطار السلام » وعلى ان قضية المستوطنات الاضافية ستحلها الاطراف المعنية خلال المفاوضات ، ويؤكد فانس الذى سجل ملاحظات خلال الاجتماع ، التفسير الذى قدمه كارتر .

نطبقا لمذكراتى ، فان هذا الاطار كان مرتبطا بمفاوضات الحكم الذاتى ولم نفترض ان المفاوضات الخاصة بمعاهدة السلام والحكم الذاتى ستنتهى فى آن واحد وفى وقت قصير نسبيا . وكان هناك امل فى ان نستطيع احراز تقدم بشأن الحكم الذاتى اكبر مما حدث بالفعل ، الا اننا ادركنا جميعا انها ستكون مهمة شاقة جدا . وجذور المشكلة اعمق من ذلك بكثير . وقد شهدنا استمرار المفاوضات فى خط متواز وان كان منفصلا . وهى لم تتوقف على بعضها البعض .

وتلقى هارولد سوندرز ، خبير وزارة الخارجية الامريكية لشئون الشرق الاوسط تقريرا موجزا على الفور بعد الاجتماع الذى انعقد مساء يوم السبت ، اذ قدم له فانس مذكرة تلو الاخرى حول هذا الموضوع . وقد وضع المناقشة التى دارت فى هذا الاجتماع فى السياق التالى :

توجه كارتر وفانس الى الاجتماع وهما يعلمان مايريدان ويعرفان ايضا مصير نتيجهما المفضلة التى توصل اليها بشأن تجميد الاستيطان وما هو طبيعة تراجعهما . واختيارهما المفضل هو تجميد الاستيطان طوال الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة اعوام (للفلسطينيين) والتراجع هو الى تجميد بنساء المستوطنات اثناء « هذه المفاوضات » الا انها اشارا الى محادثات الحكم الذاتى ، على اساس النظرية التى تفيد بانه اثناء محادثات الحكم الذاتى يكون على المتفاوضين معالجة تجميد الاستيطان خلال الفترة الانتقالية .

وعلى اية حال فانهما كانا يتحدثان فى تلك اللحظة حول فقرة فى هذه الوثيقة التى اصبحت اطارا للسلام ، وبكلمة اخرى الوثيقة التى تعالج اساسا المفاوضات المتصلة بالضفة الغربية وقطاع غزة . والعبارة التى كانوا يركزون عليها هى عبارة فى فقرة تتعلق بالمفاوضات المتصلة بالحكم الذاتى ثم بالوضع النهائى للضفة الغربية وقطاع غزة .

وقال مناحيم بيجين رئيس الوزراء انه لا يستطيع الموافقة على وثيقة شأن تجميد الاستيطان يوقع عليها الرئيس السادات . ان ذلك امر تقررره

الحكومة الاسرائيلية ، وهو ليس بالامر الذى يكون للحكومة المصرية فيه اى رأى . وكان حل هذه المشكلة هو نفس حل المشاكل المماثلة بشأن قضايا اخرى . وهو يجب ان يكون هناك خطاب جانبى . وفسر (فانس) ذلك لى بعد الاجتماع وطلبى بان أضع مسودة خطاب من رئيس الوزراء مناحيم بيجين الى الرئيس كارتر اشرح فيه موقف رئيس الوزراء ، ولذلك حذفت هذه العبارة من النص ووضعتها فى خطاب جانبى .

وسجل باراك ملاحظات كثيرة على الجانب الاسرائيلى . وكان قاطعاً فى قوله ان النسخة الامريكية غير صحيحة .

« الشئ الذى تم الاتفاق عليه هو ان يكون تجميد المستوطنات لمدة ثلاثة شهور وان يرتبط بالمفاوضات الخاصة بابرام معاهدة سلام مع مصر . وهناك قيدان فى هذا الشأن (١) انه فى اطار معاهدة سلام مع مصر . (ب) وان مدته ثلاثة شهور . وهو لا يرتبط بالمرّة بمفاوضات الحكم الذاتى .

واستشهد الاسرائيليون ايضا ببيان للسادات وهم يقدمون تقريراً للمراسلين الامريكيين فى واشنطن يوم ١٩ سبتمبر ، اى اتفقتا على تجميد انشاء المستوطنات فى الثلاثة شهور القادمة ، وهى الفترة التى من المفترض ان يتم خلالها ابرام اتفاق السلام . ومع ذلك ، يدفع الامريكيون بان السادات لم يكن حاضرا عند التوصل الى اتفاق ولم يكن طرفاً فيه . وعلى الرغم من ذلك فان ما فهمه من أولئك الذين كانوا حاضرين يؤيد ما تقوله الرواية الاسرائيلية .

وبعد ان تحدث كارتر فى واشنطن عن تجميد لمدة خمسة اعوام ، طالب المراسلون فى مطار بن جوريون من ديان ان يقدم لهم تفسيراً ، . وكان عائداً على التو الى اسرائيل مع وايزمان تاركين بيجين فى الولايات المتحدة . ويبدو ان الرد الذى قدمه وزير الخارجية يستهدف طمس المسألة وليس توضيحها .

ان تقديرنا وتقدير رئيس الوزراء هو ان فترة استمرار المفاوضات حول موضوع يهودا والسامرة يجب لا تستغرق فترة تزيد عما يتراوح بين شهرين الى ثلاثة شهور . . فى حين تم تحديد فترة استمرار المفاوضات حول القضية المصرية الاسرائيلية ثلاثة شهور ، اما فترة استمرار المفاوضات الخاصة بالقضية الفلسطينية فلم يتم تحديدها بالمرّة . لكن لنفترض انها تستغرق بالفعل ما يتراوح بين شهرين وثلاثة شهور . فخلال هذه الفترة من المفاوضات بعد ان اوضحنا الامور مع اسرائيل (من كامب ديفيد) ، ظهر انه لا توجد فى الحقيقة اية قضية ملحة لانشاء مزيد من المستوطنات خلال شهرين او ثلاثة شهور ، وربما بعد هذه الفترة ايضا . وذلك امر كان قائماً حتى اذا لم يكن هناك اتفاق وحتى اذا لم يتم طرح المسألة . . اما فيما يتعلق بفترة الخمسة اعوام ، ففى حدود ما اعرفه ، ليست هناك عبارة فى هذا الشأن فى الاتفاق .»

وزاد الارتباك والحيرة سوءا ، ولكن لعل الكلمة الأخيرة للفصل في هذه المسألة مع صول فينووويتز ، الذى عمل بعد ذلك رئيسا للفريق الأمريكى فى مفاوضات الحكم الذاتى . قال : « لقد قرأت جميع الملاحظات التى دونها كارتر عندما تم تعيينى كبعوث خاص فى الشرق الأوسط . ولقد تأثرت بالاجهاد الذى كانوا يعملون فى ظله ، وباحتمالات سوء الفهم ، ولاسيما بشأن مسألة معقدة مثل المستوطنات .

ومن العسير أن نتصور أن بيجين كان سيذعن عن دراية لتجميد غير محدد النهاية فى الضفة الغربية ، ولاسيما بعد أن استسلم فى سيناء . أن ذلك من شأنه أن يتعارض مع غرائزه ومع اتهاماته كزعيم لحزب أثقلته بالفعل بمبادرة السادات . بل أنه من المتصور تماما أن يتلاعب هو وديان بالمسألة .

وبحلول فجر اليوم الثالث عشر الموافق يوم ١٧ سبتمبر ، كان كارتر قد اقتنع بأن الصفقة مضمونة . وقدمت كامب ديفيد اطارين ، أحدهما بشأن معاهدة السلام بين مصر واسرائيل والآخر بشأن السلام فى الشرق الأوسط . وسيحتاج ملء الاطارين الى الكثير من المساومة الصعبة الا ان اجتماع القمة قد حقق مهمته . وانتصرت الولايات المتحدة ، مثلما نصح بريجنسكى بانها يجب أن تنتصر . غير أن اليوم الثالث عشر جلب معه عقبة فى اللحظة الأخيرة . وكان من المتفق عليه عدم الإشارة الى قضية القدس البالغة الحساسية فى النص نفسه . وفى إحدى المراحل ، عندما اقترح الأمريكيون أن تتردف راية عربية أو مسلمة على المسجد الأقصى ، الذى يوجد فى موقع المعبد اليهودى ، حذرهم بيجين من أن نفس الفكرة اثارته فيه ارتجاجات قلبية . وفى يوم ١٧ سبتمبر كان الأمريكيون لا يتحدثون الا عن تبادل الرسائل التى احتفظ فيها الزعماء الثلاثة — كارتر وبيجين والسادات — بمواقفهم العادية بشأن المدينة المتنازع عليها . وتبنت النسخة الأمريكية لغة البيانات التى أدلى بها المندوبون المتلاحقون فى الأمم المتحدة ، ورفضت الاعتراف بضم اسرائيل لشرق القدس بعد حرب الأيام الستة . وبمجرد أن سمع بها بيجين أعلن أنه لن يوقع على أية وثيقة أبدا اذا كتبت الولايات المتحدة أى خطاب من هذا القبيل للسادات . وفجأة عادت الاتفاقية برمتها الى بوتقة الانصهار الا أن كارتر لم يكن مستعدا لان يدمعها تنتهى فى هذه المرحلة . وحل المشكلة بخليط من عمليات الصياغة (وقد حذف كل إشارة معينة تشير الى النضم الاسرائيلى وقال ببساطة أن المندوبين الأمريكيين فى الأمم المتحدة قد أوضحوا السياسة الأمريكية وطلب بيجين منه التوقيع على بعض الصور الفوتوغرافية الخاصة بأحفاده . وأصدر كارتر تعليماته السنية سكزيره ليغزف اسماءهم ويوقع على كل صورة على حدة . وعندما حملهم الى حجرة بيجين تأثر الزعيم الاسرائيلى وحكى له بدوره عن كل حفيد منهم على حدة . وبعد ذلك قبل النسخة الجديدة كالنحل . وبهذا

يستطيع الجد الفخور باحفاده ان يفعل خلاف ذلك ، ولا سيما عندما يحقق
مـراده ؟

وانتهت كامب ديفيد بمسحة من الارتياح والتصالح . وقام انسدادات
بزيارة ودية لبيجين ، وكان ذلك اول اجتماع لهما في غضون عشرة ايام .
وحينذاك قام زعيما الشرق الاوسط . واعلن الرئيس ان هذه هي اول مرة
يشعر فيها بالسرور وهو يغادر كامب ديفيد الى واشنطن . واخيرا جاءت
آلات التصوير والمراسلون ليمارسوا مهامهم . وتم التوقيع على الاتفاقيتين
اللتين تمثلان الاطارين ورد رؤساء الدول الثلاثة على الاسئلة باحسن ما في
وسمهم وهكذا وقعت اسرائيل ومصر على اول اتفاق للسلام بينهما .

ولقد خاض بيجين مساومة صعبة كما خطط على الدوام ، الا انه قدم نصيبه
من التنازلات . ووافقت اسرائيل على الجلاء عن شبه جزيرة سيناء كلها بما في
ذلك حقول البترول والقواعد الجوية والمستوطنات مقابل معاهدة السلام . وكان
رئيس الوزراء يشعر في مشاوراته الخاصة مع موظفيه وفي تصريحاته العلنية
ايضا بأن اسرائيل تتخلى عن ارسدة حقيقية وتتلقى شيئا غير حقيقي من مصر .
ولهذا السبب اصر بيجين على ضمانات جوهرية قوية للحدود الجنوبية لاسرائيل .
ولقد بيجين نتيجة لتضحيته على مضض بمستوطنات سيناء تأييد بعض اصدقائه
القدامى المقربين اليه . وانسحب من ذلك الموقف (شمول كاتز) خير القانون
الدولي الذي ينتمى في الاساس الى جماعة (ارجون زفاى ليومى) وكذلك فعلت
ايضا (جيولا كوهين) آخر اعضاء (جماعة شتيرن) التى تضاهى عاطفتها تجاه
ارض اسرائيل عاطفة بيجين نفسه . وهناك آخرون مثل (يوحنا بار)
المحارب القديم ابتعدوا عن زعيمهم بطريقة أكثر ذكاء .

وفي غضون ايام من التوقيع على اتفاق كامب ديفيد كان بيجين يتباهى
للجمهور ، اليهودى الامريكى بانه لم يوافق على تقديم شيء للفلسطينيين أكثر
ما قدمه في الاسماعيلية في شهر ديسمبر عام ١٩٧٧ . واثار ذلك الزعيم غضب
ادارة كارتر ، التى اهتمت بانه كان يحاول اثناء الاردنيين وغيرهم من العرب
« المعتدلين » عن مساندة السادات وإثناء الفلسطينيين في قطاع غزة والضفة
الغربية عن القيام بالدور المخصص لهم . وكان بيجين قد قدم في كامب ديفيد في
الواقع أكثر مما قدم في الاسماعيلية . ووافق على أن المفاوضات يجب أن تتم
على اساس القرار رقم ٢٤٢ في كافة اجزائه « لحل » المشكلة الفلسطينية
بجميع جوانبها » . وكان من المقرر أن تبدأ المفاوضات بعد ثلاثة ايام « لتحديد
الموضع النهائي لل الضفة الغربية وغزة وملاقاتها بجيرانها » وان تنتهى هذه
المفاوضات بنهاية الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة اعوام . وتعد بالتوصل
الى حل من شأنه ان يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ومطالبه

العادلة » . وتم توجيه دعوة للاردن للانضمام الى هذه المفاوضات وتم السماح له بأن يضم وفده فلسطينيين « كما هو متفق عليه من الطرفين وكان من المقرر ان تنسحب القوات الاسرائيلية من الأراضي وتنتشر وحدات محدودة في «مواقع امنية معينة » : ولم يتم تحديد المسؤولية عن الامن والنظام العام ، بينما اتاحت للفلسطينيين امكانية تشكيل « قوة شرطة محلية قوية ، يمكن ان تضم بين صفوفها مواطنين اردنيين » .

وكان الكثير من هذه النقاط في صورة تصريحات وبيانات غير دقيقة ، ولم تكن شيكات يتم حملها الى المصرف لصرفها . وكان بيجين قد دونها بغموض وحذر شديد لم يلحظه الامريكيون او المصريون . فعلى سبيل المثال ، فان « السلطة التي ستتولى الحكم الذاتي » والتي سيقوم الفلسطينيون بانتخابها لأنفسهم قد اثير اليها ست مرات في اطار الاتفاق وفي واحدة فقط من هذه المناسبات المست وهى المناسبة الرابعة اضيفت كلمات «المجلس الادارى» بين اقواس بناء على طلب اسرائيل . الا ان ذلك كان كافيا لان يشير اليها بيجين بعد ذلك على انها « المجلس الادارى » وهو شئ اكثر تواضعا مما كان يريده الامريكيون والمصريون ويعتقد (وليم كوانت) ان الوفد الاسرائيلى تعمد ترك المسألة الفلسطينية حتى آخر يوم فى كامب ديفيد ليتجنب تقديم التزامات محددة . وقال كوانت ان باراك الذى يتمتع بضمير حى قال انه كان يتعين عليهم اعطاء الضفة الغربية من الوقت مثلا اعطوه لسيناء لكن كل شخص كان يريد العودة الى وطنه .

وعلى الرغم من ذلك كله ، اتاحت كامب ديفيد للفلسطينيين افضل فرصة دبلوماسية منذ عام ١٩٤٧ . وكان هناك كل شئ يمكن التفاوض حوله بمساندة المصريين والامريكيين وكان من حسن حظ بيجين انهم لم يدعوه الى تنفيذ وعيده — وانهم سمحوا له ببناء دفاعاته . وكان اكبر خطأ وقع فيه الامريكيون انهم لم يربطوا الضفة الغربية وقطاع غزة بمعاهدة السلام الاسرائيلية المصرية ، بحيث تتوقف كل منها على الاخرى . والقى (بريجينسكى) اللوم فى ذلك الاخفاق على اذعان كارتر للصيغ المفاضلة التي استخدمها بيجين . وكتب يقول ان ذلك سيعود لمطاردتنا ، فى المراحل القادمة من المفاوضات . وكان الاسرائيليون لهم أولوياتهم الخاصة . وقال (الياهو بن — اليسار) الذى كان مكلفا بصفته مديرا عاما لمكتب رئيس الوزراء بصياغة استراتيجية اسرائيلية محكمة لمفاوضات الحكم الذاتى ان بيجين ينظر الى سيناء على انها تعويض عن الوجود الاسرائيلى فى يهودا والسامرا وبانتهاء حكم بيجين فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ ، كان يستطيع النظر الى كامب ديفيد بارتياح . لقد كان السلام مع مصر وان كان ناترا قائما لم يمس ، وكذلك الأمر أيضا بالنسبة لقبضة اسرائيل على ارض اسرائيل .

كان قد تم اقناع المصريين بقبول صفقة كامب ديفيد بالدفع بان كل شيء سيكون مختلفا في غضون خمسة اعوام . وقال : بطرس غالى ان « روح كامب ديفيد هي نوع من الهدنة » وان شخصا آخر خلاف بيجين هو الذى سيتخذ القرارات ، نذنا اقتنعنا تحت تأثير ديان ووايزمان ان بيجين قيل ذلك للحصول على السلام . وتم تهدئة شكوك الامريكيين بطريقة مماثلة . وطبقا لما ذكره (فانس) ابلغ بيجين الامريكيين بانه لن يشرف ابدا على نقل بوصة واحدة من يهودا والسامرا الى سيادة اخرى ، وان هذه الاراضى ملك لاسرائيل . الا انه اضاف قائلا : « ربما ياتى اخرون بعدى يكون شعورهم مختلفا . وفي نهاية فترة الخمسة اعوام لن اكون موجودا . والمشيء الذى لم يذكره رئيس الوزراء هو انه سيبدل كل ما فى وسعه ليتأكد من انه لم يترك شيئا كئبرا ليتم نقله الى الغير .

الفصل العشرون

منح جائزة قبل الاوان

بدلا من الشهور الثلاثة التى كان قد تكهن بها بابتهاج فى شهر سبتمبر ، استغرق الاستنزاف الدبلوماسى ستة شهور لتحويل كامب ديفيد الى معاهدة سلام بين مصر واسرائيل . وحاول كلا الجانبين خدش بعض التنازلات التى ندموا على تقديمها فى استراحة (ميريلاند) . وبدأت اسرائيل برنامج طوارئ « لتدعيم » المستوطنات القائمة فى الضفة الغربية ، بالرغم من ان الكثير من عمليات التوسع كانت مستوطنات منفصلة فى كل شىء الا الاسم وقامت لجنة حكومية فرعية ، يرأسها مدير عام مكتب رئيس الوزراء ، (ياهو بن اليسار) بازالة بريق تعريف اسرائيل للحكم الذاتى حتى يقل ما يمكن ان يتفاوض حوله الفلسطينيون . وعلى سبيل المثال ، كان من المقرر ان تبقى اراضى الدولة وموارد المياه تحت السيطرة الاسرائيلية . وذلك من شأنه الابقاء على خيار الاستيطان اليهودى قتلما ، فى الوقت الذى يحتفظون فيه باستخدام اسرائيل لحق الفيتو بشأن توسيع القرى والمدن العربية . ولم تتم مناقشة مثل هذه التفاصيل فى كامب ديفيد ، حيث تم النظر اليها على انها متشابهة للغاية بحيث لايمكن ان تشكل اطارا عاما . وسارع الاسرائيليون بملء الفراغ ولاسيما بعد ان جعلتهم محاولة الامريكيين كسب ود الملك حسين واقناعه بالانضمام الى عملية السلام يلتزمون جانب الحذر واصيبت ادارة كارتر بخيبة امل لان السادات أغفل التوقف فى عمان ليقوم بالمهمة بنفسه . وقامت الادارة بالتعويض عن ذلك بتسليم اجابات مكتوبة على الاسئلة الاردنية بشأن دلالات كامب ديفيد ، بالاضافة الى نسخة تم تقديمها لمبيجين كدلالة على النية الطيبة . وشعر بعض الدبلوماسيين الامريكيين بالاسف فيما بعد لان دبلوماسيتهم كلفت مكشوفة الى هذا الحد ، الا انه لم يكن بمقدور سيروس فانس ووكيل وزارته (هارولد سوندرز) اللذان احضرا الرسائل الى الشرق الأوسط ايجاد بديل آخر مشرف . ولم يكن هناك شىء فى الاجابات لم تعرفه اسرائيل بالفعل ، الا انهم اوضحوا التفسيرات الامريكية بشأن قضايا مثل وضع القدس — التى جاهد بيجين للابقاء عليها خارج وثائق كامب ديفيد . ورد رئيس الوزراء الاسرائيلى على ذلك بالتهديد بنقل مكتبه الى شرق القدس العربية . وعلى الرغم من تودد الولايات المتحدة ، فان الملك حسين والزعماء المنتخبين للضفة الغربية اعطيا ظهرهما لكامب ديفيد . وكانوا يفتقرون الى القوة والجرأة التى تمكنهم من القيام بمقامرات السادات . وحاول الرئيس المصرى التعويض عن موقفه بجعل المعاهدة تتوقف على التقدم الذى يتم احرازه بالنسبة

للفلسطينيين ، الا ان بيجين المذى كان قد نجذب الوقوع فى ذلك الشرك
فى كامب ديفيد لن يقع فيه الآن .

وصدقت الحكومة الاسرائيلية على اتفاقيات كامب ديفيد التى حصلت
على موافقة احد عشر صوتا ومعارضة صوتين وامتنع عن التصويت
حاييم لاندوا نائب بيجين الاكثر اخلاصا . اما الكنيست فقد صدق على
الصفقة ، التى تشمل الجلاء عن مستوطنات سيناء ، بعد مناقشة استغرقت
١٧ ساعة وانتهت فى الساعة الثالثة صباح يوم ٢٨ سبتمبر . وكانت نسبة
التصويت ٨٤ صوتا ضد ١٩ صوتا وامتناع ١٧ . ومن بين الاصوات الـ ٨٤
التى قالت « نعم » لم يقدم اعضاء الائتلاف منها سوى ٧٤ صوتا . اعطى
الاعضاء الليبراليون فى كتلة ليكود اصواتهم لصالح الاجراء ، الا ان حزب
حيروت قد انقسم على نفسه ولم يعط الا ما دون النصف وما كان بيجين
ليفوز بالتصويت بدون مساعدة حزب العمل المعارض . وسحب عضوان
من حزب حيروت كان من المقرر ان يشغلا منصبين رئيسيين فى حكومة
بيجين الثانية — وهما اسحق شامير وموشى آرينز تاايدهما وامتنع عن
التصويت شامير وزير الخارجية فى المستقبل فقد صوت ضده
وكان شامير فى ذلك الوقت رئيسا للكنيست (فى اسرائيل يظل رئيس الكنيست
سياسيا للحزب وله حق التصويت) وكان آرينز يشغل منصب رئيس لجنة
الشئون الخارجية والدفاع فى الكنيست . وهناك أشخاص آخرون فى كتلة
ليكود امتنعوا عن التصويت من بينهم وزير المالية القادم (ايجال هورفيتز)
وخليفته (يورام اريدور) بالاضافة الى (ايتان ليفى) رئيس العمليات فى
جماعة (ارجون زفاى ليومى) . وفى واشنطن ، اشار الرئيس كارتر
فى يومياته الى ان التصويت كان دالة لافقة للنظر على الشجاعة ، الشجاعة
السياسية من جانب مناحيم بيجين رئيس الوزراء ، الذى كان عليه ان ينتهك
التزاماته السابقة طوال حياته ويخرج عن اصدقائه وحلفائه الذين قدموا له
العون والحماية خلال ايامه الثورية . ولم يكن الرئيس الامريكى سعيدا الى
حد كبير بالنتائج . لقد اظهرت عمليات الانشقاق مدى الضغط الذى شكله
اتفاق كامب ديفيد على ولاء حيروت للقائد القديم . كما رفض بيجين وامناء
حزبه طلبا بتقديم الاتفاقيات للجنة المركزية قبل عرضها على الكنيست الا ان
ثقل الانشقاق فى صفوفه دعم اعتزام الرئيس الا يتقدم شبرا واحدا عما وقع
عليه فى يوم ١٧ سبتمبر . وكبح جماح عملية السلام واصر على توسيع نطاق
المسئولية الى اكبر حد ممكن فى الحكومة بالنسبة للقرارات التى يتم اتخاذها
فى المستقبل .

ومع ذلك ، فمن الناحية الرسمية ، مهدت الاصوات فى الحكومة والكنيست
الطريق امام استئناف المفاوضات . وكانت الحكمة التقليدية السائدة هى أنه

تم حل ٩٨ ٪ فقط من المشكلة ، مع ترك ٢ ٪ ليتم تسويتها قبل التوقيع على معاهدة السلام . وتوجه موشى ديان وعزرا وايزمان الى واشنطن لحضور مؤتمر (بلر هاوس) ، الا انها سرعان ما وجدا انه ليس امامهما ولا امام المصريين المقبلين لها حرية للمناورة . وتدخلت الحكومة في القدس في كل مرحلة . وبعد اتفاق كامب ديفيد انخفضت درجة ثقة زملائهم في وزير الخارجية ووزير الدفاع أكثر من أى وقت مضى . وكانت تتم اعادة كل نقطة الى قاعدتها الاصلية . وبرهنت القضايا المستعصية على انها تتمثل في وضع تاريخ محدد لإنشاء نظام للحكم الذاتى في الضفة الغربية وقطاع غزة ، و ربط معاهدة السلام بالحكم الذاتى ، واستمرار حصول إسرائيل على بترول سيناء ، بالإضافة الى اصرار بيجين على أن تكون لمعاهدة السلام أولوية على التزامات مصر بالنضال الى جانب أشقائها العرب في أى حرب تنشب في المستقبل مع الدولة اليهودية .

وفى منتصف شهر نوفمبر ، بعد مرور عام واحد على زيارة السادات الى القدس قبلت إسرائيل المشروع الأمريكى الاول ، أما مصر فكانت مازالت متمسك بالرفض . وادت نسبة ال ٢ ٪ الاخيرة المتبقية من المشكلة الى نقص المفاوضات الى شتاء ١٩٧٨ — ١٩٧٩ الكتيب . وتم ايفاد سيروس فانس للشرق الاوسط للقيام بديبلوماسية مكوكية . وذهب ديان الى بروكسل لاجراء محادثات مع مصطفى خليل رئيس الوزراء الذى كان قد عاد فى ذلك الحين مرة أخرى الى كامب ديفيد . ورفض بيجين دعوة للذهاب الى واشنطن لاجراء محادثات مع مصطفى خليل واصر على الا يتعامل الا مع السادات . وعلى الرغم من المنصب الذى كان يتمتع به مصطفى خليل فهو لم يكن الطرف المناظر له . وأخيرا امكن اقناع بيجين بزيارة كارتر على أمل ان يلحق به السادات ، بينما استمر ديان فى محادثاته مع رئيس الوزراء المصرى بالتدقيق فى كل مقرة فرعية . وأثار (بيجين) مخاوف فى وزارة المالية عندما تعهدت فى احدى لحظاته الخيرة على شاشنة التلفزيون الأمريكى بأن إسرائيل ستقوم بالسداد حتى آخر سنت من الثلاثة بلايين دولار التى من المقرر ان تلتقها إسرائيل من الولايات المتحدة لاعادة نقل توزيع قواتها من سيناء الى النقب . وكلفت وزارة المالية تعتمد فى حساباتها على أن يتخذ ثلث اجمالى ما تحصل عليه على الاقل شكل منحة وليس شكل قرض . وكانت الإيماءات تعنى لبيجين الكثير على الدوام أكثر مما تعنيه الأرقام .

وقبل أن يستطيع أى فرد أن يكون واثقا من النجاح بفترة طويلة ، أعلنت لجنة نوبل انها تمنح جائزة السلام الخاصة بعام ١٩٧٨ لكل من منلحم بيجين وأئور السادات . وكان الثرويجيون على الاقل مازالوا يراهنون على كامب

ديفيد . وتلقى الزعيم الاسرائيلي الانباء مساء يوم الجمعة الموافق ٢٦ أكتوبر ،
الا انه لم يرد علانية حتى نهلية يوم انسبت عندما كان يستضيف
(ارتور روبينشتين) عازف البيانو على الشاي في مقره في القدس في ملتقى
شارعى بلغور وسمولينسكين ، وتبادل السادات وبيجين التهاني تليفونيا .
وكانت الجائزة هي الوسلم النهائي للاعتراف الدولى لرئيس الجماعة السرية ،
الا انها جاءت في وقت حرج بالنسبة للسادات ، الذى يدرك بعدم ارتياح
عزله في العالم العربى وحساسية موقفه في مصر .

وطار بيجين واليزا الى اوسلو يوم ٩ سبتمبر ومعهما حاشية من الأقارب
والاصدقاء وشخصيات اسرائيلية ويهودية أمريكية . وبقي السادات في منزله ،
وارسل سيد مرعى مساعده الخاص ليتسلم الجائزة نيابة عنه . وكسب
الدبلوماسى المصرى المرموق قلوب مضيفيه النرويجيين عندما وقف عند مطار
اوسلو في درجة حرارة أقل من ١٨ درجة مئوية وشكرهم على استقبالهم الحار .
اما عائلة بيجين فقد تم نقلها من المطار الى القصر الملكى في طائرة هليكوبتر
حمراء وبيضاء اللون تحرسها طائرتا شرطة هليوكوبتر مسلحتان . ولم ينتهز
النرويجيون هذه الفرصة ، فقد بقى الفائزان بجائزة نوبل للسلام بصورة
طبيعية في أحد الفنادق وتلقيا جائزتهم في قاعة جامعة اوسلو . وفى ذلك العام
بقى بيجين وزوجته في القصر الملكى وجرى الاحتفال في اليوم التالى في حصن
(اكرشوس) الذى يعود الى القرن الرابع عشر والقصر والحصن من أكثر
الاماكن تحصينا في البلاد . اما سيد مرعى فقد بقى في جراند اوتيل .

واستضاف الملك (أولاف الخامس) عائلة بيجين على العشاء في جناحه
الخاص من القصر وكلن أعضاء العائلة المالكة قد قرأوا كتاب « الليالى
المبيضاء » وكتبوا تواقين لسماع تجارب بيجين في معسكر العمل
السوفيتى (وعلى أية حال كان الكتاب أكثر أمنا من كتاب التمرد) . الا ان
حيوية المنسبة قد انتقضت نتيجة لوفاة جولدا مائير في اسرائيل ونتيجة للشعور
بان الجائزة هي شئ تافه سابق لاوانه . وقال معلق اسرائيلي يحب التماثيل
والايقونات ان الشئ الذى يريده شعب اسرائيل ليس جوائز السلام وانما
هو السلام نفسه وتساءل قائلا « أين الطفل ثمرة الاتفاق » وفى القلعة
النرويجية الكثيفة التى ينتشر في شرفاتها حراس مسلحون وكلاب بوليسية ،
لم يثر حديث الموافقة على الاتفاقية الذى أدلى به بيجين دهشة أحد ، وهو
رابع حديث يقرأه من نص مكتوب في غضون ثلاثين عاما من الخطابة
الارتجالية المتدفقة . ارتفعت نبرة الكلمات وهو يتذكر الستة ملايين شخص
الذين راحوا ضحية الابادة ، وحظى (جابوتينسكى) و (جاريبالدى) ما يستحقانه
من تكريم . واصر بيجين على أن شعب اسرائيل فاز أيضا بالجائزة وليس
فقط رئيس وزرائه .

ورفع يده ممسكة بحقه في الجائزة ومقدارها ٨٥٠٠٠ دولار معلنا تبرعه به لمؤسسة اسرائيلية تقدم منحاً للطلبة المتطوعين الذين يقومون بتعليم الاطفال المتخلفين .

وفي الخارج في الشارع المليء بالصقيع ، تقدم عدة آلاف من الشباب النرويجي في عملية احتجاج يحملون فيها المشاعل خلف اثني عشر شخصا من العرب يحملون رايات فلسطينية . وكان كثير من هؤلاء الشباب النرويجي يرتدون الكوفية على رؤوسهم وكانوا يهتفون قائلين : «بيجين ارهابي ساندوا منظمة التحرير الفلسطينية» ١ .

ونجا السادات بصورة او باخرى من غضبهم . ورفضت وزارة الخارجية النرويجية باعلانها حيادها الخاص بمنطقة الشمال ، السماح للمتظاهرين بعقد اجتماع للتعبير عن الاحتجاج في قاعة جائزة نوبل التقليدية بالجامعة ، الا انها اوردت نبأ المسيرة في بيانها الرسمي حول احداث اليوم .

وكانت زيارة الرئيس جيمي كارتر لكل من القاهرة والقدس في شهر مارس عام ١٩٧٩ محاولة اخيرة يائسة كان الرئيس يقامر بمكانته في التوصل الي اتفاق . وقد ازعجه عدم الثقة المتبادل وعدم الانسجام الشخصي بين بيجين والسادات . وكان بيجين في اكثر حالاته بخلا عندما ذهب الى واشنطن في بداية الشهر وفي اول اجتماع لهم في المكتب البيضاوي في البيت الابيض وجد كارتر رئيس الوزراء الاسرائيلي «قويا للغاية وسلبيا واثقا من نفسه فيما يبدو» وحذره من النتائج العكسية للفشل ومن الخطر النهائي الذي سيهدد اسرائيل اذا سمح بيجين لبلاده بان تصبح معزولة عن العالم بسبب تعنتها او قيامها باعمال عدوانية او القاء بيانات « وذهبت الولايات المتحدة الى اقصى ما تستطيع عمله بتقديم لغة وسط ، الامر الذي تحسر عليه الرئيس ووصفه بأنه «رد غير ايجابي من الناحية العملية من جانب اسرائيل» وقال بيجين في اليوم التالي انه لم يخلد الى النوم ليلة أمس نتيجة لشعوره بالقلق تجاه النقد القاسي الذي صدر من الرئيس . وكانت النتيجة التوصل الى حل وسط بارع بشأن اولوية التزامات مصر (تجاه اسرائيل والعرب) وهو الامر الذي يعنى شيئا للقدس بينما يعنى عكسه للقاهرة . وكان اذعان بيجين بمثابة اعتراف تكتيكي بأنه على الرغم من ان القضية نفسها حرجية ، الا انها لن تتقرر بقصاصة من الورق . واذا حدث ان اضطرت مصر للاختيار بين السلام والتضامن العربي القومي ، فلن تتأثر بفقرة في المعاهدة . واذا انضمت الى جبهة الحرب ، فستنتهي المعاهدة نفسها .

وسافر كارتر الى القاهرة وهو يدرك تماما ان الرحلة التي لا تحقق شيئا ستجسد الفشل ، الا انه ليس بوسعه ان يرى طريقا افضل الى الامام .

وكان السادات مستعدا لتقديم المساعدة وعرض تبادل السفراء مع اسرائيل مقابل الارض وأشار الى اتفاق لبيع البترول عن طريق الامريكيين . وكافت المقارنة أكثر وضوحا عندما ذهب الرئيس الى القدس . وأبلغ بيجين كارتر بأنه لن يوقع حتى بالحروف الاولى من اسمه على الاتفاق بدون أن يعرضه أولا على الحكومة والكنيسة وسأله الرئيس عما اذا كان يريد السلام حقيقة . وكتب يقول في مذكراته ٠٠ لقد كان انطباعي أنه فعل كل شيء بوسعه لعرقلة التوصل الى اتفاق باستساعة واضحة « وكان بيجين فيما يبدو يعرقل المعاهدة وبدء محادثات الحكم الذاتي » . وكان كل همه الاحتفاظ بكافة الاراضي المحتلة باستثناء سيناء ، وبدأ غير مكترث بمأساة العرب الذين يعيشون محرومين من الحقوق الاساسية في ظل الحكم الاسرائيلي .

وكان بيجين متوترا بصورة لا مثيل لها ، ومؤمنا بالقدر ومصمما على الا يملأ أحد عليه شيئا عندما جاء كارتر لالقاء حديث في اجتماع خاص للحكومة في صباح اليوم التالي . ووقف منتصبا ليلفت الانتباه ومعه اثنان من مساعديه ينتظرون الترحيب بالضيف عند باب مبنى مكتبه . وسمعه أحدهم وهو يغنى بلا نغم من بين أسنانه المطبقة قائلا (آنى ما أمين) وهى الترنيمة اليهودية للآيمان وتعنى (اننى اؤمن) وهى نفس الترنيمة التى كان يغنيها الآلاف من ضحايا هتلر وهم يدخلون غرف الغسار . وذهب كارتر في نفس اليوم الى (ياد فاشيم) وهو النصب التذكارى للابادة في جانب جبل (هيرتزل) . وخلال اجتماع الحكومة صرح الرئيس للوزراء الاسرائيليين بأنه يتعين عليهم أن يوافقوا . وحينذاك قاطعه بيجين قائلا : « سنوافق على ما اتفقنا أن نوافق عليه » . وطبقا لما ذكره شاهد اسرائيلى أجاب كارتر بقوله : « اننى أنهم » وانتهى الاجتماع بوصول اسرائيل والولايات المتحدة الى طريق مسدود بشأن مسألتين : وهما مبيعات البترول المضمونة وطلب مصر الخاص بفتح مكتب اتصال في غزة ، التى كانت تحكمها في الفترة من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧

وتجلى نقاد صبر الرئيس في حديث ادلى به بعد ظهر ذلك اليوم أمام الكنيسة وقال فيه ان « شعب البلدين على استعداد الآن للسلام » . « ولم يبرهن الزعماء بعد على أننا على استعداد للسلام لدرجة تدفعنا لانتهاز هذه الفرصة » . وتم تقديم هذه النقطة ببراعة ، تكن لم يكن هناك أحد في المجلس يساوره أى شك بشأن أى الزعيمين الذى كان يدور في خله . وكان رد بيجين يتعرض لمقاطعة مستمرة من أقصى اليسار وأقصى اليمين . وتم طرد (جيولا كوهين) ناقدته الوطنية الشديدة الصخب من الكنيسة بعد رفضها السماح لرئيس الوزراء بالمضى قدما . وصاحت وهى على الباب تقول « سأواصل نضالى » وشعر الامريكيون بالصدمة نتيجة للضجة بالرغم من أنهم تظاهروا بأنهم تأثروا بحيوية الديمقراطية الاسرائيلية . وقال سيروس

فانيس « لقد شهدنا البرلمان البريطاني » ، لكن ذلك أسسوا من البرلمان البريطاني ، وكان ذلك يوما مفعما بالضجيج » .

ولاحظ الصحفيون الذين يتسمون بالتبصر أن موسى ديان غادر باب المجلس وصعد الى أعلا ليهمس الى وزير الخارجية في قاعة الزوار المرموقين . لقد جاء ليعتذر عن هذه الضجة التي يمكن تفسيرها بأنها أعمال فظلة موجهة للرئيس . الا أن مهمته التي قام بها الى الدور العلوى كانت أيضا بداية لمبادرة خاصة أدت في غضون ٢٤ ساعة الى اتفاق ومعاودة سلام ، واقترح وزير الخارجية اجراء حديث هادىء في وقت متأخر من النهار ووافق سيروس فانيس . وعلى أية حال كان من المقرر أن يجتمعا في لقاء آخر بين الحكومة والامريكيين (وهذه المرة بدون الرئيس) . وطلب ديان من بعض رفاقه البقاء بعد مغادرة الامريكيين . واتفق الوزراء معه على أن اسرائيل لا يسعها أن تترك الرئيس يعود الى الوطن خاوى الوفاض من رحلته . وطبقا لما ذكره (نافتالى لافى) المتحدث باسم ديان ، فان ديان لم يكن يريد أن يثير عدا كارتير . وفي المقام الاول ، لم يكن يريد أن يشعر بأن اسرائيل هى السبب فى اخفاقه » . وقد كان يرى أيضا فى أفكار كارتير بعض الضوء ، وشئ يمكن تطويره وهو التزام أمريكى بضمان امدادات البترول ووضع غزة . وشمر ديلن بأنه يستطيع الفوز باتفاق ، وطلب من شمويل تلمير وزير العدل أن يصيغ عبارة من شأنها أن تلزم الولايات المتحدة بشأن امدادات البترول .

وعندما ذهب ديان ليرى فانيس فى غرفته بالفندق بعد ذلك الاجتماع الحكومى ، عرف كلاهما أن الخلافات الحقيقية ليست هامة للغاية ، الا أنه من الصعب لم شمل الاجزاء معا مرة أخرى . وطبقا لما ذكره أحد موظفى بيجين ، كان ديان أحد الرجال القليلين الذين يستطيعون اقناع رئيس الوزراء بقوة الحجة بتغيير تفكيره ، الا أن وزير الخارجية فضل التسلل فى هذه المرة . وقال فانيس « اننى أعلم أنه حصل من بيجين على بعض من حرية التصرف لكننى شعرت بأنه من المرجح كان يلح على التحرك على نطاق أوسع . واننى مقتنع بأن عليه أن يقنع بيجين بأفكاره بعد ذلك . وفيما يتعلق بقضية غزة اقترح ديان اقناع المصريين بعدم الاشارة فى هذه المرحلة الى مكتب الاتصال . وهم يستطيعون على الدوام اقتراح اجراء انتخابات مبكرة فى غزة اثناء مفاوضات الحكم الذاتى . واكد أيضا على أنه بمجرد أن تبدأ اسرائيل فى الانسحاب من سيناء وتسود العلاقات الطبيعية سيصبح بمقدور كل مصرى السفر الى غزة بتأشيرة اسرائيلية . وقبل فانيس ذلك بشرط أن تلتقى اسرائيل مع السادات فى منتصف الطريق بشأن مبيعات البترول . وكان المصريون يشعرون بحساسية تجاه مكافأة اسرائيل على سيناء ببيع بترولها بسعر منخفض وأدرك ديان مشكلتهم . وبعد ذلك درس هو وفانيس دلالات

الضمان الامريكى . واصر ديان على فقرة فى معاهدة السلام تنص على ان اسرائيل من حقها شراء البترول مباشرة من مصر ، وخلاف ذلك تظل مصر تحترم المقاطعة العربية . وستتبع اسرائيل بحق شراء البترول المصرى بأسعار السوق . بالاضافة الى ضمان امريكى مدته عشرين عاما للتعويض عن العجز اذا توقفت الامدادات . وبناء على اقتراح وزير الخارجية وجهه كارتر دعوة اليه والى بيجين لتناول الافطار فى فندق الملك داود فى اليوم التالى . وتقررت الصفقة أثناء تناول عصير البرتقال وبدلا من المقامرة بازعاج بيجين ، ترك ديان لفانس أن يحتل مكان الصدارة فى تقديم افكارهما . وأعاد وزير الخارجية الى الاذهان ما يلى :

« لقد أخذنا على عاتقنا فى صباح ذلك اليوم بحث الموضوع كما لو كنا نمسك بزمام المبادرة ، واعتقد أن هذه هى الطريقة التى كان يريد بها موثى ديان . وفى تقديرى فانه من المرجح أنه قدم ما توصلنا اليه الى بيجين باعتباره مبادرة امريكية الى حد كبير . وقد تركت له الامر ليقدمه الى بيجين بالطريقة التى يفضل تقديمه بها » .

وانت استراتيجية ديان بشأن المبيعات بشارها . ففى حفل توديع الرئيس فى مطار بن جوريون تمت بيجين الى كارتر قائلا : « لقد نجحتم . واجتمع الرئيسان الامريكى والمصرى فى مطار القاهرة ، ووافق السادات بالفعل على تبادل السفراء فى وقت مبكر (وهى ايماءة للعلاقات الطبيعية) ووافق على مد خط للانابيب من حقول البترول الى اسرائيل والكف عن الدعاية المناهضة لبيجين (المناهضة للسامية فى اغلب الاحيان) فى الصحف المصرية . ولم يشعر مستشارو السادات بالثقة تجاه الصفقة ، الا انه قطع عليهم الطريق كالمعتاد بقوله « ذلك مرض بالنسبة لى » . واتصل كارتر ببيجين تليفونيا وتم الاتفاق على ان يجتمع الزعماء الثلاثة معا من جديد حاملين معهم انباء طيبة لحضور حفل التوقيع على المعاهدة فى البيت الابيض يوم ٢٦ مارس . وفازت اسرائيل بأول معاهدة سلام لها ، وكان من الجائز الا يصل بيجين ابدا الى هذه النقطة بدون ترتيبات ديان ووايزمان وباراك ، الا انه كسب الثقة بالقيام بالمخاطر السياسية وبتحديد التوضيحات التى سيقدمها والتى لن يقدمها . وعلى الرغم من الصور الفوتوغرافية المبتسمة الا أنه لم يكن سوى عدد يسير من الاصدقاء على الطريق . وكان تعليق كارتر على هذه المشاركة المثيرة للسخط هو « اننى لم أتمتع فى الغالب أبدا بمفاجأة سارة فى معاملتى معه » .

وكان السادات أكثر سخاء بمجرد أن صدق بيجين باعادة العريش ، العاصمة المغيرة لسيناء ، الى مصر فى يوم ٢٥ ابريل . وطبقا لما ذكره

بطرس غالى نائب وزير خارجية مصر الدائم فان السادات حينذاك فقط بدا يثق فيه . وقدم بيجين ما التزم به . وتمت مكافأته بصورة مناسبة فى حملة انتخابات عام ١٩٨١ عندما قبل السادات دعوة لحضور اجتماع قمة فى شرم الشيخ كان من شأنه ان يكون عملا استعراضيا صرفا . وقال غالى : كان السادات يؤيد اعادة انتخاب بيجين . وفى تقديره فان فوز بيجين سيكون افضل بالنسبة لمصر ، كانت أولويته هى الانسحاب من سيناء . وقد اعتقد انه بدأ العملية مع مستر بيجين ومستر بيجين قدم فى المرة الأولى وسيقدم فى المرة الثانية . وكان لطيفا مع بيجين ليضمن استكمال الانسحاب من سيناء .

وترك آخر جندي ومدني اسرائيلى الارض المصرية يوم ٢٥ ابريل عام ١٩٨٢ الى بعد مرور ثلاثة أعوام على اعادة العريش . وفى ذلك الحين كان السادات قد اغتاله المتعصبون المسلمون وحل محله نائبه حسنى مبارك . اما مناحيم بيجين فكان لا يزال رئيسا لوزراء اسرائيل ، وما زال يحكم الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة . واندثرت فى الرمل مفاوضات الحكم الذاتى . وكانت المصالحة الاسرائيلية المصرية اشبه ببرعم اوقف الصقيع نموه وظلت الحدود مفتوحة ، الا ان المرور كان فى اتجاه واحد ونادرا ما كان السائحون المصريون يزورون اسرائيل اما التجارة فكانت مجمدة ، وتلاشت العلاقات الثقافية . الا ان معاهدة السلام اجتازت اختبار الحرب اللبنانية عام ١٩٨٢ . وبعد مذبحه مخيمى صابرا وشاتيلا ، استدعى حسنى مبارك الى الوطن سفيره فى اسرائيل لاجراء مشاورات غير محدودة . ومع ذلك ، لم يتم اغلاق السفارة والحدود ولم تصلصل مصر بالسلاح وظلت « أولوية الالتزامات » سارية المفعول . وفى شهر نوفمبر عام ١٩٧٧ كان الناس فى شوارع القدس يأملون فى شىء أكثر .

شلل خفيفة . وقد برزت آثار هذه الازمات . واخذ الوزراء يشتكون من عجزه عن القيادة . ووجدوا الزائرون فاطر المشعور غير مبال ومنعزلا وعاطفيا . وفي أغلب الاحيان كان لا يعرف من هم هؤلاء الزوار ولا لماذا أتوا . وجاء وفد من « رابطة الصحافة الاجنبية » يسجل دور بيجين بصفته قائما بأعمال وزير الدفاع بعد استقالة وايزمان ، ولكنه خرج من مكتبه في حالة احباط واشفاق . وقد اقتنعوا تماما بأن بيجين كان يخبو نجه بسرعة كبيرة . وقد أكد الشهود العسكريون ما أشيع في الصحافة الاسرائيلية بأنه كان ينلم أثناء مناقشاته معهم . والمقول بأنه كان يعاني من الآثار الجانبية للأدوية التي تعاطاها لمعالجة قلبه قول بعيد عن الدقة . لقد كان بيجين يتعاطى بانتظام علاجاً مضاداً لتجلط الدم . وعندما سأل أحد مساعديه دكتور ميرفن جوتسمان طبيب رئيس الوزراء الخاص عن أثر هذا العوج أجابه الطبيب بأن هذه الادوية لا تؤثر في قدرة بيجين العقلية . لقد كان متعبا بسبب مرضه وأكثر ما يمكن أن تفعله هذه الادوية هو أن تصيبه بالنعاس . وقد نصحه الأطباء بأن يقصر عمله اليومي على أربع ساعات فقط . وقل أحد رجال مكتب بيجين أن رئيس الوزراء قد استمر في تسير الأمور الهامة للدولة وهو على فراشه في المستشفى بعد أصابته بأزمة قلبية .

« انه أبدا ما بلغ من العجز الى حد الاستسلام . وفي إحدى المرات وكان في المستشفى بعد أصابته بسكتة خفيفة ، أخبرنا الأطباء انه ليس من المحتمل استعادة قوة إبصاره في عينه اليسرى . ولكنه ظل يملأ المذكرات والخطابات . وبعد شهرين ، وفجأة وهو في مكتبه برئاسة الوزراء استعاد بصره قوته السابقة وقال : « اننى أستطيع أن أرى — بوضوح تام » . ولم يكن هناك ما يدل على أنه كان واقعا تحت تأثير الادوية والعقاقير . انه رجل يخضع لحواله المزاجية والتي تسير جنباً الى جنب مع كيانه العاطفى . اننى لم أره قط وهو أثناء عمله اليومي خاضعا لنظام أدوية مكثف وصارم . واننى لم أره قط ينظر الى ساعة ليتناول جرعة دواء كل ساعتين » .

وفي أثناء أحد اجتماعات مجلس الوزراء وعندما غرق في حالة من حالات الوسوسة أقر وزير الداخلية يوسف بورج ورقة ل أحد زملائه جاء فيها : « اذا كان هذا ما تفعله هذه الحبوب فاننى أريد مثلها لى » . وفي مناسبة أخرى ، وعندما كان بيجين في أسوأ حالاته دخل الى قاعة الكنيست واتجه فورا الى مقعد زعيم المعارضة والذي ظل يشغله حتى عام ١٩٧٧ . وجاء أحد رجال الكنيست وأوضح له في لطف الخطأ الذي وقع فيه وقاده الى مقعده الحقيقى كرئيس لمجلس الوزراء .

كانت حكومة مناحم بيجين هي الاولى في التاريخ البرلمانى الاسرائيلى التى تواجه فيه اجراء انتخابات مبكرة وباختيارها . وقد اتخذ هذا

القرار في يناير عام ١٩٨١ وذلك بعد ان اعترف هورفنز بالهزيمة في محاولته خفض ميزانية التعليم ونقل مجموعة رائى التى يرأسها وتتكون من ثلاثة رجال الى جانب المعارضة . وكلفت أغلبية الحكومة قد انخفضت الى ثلاث أصوات في تصويت الثقة قبل ذلك التاريخ بشهرين فقط . وعندئذ فضل بيجين ان يرجع الى الشعب بدلا من أن يتشبث بالبقاء تحت رحمة الجعاعات المنشقة والانتهازيين . وبالرغم من احتجاجات المعارضة فانه حدد موعد الانتخابات يوم ٣٠ يونيو وخرج رئيس الوزراء من اجتماع خاص لمجلس الوزراء وهو يبدو أكثر اشراقا ومرحا من أى وقت منذ عدة أشهر . ولكن احتمالات تشكيل بيجين لحكومة جديدة بدت قائمة وغير محتملة ووضعت قياسات الرأى العام حزب العمل في مركز متقدم كثيرا حتى ان مستر شيمون بيريز ظهر وكأنه سوف يكون بعد نهاية الانتخابات أول زعيم اسرائيلى يحقق أغلبية ساحقة . لقد خسر بيجين وزيرين للمالية في غضون ثلاثة عشر شهرا . كان بيجين في سنة ١٩٧٦ قد هاجم حكومة اسحق رابين المترنحة لانها تركت التضخم يصل الى ٣٥ ٪ / ووعده بان يخفض هذه النسبة الى النصف .

وفي عام ١٩٨٠ ارتفعت أسعار السلع الاستهلاكية بمعدل ١٣٢٩ ٪ / واخذت الفجوة بين الاغنياء والفقراء في الاتساع وأشارت الدراسات الى ان ما لا يزيد عن ٣٠ ٪ من اليهود الشرقيين الذين ادلوا بأصواتهم في صالح بيجين سنة ١٩٧٧ يزعمون تأييده هذه المرة . أما المنشقون عليه فلهم لم يكونوا راضين عن أداء حكومته في الناحية الاقتصادية والاجتماعية بالرغم من انهم كانوا لا يزالون يؤيدون سياسته الامنية وسياسته الخارجية وسياسته ازاء المستوطنات . والشئ الذى جذب قليلا من الانتباه في يناير هو أن ٣٧ ٪ من مجموع الناخبين لم يكونوا قد قرروا بعد أى المرشحين ينتخب . وأوضح قياس للرأى العام نشرته صحيفة ها أرتر اليومية انه بالرغم من ان ٥٥ ٪ يريدون تغييرا فوريا للحكومة ، الا أن ٣٩٧ ٪ من الناخبين لم يكونوا يعتقدون ان حزب العمل في امكانه أن يكون أحسن حالا في المجال الاقتصادى . لقد كان الاسرائيليون قد تحرروا من سحر بيجين ولكنهم لم يتكثروا وراء بيريز . لقد كان امام ليكود ما يحاربون من أجله وأمامهم متسع من الوقت يبلغ ستة أشهر .

ان احياء ليكود لم يضع أساسه بيجين إنما الذى وضعه خليفة هورفنز وهو يورام اريدور وهو من جيل سابق سنة ١٩٤٨ . وكان اريدور أول وزير مالية اسرائيلى يحل درجة علوية في الاقتصاد . ولكن هذا لم يمنع من ان يقدم برنامجا انتخايبيا دفع بالتضخم الى أعلى أكثر من ذى قبل ويصل بميزان المدفوعات الى الخط الأحمر . ولا شك ان أساتذته قد

علموه أنه لا يمكن علاج التضخم عن طريق تشجيع المستهلكين بالاندفاع نحو شراء السلع الكمالية . ولكنه كان سيلسيا يدرك أن هذا هو المسبيل نحو كسب الاصوات . وأدت - التخفيضات في الضرائب الى خفض سعر التليفزيون الملون بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و ١٥ في المائة وخفض سعر السيارات الجديدة بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و ١٧ في المائة . وخفض الاسعار بنفس النسبة المئوية على الادوات والمعدات المنزلية والاثاث . وأعلن وزير المالية أن ضريبة الشراء المفروضة على النبيذ الحلو سوف تخفض الى النصف في أول يوليو . وهو اليوم السابق للانتخابات . وفي خلال شهر أعلنت الغرف التجارية أن الاسرائيليين قد تقدموا بطلبات شراء ٨٠٠٠ سيارة جديدة و ٦٠٠٠٠ جهاز تليفزيون . . وجميع هذه السلع مستوردة من الخارج . واستأجر تجار الجملة طائرات الجابو لمواجهة هذه الطلبات . ولقد ارتفعت مبيعات لسيارات وحدها بنسبة ٤٠٠ في المائة . وكتب ماتي جولان في صحيفة ها أرتز يقول ان سياسة اريدور قد نجحت :

« لقد بدأ الناس يسألون أنفسهم هل سيدفعون غاليا بعد الانتخابات بسبب سياسة اريدور الاقتصادية الانتخابية كما يقول لهم خبراء الاقتصاد وكانوا ينصتون لما يقوله هؤلاء الخبراء ويهزون رؤوسهم في شك . فالاسرائيلي العادى لا يفهم كثيرا في شئون الاقتصاد وهو بالتأكيد لا يفهم السياسات الاقتصادية طويلة الاجل . واليوم تنخفض الاسعار وهذا هو ما يهيمه . وحزب العمل لم يكن يعرف كيف يتصرف . فكيف له أن يقف ضد خفض الاسعار ولم يكن يعرف كيف يقف في وجه هذه السياسة الاقتصادية غير المسئولة وغير الملمجة والتي وضعت من أجل الانتخابات » .

وسمع أحد المشترين في القدس وهو يقول : « ان كل فرد يعلم أننا سوف ندفع الثمن في نهاية الامر ولكن رغم ذلك فانا نشترى . وربما لن تكون هناك فرصة كهذه الا في الانتخابات القادمة . وبدأت سياسة اريدور هذه تنعكس على قياسات الرأي العام . وفي منتصف شهر مارس بدأ حزب ليكود يستعيد الاصوات التي كان قد فقدتها بينما كان حزب العمل يناضل من أجل الاحتفاظ بمواقفه . ولكن لا زالت الهوة بين حزب العمل وحزب ليكود واسعة ، الا ان خطأ جديدا قد بدأ يظهر . وبدأ الناضبون الشرقيون في حسم موقفهم . ولقد أعطاهم اريدور الفرصة للعودة الى حظيرة ليكود . ولما تردد الاستراتيجيون في حزب العمل في الظهور فانهم بذلك قد أتاحوا الفرصة للحكومة لتأخذ المبادرة في يدها .

وعند هذه النقطة من الحملة الانتخابية برز بيجين الى الوجود مسرة أخرى كآهوى ما يكون منذ عودة لازاروس . ففي مقابلة اذاعية بمناسبة ذكرى

الثالث والثلاثين لمولد اسرائيل تفاخر بيجين بأنه يشعر أنه أفضل من أي ومث مضى خلال السنوات الاربع الماضية ومنذ أن تولى رئاسة الحكومة وقال معللا ذلك « لاننى فى قلب المعركة الآن » . كان حزب ليكود قد أحسرز النصر فى انتخابات سنة ١٩٧٧ معتمدا على اسم بيجين ولكن بدون ظهور الرجل نفسه ذلك لانه فى الشهرين الاخيرين من انتخابات عام ١٩٨١ حارب الحزب معتمدا على اسم بيجين وبشروط بيجين . ولجأ بيجين الى منبر الخطابة للمرشحين فى الانتخابات حيث أخذ يطعن أعداءه القدامى الواحد تلو الآخر بدءا بالحركة العمالية التى عاملته هو ورفاقه بالاحتقار لقراءة تسعة وعشرين عاما والامان الذين قتلوا ستة ملايين يهودى والشيشويين الذين بعثوا به الى معسكرات الاعتقال (الجولاج) والبريطانيين الذين علقوا مقاتلى جماعته فى المشانق . وكان رد فعل دائرته الانتخابية فى الاحياء الفقيرة فى المدن وفى المدن النامية المبعثرة مشوبا بالمعاطفة وعنيفا فى معظم الاحيان . لقد كان بيجين ملكا لاسرائيل والخروج عليه ضرب من الخيانة . وكتب أحد محررى الصحف فى اسرائيل يقول : « يمكنك أن تقول لى أنك لن تشتري سيارة مستعملة من بيريز أما أنا فأنى لن استأجر بيجين ليلعب طفلى لانه سوف يخنقه » .

وكان أول عمل من أعمال التهديد وقع فى احتفال للجالية اليهودية المغربية فى حديقة فى القدس فى نهاية عيد الفصح لقد جاء بيريز لى يقدم تحيات حزب العمل للجالية اليهودية القادمة من شمال افريقيا لكن الشبان أخذوا يهزأون من ذكر اسمه والقوا عليه البرتقال والطماطم بمجرد أن صعد الى منبر الخطابة . وأجبر على ترك المكان قبل أن ينطق بكلمة واحدة . وانتشر العنف فى طول البلاد بينما تجاهل بيجين جميع الدعوات التى وجهت اليه ليكبح جماح أتباعه . وأشعلت خطبه النار وزادت من تأججهما وفى اجتماع شعبى لحزب العمل فى بتاح تكفا فى منتصف شهر يونيو أخذ ما يقرب من ٢٠٠ شخص من أتباع ليكود يصيحون فى وجه بيريز قائلين « بيجين ، بيجين ، ملك اسرائيل » . وأخذوا يدرجون البراميل الملوءة بالنفسيات والمشتعلة ويدفعون بها الى وسط الحشد البالغ عشرة آلاف ، وأخذوا يحطمون النوافذ فى المقر المحلى لحزب العمل . وأصيب ثمانية عشر شخصا وألقى القبض على ٢٦ شخصا . وفى مواجهة مماثلة وقعت فى القدس تم تهديد أحد مندوبى الصحف الاسرائيلية اذا ما ذكر اسم زعيم الجماعة التى رفضت السماح لبيريز بالحديث . وأصبح العنف والكراهية هما المحسور الرئيسى فى الحملة الانتخابية . واستغل حزب العمل صورة لاهد مؤيدى حزب ليكود وهو يلوح ببطاوة فى اجتماع حضره بيجين . وأعادوا طبع صور الهجوم الذى وقع عام ١٩٥٢ على الكنيسة . لقد قسم بيجين ، اليهودى البولندى ، البلاد الى شرق وغرب ولم تكن قد انقسمت كذلك من قبل . وقويت الكراهية والاحتقاد على الجانبين . وبالنسبة لليهود الغربيين كان

اليهود الشرقيون يشكلون تهديدا بدائيا للديمقراطية الاسرائيلية . وبالنسبة لليهود الشرقيين فان اليهود الغربيين متغطرسين ادعاء يخشون فقدان امتيازاتهم ، وهم أوروبيون غرباء في الشرق الاوسط . لقد كان صراعا بين الثقافات السياسية المختلفة كما هو صراع بين هذه الاصول العرقية والعنصرية المختلفة . ولقد اتهم شلومو هيلل ، وهو زعيم عمالي ولد في العراق ، رئيس الوزراء بأنه يدفع البلاد نحو الفاشية لقد كان هناك جو من التحفز الاجتماعى الاشتراكى . وقد علمتنا التجارب بأن هذين العنصرين اذا ما امتزجا ادبا الى الفاشية . ولقد كان بيجين يناشد القطاع الادنى من الجماهير

وبنفس هذه النشوة المتصاعدة دفع رئيس الوزراء بخطبة اسرائيل الى حافة الحرب مع سوريا وبعث بقواته الجوية لقصف المفاعل النووى العراقى . وانتشى بهذين الحدثين كبرهان على أنه هو الوحيد الذى يعرف كيف يتعامل مع العرب . وفي أبريل شنت ميليشيا الكتائب اللبنانية والتي دربتها اسرائيل ، هجوما في شرق لبنان مهددة المواقع السورية بالقرب من مدينة زحلة الاستراتيجية . وكان رد فعل السوريين القصف المركز وأعلن بيجين ان اسرائيل لن تقف مكتوفة اليدين في وجه هذه الافعال الاجرامية من الدولة المجاورة لبنان . وضربت قواته الجوية قواعد الفدائيين الفلسطينيين في جنوب لبنان . وفي ٢٨ أبريل اسقط طائرتين هليكوبتر سوريتين وقد وصفت هاتان الطائرتان بانهما من طائرات الهليكوبتر المهاجمة وان كان بيجين قد اعترف بعد ذلك بأسبوعين بانهما كانتا تنقلان قوات واسلحة . وبرر التدخل الاسرائيلى بأنه نتاج التجارب التاريخية واثر من آثار اليهودية .

ولقد سأل السفير الامريكى صموئيل لويس ما اذا كان قد قرأ كتاب آرثر مورس بعنوان « بينما مات ستة ملايين » والذي سجل عدم اكتراث العالم الحر لعملية افناء يهود أوروبا وأخبر رئيس الوزراء لجنة المشئون الخارجية والدفاع في الكنيست بأنه قرأ هذا الكتاب ست مرات وقال :

« في كل مرة قرأت فيها هذا الكتاب لم اكن أخجل من انسياب الدموع من عيني عندما كنت اتخيل كيف أهمل شأن شعبنا اليهودى وترك وحده . لقد تتلهم الالمان لكن العالم تركنا نلقى مصيرنا . وقتلت للويس » أريد أن أقول لك أننا دولة يهودية ولنا تجاربنا الخاصة بنا ، واننا لن نسمح تحت أى ظرف من الظروف ، للسوريين محاولة تحويل المسيحيين في لبنان الى ما كان عليه اليهود في أوروبا في الاربعينات . ان السوريين مع الارهابيين يعاملون المدنيين تماما كما كان يفعل النازيون . أنهم لا يهتمون اطلاقا بالرجال أو النساء أو الاطفال . »

وعلق اثنان من سياسى حزب العمل ، والاثنان كانا رؤساء اركان سابقين في الجيش، وهما اسحاق رابين وحاييم بارليف قائلين في تعجب ان مافعله السوريون لايشبه في شىء النازية . ولم يكن هذا القياس او التمثيل ناجحا . واصر بيجين على انه بالرغم من أن السوريين لم يقيموا غرف الغاز للمسيحيين اللبنانيين الا ان دباباتهم ومدفيعتهم تقوم بنفس العمل . وكان مناسبا لاهداف بيجين ان ينسى ويتجاهل ان اسرائيل هى التى سلحت الكتائبين وانهم هم الذين تسببوا في هذا القصف . وكان يتكلم وكأن الحرب الاهلية اللبنانية لم تقع ابدا . ورد السوريون على اسقاط طائراتهم الهليكوبتر بان دفعوا بصواريخ سام — ٦ المتحركة الى وادى البقاع . وكانت هذه هى اول مرة يضعون فيها هذه الصواريخ في الاراضى اللبنانية وطالب بيجين بسحب هذه الصواريخ قائلا انها تهدد حرية عمليات القوات الجوية الاسرائيلية فوق لبنان . ومما اثار قلق العسكريين المحترفين انزلاق لسان بيجين فقد اعلن وسط حماس الجماهير في اجتماع ليكود انه مالم يعمل السوريون على ازالة هذه الصواريخ فان اسرائيل سوف تبعث بقواتها الجوية لتدميرها . واصاب المسؤولين عن الامن الذهول . وكتب هيرشى جودمان المراسل العسكرى لصحيفة جيروسالم بوست يقول :

« لماذا اخطر بيجين السوريين بان رد فعل اسرائيل سيكون عن طريق الجو ؟ لقد كان السوريون قد اكملوا لتوهم نشر بطارية مسلحة الى جانب صواريخهم على الحدود السورية اللبنانية — ذلك لانهم لم يكونوا يعرفون ما اذا كان الهجوم المحتمل سيأتى عن طريق البر او الجو او عن طريق الاثنين معا » وفي اليوم التالى ضاعف بيجين الاساءة عن طريق الكشف في الكنيست عن ان الاوامر قد صدرت الى القوات الجوية بان تقتلع بطاريات صواريخ سام ٦ في ٣٠ ابريل لكن هذه المهمة قد المغيت بسبب السحب الكثيفة . لقد كان بيجين رئيس للوزارة وفي نفس الوقت قائما باعمال وزير الدفاع فان معلوماته كانت دقيقة وايضا مدمرة . وقال رئيس سابق لمخابرات القوات الجوية وهو العميد ياشياهو باركت في مقابلة تليفزيونية انه خلال خدمته في الجيش لمدة خمس وعشرين عاما لا يذكر ان اسرار العمليات قد نشرت بهذه الصورة . وان اى فرد في الجيش لو فعل ما فعله بيجين لوجهت اليه تهمة الاخلال الخطير بالامن . ونقل عن ضابط آخر قوله : « لقد قدم للعدو وعلى طبق من ذهب ما كان سوف ينفق على الحصول عليه سنوات ملايين الجنيهات وحتى لو فعل ذلك كانه لن يكون متاكدا من صحة ما حصل عليه من معلومات . والخطا الذى ارتكبه بيجين انه بتحليله للطقس في اليوم الذى كان مفروضا فيه ان تدمر القوات الجوية الاسرائيلية الصواريخ السورية ، مكن السوريين من معرفة الظروف الجوية التى في ظلها تستطيع القوات الجوية الاسرائيلية ان تعمل ومتى لاثستطيع ذلك . وبذلك تم

الكشف عن حدود عمل الطائرات الاسرائيلية وكذلك عن عشرات من حالات اخرى من التفاصيل التي يمكن استنتاجها من هذه المعلومة . ومثل هذه المادّة كانت تراقب مراقبة دقيقة في الصحافة الاسرائيلية . ولم يكن رد الفعل لزلّة بيجين وحماقته مجرد نشوب الجدل السيلسي حولها ، بل ان اداء القوات الجوية ضد السوريين بعد ذلك بعام يبين ان الضرر قد وقع بصورة سريعة جدا .

وبعد الساعة الثالثة مباشرة من عصر يوم احد الموافق السابع من يونيو انطلقت مجموعة من ست عشرة طائرة من الطائرات الحربية الاسرائيلية المتقدمة في طيران منخفض وسريع من قاعدة عصيون بالقرب من ايلات ، وقصفت المفاعل النووي العراقي خارج مدينة بغداد وعلى بعد ستمائة ميل وعادت الى قواعدها سالمة دون اية خسائر وكانت هذه الغارة واحدة من الغارات الجوية الدقيقة التخطيط والتنفيذ والتي اشتهر بها الاسرائيليون منذ حرب ١٩٦٧ وعملية عنتيبي وهكذا تراجعت فرص العراق لبناء قنبلة ذرية عربية بمساعدة فرنسا وايطاليا الى الوراء عدة سنوات . وقد خططت هذه الغارة على عجل لتكون انجازا انتخابيا بئرا . وكانت حكومة بيجين قد اتخذت هذا القرار من حيث المبدأ في اكتوبر الماضي راختيار بعض من افضل الطيارين الاسرائيليين للتدريب منذ ذلك التاريخ . وقد تم اختيار الطائرات وادخلت التعديلات على التكتيك الذي سوف تتبعه هذه الطائرات بصورة تقلل من مخاطر اكتشافها واعتراضها اثناء عبور طائرات اف - ١٦ المقاتلة وطائرات اف - ١٥ للصواريخ العربية وكانت طائرات اف ١٦ المقاتلة متعددة الادوار تحدد الهدف وتصيبه بقنابل زنة ٢٠٠٠ رطل بينما كانت طائرات اف - ١٥ المقاتلة المتقدمة تقدم مظلة واقية لحماية هذه الطائرات . واعلن بيجين عن هذه العملية بعد يوم واحد من وقوعها . وكان يوم احتفال الحصاد اليهودي المسمى « شافوت » تعد ان اتهم الاردنيون الطائرات الاسرائيلية بمساعدة ايران في حريها ضد العراق حليف الاردن . وبالرغم من انه لم يكن هناك اى ذكر للمفاعل الا ان بيجين اتخذ من هذا ذريعة كافية للاعلان عن قصة تدمير المفاعل العراقي وقد تكون هناك ميزات دولية في اخفاء اسرائيل تورطها في هذه العملية لكن بيجين كان دائما يميل الى العلانية . وكان توقيت العملية متأثرا بقرب الانتخابات .

وقد تم اخطار الامريكيين والاصدقاء الذين تساءلوا عن هذه العملية ان بيجين قد نفذها في يونيو لانه لم يكن متأكدا من الفوز في الانتخابات وكان لا يثق في حلفائه من حزب العمل ان يقوموا بتنفيذها ان هم فازوا في الانتخابات وكان هذا احد هذه الاعتبارات . كذلك فان ما اثار قلق رئيس الوزراء هو تهديدات المفاعل العراقي . فلم يكن يراود الاسرائيليون اى شك في ان الرئيس صدام حسين يزعم صنع قنبلة ذرية . ولكن الشهود المقربين من بيجين قالوا كان يريد عملية كهذه لاغراض انتخابية . وكانت الاغلبية من المستشارين الخبراء يعتقدون ان

هذا المفاعل لن يكون تهديدا حقيقيا قبل مرور ثلاث سنوات ولكن الاقلية من هؤلاء الخبراء ومستشاري الحكومة كانت توافق على ان هذا المفاعل سوف يكون كذلك في يوليو عام ١٩٨١ . اما الرأي السائد بين رجال المخابرات في واشنطن فكان يرى ان ذلك سوف يحدث بعد عام واحد . وكان بيجين مقتنعا بان قصف المفاعل بعد ان يشكل تهديدا حقيقيا سوف يترتب عليه الالاف من الضحايا نتيجة للاشعاع في بغداد . . ولم يكن مستعدا لتحمل مسؤولية كهذه . وعلى اية حال فان كلمة واحدة من خبير اسرائيلي يقول فيها ان تهديد المفاعل قد يبدأ بعد شهر واحد كافية لان يتخذ رئيس الوزراء قرارا بقصفه .

وقال له المخططون العسكريون ان مخاطر الفشل ضئيلة جدا . وعلى أسوأ الظروف ففد تضطر هذه الطائرات الى العودة أو أن تصاب واحدة أو اثنتان منها وهي في طريق عودتها أو من الصواريخ المنصوبة في بغداد وكانت القوات الجوية واثقة من ان في استطاعتها حل مشكلة المدى (وهي مشكلة الوصول الى بغداد والعودة على ارتفاع منخفض الحاجة الى اعادة تزويدها بالوقود) . واذا ما كان هؤلاء المخططون على صواب فعندئذ تصبح مخاطر فشل هذه العملية على الانتخابات غير ملموسة . وكذلك استبعدت مخاوف وشكوك مدير المخابرات العسكرية ، جنرال ييهوشوا ساجوى ، من ان تؤدي هذه العملية الى تعميق الفجوة والازمة بين اسرائيل والولايات المتحدة . وكذلك لم يأخذ برأيه القائل بأن العراق في حاجة الى خمس سنوات قبل ان يستطيع انتاج قنبلة نووية ، وعندئذ سيكون امام اسرائيل متسع من الوقت لحاونة الوسائل غير العسكرية . وكان جنرال ساجوى يلقي تأييدا لرأيه هذا من الأغلبية في القيادة العسكرية ولكن ثلاثة من مؤيدي التنفيذ المبكر للعملية كانت لهم المغنبة وهم مناحم بيجين ، ووزير الزراعة ارييل شارون . ورئيس الاركان المعروف بقوة شكيمته جنرال رافائيل ايتان . ولكي يحيد اثر التحفظات السياسية داخل الحكومة فان بيجين حول اتخاذ قرار بالنسبة للتوقيت الى لجنة فرعية ثلاثية مكونة منه ومن شارون ومن وزير الخارجية اسحق شامير وثلاثتهم من الصقور المتشددين .

وما ان اخبروه بما قاله الأردنيون اصدر بيجين تعليماته الى المتحدث الرسمي الناطق باسمه أوري يورات بأن يعلن عن نجاح العملية الاسرائيلية ، وكان يورات جديدا في هذه الوظيفة حتى ان المحرر المسئول في الاذاعة الاسرائيلية لم يتعرف على صوته . ولذلك تردد في اذاعة القصة حتى قام رئيس قسم الاخبار باذاعة اسرائيل ايمانويل هالبرن وهو قريب لبيجين بالتأكد من القصة من رئيس الوزراء وانها ليست خدعة . واذيعت القصة كنشرة اخبارية خاصة في الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر .

وفي مؤتمر صحفي في اليوم التالي استبعد بيجين المشجب العالي للغارة مصرًا على أن إسرائيل قد تصرف من منطلق الدفاع القومي عن النفس واتهم الرئيس صدام حسين بالتآمر لتركييع إسرائيل ولتدمير وجودنا ومنسحبنا وطننا . وزعم أنه باستطاعة العراق أن يدمر تل أبيب الكبرى ومركز الصناعة الاسرائيلية والحياة الزراعية والثقافية والتجارية بثلاث قنابل فقط مما القيت على هروشيما في سنة ١٩٤٥ . وقال ان ما يقرب من ستمائة ألف ضحية سوف تقع فأين هو هذا البلد الذي يمكن أن يحتفل مثل هذا الخطر ؟ انه لن تكون هناك اية مذبحه أخرى في تاريخ الشعب اليهودي . . انها لن تقع قط . . اننا سوف ندافع عن شعبنا ضد أي عدو . ان كلبوس آرثر مورس لن يتكرر ثانية . لم يكن بيجين دائما هكذا مع الارقام التي يدلي بها . ولقد تقابل مع مراسل لوكالة رويتر في حفل في السفارة البريطانية واخبره بأن القنابل الاسرائيلية قد دمرت معملًا سريًا على بعد أربعين مترا تحت سطح الأرض . وعندما ظهرت الدهشة على الوجوه كرر بيجين هذا الزعم ، وعندما سئل لماذا لم يكشف عن ذلك من قبل اجاب : « ولماذا اعطيكم كل شيء مرة واحدة ؟ وشرح المتحدث باسم رئيس الوزراء أورى بورات ان العراقيين كانوا يفعلون الاشياء التي لا يريدون اكتشافها في حجرة تحت الأرض . وفي اليوم التالي اتصل بيجين هاتفيا بمراسل رويتر باتريك مس وامتذر له عن تضليله وقال له انه قد علم الآن ان المعمل كان يقع على بعد اربعة أمتار تحت سطح الأرض . وثمة مواقف أخرى حرجة . فقد ناشد يتزاك هوف رئيس المخابرات العامة (الموساد) الساسة الاسرائيليين علنا بالآ يفشوا اسرار اتصالات اسرائيل بأجهزة المخابرات الأجنبية ويكشفوا عن معلومات سرية أمكن الحصول عليها منها . ولم يكن في حاجة الى تحديد أسماء هؤلاء الساسة . كما أخطأ وزير الخارجية في الاستشهاد بأقوال صدام حسين في بيان وزع على الصحافة والبعثات الاسرائيلية بالخارج . ولكن لم يكن هناك أدنى شك في أن الغارة على المفاعل الذري قد رفعت من صورة بيجين كزعيم يستطيع في ان يتخذ القرارات الشجاعة وتنفيذها على الفور . وكان الاسرائيليون يشاركونه الرأي في ان تهديد المفاعل الذري قد تمت ازالته وبقي حزب العمل في شجار وجدل حول التواريخ التي يمكن ان يصبح فيها هذا المفاعل تهديدا واقعا ، وهذا الجدل لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للناخبين .

وفي قياس للرأي العام في أواخر مايو وقبل الغارة على المفاعل بأسبوعين استطاع حزب ليكود ان يتجاوز حزب العمل . واخذ التأييد للحكومة يتزايد في السياسة الداخلية والخارجية والامن . وكان التأييد والتعاطف مع إيرل شارون في تزايد بالنسبة لحملته لاقامة المستوطنات في الضفة الغربية والتي كان التلفزيون التجاري يذيعها وفي الجولان التي تقوم بها القوافل في الأراضي (المحتلة) والتي يديرها الوزير نفسه وتحت عنوان : « اننا على الخريطة » وزادت عملية بغداد من تقدم حزب ليكود لكن حزب العمل تراجع في الأيام

الاحيرة القليلة من الحملة الانتخابية . وركزت المعارضة على العنف في الانتخابات وهذا دفع الكثيرين من الناخبين الذين يقفون في منتصف الطريق الى اعادة تقييم ما يؤمنون به من اسبقيات . فادا ماكان هدفهم الرئيسى هو اخراج حزب ليكود فانهم لن يستطيعوا تحمل التصويت لصالح احد الاحزاب الصغيرة من اليسار او الوسط . واستطاع بيريز ان يرتفع بموقعه نتيجة لادائه الطيب في مناقشة تليفزيونية مع بيجين وعن طريق ضم منافسه اسحق رابين الى فريق رئاسة الحزب . وكانت المحصلة هى حدوث سباق متقارب بين الحزبين الكبيرين لم يحدث مثله فى تاريخ اسرائيل . وفى لحظة مبكرة عندما كانت نتائج الانتخابات تدخل الى كمبيوتر التليفزيون ظهر بيريز وكأنه هو الفائز . وحصل حزب ليكود على ٤٨ مقعدا مقابل ٤٧ لحزب العمل . وكان فارق الاصوات هو ١٠٠٠٠٠ صوت فى انتخابات أدلى فيها ما يقرب من مليونين بأصواتهم . وكان الفارق العرقى والعنصرى أكثر وضوحا عن سنة ١٩٧٧ . وقال محلل الانتخابات هانوش سميث :

« لقد حقق تحالف العمل مكاسب كبيرة فى جميع المدن التى بها أغلبية من أصل أوروبى . وعلى عكس ذلك فان أصوات حزب ليكود ظلت كما هى دون تغيير . وكان نمط التغييرات فى المكاسب الكبيرة التى حققها حزب ليكود فى المدن التى تسكنها أغلبية آسيوية — أفريقية . وهذا يدل على ان زيادة مقاعد حزب ليكود من ٤٥ الى ٤٨ ترجع الى كسب جديد فى أصوات الناخبين من الآسيويين والأفريقيين وخاصة فى المدن النامية » .

وكان قيام تألف هذه المرة أكثر صعوبة مما كان عليه عام ١٩٧٧ لكن بيجين كان مستعدا مرة أخرى لأن يدفع الثمن فى صورة حزب أجودات اسرائيل الأرثوذكسى المتطرف والحزب القومى الدينى وحزب شمال أفريقيا الجديد المسمى « تامى » وأصبح أكثر سهولة على طلبة مدارس اليشيفا (مدارس التلمود) والمعلمين فى هذه المدارس تجنب الالتحاق بالجيش أو فى الاحتياطى . واجبرت شركة الطيران « العال » على ان توقف طيرائه فى أيام السبت . وبالنسبة لبيجين فان تأييد الاحزاب الدينية له يستحق كل « شاقل » (العملة اليهودية) ولأول مرة قد فاز فى الانتخابات عن طريق غريزة الجماهير وعن طريق مهارته القديمة فى الحملات الانتخابية وبقى وكلاء الاعلانات فى أماكنهم . لقد حقق المستحيل ولم يفته النصر .

الفصل الثانى والعشرون

خيار الحرب

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاحد الموافق السادس من يونيو عام ١٩٨٢ شنت اسرائيل هجوما شاملا برا وبحرا وجوا على معازل الفلسطينيين فى جنوب لبنان من البحر الابيض المتوسط حتى سفوح جبل الشيخ ...

وفى خلال ساعات انتقلت أخبار القتال من الميناءين القديمين صيدا وصور وما أن حل صباح اليوم التالى حتى رفرفت نجمة داوود على قلعة بيفورت ، وهى قلعة للصليبيين اقاموها فوق مدخل نهر الليطاني ، والتي منها كان الفدائيون التابعون لياسر عرفات يلقون بظلمهم على لسان الجليل وبذلك كانوا يعيدون المحاولات السابقة لاقتلاعهم من هذا المعقل .

وفى خلال اسبوع واحد كانت اندبايات الاسرائيلية عند ابواب بيروت . وهكذا تصاعدت هذه الغزوة الانتقامية الى حرب وصفها بيجين بأنها « حرب الخيار » ولاول مرة لم يحاول زعماء اسرائيل الاختفاء وراء شعار « ليس لدينا الخيار » .

لقد خططوا وانتظروا واختاروا الفرصة عندما لاحت لهم ولم تكن هذه حرب فتح واستيلاء على الاراضى كمطعم نهائى بل كانت حربا جلبت على رئيس الوزراء أشد العقاب .

لقد كانت المدرعات الاسرائيلية قد عبرت الحدود فى غضب قبل ذلك بأربع سنوات كانتقام لمذبحة ذهب ضحيتها اثنان وثلاثون مدنيا فى عملية اختطاف قافلة للسائحى على الطريق الساحلى بين تل أبيب وحيفا .

وكانت « عملية الليطاني لعام ١٩٧٨ » عملية تمت على عجل وفى غير نظام فى معظم الاحوال اكتسحت قواتها جنوب لبنان وقامت بتطهير حزام ملثو ضيق تم فتح هذا الحزام لصديق اسرائيل الراحل سعد حداد . وحتى ذلك الوقت كان الفدائيون - الفلسطينيون على مرمى البصر من القرى الاسرائيلية ولذلك غانهم قد جعلوا الحياة غير محتملة بالنسبة لجيرانهم من المسيحيين والشيعة المسلمين اللبنانيين .

هذا الاقتحام الاول قد تمخض عن قدر من السلام . وكان على المتسللين أن يتحدوا قوات الامم المتحدة المعسكرة فى المنطقة الفاصلة ، وكذلك ميليشيات سعد حداد المحلية وأيضا دوريات الحدود الاسرائيلية (التى كان بعضها يعمل

داخل لبنان) أو أن يفامروا بشن الهجوم من البحر . ولقد أوضحت حرب استنزاف ثابتة ومصغرة وكانت قد تمخضت عن أزمة الصواريخ السورية في صيف سنة ١٩٨١ أن الفلسطينيين كانوا قريبين جدا من إسرائيل ويهددون راحتها .

وكن في استطاعة قطع المدفعية السوفيتية المصنع من عيار ١٣٠ م . م وكذلك قاذفات صواريخ كاتيوشا المتحركة والتي كان في استطاعتها أن تطلق أربعين صاروخا في المرة الواحدة ، ضرب مدن وقرى الحدود كلما أرادوا ذلك .

وإثناء حملة الانتخابات عام ١٩٨١ وعد بيجين بأنه لن تسقط بعد ذلك أية صواريخ كاتيوشا على مدينة كريات شمونة وهي مدينة متطورة في الحلب ، أصبحت رمزا للخوف ورمزا للحياة المعطلة المزقة .

وبعد شهر من إعادة انتخابه أدى هجوم جديد أعنف من أى هجوم سابق الى اجبار نصف سكان المدينة على هذا الحصول على عطة مفروضة وأجبر نصف الآخر على أن يبقى في المخابىء .

وهكذا تحول الاسرائيليون الى لاجئين في أرضهم . ووضع الجيش الخطط لابعاد مدافع الفلسطينيين ، لكن هذه الخطط قد وضعت على الرف عندما استطاع الوسيط الأمريكى فيليب حبيب التوصل الى وقف لاطلاق النار . وهكذا برزت بذور الغزو الذى تم عام ١٩٨٢ .

وأكد تعيين ارييل شارون وزيرا للدفاع بعد انتصار ليكود في الانتخابات أن هذه الخطط لن يتراكم عليها التراب . وكان بيجين قد قاوم كثيرا هذا الخيار لما عرف عن شارون من جموح وتصلب في الراى .

وكان كل من وزير الدفاع الجديد ورئيس الاركان رافائيل ايتان على اقتناع تام بأن لديها الرد العسكرى على مشكلة منظمة التحرير الفلسطينية . وكاتا يقولان أن - إسرائيل في استطاعتها تدمير قوة عرفات وقاعدته في لبنان وهي البلد الوحيد الذى لازال في استطاعته العمل منه - بصورة مستقلة -- ضد الدولة اليهودية ومن ثم يرفعون قبضتهم من على العرب الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلى في الضفة الغربية وقطاع غزة .

وفي نفس الوقت يمكن اقامة حكومة صديقة في بيروت برئاسة الزعيم الكتائبى بشير جميل والذى كانت إسرائيل قد رعتة منذ منتصف السبعينات .

ولقى هذا المشروع استجابة لدى بيجين من الناحية الايديولوجية والناحية المزاجية . وبذلك تستطيع إسرائيل أن تؤكد قوتها ضد آخر أعدائها الذين يريدون تدميرها . وعندئذ سوف يأخذ اليهود مصرهم في أيديهم .

أن رئيس الوزراء كان قد حصل على جائزة نوبل للسلام ولكنه لم يتخل عن جابوتنسكى . فهو ليس بالقديس وليس أيضا من معارضى الحرب ورافعى راية السلام .

وكان بيجين هو الذى عرض خطة الغزو على الحكومة فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٨١ ، وذلك بعد اسبوع واحد من ضم اسرائيل للجولان . وكان السوريون فى حالة غضب شديد وفضل رئيس الوزراء أن يواجههم فى لبنان بدلا من مواجهتهم على المرتفعات . وانصت الوزراء فى دهشة فى حين بدأ شارون ثم ايتان فى شرح أهداف « عملية شجر الارز » والتى نصت على اختراق اسرائيلى حتى طريق بيروت - دمشق وحصار بيروت ، والاتصال بالكتائبين المسيحيين اليمنيين فى الشمال والنزول فى ميناء جونيه على بعد خمسة عشر كيلو مترا خلف العاصمة . وضغط بيجين للحصول على قرار بالتنفيذ لكن كثيرا من الوزراء عارضوا المشروع الامر الذى اضطره الى سحبه دون التصويت عليه .

وفى نفس الوقت عرض شارون مشروعه الكبير هذا مرتين على المسؤولين الامريكيين وطبقا لما قاله أحد الذين استمع اليه : « لقد أعطى وجهه » نظـر شخصية ودقيقة لما يريد أن يفعله بالنسبة لمشكلة لبنان وقال بعناية أن هذه وجهة نظره بالفعل » .

ويزعم الدبلوماسيون الامريكيون أنهم على الفور حذروا وزير الدفاع من مثل هذه الامور . وكلما أمكن لواشنطن رصد أية علامة عن حشود عسكرية اسرائيلية فى الشمال كتبت تبعث برسائل تحذيرية قوية الى بيجين عن طريق سفيرها فى تل أبيب صموئيل لويس . وقد ساعدت هذه الرسائل على كبح جماح اسرائيل فى مناسبات أربع فى النصف الاول من عام ١٩٨٢ عندما تعرضت حكومة بيجين لاغراء شن الحرب .

كان رئيس الوزراء من بين الاغلبية فى الحكومة التى كانت تعارض شن حرب انتقامية على نطاق واسع ردا على غارة للفدائيين على مستوطنة محولا ، والتى تقع فى وادى الاردن ، وذلك فى نهاية شهر يناير ، وكذلك اعترض مرة أخرى فى شهر مارس عندما اقترح كل من شارون وأيتان اتخاذ مبادرة فى لبنان لاختبار نوايا المصريين قبل الجلاء النهائى من سيناء . ولكنه انضم الى الصقور فى نهاية الشهر عندما قتل احد الجنود الاسرائيليين من انفجار قنبلة يدوية فى غزة .

وعلى أية حال فقد كان بيجين وشارون يمثلان أقلية من اثنين ولم يحدث شئ وأدرك الامريكيون أن البندول يتذبذب تجاه اتخاذ عمل ما . ولم تنشر قط شروط فيليب حبيب لوقف اطلاق النار ولكن الاسرائيليين قالوا ان الهدنة تنسحب على العمليات الارهابية فى الداخل وفى الخارج ولا تقتصر فقط

على تلك التي تقع عبر الحدود اللبنانية ولكن الفلسطينيين كانوا يجادلون في هذا المفهوم وكذلك فعلت الولايات المتحدة ولكن هذا المفهوم ظل عقيدة وإيماناً بالنسبة لبيجين وشارون .

ومرة أخرى اقترح وزير الدفاع ما وصف بأنه « مشروع كبير وذلك في أوائل إبريل بعد أن قتل دبلوماسي في باريس ولم يخف أبعاد هذا المفهوم الحقيقية عن مجلس الوزراء وإن كان قد عزم على البدء بشن غارات جوية على قواعد الفلسطينيين . وقد تم تخطيط الحملة على أن تستغرق ثمان وأربعين ساعة للوصول إلى بيروت وطريق بيروت - دمشق وأن يبقى الجيش في لبنان لمدة اسبوع واحد ولكن عندما عرض الأمر على زعماء المعارضة قدر إسحق رابين أن إسرائيل سوف تحتفظ بكل لبنان لمدة تصل إلى ستة أشهر . وعندما سأل رئيس الوزراء المسبق الرئيس الحالي مناحم بيجين عما إذا كان على استعداد لقبول هذا الاحتمال أجاب بيجين بالنفي ووضع هذا المشروع على الرف مفضلين عليه القصف الجوي .

وبعد تأجيلات متعددة أرسلت القوة الجوية في العشرين من إبريل وذلك بعد أن قتل ضابط في الجيش نتيجة لانفجار لغم وهو يقوم بدورية في جنوب لبنان . ولم ترد منظمة التحرير الفلسطينية ولكن بعد اسبوعين قصفت منطقة الجليل كرد على موجة ثانية من الغارات الجوية الاسرائيلية - وكانت هذه اول عملية انتهاك فلسطينية على هذه الجبهة منذ الهدنة . واقترح بيجين عملية انتقامية واسعة المدى بالرغم من أن القصف كان على نطاق ضيق رمزي ولم يصب الاهداف بصورة متعمدة وكانت الحكومة منقسمة بالتساوي بين مؤيد ومعارض . ووافق بيجين على تأجيل العملية .

ولكن تقرر أنه إذا ما قتل احد اليهود أو جرح على يد الارهابيين في أي مكان من العالم فعندئذ سوف تعمل إسرائيل .

ومرة أخرى عرض بيجين وشارون على زعماء المعارضة نوايا الحكومة ولكن عملية حجب المعلومات قد بدأت وسأل رابين وزير الدفاع شارون عما إذا كانت الخطة تتضمن صيدا التي تبعد ستين كيلو مترا شمالي الحدود وقدم وزير الدفاع ثلاثة ردود مختلفة وبعد ذلك بعام كتب رابين يقول :

« لقد كان واضحا انه لا يريد أن يقول الحقيقة ولقد أجاب هكذا : (اعتقد ذلك) ثم قال بعدئذ : (لا اذكر على وجه التحديد) . وبعد ذلك قال : (سوف أذهب وأراجع الخطة) وترك الحجرة في وسط الاجتماع للتحقق من وجود صيدا في الخطة . وعاد إلينا ليقول (أنها تدخل في الخطة) وسألته عن بيروت لكن أبريل اعطانا الانطباع بأن صيدا هي الحد وعندما سأله عما إذا ما كانت

بيروت ضمن هذه الحدود وجاءت الإجابة (لا) وهكذا خدعت ، ولكن لم أكن أنا وحدي الذى خدع . لقد خدعت الحكومة وربما للحصول على موافقتها .

وفى العشرين من مايو ذهب شارون الى واشنطن حيث تقابل مع وزير الخارجية الكسندر هيج» ومرة أخرى عرض شارون خطته لسحق الفلسطينيين وان كان لم يحدد الى أى مدى سوف يذهب الهجوم الاسرائيلى .

ويقول الدبلوماسيون الامريكيون أنه لم يذكر بيروت . لقد كان كل اهتمامه هو الا تشكو حكومة ريجان بعد العملية من أن اسرائيل قد فاجأتها كما فعلت بالنسبة للغارة على المفاعل العراقي وهيج مثل شارون جنرال متشدد قد تحول الى سياسى ولذلك فانه كان متعاطفاً لقد كان يسعده كثيراً ان يرى منظمة التحرير الفلسطينية والتي كان يمتقتها لانها اداة فى يد الكرملين ، وقد تمزقت أربا ، وفسر الاسرائيليون موقفه على أنه تشجيع بالسير قدما فى تنفيذ مخططهم . وقرأ أحد كبار المسئولين والذى كان ضد مشروع شارون ، بشئ من القلق برقية أرسلها الى القدس سفير اسرائيل فى أمريكا موشيه أرينز حول اجتماع شارون - هيج وكان رد فعل هذا المسئول هو « يا الهى ! انهم اعطونا الضوء الأخضر » .

وكان هذا قبل أن يصبح هذا التعبير أمراً شائعاً وانكر هيج إعطاء موافقة على غزو لبنان لكن كبير مساعديه وهو وودى جولد بيرج قد اعترف بأن وزير الخارجية قد قال بالفعل انه ليس من حق أى مسئول أمريكى أن يخبر حليفاً لأمريكا كيفية الدفاع عن نفسه .

وقال أيضا : « ان أى شخص أصيب بدهشة من جراء تحرك اسرائيل فى لبنان إنما هو لم يكن يتابع الانباء عن كذب . وقال كذلك أنه اذا ما قررت اسرائيل أن تذهب فعليةا أن تتأكد من أن رد الفعل سوف يكون مناسباً لاي استفزاز أثار وتسبب فى رد الفعل هذا » .

ويعترف مسئولون أمريكيون آخرون بأنه ما أن بدأت الحرب حتى تحرك الجانب العسكرى فى شخصية هيج وادرك المزايا التى يمكن تحقيقها . لقد كان يريد لهذه الحرب أن تنتهى فى وقت قصير ولكن أن تنتهى بنجاح .

وقال أحد الدبلوماسيين فى شهادته : « أن هيج لا يكن أدنى حب لمنظمة التحرير الفلسطينية . وكان متعاطفاً مع الفكرة القائلة بأنه يجب اخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان . وكان يعارض أى وقف لاطلاق النار يقع مبكراً اذا ما بدأت الحرب إنما لم نرسم أى خطوط أو حدود ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام متعاطفاً مع فكرة مهاجمة أو قصف بيروت » .

ومرة أخرى انعكس حماس وزير الخارجية على البرقيات الدبلوماسية بين واشنطن والقدس . وفي إحدى هذه البرقيات التي تم تبادلها وانتشارها على نطاق واسع بين المسئولين الاسرائيليين والمخططين العسكريين ما اقتبس موشيه أرينز على لسان هيج حيث قال : « أنكم تقومون بعمل عظيم في لبنان وأنه لعمل يهم كل فرد . »

وأيا كانت نوايا وزير الخارجية فإن اجابته « بلا » تبدو في أذن الاسرائيليين كما لو كانت اجابة « بنعم » ومن الصعب الاختلاف مع زيف شيف عميد المراسلين العسكريين الاسرائيليين في القول بأنه حتى اذا لم تكن هناك مؤامرة اسرائيلية امريكية فهناك مشاركة ضمنية بينهما .

« فالامريكيون وقد تلقوا معلومات مسبقة عن نوايا اسرائيل اختاروا أن ينظروا الى الناحية الاخرى ، مبدئين تعليقات غامضة حول لبنان بحيث تستطيع اسرائيل تفسيرها على الوجهة التي تريدها . »

وقد لخص أحد المخضرمين في وزارة الخارجية الامريكية هذا بقوله : « اذا لم يكن هيج قد أعطى الضوء الاخضر فانه قد أعطى ضوءا كهربائيا مشوبا بالاخضرار » .

وفي أوائل صيف عام ١٩٨٢ كان الوضع في لبنان هو حالة حرب تنتظر المبرر لبدئها . وقبل منتصف ليلة يوم الخميس الموافق الثالث من يونيو بقليل قدمت الحركة القومية لتحرير فلسطين ، وهي جماعة متطرفة منشقة بزعامة صبرى البنا (أبو نضال) هذا المبرر . فقد قام أحد الفلسطينيين المسمى حسن السيد والبالغ من العمر الثالثة والعشرين ويعيش في قرية بالقرب من مدينة نابلس بالضفة الغربية باطلاق النار على السفير الاسرائيلي في لندن شلومو أراجوف ، ثلاث مرات فاصاب رأسه والجزء العلوى من جسمه بمسدس أوتوماتيكي بولندى الصنع عيار ٦٣ بينما كان خارجا من عشاء في فندق دور شستر .

وكان الفريق الذى اطلق النار بقيادة نواف روسان وهو تاجر ولد في الاردن . وقد عرف فيما بعد بأنه ضابط كبير في المخابرات العراقية . وكان الاعتقاد السائد بأن السفارة العراقية هي التى أمدته بالاسلحة . وعندما وصلت الانباء الاولى لمحاولة القتل الى القدس وكان بيجين نائما . وعندما تأكدت الاخبار أيقظه مساعدوه وأخبروه بما حدث وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى تكلم رئيس الوزراء هاتفيا مع جراح لندن هورمان جرانت . وقد ذكرت الانباء أنه قد انتهى لتوه من اجراء عملية للسفير المصاب وعندما سأل بيجين عن حال السفير أجاب الطبيب : « لا أستطيع أن أعبك بأى شيء » ، ولا أستطيع أن أقول لك ما اذا كان سيعيش أم لا واذا ما عاش فكيف سيكون . »

ولقد واجه شلوموا أرجوف ساعات حرجة امتدت من اثنتى عشرة ساعة الى أربع وعشرين ساعة وفي بطء بدأ السفير يفيق ولكنه ظل مشلولاً طريح الفراش . وكانت حياته بالغة السوء .

واستدعى بيجين الحكومة الى اجتماع عاجل وطارىء فى الساعة الثامنة والنصف صباحاً . وكان قد قرر بالفعل أن اسرائيل لا تستطيع أن تدع هذا الاستفزاز يمر . . . وقال أن السفير قد تم اختياره كهدف يهودى ولأنه اسرائيلى ولأنه رمز لدولة اسرائيل .

ان الرصاصة التى أصابت رأسه قد صوبت الى رأس دولة اسرائيل . وكان شارون فى الخارج فى مهمة سرية ولكن جنرال ايتان عرف ما هو متوقع منه . وبدعوة من رئيس الوزراء اقترح على الحكومة أن تقوم القوات الجوية بقصف تسعة أهداف فلسطينية فى بيروت وسبعة أهداف فى جنوب لبنان .

وعبر العديد من الوزراء عن تخوفهم من قصف العاصمة انهم يذكرون الضجة التى أحدثتها عمليات قصف سابقة فى العام السابق . ووعد رئيس الاركان بأن تكون الاهداف مختارة بعناية لتجنب وقوع اصابات بين المدنيين . وبناء على اقتراح بيجين تم الاتفاق على خمسة أهداف وهى : ثلاثة قواعد للتدريب فى الجنوب وموقعان فى بيروت هما اسفناد رياضى حيث يضم مخزناً كبيراً للأسلحة الفلسطينية وآخر يضم تسهيلات تدريبية . وأدرك الوزراء انهم ربما يكونوا قد صوتوا كمقدمة تمهيداً لشن حرب . وحتى الحماثم فهم قد شعروا بأنهم لا يستطيعون مخالفة بيجين مرة . وشرح ذلك أحدهم قائلاً : « لقد قلنا مرات عديدة من قبل (لا) أما الآن ففى وجه هذه الدراما العالمية وفى وجه حالة بيجين العقلية المضطربة لا نستطيع أن نرفض » . اننا فهمنا أيضاً أنه لا يمكن اغضاء الطرف عن محاولة القتل دون الرد عليها . اننا لم نكن متحمسين ، ولكننا كنا ندرك أن كرة الثلج لم يعد من الممكن وقفها .

وفى الفترة الاخيرة من ذلك اليوم قصفت الطائرات الاسرائيلية اهدافها وكما كان متوقعا جاء رد الفلسطينيين مماثلاً .

وهذه المرة كانوا يصوبون ليصيبوا لا ليخفقوا فى اصابة الهدف . وانهالت أكثر من ثمانمائة قذيفة وصاروخ كاتيوشا على شمال الجليل . وسقط أحد هذه الصواريخ على كريات شيمونة بالقرب من سيارة يعقوب ميريدور وزير التنسيق الاقتصادى واصابتها عدة شظايا واتصل ميريدور برئيس الوزراء لينقل اليه المطالب المحلية بأن يفى بوعده الذى قال فيه « أنه لن تكون هناك كاتيوشا بعد الآن » واجاب بيجين « انك تستطيع

أن تقول لهم أن كل شيء سوف يكون على ما يرام ولكنه حثه على
الاضيف شيئاً ولكن مريدور أدرك أن ميزان العمليات يتجه نحو القيام
بعملية برية .

وأسرع شارون عائداً من أوروبا إلى إسرائيل وتمت دعوة الحكومة
إلى الانعقاد في الساعة التاسعة من مساء يوم السبت وأطلع ايتان الوزراء
على صورة مصغرة من عملية شجر الصنوبر وهي عبارة عن هجوم ثلاثي
الشعب لابعاد مدفعية الفلسطينيين ورد شارون على تساؤلات زملائه
من المتشككين قائلاً أن العملية قد صممت لتحقيق السلام في الجليل وليس لغزو
بيروت .

وفهم الوزراء أنه يتكلم عن حدود لا تتعدى على وجه التقريب
أربعين كيلو متراً وهذا ما أكد به بيجين الذي أكد لهم أنه ما دعت الحاجة
إلى الذهاب إلى أبعد من ذلك فسوف تقرر الحكومة ذلك . وتم الاتفاق على
ضرورة بذل كل جهد لتجنب المواجهة مع السوريين الذين لهم ما يصل إلى
٣٠.٠٠٠ جندي يرابطون في شمال وشرق لبنان .

لكن كان أغراء السوريين على الانسحاب يشكل جزءاً من خطة شارون
ايتان وذلك لأنهم كانوا يشكلوا مظلة واقعية لمدفعية الفلسطينيين .
وقال شارون أن القوات الإسرائيلية سوف تصل إلى خط الأربعين كيلو متر
في خلال أربع وعشرين ساعة وأن العملية سوف تنتهي في خلال ثمان وأربعين
ساعة . وأعطى الوزراء موافقتهم الجماعية على الضربات الجوية وذلك
في خلال اجتماع يوم الجمعة . ولكن ثلاثة فقط أحجموا عن الموافقة على
الغزو .

وهؤلاء الثلاثة هم نائب رئيس الوزراء سمحا أرليش ، ووزير الطاقة
اسحق برمان والاثنان من أحرار الليكود ، أما الثالث فهو يوسف بورج من
الحزب الديني القومي .

وانهى بيجين المناقشة بخطاب عاطفي . لقد قال أنه لم يقدم اقتراحه
بقلب مسرور وقال أنهم يرسلون بجنودهم إلى المعركة وأن كل شيء سوف يبذل
لمنع وقوع اصلبات لكن المعركة معناها وقوع خسائر والخسائر معناها حدوث
ثكلى وأيتام .

والبديل غير المقبول لذلك هو حدوث ما حدث في معسكرات الاعتقال في
أوشوتز وبينما كان بيجين يترك مكتبه ليظهر إلى الشمال إلى مركز قيادة متقدم
سمعه مساعدوه وهو يتهم بكلمات وكأنه يصلى : « أدعو ألا تقع خسائر » أن
أصداء هذه العملية سوف تؤرقه لعدة شهور فيما بعد . .

وبناء على اقتراح من بيجين أطلق على هذه العملية اسم « عملية السلام في الجليل » وقال البيان الذى صدر بعد بدء العملية أن الجيش قد صدرت اليه التعليمات بوضع السكان المدنيين في الجليل بعيدا عن مرمى نيران الارهاب في لبنان . ولم يكن هناك أى اشارة محددة لحدود الاربعين كيلو متراً . ولقد ذكرها شارون فيها بعد وكذلك ايتان عندما بدأ التشهير بها لاندفاع الجيش الاسرائيلى بعيدا الى الشمال ولم يكن يساور الوزراء ادنى شك فى أنهم وافقوا فقط على حدود أربعين كيلو متراً .

وقد قال بيجين مثل هذا فى خطاب للرئيس ريجان فى نفس اليوم وهو يوم الاحد السادس من يونيو لقد قال .

« لقد صدرت التعليمات للجيش بأن يبعد الارهابيين الى مسافة أربعين كيلو متراً الى الشمال حتى يمكن تحرير جميع المدنيين فى منطقة الجليل من التهديدات الدائمة لحياتهم .

ومنذ الطلقة الاولى لم يكن شارون ولا ايتان يزعمان الوقوف بالعملية عند حدود الاربعين كيلو متراً وقال ضباط من الاحتياط أن قائدًا كبيرًا قد أخبرهم فى أول يوم بأن الهدف هو قطع طريق بيروت - دمشق واقامة نظام جديد فى لبنان ورفض وزير الدفاع انكار هذه المزاعم عندما سألته أحد نواب حزب شينو وهو موردخاي ويرشوبسكى .

وكان شارون قد حدد أهداف الحرب فى التلفزيون الاسرائيلى فى الخامس والعشرين من يونيو بأنها : القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية واخراج الجيش السورى وعقد اتفاقية مع لبنان . ولم يقل شيئاً عن حدود الجليل .

وفى الاول من أغسطس وفى خطاب أمام خريجي مدرسة عليا كانوا سيلتحقون بالجيش قال :

« لقد ذهبنا الى الحرب ضد الارهاب ، ولازالة العائق الذى يهدد ويمنع التوصل الى وفاق بيننا وبين عرب أرض اسرائيل ، لقد ذهبنا للحرب حتى يمكننا أن نعيش فى سلام ، اليهود والعرب فى القاهرة وبير سبع ، فى يهودا والسامرة ، حتى يهرف السلام بيتنا فى اقرب وقت وعلى جانبى الاردن » .

وكان رئيس الأركان اقل دبلوماسية . ففى أوائل شهر يوليو اخبر الضباط - والرجال فى وحدة على خط الجبهة ان القتال قد خلق الفرصة الوحيدة فى هذا الجيل لتغيير الأوضاع لصالحنا فى الصراع من أجل أرض اسرائيل . وقال :

أن تدمير واقتلاع القواعد الارهابية فى لبنان سوف يضعف المعارضة الفلسطينية للوجود اليهودى فى أرض اسرائيل .

وفي مقابلة مع دوف جولدمان في صحيفة معاريف اعترف شارون بأن مجلس الوزراء وافق على الخطتين اللتين عرضهما توافهما . ولكن قال انه كان يعلم أن هناك إمكانية لأن يتم في النهاية تنفيذ المصيفة الأكثر طموحاً من الخطتين .

وفي مقابلة أخرى مع نفس الصحفي اعترف ايتان بأن الحرب لم يكن يقصد منها مجرد تأمين قطاع يمتد الى أربعين كيلو مترا شمال الحدود وقال :

« لقد أصدر مجلس الوزراء تعليماته لجيش الدفاع الاسرائيلي بأن يبعد — الارهابيين عن الحدود الشمالية لاسرائيل وأن يدمر الارهابيين ويدمر مقار قيادتهم وتسهيلاتهم في لبنان . وهناك ثلاثة أشياء لم يرد ذكرها في تعليمات مجلس الوزراء : موضوع الاربعين كيلو مترا ، وموضوع بيروت ، وموضوع طريق بيروت — دمشق وعندما عرضت خطة الحرب على مجلس الوزراء عرضت الخطة بأكملها بما فيها محاصرة بيروت وقطع طريق بيروت — دمشق . وأقرت الحكومة هذه الخطة ولكنها أصرت في تعليماتها للرئيس بأن يكون التحرك من مرحلة الى أخرى في الحرب خاضعا للقيادة السياسية . وهكذا فقد تم تنفيذ كل مرحلة من الحرب وكل تحرك من مرحلة الى أخرى عن طريق أخذ موافقة القيادة السياسية .

لم يكن هذا هو ما ظهر للحكومة . فمنذ اليوم الثالث للحرب شك منتقدو شارون في أنه قد تم التفرير بهم وتضليلهم . ولم يكونوا مقتنعين بتأكيدات رئيس الوزراء — المتكررة بأنه في هذه الحرب لن يحدث شيء مادون أخذ الموافقة عليه بخلاف ما حدث في الحروب السابقة . وانضم موردخاي زيبوري ، وزير المواصلات من حزب حيزوت الى هؤلاء المتشككين . لقد كان عسكريا محترفا وصل الى رتبة قائد لواء واشترك في حكومة بيجين الاولى كنائب لوزير الدفاع وعندما كرر ايتان مزاعمه بعد ذلك بعام واحد بأن الحكومة هي التي فوضت الجيش منذ البداية لأن يتعدى حدود الاربعين كيلو مترا اتهمه زيبوري بالكذب .

وفي اجتماع لمجلس الوزراء في الحادي عشر من سبتمبر عام ١٩٨٣ نقل زيبوري من وقائع آخر اجتماع سبق الحرب ما يكذب مزاعم رئيس الركان . وقال انه في ليل يوم السبت أطلع ايتان وزراء على حدود الاربعين كيلو مترا على خريطة وأنه طلب الموافقة على عملية محدودة قائلا أنها لن تستغرق سوى يومين لانها . وقال زيبوري ان كلا من شارون وبيجين قد قالا نفس هذا الكلام .

كان شارون عندئذ وزيرا بدون وزارة وكان حاضرا اجتماع سبتمبر عام ١٩٨٣ ، ولم يجادل في ما قاله زيبوري . وأكد سكرتير مجلس الوزراء دان ميريدور

ما قاله زيوري وقال: « لقد قدم وزير الدفاع ورئيس الاركان خطة للقتال وطرد الارهابيين بعيدا الى خط اربعين كيلو مترا (وهو مدى المدفعية) من حدودنا الشمالية .

وهذه هي الخطة وهذا هو المدى الذي وافق عليه مجلس الوزراء في اجتماع ليلة السبت .

وفي مقابلة في تليفزيون اسرائيل وقبل وفاته بسبب هبوط في القلب في يونيو عام ١٩٨٣ قال سمحا ارليش : « لقد كانت هناك تفسيرات لقرارات مجلس الوزراء تمتد من القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء والتنفيذ الفعلي في الجبهة وفي بعض الاحيان كان هناك خروج مقبول ومحتمل ولكن كفت هناك ايضا اخطاء غير مقبولة وغير محتملة . واتهم شارون بأنه كان دائما يريد الخروج على قرار الاربعين كيلو مترا .

واستغل شارون نقص الخبرة العسكرية عند زملائه وكانت من الوسائل المحببة لديه محاولة الحصول على موافقة زملائه على تقدم صغير وتكتيكي ثم يعود بعد ذلك وبعد ان يكون قد حقق هذا التقدم ليشرح لزملائه أن هناك حلقة لمزيد من التقدم لبضعة كيلو مترات لتأمين ما قد تم احرازه بالفعل ولتحسين الاوضاع والمواقع . وفي احدى المرات سألته اسحق برمان وهو من اشد ناقدى وزير الدفاع : « ماهى المنطقة التى سوف يطالب منا بعد غد الموافقة عليها من أجل حملة الوحدة التى وضعتها فى الموضع الذى سوف تستولى عليه غدا والذي تمت الموافقة عليه ؟ وأجاب شارون وهو يكشر غاضبا « ياسيد برمان أن لك حملة عجيبة للدعاية والفكاهة » وكان برمان يشكو من أن العمليات الصغيرة لا تتم أبدا بسذون موافقة مسبقة ولكن لا ينطبق ذلك على العمليات الكبيرة فذلما ما يخيم الضباب على العمليات الكبيرة وعلى سبيل المثال منطقة شرق بيروت المسيحية فلقد علمنا فجأة أن هناك قوات اسرائيلية فى شرق بيروت وكان ذلك معلومة بديهية .

وفي الحقيقة ليست كذلك فلم يكن هناك أبدا قرار حكومى بالنسبة لدخول شرق بيروت .

أن اختراق شرق بيروت والتغلغل فيه والذي كان أمرا واضحا لكل من زار العاصمة اللبنانية ، يعتبر من الحالات الصارخة . ففي الثالث عشر من يونيو ، وفي نهاية الاسبوع الاول من الحرب الاسرائيلية فى شرق بيروت ، وفى المطار الدولى وحول بعيدا وهى الحي الذى يضم القصر الجمهورى ، ومسكن وزير الدفاع ، وتلقى الوزراء اجابتين : ان القوات الاسرائيلية ليست

في بيروت . وان بعبداء المطار يقعان خارج حدود المدينة وان هذه القوات عندما دخلت بيروت نفسها فانها فعلت ذلك ردا على خرق الفلسطينيين لوقف اطلاق النيران وكان على جيش الدفاع الاسرائيلي ان يسكت مصادر الخطر التي تهدد القوات الاسرائيلية وقالت صحيفة معاريف :

« سوف يتلقى الوزراء مكالمات تليفونية وهم في منازلهم من الجنود والضباط بما فيهم كبار الضباط يخبرونهم عن قصص مختلفة لانتهاكات وخرق وقف اطلاق النار من جانب العدو وفتح الجيش الاسرائيلي النيران وكذلك القول بأن الجانب الاخر هو الذي بدأ بفتح النيران كما يقول راديو اسرائيل . وكذلك هنا شكوى من الاوضاع في الميدان وهي اوضاع تختلف تماما عما تذكره الاذاعة ومن خلال سكرتيره - العسكري الكولونيل أزريل كان يجيب يسمع التقارير عن خرق الاسرائيليين لوقف اطلاق النار وعن استفزازات جيش الدفاع الاسرائيلي » .

وعندما كان رئيس الوزراء وغيره من الوزراء يسألون عن تفسير ذلك كانوا يخبرونهم بأن جيش الدفاع الاسرائيلي لم يكن يرد دائما في المكان الذي تعرض فيه لاطلاق النيران ففي بعض الاحيان ولعدة اسباب فانه كان يرد في قطاع آخر مختلف . والجندي الذي تصدر اليه الاوامر باطلاق النار قد لا يكون مدركا ان العدو هو الذي بدأ بفتح النيران في مكان آخر وبينما لم يقبل معظم الوزراء هذا الايضاح الا انهم كانوا يقفون عاجزين امام الزعم بأن العدو هو الذي بدأ بخرق وقف اطلاق النار .

ان حجم المكالمات التليفونية التي كان يتلقاها السياسيون والصحفيون الاسرائيليون والتي غالبا ما تكون من غرباء لم يسبق لها مثيل في اثناء الحرب . انها تعكس قلق الامة في خوض حرب من اختيارها ولقد عمقت هذه الحرب شعور الحكومة بانها تنساق رغم انفسها ! وكتب هيرشي جودمان الذي حارب في قوات المصاعقة في حربين كبيرتين يقول : « لأول مرة في تاريخ اسرائيل الغنى بالصراع كان هناك تصدع كامل بين هؤلاء الذين يصدرون الاوامر وأولئك الذين يطلب منهم أن يضعوا ارواحهم وأرواح رجالهم على خط المواجهة » .

وكانت بيروت مجرد مثال واحد . وجاء قطع طريق بيروت - دمشق مثالا آخر ولقد توجه بيجين الى واشنطن للتشاور مع إدارة ريجان وكان إيرليش يقوم بأعمال رئيس مجلس الوزراء . وفي الثاني والعشرين من يونيو بدأ جيش الدفاع الاسرائيلي في مهاجمة المواقع السورية والفلسطينية بالقرب من بحدون شرق بيروت . وسمع إيرليش عن هذا الهجوم لأول مرة في الراديو المثبت في سيارته وهو في طريقه من تل أبيب الى القدس . وما أن وصل الى الكنيسة حيث كان الوزراء وزعماء المعارضة بطلنوت السلوات عن هذا الهجوم حتى بدأ في الاتصال بشارون . وطلب منه إيرليش أن يخبره بما يجري . وعلى طريق

بيروت — ودمشق وأجاب أيتان ان التقارير التى اذاعها الراديو ليست دقيقة .
ان الجيش قد رد على نيران العدو فحسب .

وأضاف يقول انه ليست هناك تحركات للقوات الاسرائيلية . وبعد ذلك
بيومين تم قطع الطريق وتم الحصول على موافقة على هذه العملية وهى
موافقة باثر رجمى . وصدق إيرلوش ما سمعه ونقل تأكيدات ايتان الى
زملائه . ولم يمض وقت طويل ليذكر انه قد غرر به . وقال فى مقابلة
تليفزيونية فى يونيو عام ١٩٨٣ : « لقد قدمت لى معلومات ثبت بعد ذلك
انها ليست دقيقة » .

وهكذا تم الالتفاف حول الوزراء بالنسبة لقرار الاشتباك مع السوريين
والفلسطينيين فى شرق لبنان . وقد تجاهل شارون حتى رئيس أركان جيشه
الذى ألقاه كثرة الاصابات التى فاقت مايكن لاسرائيل ان تتوقعه .
وأثار جيش الدفاع الاسرائيلى الخلافات والصدام وطلب وزير الدفاع من
مجلس الوزراء أن يسمح له باقتلاع صواريخ سام - ٦ التى لاتزال
متمركزة فى البقاع . والح قائل انه لا يمكن ترك اقوات الاسرائيلية دون
غطاء جوى . والح شارون على ضرورة اتخاذ قرار سريع حتى تستطيع
القوات الجوية أن تضرب قبل حلول المظلام ولم يكن أمام مجلس الوزراء سوى
الموافقة . وفى وجه ائذار نهائى أمريكى بوقف اطلاق النار اصدر شارون
أوامره بمزيد من التقدم برا .

وبالرغم من الشكوى المتكررة من شارون وايتان من انها عوملا ككبش
فداء من قبل مجلس الوزراء الذى ينبغي عليه أن يتحمل نصيبه من المسؤولية
عن كل ماحدث فى لبنان ، كان هناك دليل مناسب عن ابعاد الوزراء عن
باشرة الاشراف على سير الحرب ولكن ماذا عن رئيس مجلس الوزراء ؟ .

لقد قال بيجين نفسه بمرارة : « اننى اعلم عن كل التحركات ولكن
احيانا قبل أن يتم تنفيذها واحيانا أخرى بعد أن يكون قد تم تنفيذها .
وكان يرحب بالأهداف — المعظم لمشروع شارون — ايتان .

وفى بعض الأحيان كان أكثر نصلياً من الحكومة . ففى نهاية شهر يوليو
على سبيل المثال — أيد رئيس الوزراء بشدة عملية لاقتطاع وفصل
معسكرات الفلسطينيين — وما جاورها عن جنوب غرب بيروت وحتى منطقة
تضم ٦٠٠٠ مبنى وعشرات الآلاف من السكان بين مدنيين ومقاتلين .

واقترح رئيس الأركان قصفا مكثفا عن طريق المدفعية وعن طريق
الطيران لاضعاف العدو والاقبال من الاصابات بين الاسرائيليين التى قدرها
ما بين عشرين وثمانين وكان الكولونيل ايلى جيفا قائد فيلق مدرع قد طلب
اعفائه من منصبه لكى يتجنب مهاجمة بيروت الغربية وقد قال لبيجين

انه يقدر الخسائر بـ ٢٥ قتيلًا اسرائيليا . وشعر العديد من الوزراء بالانزعاج من احتمال القتال في مناطق مزدحمة بالسكان وكذلك بالانزعاج من ردود الفعل الدولية لهذا القتال وتمت الموافقة باغلبية واحد فقط أى تسعة اصوات مقابل ثمانية لكن بيجين رفض اعطاء موافقته بسبب هذه الاغلبية الضئيلة .

وكانت هناك أوقات دافع فيها بيجين عن شارون أمام منتقديه وهذا يعنى ان رئيس الوزراء لم يكن رافضا كلية لخطوات وزير الدفاع . وقد قل مره لشارون : « من الافضل أن تمتطى الانسان جواد سيق تستطيع ان تسيطر عليه من أن تمتطى جوادا لا يستطيع الركوض » ولكن هناك بعض الحالات التى لم يكن يعرف بيجين ما يجرى فيها وفى خطاب فى الكنيسة فى الثامن من يونيو وبعد يومين من بداية الحرب قال بيجين :

« اننا نريد شيئا واحدا فقط : وهو الا يلحق احد الضرر بمستوطناتنا فى الجليل بعد اليوم ولا أن يضطر مواطنونا فى مستوطنات الجليل الى الاختناق فى المخابئ ليل نهار . والا يعيشوا تحت تهديد الموت المفجائى من الصواريخ كتيوشا . هذا هو ما نريده . اننا لا نريد أى صراع مع الجيش السورى » .

وانما اذا ما وصلنا الى خط الكيلو الاربعين الى الشمال من حدودنا خان المهه نكون قد انتهت وعندئذ يتوقف القتال .

وفى الواقع فان مجلس الوزراء كان قد اعطى شارون بالفعل موافقته على تنفيذ عملية تطويق القوات السورية من الشمال والشرق فى البقاع وهذا يعنى عبور خط الاربعين كيلو مترا . واعطيت الموافقة للقوات المدرعة بتحسين مواقعها ، وهو الامر الذى يعنى المخلطة بوقوع صدام .

وقد خضع شارون لاستجواب عسير عندما عرض وزير الدفاع الموضوع على لجنة العلاقات الخارجية والدفاع بالكنيسة فى نفس اليوم فيما بعد .

وحتى لو لم يكن بيجين مدركا لما يحدث فى الميدان ، الا أن المعارضة العملية والتى تضم ثلاثة من رؤساء الاركان السابقين وهم راين وبارليف وجور كانت تدرك ذلك تماما وأكد بيجين لكل من بيريز وراين اللذين كانا قد أرسلوا اليه للتوسط فى الخلاف انه لم يتم اتخاذ أى قرار بالاشتباك مع السوريين فى معركة وفى نهاية الاسبوع فى يومى السادس والسابع من أغسطس وبينما كانت بيروت تحت الحصار وكانت الولايات المتحدة تحاول إقامة التفاوض على اجلاء الفلسطينيين عن العاصمة أصدر شارون أوامره بالتعبئة على نطاق واسع للاحتياطى وبدون اخطار رئيس الوزراء وبسحبون أخذ تفويض بذلك من مجلس الوزراء وبدا من ذلك كان وزير الدفاع قد خطط

لشبح هجوم وقائي اجهاضى على غرب بيروت المسلحة وسمع بيجين من هذه التهيئة من مكالمة تليفونية في منتصف الليل من يوسف بورج وكان ابراهام ابن يوسف بورج ضابطا من ضباط الاحتياطى وهو من زعماء حملة معاداة الحرب. وقال بيجين مندهشا لوزير الداخلية يوسف بورج :

« اننى لم اوافق على استدعاء الاحتياطى » .

وعندما نسل شارون عن هذا الموضوع في اليوم التالي قال انه طالما قد تم الاتفاق على شن عملية في بيروت ليلا أصبح من الواضح لدى أن اعلان دعوة الاحتياطى .

ولم يكن من السهل تهدئة رئيس الوزراء الذى قال متسائلا : « ماذا . يعنى بقوله انه أصبح من الواضح لدى ؟ انك لا تستطيع أن تقدم على خطوة كهذه بدون موافقة . هكذا يعلم كثير من الاشخاص عن هذه التهيئة بينما لا يعلم رئيس الوزراء عنها شيئا ! وقبل شارون هذا التوبيخ وقدم اعتذاره .

وانتقد بيجين وزير دفاعه علانية في اجتماع المجلس الوزراء في الثلاثين عشر من أغسطس وهو اليوم اللاحق لاعنف واقسى قصف إسرائيلى لبيروت .

فلقد هاجمت الامواج تلك الامواج من الطائرات المناطق السكنية لمدة احدى عشرة ساعة متصلة وبدون انقطاع . وزعم ضابط كبير في القوات الجوية أن معظم التفجيرات كانت قنابل صوتية ولكن لم يكن هذا هو الوضع بالنسبة للسكان على البر أو مشاهدى التلفزيون في العالم كله .

كان الرئيس ريجان من بين هؤلاء واتصل هاتفيا ببيجين مرتين وطلب أن توقف إسرائيل هذه المذبحة . ورد بيجين قائلا ان الرئيس ريجان لا يعرف معنى هذه الكلمة لكن شارون تعرض لنيران ثقيلة في مجلس الوزراء من دافيد ليفى نائب رئيس حزب حيروت — ومن بورج الذى خشى أن يؤدي هذا القصف الى عرقلة للتوصل الى اتفاقية للجلاء في اللحظة الاخيرة وان يوجه اللوم فى ذلك الى إسرائيل . واتفق بيجين معهم على أن — القصف لم يعد يخدم أى هدف نافع مفيد وان إسرائيل سوف تتلقى نقدا شديدا من الولايات المتحدة . وتسأل بيجين قائلا : « وكيف سيكون موقف إسرائيل أمام العالم اذا ما تم استدعاء فيليب حبيب من مهمته لوقف اطلاق النار

وعندما حاول شارون الرد أكد رئيس الوزراء — غاضبا — سلطته ووافق مجلس الوزراء على توصياته بالا تتخذ مبادرات بعد اليوم لحماية الجنود الاسرائيليين بدون موافقة مجلس الوزراء والا يحدث أى قصف من البر أو البحر أو الجو بدون علم رئيس الوزراء وموافقة .

وبالرغم من أن بعض الوزراء رأى في ذلك تصويتاً بسحب الثقة من شارون إلا أن رئيس الوزراء لم يتخل عن وزير دفاعه . وفي الاجتماع التالي لمجلس الوزراء بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ اقترح بيجين نسيان الماضي . وكان عليهم أن يتحدوا معا ويسيروا جنباً إلى جنب في مهمتهم . وقال رئيس الوزراء : « مخطوطة تلك الدولة التي يعمل فيها شارون وزيرا للدفاع » .

وكان بيجين بعد ذلك تلقى التقارير بصورة منتظمة من شارون وكانت هذه التقارير تصل إلى ٥ و ٦ تقارير في اليوم الواحد . ولكن لما كانت هذه الحملة التي قدر لها ثمان وأربعين ساعة قد امتدت طويلاً شهر يونيو ثم يوليو وأغسطس حتى سبتمبر بدأت الشكوك تثار حول قدرة بيجين على البقاء .

لقد قام بزيارة واحدة للقرات الإسرائيلية في لبنان وذلك في اليوم التالي عندما ذهب ليهنيء وحدة المشاة التي استطاعت الاستيلاء على قلعة بيتوريت وحاول أن يأخذ يوم عطلة نهلية الأسبوع في بلدة تهاريا على الشاطئ الشمالي إلا أن هذا لم يتم نتيجة لزيارة بشير الجميل ووزير الدفاع الأمريكي كاسبار واينبرجر له .

وما هي المعلومات التي كان شارون وايتان يطلعانه عليها وما هي المعلومات التي كان يحجبها عنه ؟ وإلى أي قدر كانت يحاولان الاتصال برئيس الوزراء أثناء فترات الازمات .

إن مصرع بشير الجميل وما تبع ذلك من مذبة صبرا وشاتيلا يقدم الرد على هذا السؤال كانت مذبة مخيمات الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا نقطة تحول في كل العملية الإسرائيلية في لبنان .

وكان بشير الجميل عندئذ الرئيس المنتخب للبنان قد قتل في ليلة الرابع عشر من سبتمبر عندما دمرت قنبلة زمنية مكاتب الحزب في شرق بيروت .

وتشاور بيجين تشاوراً تاماً وكاملاً مع شارون وايتان اللذين أخبراه بالشائعات والشائعات المضادة حول تخير الجميل بينما كان رجال الانتفاذ يحفرون وسط الانقاص وفي حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً عندما تأكد مصرع الرئيس جميل أشار بيجين على شارون بأنه ينبغي على جيش الدفاع الإسرائيلي أن يسيطر على نقطة العبور بين شرق وغرب بيروت للحيلولة دون وقوع موضى وأرائة للكماء وللقتل بين السكان والذين يتنازلون بعضهم العداء . هذا هو الأقل ما قاله رئيس الوزراء للجنة كاهان التي شكلت للتحقيق في مذبة صبرا وشاتيلا ووضع الجيش في مظهر مخالف بناء على هذا القرار الذي اتخذه بيجين وشارون في هذه الحالة الطارئة . وفي

غرة قلق لبنان أعلن المتحدث العسكري في اليوم التالي أنه سيكون مؤقتاً لا أخلاقياً لو أن إسرائيل لم تساعد على المحافظة على السلام .
أن مصرع الرئيس المنتخب بشير الجميل هذا المأسوي يشير إلى رغبة لدى عناصر معينة للعودة عن طريق العنف إلى حالة الفوضى السابقة . وفي ظل هذه الفوضى يتفشى الإرهاب المملد لاسرائيل ويزدهر وأن إسرائيل لن تسمح بأن يحدث هذا مرة أخرى . أن التحركات الحالية للقوات الاسرائيلية تؤكد أن الهدوء سوف يسود وأنه سوف يتم انقضاء على الفوضى .

وأكد كل من بيجين ووزارة الخارجية أن إسرائيل قد تصرفت أثناء الليل للحفاظ على السلام . واستغل شارون وجيش الدفاع الاسرائيلي فرصة اغتيال الجميل لتمشيط الفدائيين الفلسطينيين وحلفائهم من اللبنانيين اليساريين الذين بقوا في غرب بيروت بعد جلاء منظمة التحرير الفلسطينية في نهاية أغسطس ودخلت حاملات الجنود المدرعة نقاط العبور الاستراتيجية في الأراضي التي يسكنها المسلمون والفلسطينيون حيث واجهت مقاومة على نقاط صغيرة لكنها مقاومة نشطة وفي يوم الخميس الموافق السادس عشر من سبتمبر دخلت ميليشيات الكتائبيين معسكري اللاجئين لمطاردة الفدائيين الفارين كما كان واضحاً . وقد تم تنسيق دخولهم مع الجيش الاسرائيل الذي ساعدهم عن طريق الاضواء الكاشفة وعن طريق التغطية بنيران المدفعية . وكان هذا كما لو وضعت ثعلباً في حظيرة للدواجن وكما يمكن أن يتنبأ أي فرد له معرفة — ولو بسيطة — بتاريخ لبنان الحديث الملطخ بالدماء ، فإن الكتائبيين قد نسوا كل شيء عن الارهابيين وأخذوا يقتلون كل فلسطيني يعثرون عليه سواء كان رجلاً أم امرأة أم طفلاً . واعترف بيجين في استجوابه من قبل لجنة كاهان أنه لم يعلم أي شيء عن قرار نشر الكتائبيين حتى أخطر به اجتماع طارئ لمجلس الوزراء في ليلة السادس عشر . أنه لم يتم استشارته أو اخطاره .

ومرة أخرى استند شارون إلى تفويض بأثر رجعي زاعماً أن نشر الكتائبيين قد تم بناء على قرار اتخذ في الخامس عشر من يونيو قبل ذلك بثلاثة أشهر . وأن الجيش اللبناني والكتائبيين وليس جيش الدفاع الاسرائيلي هو الذي سوف يستولي على غرب بيروت وكان دافيد ليفي هو المعارض الوحيد وحتى هو لم يجد ما يبرر التصويت ضد ما حدث بالفعل .

وفي يوم الخميس دخل الكتائبيون المعسكرات ولكن لم يعلم العالم بما فعلوه حتى يوم السبت الموافق الثامن عشر من سبتمبر . وأثيرت الشكوك حول التسادة الاسرائيليين المحليين يوم الجمعة . لقد أصدروا أوامره للكتائبيين بوقف عملياتهم ولكنهم لم يجبروهم على ترك المعسكرات قبل

صباح يوم السبت ولكن طبقا لشهادته هو ، لم يهتم أحد باخطار رئيس الوزراء . وكان يوم السبت هو يوم بداية السنة اليهودية الجديدة . ولكن كان في الامكان ارسال مبعوث الى داخل المعبد بكل سهولة . وبدلا من ذلك علم بيجين بالمذبحة عن طريق الاذاعة البريطانية في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم السبت — أنه لم يخطر بعد الحادث ولم يشر عليه أحد بشيء عن المخاطر مسبقا وعندما سألته آهرون باراك عضو لجنة التحقيق وهو الآن قاض بالحكمة العليا عما اذا كان ينبغي على أجهزة الامن أن تحذره أجاب بيجين : « ان ما ينبغي عليهم اخطاري به متروك أساسا لمبادرتهم الشخصية » .

كان سلوك بيجين وهو واقف في المكان المخصص للشهود يتصف بعدم النظام وكان بيجين يبدو بخلاف اللجنة وكأنه لم يؤد واجبه المنزلى . ولقد دهش عندها واجهه كبير التضاة اسحق كاهان بنسخ من وثائق اجتماعات مجلس الوزراء وبالمحادثات التي جرت مع مبعوث ريجان الخاص — رريس داريسير وكان أعضاء مكتبه يعترفون أن اللجنة قد تلقت هذه الوثائق . ولم يكن في استطاعته أن يتذكر أشياء هو وغيره قد قالوها بما في ذلك بيان أدلى به جنرال ايتان جاء فيه أن الكتائبين يسنون أسلحتهم من أجل الانتقام بعد مصرع بشير الجميل .

وبالرغم من أنه كان يدل بشهادته بعد أقل من شهرين بعد المذبحة إلا أنه لم يكن دائما يفهم ما وجه اليه من أسئلة . وكان الانطباع هو أن رئيس الوزراء قد فقد قبضته على الأمور . وعلق أمنون دانكيز في صحيفة هآرتس قائلا : « لقد رسمت الصورة عن رئيس وزراء لا يهتم بالتفاصيل وأنه في بعض الاحيان يكون متباعدا ومعتدا على وزير الدفاع رئيس الاركان دون أن يحثهم على اطلاعه على ما يجرى .

وكان الانهيار في التنظيم كما كان في الاتصال . لقد استقال العميد أفرايم بوران كسكرتير عسكري لبيجين في عام ١٩٨١ وبناء على توصية من شارون تم تعيين ضابط صغير بدلا منه وهو أزريل نيفو . واستقنى شارون نفسه عن ضابط كبير يعمل مساعدا عسكريا له وذلك عندما أصبح وزيرا للدفاع شارحا ذلك بأنه ليس في حاجة الى وسيط بينه وبين القيادة العامة وعلى نفس الشاكلة فإنه يريد أن يكون حلقة الاتصال بين بيجين والجيش .

ولقد كان أزريل نيفو جنديا له مستقبل في الجيش ولكنه لم يكن من العمر ولا من الرتبة العسكرية ما يمكنه من خدمة رئيس الوزراء وأن يصبح عينيه وأذنيه كما كان يفعل سابقه لقد كان بوران جنديا مخضرا من حرب التحرير سنة ١٩٤٨ وكان يعرف القادة كزملاء وانداد له .

ولم يكن في حاجة لان يستخدم القنوات التقليدية للحصول على المعلومات . وكان في استطاعته ان يتوجه مباشرة الى الرجل المسئول في موقعه . وهؤلاء الذين كانوا يعرفونه كانوا مقتنعين بأنه وان كان لا يستطيع منع المذبحة من الوقوع كان في استطاعته أن يخطـر بها رئيس الوزراء بدلا من السماع عنها من الاذاعة البريطانية .

ان الصراخ الذى اثارته صبرا وشاتيلا جعل رئيس الوزراء يلجأ للدفاع عن نفسه . وفي مذبحة فندق الملك داوود ، ومذبحة دير ياسين ، ومذبحة المعسكرات في بيروت لم يثر فقدان الارواح غير اليهودية اى شعور بالمرارة . وقال بيجين : « ان الجوييم » « غير اليهود » يقتلون غير اليهود ثم يلقون باللائمة على اليهود » . قال ذلك في اجتماع طارئ لمجلس الوزراء يوم الاحد الموافق التاسع عشر من سبتمبر . واتهم بيان أصدره المجلس وقعه رئيس الوزراء العالم بتوجيه تهمة سفك الدماء للدولة اليهودية وللحكومة اليهودية والقوات الدفاع الاسرائيلية .

وقال البيان ان القوات الاسرائيلية لم تكن متركزة في المعسكرات وقت وقوع المذبحة التى نفذتها وحدة لبنانية .

وقال ايضا ان القوات الاسرائيلية قد وضعت حدا للقتل واجبرت اللبنانيين على ترك المعسكر . وبدون تدخل جيش الدفاع الاسرائيلى لكان عدد القتلى قد زاد زيادة كبيرة .

ان جميع الاتهامات المباشرة والضمنية بأن جيش الدفاع الاسرائيلى يتحمل اللوم عن هذه المأساة الانسانية لا أساس لها من الصحة تماما . وان حكومة اسرائيل ترفض هذه الاتهامات بكل الاحتقار الذى تستحقه .

وبالرغم من الآثار الداخلية فاننا ندعو شعب اسرائيل الى الاتحاد حول حكومته المنتخبة انتخابا ديمقراطيا في نضالها من أجل أمن اسرائيل وسلامتها وأمن وسلام كل مواطن اسرائيلى . ولا يجوز لاحد أن يعلمنا الاخلاق واحترام حياة الانسان وهى قيم تعلمناها وشببنا عليها وسوف نستمر في تلقيها للأجيال القادمة من المقاتلين الاسرائيليين .

وكما أوضح تقرير لجنة كاهان فان المسائل الاخلاقية لم تكن بهذه البساطة ، لقد كان بيان الحكومة بمثابة قضية دفاع اقيمت على أساس من معلومات محددة . لقد تضمن أبسط تعبير رمزى عن الاسف والحزن لموت مئات من الفلسطينيين . ورفض بيجين أن يصدر أى بيان شخصى بالاسف تماما كما استبعد قلق ايلى جينى من جراء وقوع اصابات بين المدنيين عندما وقفت دبابات العقيد جينى في مواجهة غرب بيروت . وبعد أن شرح العقيد جينى لرئيس الوزراء أنه رأى الاطفال من خلال نظارته

المكبرة عندما اتجه ببصره الى المدينة أجاب بيجين : « هل تلقيت تعليمات بقتل الأطفال ؟ وأجاب جيفى بالنفى وعندئذ سأله بيجين : « وفيم شكواك إذن ؟ وقد أثار سكوت رئيس الوزراء على المذابح التي وقعت في معسكرات اللاجئين غضب الرئيس اسحاق نافون الامر الذى دفعه الى الظهور على شاشة التليفزيون بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل ليقدم تعازيه ومواساته للأسر الفلكى مشيرا الى أن بعضهم هم من العرب الاسرائيليين أو الفلسطينيين الذين يعيشون في ظل الحكم الاسرائيلى في الضفة الغربية وقطاع غزة .



وتحت الضغوط المتزايدة من جانب الصحافة الاسرائيلية ومن جانب الراى العام الاسرائيلى اضطر بيجين الى تشكيل لجنة استقصاء مستقلة للتحقيق في تورط اسرائيل في المذبحة . وحاول اول الامر أن يحدد سلطاتها في نطاق استدعاء الاشخاص وطلب المستندات لكن المؤسسة القانونية استطاعت أن تحبط محاولته هذه مدعمة من قبل مؤتمر شعبى ضم ٤٠٠.٠٠٠ اسرائيلى انعقد في ميدان تل أبيب احتجاجا على هذه الاعمال .

وقد منحت لجنة كاهان المكونة من قاضيين وجنرال متقاعد كافة السلطات القانونية ولقد تمخضت تحقيقاتها المتأنية عن تقرير محدد واضح عن كل ما جرى في صبرا وشاتيلا وعن كل ما كان ينبغي ألا يقع أو يحدث .

وبالرغم من أنها برأت اسرائيل من المسؤولية المباشرة الا أنها اعتبرت اسرائيل مسؤولة مسؤولية غير مباشرة .

« ان قرار دخول الكتائبيين معسكرات اللاجئين قد اتخذ بدون اعتبار للمخاطر التى كان منفذو القرار قد راوها محتملة الوقوع وهى أن الكتائبيين سوف يرتكبون مذابح وعمليات اضطهاد ضد سكان المعسكرات ، كما اتخذ هذا القرار بدون دراسة لوسائل منع هذا الخطر . وبصورة مماثلة فقد كان واضحا بين تتابع الاحداث أنه عندما بدأت الانباء ترد عن اعمال الكتائبيين في المعسكرات لم يلتفت اليها التفلفا مناسبا ولم تستخلص النتائج الصحيحة من هذه الانباء ولم تتخذ أية أعمال نشطة ومباشرة لكبح جماح الكتائبيين ووضع حد لآعمالهم » .

وانحت اللجنة باللائمة على شارون لتجاهله اخطار المذبحة ولفشله فى اتخاذ الخطوات المؤدية الى منع وقوع المذبحة .

واوصت بلغة غير مباشرة — تسببت في اثاره المتاعب لرئيس الوزراء — بأن يستقيل شلرون من وزارة الدفاع أو أن يطرد من الوزارة .

ووجهت نقدا شديدا للجنرال ايتان والمحت اللجنة بأنه لو لم يكن رئيس الاركان على وشك الاحالة الى الاستيداع لكانت قد أوصت بعزله . وادين كل

من ماجور — جنرال يوشوا ساجوس مدير المخابرات العسكرية وكذلك القائد المحلى فى بيروت السميد أموس يارون لتقصيرهما .

وأوصت لجنة كاهان بعدم اتخاذ أى إجراء ضد بيجين ولكنها أنحت عليه باللائمة لتجاهله أخطار المذبحة عندما دخل الكتائبون المعسكرات وفشله فى متابعة ما جرى بعد ذلك .

« فقد يفترض أن اظهار الاهتمام من قبل رئيس الوزراء فى هذا الموضوع بعد أن علم بدخول الكتائبين كان فى الامكان أن يزيد من حالة تنبه وزير الدفاع ورئيس الاركان الى الحاجة الى اتخاذ الاجراءات المناسبة لمواجهة هذا الخطر المرتقب بأن تصور رئيس الوزراء عن الاندماج والمشاركة فى المشكلة بأكملها يلقى عليه قدرا معينا من المسؤولية ؟

ووجه النقد لوزير الخارجية اسحق شامير لعدم قيامه بما يكفى بمراجعة تقرير تلقاه من زميله مردخاي زيبورى وبلغت انتباه وزير الدفاع الى الشائعات بأن الكتائبين يقتلون المدنيين غير المحاربين .

وبشعور بالحس القانونى الاصيل كان بيجين يدرك منذ اللحظة الاولى التى شكل فيها لجنة كاهان أن عليه أن يقر توصياتها وينفذها مهما كانت قاسية . فنتائجها سوف تكون ملزمة اخلاقيا حتى لو لم تكن ملزمة قانونيا . لكنه كان عازما عزوفا تاما عن طرد شارون اذا مرفض وزير الدفاع أن يخرج فى همدوء .

وعلى أية حل فان ما يهم رئيس الوزراء هو أن اسرائيل قد برئت تماما من المسؤولية المباشرة . فجنود اسرائيل لم يقتلوا اللاجئين فى صبرا وشاتيلا . وشارون يستحق مصير افضل من أن ينهى حياته العسكرية والسياسية نهاية مشينة لمجرد وقوع مذبحة قام بها المسيحيون اللبنانيون وعلاوة على ذلك فلم يكن يراود بيجين الشك فى أن أولئك الذين يريدون اسقاط شارون انما يريدون ايضا اسقاطه هو نفسه .

وعندما زار شارون بيجين فى صباح يوم نشر التقرير سأل رئيس الوزراء ماذا ينبغى عمله . واجاب شارون ان بيجين يمكن أن يقبل هذا التقرير أو يرفضه ان وزير الدفاع لن يستقيل ولكن بيجين يستطيع ان يفصله . وأجلب رئيس الوزراء : « أننى لن أطلب منك أن تستقيل » .

وكان المضمون واضحا . « واذا ما استخلص شارون النتائج الشخصية » كما جاء فى كلمات التقرير . فان بيجين لن يقف فى طريقه . لكن شارون لم يكن على استعداد لان تسير الامور فى سهولة . فانه لن يقبل ان يوصم بمحض اختياره بوصمة « قابيل » وقال بيجين انه اذا ثبت شارون فى مكانه فالاختيار الوحيد امامه هو أن يذهب الى الرئيس ويقدم استقالته

بالاصالة عن حكومته كلها ويطلب اجراء انتخابات فى وقت مبكر . وكان يؤمن بأن الشعب يقف معه .

فالمغالبية رفضت تقرير كاهان لانه شديد القسوة . وبضربة واحدة يكون قد فعل الشيء المناسب وكسب تفويضا جديدا من الشعب ولكنه كان مستعدا لان يترك الحكومة بعض الوقت قبل ان ينفذ هذا المخطط .

واجتمعت الحكومة ثلاث مرات فى ثلاثة ايام . واخذت تناقش التقرير ونتائجه لمدة احدى عشرة ساعة متصلة . وفى الاجتماع الثالث والذى استمر خمس ساعات فى مساء العاشر من فبراير اصدرت الحكومة بيانا مقتضيا قالت فيه ان مجلس الوزراء قرر قبول توصيات اللجنة » .

وكانت نتيجة التصويت ١٦ صوتا مقابل صوت واحد . وكان شارون هو الوحيد الذى صوت ضد هذا القرار . وقال وزير العدل موشيه نسييم للصحفيين : « ينبغى تنفيذ كل فقرة . واذا لم تنفذ فقرة من الفقرات فلن مجلس الوزراء سوف يجد الوسيلة لتنفيذها . وارتقى القرار الى مرتبة الانذار النهائى فلما ان يسارع شارون بالخروج او يدفع بقوة » .

واكد سكرتير مجلس الوزراء دان مريدور انه ليس هناك من احد يلعب بالالفاظ وقال مسئول آخر كبير انه يأمل فى الا يتعين عليه ان يجلس مرة اخرى للاشتراك فى مناقشة صعبة كهذه .

وخرج شارون من مكتب رئيس الوزراء فى تحد ولكن دون ان يتصل بأحد وفى اليوم التالى انحنى للقرار الذى لا يمكن تجنبه واتصل بيجين هاتفيا وقدم استقالته وكتب يقول انه سوف يحترم قرار مجلس الوزراء بابعاده من منصبه كوزير للدفاع ولكنه لن يستقبل من الحكومة . وبعد ان قال المدعى العلم اسحق زامر انه يكفى ان يخرج شارون من وزارة الدفاع وافق المجلس على الاكتفاء بذلك وابقاء شارون فى الحكومة كوزير بلا وزارة وبعد ذلك باسبوع اعيد تعيينه فى اللجنة الوزارية للدفاع ووجهت المعارضة نقد شديدا لبيجين لاحترامه كلمات والفاظ تقارير كاهان دون احترام روح التقرير وجوهره . لكن تقرير اللجنة كان غير دقيق فى توصيته بصورة متعمدة وكان من حقه بيجين ان يقول انه نفذ التزاماته .

الفصل الثالث والعشرون

« لا أستطيع الاستمرار »

ان ضعف الجسد والروح البطيء الذى كان يعانى منه مناحيم بيجين ،
والذى وصل الى الذروة باستقالته فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ ، كان قد بدأ
قبل ذلك بعامين فى الاغلب يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٩٨١ .

وكان رئيس الوزراء يقرأ فى ذلك اليوم الاوراق الرسمية التى كان قد تم
ارسالها الى مقره فى ركن شارعى (بلفور) و (سموليتسلىن) فى منطقة
(طالبية) بالقدس . وبعد أن قرأ بيجين آخر برقية لديه ، ذهب ليغسل
يديه قبل أن يلحق بزوجته وابنته (ليه) لتناول العشاء الا أن قدمه زلت
بين الحوض وقضيب المنشفة وسقط بقوة على أرضية الحمام .

وسردت هذه الاحداث التى وقعت يوم الخميس هذا وفقا لتسلسلها
الزمنى لحظة بلحظة فى خطاب مفتوح غير عادى أرسله بعد ذلك بأسبوع الى
(يوثيل ماركوس) المحرر بجريدة هـا آرتس الذى كتب مقالا ينتقد فيه
زعماء اسرائيل ومستشاريهم للشئون الطبية لاختفاء الحقيقة بشأن العلل التى
يعانون منها من الجمهور . وكتب مناحيم بيجين يقول :

« لقد ظللت ملقيا على الارض أحاول النهوض وكنت أتنهد من الألم .
وحاولت أن أنادى زوجتى لتأتى لمساعدتى ، لكنها لم تسمع نداءاتى لان صوت
المذياع الذى كان معى كان مرتفعا . . لقد جاءت هى أيضا بمحض الصدفة
لتغسل يديها ، عندما فتحت الباب وجدتنى راقدًا على الارض . وتساءلت
قائلة : ما الذى حدث لك ؟ وأجبتها قائلاً : « لقد وقعت » وقالت حينذاك . .
« انهض » وقلت لها : « لا أستطيع » فقالت انتظر سأحضر « ليه » .
وجاءت « ليه » وتساءلت مألذى حدث لك يا أبى وأجبت « وقعت »
ولا أستطيع النهوض ، دعينى راقدًا برهة وسأحاول النهوض ، وتشاورت
حينذاك زوجتى وابنتى معا واتفقا على أن يرفعونى من على الارض ويضعونى
فوق الفراش المجاور . وسمعت الحديث الذى دار بينهما وقلت لهما
« لا » ، لا تفعل ذلك « فليست لديكما القوة وستضطران لتحريكى والحركة
ستسبب لى آلاما رهيبية واعتقد أنى كسرت فى شيئًا ، أحضرا الى اثنين من حراسى
وسأذكر لهما ما يجب أن يفعلاه معى » .

وبعد برهة قصيرة جاء اثنان من شبابنا الرقيق ، وطلبت منهما أن يفعلا
الآتى ضعا أيديكما تحتى ، دون أن تحركا (أعضائى) واحملانى فى ذلك الوضع

الى الفراش وضعوني عليه واقترب حارسا الامن منى وفعلا بالضبط ما طلبته
منهما . شكرا لهما فقد رقدت على فراشى على جانبي الايمن وكان الالم شديدا
لكن محتمل » .

وتم استدعاء اثنين من كبار الاطباء من مستشفى (هاداساه) كان من
بينهما (مرقين جوتسمان) ، الطبيب الشخصى لناحيم بيجين ، وطلب سيارة
اسعاف لتحمله الى المستشفى فى منطقة (عين كريم) على الطرف الغربى
من المدينة ، حيث اثبتت أشعة اكس أنه يعاني من كسر فى فخذة اليسرى ،
وكلما اسرعوا باجراء عملية جراحية له كان أفضل وفى حجرة العمليات قيل
لبيجين أنه سيكون مستيقظا طوال الوقت حيث لم يتم اعطاؤه الا عقارا
مخدرا موضعيا .

لقد كانت الالام شديدة ولكنها لم تتزايد ، وقد شهدت استعدادات
الجراحين وكيف ارتدوا ملابسهم ، وكيف تمت مساعدتهم فى ربط أحزمة اروابهم
وكان جميع الموجودين فى الحجرة يرتدون اقنعة على وجوههم ، وكان من بينهم
(البروفيسور جوتسمان) وأحد رجال الامن وبدأ التخدير ، وحقننى البروفيسور
فلوريلا (ماجورا) عدة مرات بالقرب من عمودى الفقرى ، وبدأ التخدير
تدرجيا فى الجانب الايسر من جسدى .

وجاءت اللحظة التى شعرت فيها بأننى مجمد ثم اختفت الآلام وشعرت
بتحسين كبير وأصدر البروفيسور (مير) ملكين أوامره بوضع ستارة بين
النصف الاعلى من جسدى وبين الجزء الذى ستجرى فيه العملية . وقيل ان
ذلك مطلوب حتى لا تصل الجراثيم التى تنبعث مع تنفسى الى منطقة العملية .

وقبلت ذلك التفسير ، الا أتنى اعتقدت أنهم قد لا يريدون أن أرى كل
ما يفعلوه وبالفعل لم أر شيئا .

وبدأت العملية ، ولم أشعر بأنها بدأت . وتحديث الى البروفيسور
(جوتسمان) الذى كان بجانبى وتحدث هو الى .

ولم اكن أشعر بأى ألم . وفجأة سمعت دق مطرقة على مسمار وزاد
الدق ولم أشعر بشيء ولم أحسب العدد ولكنى أعتقد أننى ميزت تسع أو عشرة
دقات متقطعة . وبعد برهة قيل لى أن العملية ستنتهى على التو وأن كل شيء
سار على ما يرام . وبعد قليل ذكروا أنها انتهت . وأزاحوا الستار
ورأيت قفاز البروفيسور (ماكين) وكان عليه بعض الدماء ، وأزالها وجاء
وقال لى : لقد تم كل شيء بصورة طيبة وتم وضعى فى نقالة واعادتنى
الى جناح البروفيسور (جوتسمان) الخاص بالعناية المركزة .

وفي هذه الليلة لم تعاودنى الآلام ولكن في يوم الجمعة وقد زال على الأرجح أثر المخدر الموضعي ، بدأت الآلام . وكانت شديدة الا أنها كانت محتملة لانهم سمحوا لى بالبقاء فى الفراش وعدم الحركة لمدة يومين » .

وتم شفاء عظمة الفخذ ، العظمة التى توصل الفخذ بالحوض ، وخرج بيجين من المستشفى بعد ذلك بثمانية عشر يوما . الا أنه ظل يعانى من ألم شديد وعدم الشعور بالراحة لعدة شهور بعد ذلك وعندما قلم الرئيس الفرنسى (فراسوا ميتران) بزيارة رسمية لاسرائيل فى شهر مارس عام ١٩٨٢ ، التى بيجين خطابا فى الكنيسة وهو جالس على مقعد متحرك وفى أواخر شهر مايو ، اعتذر عن القاء بيان أمام لجنة الشؤون الخارجية والدفاع بالكنيسة لان ساقه المكسور مازال يؤلمه وقال لهيئة مكتبه انه لم يتعرض لمثل هذا الألم فى حياته . وتخلّى رئيس الوزراء عن مكتبه الذى وجده غير مريح ، وياشر عمله اليومى وهو جالس على أريكة وعلى مائدة لتناول القهوة وبعد ذلك بفترة طويلة واصل المشى مستعينا بالعصا .

لقد هز سقوطه ثقته بنفسه وذكره بأنه أصبح مسنا . واعترف بأنه يخشى من السقوط مرة أخرى .

وكوسيلة لتدعيم موقفه استغل بيجين اصابته كدعاية فكان يقول للجماهير اليهودية الامريكية الصاخبة عندما كانت ادارة ريجان تهدد بممارسة ضغط على اسرائيل لقد كسرت ساقى لكن لم تنثن ركبتى .

وعلى الرغم من ذلك فان هذه الاصابة جعلته يشعر بأنه مريض مثلما لم تفعل أبدا حالة قلبه . وسأل ذات مرة زميلا له فى مرض القلب « هل تشعر بأنك رجل مريض » ؟ وبالرغم من أن بيجين لم يسافر أبدا بدون طبيبه المخلص (جوتسمان) فإنه لم يشعر بأنه عرضة للخطر على نحو خاص .

وخلال زيارته للقاهرة فى عام ١٩٧٩ كان يقفز حول الاهرامات وهو يرتدى حلة وربطة عنق فى درجة حرارة أكثر من ٤٠ درجة مئوية ومع ذلك بدأ يبدو ضعيفا بساقه المكسورة وكان يحتاج الى مساعدة .

وفى الاغلب ، كان بيجين قد بدأت تظهر عليه — منذ توليه منصب رئيس الوزراء — الاعراض التقليدية للمس والانتقباض وقد انغمس فى الاكتئاب والكسل لعدة شهور ، فى المرة الواحدة ، وحدث ذلك فى عام ١٩٧٨ ثم حدث مرة أخرى فى عام ١٩٨٠ . وكان يعود الى النشاط فى كل مرة بسبب نشوب قتال أو تعرضه لاهانة أو استغلال فرصة لصنع التاريخ . وفى الاثنى عشر شهرا التى تلت سقوطه فى حمامه بالقدس ،

كان بيجين يتعرض لسعادة الحياة ولنحسها ، الا أن الدافع على العمل ضعف بالتدريج واصبحت الفترات الانتقاضية أقل عدد أو أقل مدة .

وبدأت تضعف المرونة التي اتصف بها في (الجولاج) وفي الحركة السرية وكذلك ازدرائه للمعارضة الدائمة وتجارب الحكم . كان الانجاء السائد هو الانحدار الشديد .

لم يكن شيء من ذلك واضحا عندما خرج بيجين من مستشفى الهداساه يوم ١٤ ديسمبر . لقد خرج بهمة ونشاط كبيرين كما لو كان يريد أن يظهر أنه من السابق لاوانه القضاء عليه .

وانقضى يوم الاثنين الطويل ، الذي خرج فيه رئيس الوزراء محوطا بكل ما تتصف به عملية تنفيذها رجال العصابات : المفاجأة والسرية وسرعة التنفيذ .

وقد بدا ذلك اليوم في الساعة السابعة والرابع صباحا عندما كان بيجين مازال يرتدى ملابس المستشفى . واتصل تليفونيا بارييل شارون وسأله عن خطته بالنسبة لذلك اليوم وأجاب وزير الدفاع الذي غضب بعض الشيء للاتصال في هذه الساعة بأنه سيذهب الى « ياميت » في شمال سيناء . واقترح بيجين عليه ان يتخلي عن الذهاب الى ياميت ويحضر الى القدس . وتم أيضا استدعاء اسحاق شامير وزير الخارجية . وتساءلا ما هي المسألة ؟ وأجاب بيجين « سأبلغكم عندما تحضرون » وكان هذان الوزيران وهما أقدم رفيقين له في حزب حيروت أول من يحاطان علما لكن حتى هما لم يخمنا أن رئيس الوزراء كان يعتزم الاحتفال بخروجه من المستشفى بضم مرتفعات الجولان ، التي تم الاستيلاء عليها من سوريا في حرب ١٩٦٧ ، ودعى مجلس الوزراء الى عقد جلسة طارئة في وقت الظهيرة في شارع بلفور . وكان بيجين في بيته مشغولا .

كانت الصحف تعلم أن هناك شيئا في الامق لكن ما هو ؟ وانفض اجتماع مجلس الوزراء قبل الغداء ، وأعلن أنه سيصدر بيان في الكنيست بعد الظهر وبدأت التساؤلات : هل بيجين مريض أكثر مما كنا نتصور ؟ . هل سيقدم استقالته ؟ هل هي عملية عسكرية ، ضربة ربما يتم توجيهها الى الصواريخ السورية نصف المنسية في شرق لبنان ، لقد أظهر الامر كله سطوة بيجين وميله للثأر .

كان رئيس الوزراء قد اتخذ قراره وعلى وشك اعلانه وأيا كانت هواجس مجلس الوزراء فقد جرفه التيار وأجبر الكنيست على صياغة مشروع قانون بتطبيق القانون الاسرائيلي والتشريع الاسرائيلي والادارة

الاسرائيلية على المرتفعات بثلاث قراءات وعرضه على لجنة قبل منتصف الليل وقد يجادل المحامون العالميون بشأن المصطلحات الفنية الصحيحة، الا انه بالنسبة للعالم اجمع كان قد ضم الـ ١٦٧٥ كيلو متر مربع بما فيها من سكان دروز يبلغ عددهم ١٣٠٠٠ نسمة وسكان يهود يبلغ عددهم ٦٠٠٠ في اربع قرى واقعة فوق التلال و ٣١ مستوطنة على التوالي . وذيل رئيس الوزراء المبادرة بنهاية درامية بالذهاب الى الكنيسة في مقعده المتحرك ، وتقديم التشريع من مكانه المخصص لرئيس الوزراء ، والدخول في معركة حامية مع الاعضاء البرلمانيين المعارضين .

وكان قد تم الايدان بالضم في الخطوط الارشادية التي وضعها الائتلاف للكنيسة في دورته العاشرة لكن لماذا اختار بيجين ذلك اليوم للاعلان عنه وهذه الوسيلة ؟

يقول مساعدوه ان أولويته الاولى كانت اسكات مدافع (جويلا كوهين) وحزب (تحيا) الجديد الذي فاز بثلاثة مقاعد في انتخابات عام ١٩٨١ والذي كان يتريص الدوائر لكثلة ليكود من اليمين . لقد حاولت مرة مسز كوهين التي انشقت عن حزب حيروت بعد كامب ديفيد دفع الخطى نحو الجولان وهددت بأن تفعل ذلك مرة أخرى بينما صمم بيجين الذي كان بطيئا في العفو عن المنشقين على حرمانها من ارضائها فلا يهز الكلب الذيل .

وكان هناك أيضا شعوره المسرحى باستغلال الفرصة والرغبة الملحة في السيطرة على اضواء المسرح . الا أن الظروف قد اجتمعت لجعل هذا الوقت مثاليا للضم . وكان العالم مشغولا بأزمة بولندا . وكانت سوريا تعمل لصالح اسرائيل بالادلاء بتصريحات متعنتة بصورة متزايدة حول «خيانة» ارتكبت لتحقيق السلام مع اسرائيل . وكان الرئيس السوري حافظ الاسد قد صرح في اليوم السابق مباشرة بأنه لن يعترف ابدا بالدولة اليهودية . حتى اذا قبل الفلسطينيون أن يفعلوا ذلك .

وقام (ديفيد كيمنش) مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية بتبرير تلك الضربة التي قام بها بيجين لاجهزة الصحافة العالمية بأنها اجراء وقائي لحماية النفس . وقال اذا لم نستطع تحييد مرتفعات الجولان بمعاهدة للسلام فذلك هو السبيل الذي يتعين علينا أن نحققه .

ووبخ بيجين المعارضة البرلمانية متهما اياها بعقلية الجيتو وقال ان الظاهرة التي تتكرر في التاريخ اليهودي من جيل لآخر هي اتهام الذات، فلا بد أن يقع اللوم على اليهودي ، واذا تعرض اليهودي لمذبحة فان اللوم يقع عليه واذا سفلخوا الدماء فاليهودي ايضا هو الملولم . ويقول اعضاء الكنيسة الان : لن نتفاوض سوريا معكم واللوم يقع في ذلك على الحكومة اليهودية . وكان رئيس الوزراء يؤكد

أن السوريين وبالتالي أتباعهم الفلسطينيين قد ظلوا في معسكر الرفض ، الذى منه لن يشككوا أى خطر على الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة .
لقد أقدم بيجين على هذه الضربة ايضا قبل الموعد النهائي لانسحاب اسرائيل من سيناء فى شهر ابريل حتى يقلل من رد الفعل المصرى .

وقال ان القاهرة لن تفعل شيئا من شأنه أن يعرض للخطر استعادة أراضيها السليبية ، وبحلول شهر ابريل ستكون قضية الجولان قد ماتت .

وكان بيجين على صواب فيما يتعلق بالمصريين ، الا أنه قلل من قوة رد الفعل الامريكى ، فلم تشعر واشنطن بالفضب فقط لان اسرائيل ضمت اراضى سورية محتلة ولكن ايضا لانها فعلت ذلك بدون اشعار سابق ، وناهيك عن التثاور فهذه ليست الطريقة التى يجب ان يتصرف بها الحليف ، ردت ادارة ريجان على ذلك بارجاء العمل بمذكرة التفاهم الاستراتيجى التى كان شارون قد تفاوض بشأنها مؤخرا بمنع المكاسب المالية التى كان قد تم التعهد بها لاسرائيل وكانت هناك شكوك فى الولايات المتحدة وفى اسرائيل حول القيمة العملية للمذكرة الا أن بيجين وشارون قد حققا الكثير منها . وكان ارجاء العمل بها ضربة لمكانتهما وكان رد رئيس الوزراء على ذلك شفويا اذ لم يكن لدى اسرائيل شىء ذو اهمية يمكن أن تحرم الولايات المتحدة منه ، الا انه فى نطاق هذه الحدود أخذ بيجين يهدد بالكلمات كما لو كانت اسرائيل هى الدولة العظمى وامريكا هى التابع المحاصر . ووجه ذلك الارجاء طعنة لمبدئه الخاص بالتحالف المتوازن ولكبريائه فى الاستغلال اليهودى . وكان بيجين يعامل الكلمات على الدوام كالاسلحة ولا بد أن تأتى الخطبة المملة التى ألقاها على السفير الامريكى سىء الحظ « صموئيل لويس » فى مضاف أكثر الهجمات قسوة يوجهها شريك صغير الى راع ثرى وقوى .

لمقد استدعى رئيس الوزراء (لويس) الى شارع بلفور ووجده السفير ما زال يعانى من ساقه المكسور ويلتزم بالصراة فيما اتضح انه مناجاة للنفس استغرقت خمسا وخمسين دقيقة وكما لو كان يريد أن يظهر أن غضبه ليس موجها الى لويس ، خرج بيجين عن سبيله لتبادل المجاملة بشأن صحتهما وعائلتهما قبل الدخول فى الموضوع وبعد ذلك كما لو كان يضئ نورا ، قال بيجين : والان يا سيادة السفير عندى تصريح اريد الادلاء به وقال انه رسالة شخصية يريد نقلها على الفور الى الرئيس ووزير الخارجية ولاحظ لويس وجود حزمة من الاوراق الى جانب بيجين الا أن رئيس الوزراء لم يشر اليها .

واشار بيجين الى أن هذه هى المرة الثالثة خلال ستة أشهر « تعاقب » الادارة الامريكية فيها اسرائيل . وكانت المرة الاولى بعد تدمير اسرائيل للمفاعل العراقى ، أما المرة الثانية فكانت عندما قصفت اسرائيل بيروت فى صيف عام ١٩٨١ .

منذ أسبوع أقر الكنيست قانون الجولان ، ومرة أخرى تعلنون انكم تعاقبون اسرائيل ، ما هذا الحديث « تعاقبون اسرائيل هل نحن دولة تابعة ، هل نحن جمهورية نافذة ، هل نحن صبية في الرابعة عشر من العمر بحيث اذا لم يلتزموا في تصرفهم يتم تهشيم مفاصل أيديهم وأرجلهم . اننى سأحدث اليكم عن تتالف منهم هذه الحكومة . انها تتالف من رجال قاتلوا وخاطروا بأرواحهم وعانوا انكم لا تستطيعون أن تخيفونا ولن تخيفوننا بالعقوبات والتهديدات . لقد عاش شعب اسرائيل طيلة ٣٧٠٠ سنة بدون مذكرة للتفاهم مع أمريكا وسيستمر في العيش بدونها لمدة ٣٧٠٠ سنة أخرى .

وانهم ييجين الادارة الامريكية بأنها أخلفت وعد الرئيس بفرض «عقوبات مالية عليها » ما الذى يريدون أن يفعلوه ؟ هل يريدون ضرب اسرائيل في جيبيها (اقتصاديا) ؟ .

فى عام ١٩٤٦ كان يقيم فى نفس ذلك المنزل جنرال بريطانى اسمه (باركر) وهكذا فاننى أعيش اليوم فى ذلك المنزل . وعندما ناضلنا وصفتونا بأننا ارهابيون وواصلنا النضال . وبعد أن نسفنا مقر قيادته فى الجزء المنعزل من فندق الملك داود قال (باركر) انكم لا تستطيعون معاقبة ذلك الجنس الا بضرية فى جيبيه .

وأصدر أمرا الى جنوده البريطانيين بحظر دخول كافة المقاهى اليهودية وكانت فلسفة (باركر) هى ضربنا فى جيوبنا .

ودافع رئيس الوزراء عن حق اليهود الامريكيين واصدقائهم فى الكونجرس فى الحديث بوضوح من أجل اسرائيل دون أن تخيفهم الدعاية المناهضة للسامية أو اتهامهم بتفضيل بيجين على ريجان على نحو لا يتسم بالوطنية .

لن يخيف أحد الجالية اليهودية الحرة فى الولايات المتحدة وستقف هذه الجالية الى جانبنا فهذه ارض اجدادهم . ومن حقهم ومن واجبهم مساندتها . وهناك أولئك الذين يقولون أنه يجب الغاء القانون الذى أقره الكنيست . وكلمة الغاء هى مجرد مفهوم انتقل اليها من عهد محاكم التفتيش . وفضل اجدادنا الموت على الغاء عقيدتهم أما نحن فلن نموت . وأننى أشكر الله ، اذ لدينا قوة تكفى للدفاع عن استقلالنا والدفاع عن حقوقنا ومن فضلك قل لوزير الخارجية ان قانون الجولان سيظل سارى المفعول ، وليست هناك قوة فى العالم يمكن أن تلغيه .

وفىما يتعلق بالاتهام الخاص باحراج الولايات المتحدة ، اصر بيجين على أن اسرائيل تصرفت بسرية على وجه التحديد حتى لا تخرج الرئيس وقال . . اننا لا نريد أن تقولوا لا ثم نطبق نحن القتلون على مرتفعات الجولان .

ولم يخفف ذلك عن صموئيل نويس ، الذى ادهشه ان يرى الحكومة بأكملها مجتمعة فى حجرة الانتظار ، ومستعدة لسماع نفس مناجاة الذات مرة أخرى باللغة العبرية . بل شعر السفير بدهشة أكبر عندما سمع تقريراً شفويًا فى مذياع السيارة قبل أن يكون لديه الوقت للذهاب الى تل أبيب وأرسل . . رسالة للبيت الأبيض وشعر بان ذلك انتهاك كبير لللياقة الدبلوماسية بين بلدين صديقين ، لقد قال بيجين الكثير عندما أتيحت له الفرصة ولم يشعر رئيس الوزراء بهى ندم حتى عندما أشارت الصحف الاسرائيلية الى أن الجنرال باركر كان يعيش بالفعل فى المنزل المجاور .

وسببت المواجهة التى حدثت حول ضم الجولان انخفاضاً فى مؤشر العلاقات الاسرائيلية الامريكية ، واعتقد الاسرائيليون فى واشنطن أن (جيمس ريستون) كان يعكس تفكير الرئيس عندما كتب فى عموده فى صحيفة نيويورك تايمز أن كبار المسؤولين الاسرائيليين يشعرون بأن بيجين كارثة مؤكدة على اسرائيل وبقيّة العالم وأشار الى انهم ينتظرون لان يفعل الشعب الاسرائيلي شيئاً تجاه ذلك .

ولم تظهر تفهما للقضية الاسرائيلية سوى صحيفتين فقط من بين إحدى وأربعين صحيفة امريكية رئيسية علقت على موضوع الجولان .

وأثناء عودة (كاسبار واينبرجر) وزير الدفاع الامريكى الى وطنه بعد جولة فى الشرق الاوسط فى شهر فبراير عام ١٩٨٢ سئل عما اذا كان هناك جهد منسق لتباعد الولايات المتحدة عن اسرائيل وتتقارب من العرب . فأجاب قائلاً : أجل لن تصبح الولايات المتحدة رهينة لاسرائيل فى السياسة العسكرية» .

وأنصح واينبرجر الذى كان ينظر اليه بيجين على انه مسيحي مضطّر للتعايش مع اسمه اليهودى للمراسلين بأن الادارة تعتزم كسب تأييد فى الكونجرس لبيع صواريخ هوك متحركة للدفاع الجوى وطائرات مقاتلة متقدمة طراز (اف - ١٦) الى الاردن وعلى الفور قامت اسرائيل بتعبئة اصدقائها للتصدي للصفقة الاردنية ، التى دفعت بأنها ستعمل على تغيير التوازن الاستراتيجى ، الا أن واشنطن لم تعمل على تصعيد الازمة بصورة كبيرة ، وكان ريجان لا يريد أن يعطى ذريعة لاسرائيل للتراجع عن الجلاء عن سيناء ، الذى كان من المقرر أن ينتهى يوم ٢٥ ابريل . وفى سلسلة من الخطابات والتصريحات أكد الرئيس من جديد التزامه بالحفاظ على المزية النوعية التى تتفوق بها اسرائيل على الجيوش العربية ورفضه الحديث مع منظمة التحرير الفلسطينية مالم تعترف بحق اسرائيل فى الوجود فى حدود آمنة ومعترف بها .

ويبدو انه قد ثبت — مرة أخرى — صحة اقتناع بيجين بأن الامريكيين سوف يعودون مرة أخرى فى النهاية الا ان التوتر قد أخذ حقه مساهما بنصيبه فى الانهاك

ايضا الانسحاب من سيناء الذى قبله بارتباك شديد والذى تعارض مع قدراته كلها . وكان اليهود قد استقروا فى شبه جزيرة سيناء لان الحكومات المتلاحقة ذكرت ان اسرائيل تحتاجهم هناك وبعد ثلاثة شهور من تولى السلطة حصل بيجين على عضوية شرفية فى مستوطنة (نيوت سيناء) وهى مستوطنة تقع بين العريش وياميت انشأها اعضاء تنظيم شباب حيروت ، وتعهد بأن يعتزل هناك فى الوقت المناسب ويكتب مذكراته ووافق على أن يدفع للمستوطنين البالغ عددهم ٣٠٠٠ شخص تعويضا كبيرا مقابل جلائهم طواعية بدلا من أن يثير « حرب اليهود » وأصدر تعليمات لتجنب حدوث معركة فاصلة عنيفة مع عدة مئات قليلة من المتعصبين ، الذين لم يعيش معظمهم أبدا فى سيناء والذين يرابطون هناك فى الوقت الذى اقترب فيه الموعد النهائى . وفى النهاية تم أجلاء المستوطنات الثمانية عشر كلها بعد وقوع اشتباكات رمزية الا أن ذلك خلق سابقة وكان بيجين يعرفها . وبالتالي فلن يفكر حاكم عربى بعد ذلك فى السلام بدون ان يطالب بمستوطنات .

وبعد مرور ستة أسابيع على الانسحاب من سيناء ، كانت اسرائيل فى حرب فى لبنان . وكان بيجين يؤمن بأهدافها ، لكنه كان يريد ان تنتهى بسرعة وبثمن زهيد وفى الوقت الذى كان يزداد فيه سلاح الدفاع الاسرائيلى غرقا فى المستنقع اللبنانى ويزداد فيه عدد الخسائر فى الارواح اسبوعا بعد اسبوع اكثر من اثنى عشر شهرا كان رئيس الوزراء يزداد حزنا . وبدأت كل خسارة فى الارواح اتهاما شخصيا ، وعندما كان (أزييل نيفو) يحمل اليه انباء حدوث ضحية أخرى، كان العاملون معه من هيئة مكتبه يرون الضيق على وجهه . وقال (بيهيل كاديشاى ان هذه الانباء تجعل الحزن يتراكم على وجهه وقال (يونا كليمو فيتزكى) سكرتيره الخاص ، بعد أن قدم استقالته ، انه شعر بالخيانة من جانب بعد الاشخاص الذين كان يثق فيهم لقد حمل على الاعتقاد بأننا سندخل لبنان ثم نخرج منها على وجه السرعة .

ومن المعتقد أن بعض الاشخاص الذين اشار اليهم هم وزير الدفاع ورئيس الاركان ولاحظ الاسرائيليون أن بيجين لم يحضر أية جنازة عسكرية ولم يزر أبدا المصابين فى المستشفى . ويبدو أن ذلك كان محنة كبيرة بالنسبة له . وفى يوم ١٥ سبتمبر وهو اليوم الذى أرسل فيه خطاب الاستقالة الى الرئيس (حاييم هيرتزوج) كان سلاح الدفاع الاسرائيلى قد دفن ضحيته رقم ٥١٨ من الجنود الذين راحت أرواحهم ضحية للحرب اللبنانية ، كان جنديا برتبة عريف يبلغ من العمر ٤٩ عاما اصلته قذيفة بازوكا فى كمين بالقرب من صور .

وازداد العبء الذى يقع على كاهله نتيجة للمذبحة التى حدثت فى مخيمات اللاجئين فى بيروت وأثرت فيه المظاهرات الضخمة والحملات الصحفية والاتهامات بالقتل التى وجهت اليه وكان بيجين ووزراؤه وجنرالاته تحت المحاكمة طيلة

سنة شهور تقريبا وأبتداء من شهر نوفمبر كانت هناك تسع شخصيات عامة ،
من بينهم بيجين وشارون وشلمير تحت اشعار بأنهم قد يضطرون للمشاركة في
تحمل اللوم .

ولفتت لجنة كاهان نظرهـم الى أنهم في خطر وأعطتهم فرصة للدفاع عن
أنفسهم ولم ينسب تقريرها الذى تم نشره في شهر فبراير الا قدرا محدودا من
المسئولية لرئيس الوزراء ، وهى اخطاء تتعلق بالاهمال وليست اخطاء ارتكبها .
الا أن بيجين بعقليته القانونية وشعوره بالكرامة لم يكن بمقدوره أن يغفل هذه
الوصمة . واضطرته الازمة التى نشبت حول استقالة شارون الى تأكيد سلطته ،
لكنه فعل ذلك بقلب منقبض وفى الوقت نفسه في خريف عام ١٩٨٢ كان يتصدى
لمشروع ريجان الذى استهدف جر الاردن الى عملية السلام . ورفض بيجين
المشروع باعتباره خطرا آخر على وحدة أرض اسرائيل وكان يجب الا ينزعج ،
لان الملك حسين لن يتصرف بدون موافقة منظمة التحرير الفلسطينية وقد مارس
الفلسطينيون مرة أخرى مع ذلك حقهم في الفيتو .

وحدث ذلك كله في ظل تدهور صحة (اليزا بيجين) ثم وفاتها يوم ١٣
نوفمبر عام ١٩٨٢ . وقد عانت زوجة رئيس الوزراء من ربو مزمن لعدة
سنوات . وفى شهورها الأخيرة كانت تتنفس بصعوبة كبيرة وطبقا لما ذكره
أحد اصدقاء العائلة ، فان ٣٠٪ فقط من كمية الأوكسيجين الطبيعى هى التى
كانت تصل الى رئتيها . ولم يكن بوسع الاطباء أن يفعلوا شيئا سوى الإبقاء
على حياتها بمساعدة الأجهزة الطبية .

كان بيجين يزورها كل يوم في مستشفى الهاداساه بل وأحيانا مرتين
فى اليوم ويتصل بها تليفونيا عندما يتسنى له ذلك . وقبل وفاتها بأسابيع
قليلة أرسل (أرماتد هامر) قطب شركة البترول اليهودية الامريكية وهاوى
الفن الذى استخدم صلاته بالكريمليين لمساعدة بيجين فى الحملة من أجل
اليهود السوفييت ، اثنين من المتخصصين لفحص حالتها ، وقد أوصيا بعلاج
جعل تنفسها أكثر سهولة لبعض الوقت . وشعرت انها فى حالة طيبة تمكنها
من أن تحث رئيس الوزراء على أن يقبل دعوة لزيارة واشنطن لمعقد أول اجتماع
له مع الرئيس ريجان منذ خمسة شهور . وفى الطريق الى واشنطن كان من المقرر
أن يدلى بخطاب فى حفل عشاء لجمع التبرعات فى لوس انجلوس . وقام ابنه
(بنيامين) بنقل أبناء وفاة (اليزا) الى جناح بيجين فى الفندق هناك .
وتلقى الرسالة (ييهيل كاد يشاى) الا أنه أراد أن يكون الدكتور جوتسمان
موجودا عندما يبلغ رئيس الوزراء بالنبأ . وكان ذلك بعد ظهر يوم السبت
فى كاليفورنيا وكان الطبيب قد ذهب الى أحد المعابد اليهودية ، واتصل به
السكرتير السياسى لناحم بيجين بطريق المذياع . وفى الوقت الذى كان فيه
(جوتسمان) فى طريقه عائدا الى الفندق ، كان بيجين قد ارتدى ملابس
السهرة ورباط عنق اسود لتناول العشاء . وكان حاضرا أيضا (هارت

هاستين) وهو يهودى أمريكى مخضرم من حزب حيروت وزوجته بالاضافة الى (ليه) ابنة بيجين والمضيئة الأرضية التى اصطحبتهما فى الرحلة وانفجرت (ليه) فى البكاء عندما نقل النبا لها ولوالدها وتم اعداد الترتيبات لعودتهما الى الوطن على متن طائرة بوينج ٧٠٧ من السلاح الجوى الاسرائيلى مخصصة لرئيس الوزراء وقال (كاديش) ان عدم وجوده الى جانب زوجته فى الساعات الأخيرة من حياتها قد سبب له ألما كبيرا .

ولم يخرج بيجين من كابينة نومه الصغيرة المزودة بالستائر خلال الرحلة التى استغرقت ست عشرة ساعة من لوس انجلوس الى تل ابيب وظل على متن الطائرة عندما توقفوا لاعادة تزويدها بالوقود فى نيويورك . وكان يتجرع حزنه وحده معظم الوقت .

وعندما عاد بيجين الى شارع بلفور ، اقام حدادا على « عروس شبابه » لمدة سبعة أيام حسب التقاليد وظل بدون حلاقة لأكثر من شهر واقتنع اصداقائه العاملون من هيئة مكتبه بأن وفاة (اليزا) بعد زواج دام ٤٣ عاما هو القشة الأخيرة التى قصمت رغبته فى الحكم . وقال احدهم ان بيجين مر بأوقات قبل اتخاذه قرارات حياة أو موت ولكنه لم يشعر باليأس أبدا ولم يفقد قدرته على الزعامة .

لقد أصبح شخصا وحيدا ، بعد وفاة (اليزا) وهو ليس رجلا ثرثارا ، حتى لو كان يستطيع أن يكون خطيبا ساحرا بكلماته . وهو يتحدث الى الناس وليس معهم وباعتباره شخصية مهيمنة فهو لم ينقل المسؤولية أبدا الى الآخرين . وكانت زوجته هى الشخصية الوحيدة التى يستطيع التحدث معها واشراكها فى مسئولياته ومشاكله وكانا قريبين للغاية من بعضهما . وبعد أن توفيت كان يعود الى بيته ولا يجد أحدا يتحدث إليه . لقد كان فى حرب وكان الناس يموتون ولم يكن معه احد ليشاركه فيها .

وحاول بنيامين ابن بيجين أن يملأ الفراغ وكان قريبا جدا من رئيس الوزراء — شخصيا وسياسيا ، وكان يتواجد فى المكتب فى معظم الأحيان عندما يتم اتخاذ قرارات حاسمة — الا ان (بنيامين) لم يستطع أبدا أن يملأ مكانة أمه ، فقد كانت له زوجة وستة أطفال بالاضافة الى وظيفته كجيولوجى وكان يكره خروجه على الملأ ويقول أحد اصداقائه ان بنيامين فعل ما فى وسعه لكن الأمر كان مختلفا ومنذ نهاية عام ١٩٨٢ وبعد مرور شهر بالكاد على وفاة (اليزا) بدأ بيجين يفقد وزنه وقوته . ولم يكن يتناول طعامه بصورة طيبة ، وعلى مائدته المفضلة فى صالة تناول العشاء فى الكنيسة لم يكن يتناول سوى طبق صغير من الخضروات . وقد توقف عن طلب طبق الدجاج والشورى ، الذى كان يمثل طعامه الرئيسى . وأصبح وجهه ورقبته غائرين وهزيلين وعندما ألح عليه أحد مستشاريه ليتناول الطعام ، رد قائلا : لم تعد عندى شهية .

وعلى الرغم من تدهوره الواضح أصر كبار المسئولين في العلانية وفي السر على أنه لا يتلقى أى علاج خاص سواء كان طبييا أو نفسيا . الا أن حالة الاكتئاب كانت تزداد سوءا وقال أحد مستشاريه المقربين « لقد كان يتعامل مع الأشياء الكبيرة أكثر من تعامله مع الأشياء الصغيرة ولم يكن يقرأ الصحف بنهم كعادته . وقتت اجتماعاته وأصبح هرما . وشعر ديبلوماسى أمريكى يعرف بيجين جيدا أنه لم يعد يستمتع بكونه رئيس وزراء إسرائيل ، فقد أصبح ذلك بالنسبة له عملا روتينيا بل عملا شاقا وكان يشترك في المفاوضات وبينهم ما يجرى مناقشته الا أنه ترك جانبا كبيرا من التمثيل الاسرائيلى لرفاقه وولت هيمنته وسيطرته . وفقدت مشاركته شرارتها الاخلاقية ولم يعد يتطلع الى صيغ جديدة وطرق للالتفاف حول المشاكل وقتلت المناسبات التى يتأمل فيها وربطت حركة (السلام الان) أربعة شهور خارج مقر رئيس الوزراء ومعها لوحة بالقتلى يطاردونه بها عند خروجه أو عودته . ورد (مائير كوهين) العضو البرلمانى بكتلة ليكود على ذلك بالاضراب عن الطعام وظهر بيجين ليطلب منه الاقتلاع عن اضرابه . الا أنه سار كإنسان آلى فى اتجاه خاطيء . فأخذه احد رجال الامن من كتفيه وقاده الى الطريق السليم وعندما استقبل مجموعة من اصدقاء اسرائيل من الشباب الأمريكى المسيحى ، سأل زعيمهم عما اذا كان رئيس الوزراء لديه اية رسالة لهم ليحملوها عند عودتهم الى الوطن ، رد عليه بيجين بالنصيحة التى اعتاد أن يقدمها ليهود الشتات وهى « تعلموا العبرية واقدموا وعيشوا فى اسرائيل » .

وعلى الرغم من أن المتحدثين المخلصين له زعموا حتى آخر لحظة أن بيجين مازال يدير دولاب العمل الا أن قبضته على ناصية الامور قد ضعفت وقد شعر بالخرج من دعوة له بزيارة الرئيس ريجان فى نهاية شهر يوليو ، بالرغم من أنه كان يلح عليها بشدة فى وقت مبكر من العام . ومنذ اللحظة التى سلم صموئيل لويس فيها رسالة الرئيس كان بيجين يبحث عن مخرج . وقال لموظفيه اننى لست قادرا على الوقوف أمام الجمهور وطلب السفير ردا عاجلا لان البيت الابيض يريد الاعلان عن الزيارة فى اليوم التالى يوم الجمعة ، لكن بيجين طلب بعض الوقت وقال له : ومن فضلك أن تبلغ الرئيس بأننى سأرد عليه فى بداية الاسبوع القادم .

وبمساعدة يهودا أفنر الذى يتولى مراسلاته المكتوبة باللغة الانجليزية قبل بيجين الدعوة فى الاسبوع التالى الا أنه دس عبارة كخرج له . وقال انه سيكون سعيدا لان يزور واشنطن . ويتوقف ذلك على قدرتى على مغادرة البلاد فى ذلك اليوم وكانت هناك ثلاثة أسابيع لا تزال أمام الزيارة ، وحقت له الرسالة فترة سماح مدتها أسبوعين الا أن ذلك لم

يحقق شيئا ، فمزال بيجين غير قادر على مواجهة العالم وتمت صياغة عدد مختلف من الخطابات الدبلوماسية ، الا أن رئيس الوزراء قرر أن السبيل الوحيد هو الاتصال تليفونيا بالرئيس ريجان وي طرح أسبابه الشخصية للتأجيل ومما بعث الراحة في نفوس الاسرائيليين أن البيت الابيض أصدر اعلانا لبقا استخدم فيه تلك الكلمات لاسباب شخصية بدون أى تفسير أكثر من ذلك . وأمسك به مكتب رئيس الوزراء كما لو كان بيانا مشتركا متفقا عليه . وكانت الاسباب الشخصية مناسبة للقدس مثلها كانت مناسبة لواشنطن .

وفي اسرائيل لم يظهر بيجين على منصة الخطابة أو على شاشة التلفزيون ولم يعط أية احاديث وكان الاقتصاد في حالة فوضى وكان الوزراء يتجادلون بحدة حول اجراء خفض في الميزانية ، واصاب الخدمات الطبية شلل بطيء نتيجة لاضراب الاطباء الذى استمر ١١٧ يوما ولم يكن هناك من سبيل للخروج من لبنان وانزوى بيجين بعيدا معظم الوقت ومع ذلك لم يقول أحد سلطته . وتوفى (سيمحا ارليك) نائب رئيس الوزراء المسن فى شهر يوليو ، وبدا الرئيس بدون هدف أكثر من أى وقت مضى وتم ترك الامر الى (اهرن بوزان) الذى ينتمى الى حزب (تامى) الصفرى التأثير ليكسر مؤامرة الصمت . وقال (أوزان) وزير الدعاية الاجتماعية وهو فلاح من تونس أن (الحكومة تشبه سفينة بدون قائد) وعلى سبيل المثال فان مناقشة الميزانية قد جرت فى جو من الفوضى لا يمكن تصديقه .

(كانوا يقضون ثلاث ساعات من الساعات التسع يفكرون كيف يتخذون القرار بدلا من اتخاذ القرار وفى النهاية لا يعرفون ما تقرر وكان جميع الوزراء يصطفون فى سكرتيرية الحكومة للنظر فى المحاضر ليعرفوا ما تقرر) .

وبالتأمل فى الاحداث الماضية كانت هناك حتمية حول تقاعد بيجين ، وليس من الممكن اخفاء الحقيقة الى الابد ، وكان يزداد احساسا بعدم قدرته . وقد قال مرارا انه سيتقاعد فى السبعين من عمره ، ومع ذلك فان اعلانه فى نهاية اجتماع روتينى للوزارة يوم ٢٨ أغسطس عام ١٩٨٣ بأنه يعتزم الاستقالة قد أدهش الجميع ، اللهم الا حفنة من المقربين اليه . بل حتى هم لم يكونوا لديهم علم بخططه حتى قبل اجتماع الوزارة مباشرة .

وكما كان يحدث فى معظم الاحيان فى السر وفى الحكومة ، لم يشاور بيجين سوى نفسه واتخذ قراره الخاص وحينذاك أبلغ به ابنه بنيامين وسكرتيره السياسى (ييهيل كاديشائى) وسكرتير الحكومة (دان مريدور) ورفيقه القديم فى جماعة (ارجون) (يعقوب مريدور) وكان الاعلان عن هذا القرار أمام الحكومة تمهيدا دستوريا ضروريا قبل الذهاب الى الرئيس .

وقال بيجين لزملائه الذين جاءوا الى حجرته بعد ان انفض اجتماع الوزارة .. « اننى أشعر بأنه ليس بمقدورى تحمل مسؤولياتى تجاه الامور كما هى عليه ، وبالطريقة التى أودها والطريقة الواجبة » .

ومع ذلك ، وافق على الاستماع الى ممثلين من جميع احزاب الائتلاف الذين كانوا يخشون من النتائج الانتخابية ويأملون فى اقناعه باعادة النظر فى الموضوع وناشدوه لمدة يومين باسم الله وجابوتينسكى ، فى الوقت الذى اصطف فيه مئات من الناخبين فى كتلة ليكود خارج منزله ينشدون قائلين : « بيجين ، ملك اسرائيل » . لكن كان ذلك كله بدون جدوى .

ولم يكن ذلك هو بيجين عام ١٩٦٦ الذى كان يثير الفزع فى نفوس اتباعه — ويضطرهم الى الموقف فى صف واحد مهددا بالاستقالة . وأبلغ (ميريدور) بصورة قاطعة اسكتت المتضرعين اليه « لا أستطيع الاستمرار » .

وكخدمة أخيرة لحزبه ، وافق بيجين على الانتظار الى حين ان يتم اختيار خليفة له . وكان متأكدا من الفوز بالتأييد البرلمانى قبل أن يبلغ الرئيس هيرتزوج وكانت المناورة السياسية هى التى انتقصت من كرامة رحيله ، ولاسيما عندما بقي أكثر من اللازم ، الا أن تصرفه هذا يتسم بالولاء كان من الممكن أن يفهمه بن جوريون أو جولدا مائير . وكان المتوازن بين كتلة ليكود وحزب العمل دقيقا للغاية لدرجة أن أدنى خطأ فى التقدير قد يجلب المعارضة .

وتم اسدال الستارة النهائية فى دراما الحياة العامة لمناحيم بيجين على مسرح خاو . وانكمش رئيس الوزراء فى توقعته وبات لا يأكل الا قليلا ولم يعد يخلق ولا يزي سوى عائلته ومستشاريه المقربين .

وظل بعيدا عن اجتماعات الوزارة ولم يحضر صلوات العام اليهودى الجديد ولم تكن لديه رسالة وداع الى البلد ولم يلعب دورا فى اختيار اللجنة المركزية لحزب حىروت لاسحق شامير كزعيم جديد لها ولم يرسل أية تهانى . وفى ظهر يوم الخميس الموافق ١٥ سبتمبر ، أرسل بيجين (دان ميريدور) الى منزل الرئيس باستقالته الرسمية .

وقال متحدث انه لا يريد الظهور على الملأ لانه يعانى من طفق جلدى يمنعه من الحلاقة . وتم الاعتراف فيما بعد بأنه كان يستخدم مرهما لحلقه طيلة ٣٥ عاما ومرة أخرى لم يستطع بيجين ببساطة أن يواجه العالم وبعد ذلك بسبعة أسابيع اقيمت صلوات تذكارية فى مدفن جبل الزيتون فى الذكرى الاولى لوفاة (اليزا) ولم يحضرها بيجين ، الذى مازال يعيش كما لو كان يعتزل العالم فى مقر رئيس الوزراء .

الفصل الرابع والعشرون

البيت الذى تشييده مناحيم

لقد حكم مناحيم بيجين اسرائيل لمدة ست سنوات وثلاثة شهور ، مما جعله رئيس الوزراء الذى يحتل المرتبة الثانية طول مدة الخدمة فى ذلك المنصب بعد (ديفيد بن جوريون) الاب المؤسس للدولة . وقد كشف عن نفسه كرجل معقد ولكنه ليس غامضا . ورجل متناقض فى صفاته الظاهرية وان كان غير لغز . وهو ارهابى لم يسبق له مثيل فاز بجائزة نوبل للسلام ثم شن حربا اخرى .

وهو ديمقراطى ولكنه مستبد . كما أنه زعيم ليس للدهاء وسيد بولندى ويطل شرقى يحظى بالاعجاب . وهو رجل حسن السمعة يجد من الحكمة قراءة الحروف الصغيرة وهو متأمر يجد من المعسير الحفاظ على سر .

ووصفه الاسرائيليون بأنه أول رئيس وزراء له أيولوجية ومن المؤكد أنه أكثر الرجال عزما فى اسرائيل . وكانت الاولوية الكبيرة بالنسبة له هى ضمان الوطن القديم كله فى غرب الاردن للشعب اليهودى . وفى الوقت الذى تقاعد فيه اعترف حتى معارضوه أنفسهم بأن ذلك التقاعد سيأخذ معه زعيما ليس أقل تفانيا وليس أقل قوة لعودة خطوط التقسيم . وفى شهر مايو عام ١٩٧٧ ، عندما وعد بيجين « الكثيرين فى الون موريه » كانت هناك ٢٣ مستوطنة يهودية فى الضفة الغربية وواحدة فى قطاع غزة وفى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ كانت هناك ١١٢ مستوطنة فى الضفة الغربية وخمس مستوطنات فى غزة . كما ان عدد السكان اليهود الذين يعيشون خلف « الخط الاخضر » القديم قد زاد من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ نسمة (بما فى ذلك مدينتا « معاليه أوديم » و « أماتوبيل » الجديدين) .

وذلك علاوة على أن نمط الاستيطان قد تغير . وفى ظل حكومة حزب العمل كان التركيز ينصب على نهر الاردن وعلى استيطان الحدود الاستراتيجية . وتم عمدا الإبقاء على المستوطنات بعيدا عن منطقتى يهودا والسامرة الواقعتين على التلال حيث يتركز معظم السكان العرب . ويريد حزب العمل الإبقاء على خيار التسوية الاقليمية أما مناحيم بيجين فقد قلب الاتجاه الذى تسير فيه الامور وسحب الموارد بعيدا عن الهوامش الشرقية وجعل المستوطنات متناثرة بين المدن والقرى العربية .

وفى أول الامر لم يتطوع سوى الذين لديهم أيديولوجية للاقامة فى تلك المواقع المتقدمة ، لكن بالتدريج تجرعت العائلات العادية الطعم الذى نصبته لهم الحكومة

وانتقلت الى الضفة الغربية لان الاسكان هناك أكثر رخصا واصبحت المستوطنات على مقربة من القدس وتل أبيب لتكون بمثابة صوامع يمكن الانتقال منها بين المدينة والمضاحية .

وبعد سنوات من العداء المستمر اعترفت حتى الولايات المتحدة نفسها بأن المستوطنين يوجدون هناك ليبقوا . وفي اليوم الثاني من أغسطس عام ١٩٨٣ ، صرح (شارلز ليتشتنباين) نائب مندوب الولايات المتحدة في الامم المتحدة لمجلس الامن بما يلي :

« اننا لا نعتقد انه امر عملي أو حتى مناسب المطالبة بإزالة المستوطنات القائمة . ان مستقبل المستوطنات يعد من القضايا الرئيسية التي تحتاج الى معالجة في المفاوضات . وليس بوسعنا أن نقبل استمرار الدفع الذي يتساعل عما اذا كانت المستوطنات غير شرعية » وهو دفع سيطر — لسوء الحظ — على المناقشات التي جرت في الامم المتحدة حول هذه المسألة مما لم يكن في صالح القضية الأساسية ، الا وهي كيف يمكن تحقيق حل عادل وسلمي للنزاع القائم حول الاراضي المحتلة » .

وبكلمة أخرى ، تم خلق حقائق وكانت ادارة ريجان واقعية للغاية بحيث لا يمكنها أن ترغب في ازالتها . وفي الوقت نفسه فان الحكم الذاتي الفلسطيني كما هو متصور في كامب ديفيد كان بمثابة خطاب ميت . وبعد مرور خمسة أعوام على اتفاق بيجين — والسادات ، لم يكن هناك مجلس للحكم الذاتي فقط بل لم تكن هناك مفاوضات أيضا وبدأ الفلسطينيون الذين يرزحون تحت وطأة الاحتلال يفقدون حقوقهم بالتدريج كما أن وضع المستوطنين قد تدعم واكتسبت صفة الشرعية مع كل شهر يمر .

ومع ذلك لم تلغ مصر معاهدة السلام لقد كان سلاما فاترا على كلا الجانبين ، الا انه سمح لبيجين أن يشن حربا في لبنان بدون أن ينزعج بلا داع حول جناحه الجنوبي . وسمح له بالضي قدما في كسب معركته من أجل أرض إسرائيل .

وفي عيد الميلاد السبعين لرئيس الوزراء ، كتبت صحيفة « التايمز » الصادرة في لندن والتي لم تعتبر أبدا من بين معجبيه تقول ما يلي :

« على أية حال فان بيجين لديه الان وهو في السبعين من عمره مبرر للشعور بالارتياح أن السياسات التي انتهجتها تشكل ضغوطا على المجتمع الاسرائيلي وعلى اقتصاده .

الا انه يمسك الان في يده بزمام المبادرة الاستراتيجية ضد جيرانه ، وهم يعرفون ذلك . وذلك موقف غير عادي بالنسبة لاسرائيل ولا يحظى

بترحيب بالنسبة للعرب ، وهو أيضا موقف غير مريح بالنسبة لجميع الاطراف المتفرجة التي تريد اقحام نفسها في الامر » .

ويعترف العالم بأنه في ظل حكومة ليكود محت القوات المسلحة الاسرائيلية وصمة العار التي ترتبت على حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ وسواء كان ذلك امرا طيبا أم سيئا فان موقف اسرائيل قد تأثر كقوة اقليمية عظمى . وادى قصف المفاعل العراقي واخضاع منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت والسوريين في شرق لبنان الى استعادة الردع الاسرائيلي . ومع ذلك ، ففي غضون أيام من المقال الافتتاحي الذي أوردته صحيفة التايمز ، كان هناك تساؤل مرة أخرى حول مزاعم المصور بأن بيجين .. « قام بالقصاص وأكد من جديد ثقة الاسرائيليين في انفسهم واقتناعهم بأنهم يستطيعون ، جزئيا على الاقل تقرير الظروف التاريخية » . وكان تجدد الحرب الاهلية في لبنان بعد ان انسحبت القوات الاسرائيلية من جبال الشوف آخر مسمار في نعش المخطط الكبير الذي وضعه ارييل شارون . وانهار المحور الاسرائيلي الماروني وكانت سوريا لا تزال الشقيق الاكبر للبنان ، كما بدأ يتسلل رجال المقاومة الفلسطينية وكانت الدبلوماسية العربية هي أمل الرئيس امين الجميل الاخير . وفي الصيف الماضي ، طالبت الكتائب اسرائيل بالكثير ، وكانوا يتوقشون لذبح الفلسطينيين وليس لمحاربة منظمة التحرير الفلسطينية ومع ذلك ، كان هناك حد للتضحية التي يمكن أن تفكر اسرائيل في تقديمها لصالحهم والتضحية في الارواح وفي السمعة . ونتيجة لذلك لم يتم طرد السوريين والفلسطينيين من شرق وشمال لبنان ولم يكن أمين الجميل ، الذي حل محل (بشير) الذي قتل لديه نفس ميل شقيقه للرابطة الصهيونية . لقد عقد اتفاق يرقى الى معاهدة سلام بين القدس وبيروت في بداية عام ١٩٨٣ ، الا أن اللبنانيين لم يصدقوا عليه ابدا وسرعان ما زال . وكان هناك حفيف من النقمة في زيارة قام بها شارون الى حلفائه المسيحيين القدامى في شهر أغسطس وقد ذكر عند عودته الى تل أبيب ما يلي :

(لقد اجتمعت مع شخصيات رئيسية وقلت لهم عدة مرات أنه على الرغم من أن اسرائيل لم تخض حربا لتخلق موقفا جديدا في لبنان ، أو لتمكنهم من الحكم في لبنان فمزالتي لديهم فرصة أعتقد أنها لن تحين مرة أخرى لتكون لهم دولة مستقلة خاصة بهم وهذه الفرصة تختفى تدريجيا . وأعتقد أن أيامها معدودة . وقد فقدت لبنان بيديها فرصة في الوجود كدولة مستقلة) .

ولم يعد اللبنانيون يعطون أذانا صاغية ، وفي اسرائيل كان يقوم بصنع السياسة رجال آخرون أكثر مللا . وكان الاهتمام الاول لموشى أريئيل حليف شارون هو الحد من خسائر اسرائيل ، في الوقت الذي ينفذ فيها الاهداف الاصلية المتواضعة لعملية السلام من أجل الجليل . وعندما قدم

(بيجين) استقالته ، بدا كما لو كان السبيل الوحيد الذى تستطيع اسرائيل ان تضمن به عدم سقوط صواريخ كاتيوشا أخرى على كريات شمونة هو الإبقاء على حامية دائمة على طول نهر الاولى .

خلال الاعوام الستة التى قضاها مناحيم بيجين فى السلطة اعاد رسم خريطة فلسطين ، الا انه لم يحل مشكلة الفلسطينيين وكانت ارض اسرائيل التى ورثها لاسحق شامير هى دولة ثنائية القومية قيد الاعداد وارض تضم ثلاثة ملايين ونصف المليون يهودى ومليونين من العرب . وكان الفلسطينيون يوجدون فى الوطن الموسع ولكنهم ليسوا منه . ولم تكن الاطماع الصهيونية لاسرائيل هى اطماعهم . ولم تكن كذلك فى معظم الاحيان ، ديمقراطيتهم او جيش مواطنيهم او مؤسساتهم ، التى عرضتهم للخطر نتيجة لمعاداة الاحتلال . لقد خضع العرب للسور الحديدى الخاص بجابوتينسكى الا انهم لم يذعنوا للهيمنة الاسرائيلية . ان هناك اعداد كبيرة منهم للفاية - فى الاراضى المحتلة وفى اسرائيل الحقيقية للرجة لا يمكن ان يتم معها استيعابهم كاتلية سلالية كما أن معدل مواليدهم المرتفع جعل الجانب السكانى فى صالحهم . وكان مشروع بيجين للحكم الذاتى اعترافا ضميا بالمشكلة الا انه لم يبذل جهدا اكيدا لوضعه موضع التنفيذ ولم تنجح الحرب اللبنانية فى تدمير منظمة التحرير الفلسطينية كعامل سياسى فى المعادلة مثلما فشلت ايضا فى تغذية زعامة محلية مستقلة مستعدة لتحقيق سلام بشروط اسرائيل .

واصبحت الاراضى المحتلة ساحة للمواجهة بين نقضين : الارهاب العربى مقابل الارهاب اليهودى ، فى الوقت الذى تعتبر فيه الاحتمالات مشحونة بقوة ضد العرب . ان الرجال والنساء الذين تحسّدوا الحكومات المتعاقبة لحزب العمل وكتلة ليكود يجلسون الآن فى الوزارة وعلى مقاعد الائتلاف . واصبح الشاذ هو القاعدة وفرض أعضاء لجان الامن الاهلية المسلحون بأسلحة قوات الدفاع الاسرائيلى رؤيتهم الخاصة بالانتقام النعني بالعين . وعلى سبيل المثال ، عندما تم قتل أحد اليهود فى الخليل فاتهم خرجوا فى هياج واحرقوا السوق العربية وشكت قوات الامن من التدخل السياسى عندما حاولوا محاسبتهم . وكان قاطعو الطرق « صبية يهود طبيين » يقومون بالاعمال القذرة وكان يوجد على الدوام عضو برلمانى او حاخام ليزكر الشرطة . وفى ظل الجنرال (ايتان) أصبح الجيش فى الضفة الغربية أداة لحركة (جوش ايمونيم) وأصبح تماسكها فى خطر . وقدم الجيش للمستوطنين المزيد من المساعدة والمساندة .

وكتب (يورام بيرى) فى مقال بعنوان « بين الممارك والافتراع » دراسة للعسكرية فى السياسة . قال فيها :

لم يتم اعفاء المستوطنين الشرعيين من الدعاوى القضائية فقط ، بل كان يصل الامر فى بعض الحالات الى حشد ايوائهم فى معسكرات قوات الدفاع الاسرائيلى وتجاهل الجيش أعمال الاستفزاز والتخريب التى يقوم بها المستوطنون ضد السكان العرب فى هذه الأراضى . ومن ناحية أخرى ساعدت قوات الدفاع الاسرائيلى المستوطنين على انشاء وحداتهم الخاصة بالدفاع عن النفس وتم تزويدهم بالاسلحة والسماح لهم بضبط امنهم الخاص فى الأراضى .

ومنذ اللحظة التى انحاز فيها رئيس الأركان الى جانب واحد فى المناقشة العامة مورطا معه قوات الدفاع الاسرائيلى - فقد الجيش ميزة التقدير الكبيرة فى نظر المجتمع برمته . ولم يعد يعكس المجتمع كله ، بالرغم من انه أصبح يحظى باعجاب معسكر سياسى واحد ، نظر اليه الجانب الآخر على أنه خصم سياسى . وبذلك أصبحت المرحلة التالية حتمية - وهى المرحلة التى تبتعد فيها جماعات معينة تماما عن الجيش .

وعجل بالعملية « خيار الحرب » الذى انتهجه بيجين فى لبنان . فقد طالب قائد لواء أن يتم اعفاؤه من منصبه وفضلت قوات الاحتياط الذهاب الى السجن عن العمل شمال الحدود . وقام الآباء بمظاهرات ضد استغلال أبنائهم الجنود ، وأزدادت شدة الانقسام الثقافى وأدين المنشقون بأنهم متواطئون مع منظمة التحرير الفلسطينية وبذلك هياؤا الجو لعمليات العنف بل والقتل .

وكان بيجين مثله فى ذلك مثل جميع رؤساء وزراء اسرائيل السابقين مشغولا بالامن والشئون الخارجية . الا ان عهده عانى من اسلوبه المستبد فى الزعامة . وقد عهد (بن جوريون) بالشئون المالية والداخلية الى ليفى أشكول (أما جولدا مائير) فكان لديها بنحاس سابير وكتابه الاسود الصغير . ولم يعين (بيجين) أى سيد أعلى محلى . وكان يفوض المسئولية دون السلطة . وهو لا يستطيع أن يتسامح مع أى محور منافس للسلطة ومع ذلك لم يكن لديه الميل أو الوقت لتوجيه الجبهة الداخلية بنفسه .

وعلى سبيل المثال ، فان تجديد المشروعات ، وهو مشروع خيالى لاصلاح الاحياء الفقيرة ومدن التنمية من خلال مشاركة الشتات الاسرائيلى انما هو مشروع من بنات افكار رئيس الوزراء . الا انه بمجرد أن أطلق شرارته فى حمية النصر الانتخابى الخاص بعام ١٩٧٧ تركه لمستقبل غامض فى ايدي مرعوسيه . وفى كل مكان آخر فانه وقع رهينة للسياسات الاقتصادية المغامرة الخاطئة (ليورام أريدور) .

وفى الوقت الذى تقاعد فيه (بيجين) كان التضخم قد وصل الى حوالى ١٣٠٪ فى العام وكثفت قيمة الشيكل تنخفض بمعدل ١٪ كل يومين أملم الدولار الأمريكى وكان الركود يخيم على الانتاج الصناعى وكان

الفلاحون يواجهون الافلاس وزادت الواردات على الصادرات بدرجة مخيفة وانفجر فوران البورصة . وزاد الدين الخارجى الاسرائيلى ٥٠٠ مليون دولار حتى أصبح اجماله ٢١٥ بليون فى النصف الاول من عام ١٩٨٣ . وحذر المسئولون بالبنك المركزى الحكومة من نشوب ازمة اذا استمر ذلك الاتجاه . وعلى الرغم من تحدى (بيجين) لاثنيين من الرؤساء ، كانت اسرائيل مدينة بالفعل بصورة أكبر للولايات المتحدة وبالتالي أكثر عرضة للضغط من اى وقت مضى من جانب الولايات المتحدة التى تحسن اليها .

واسرائيل التى خلقها مناحيم بيجين فى تصوره أكثر يهودية على وجه التحديد وأكثر عداء وأكثر عزلة . وأصبحت التوترات الاجتماعية والدينية أكثر قربا من السطح ألا أنه كما أوضحت لجنة (كاهان) فان الحكومة كانت ولا تزال مسئولة امام الشعب وكانت الديمقراطية وحكم القانون لا يزالان سائدين ونشيطين . ولم تسكت الصحافة النداءات الى الوطنية . وفى خريف عام ١٩٨٣ ، أظهر التحرر من مشاكل لبنان أن الاسرائيليين يدركون حدودهم وجوانب قوتهم ولم يكن ذلك هو التراث الذى قصد رئيسى الوزراء السادس أن يتركه لشعبه ، الا أنه تراث يستحق الاعزاز .

To: www.al-mostafa.com